252
G416A

~~APR 28 '69~~

252
G41bA
C.1

بين المادة والروح

تأليف :

الاباتي باسيل غانم

رئيس الرهبانية البلدية العام سابقاً

الحامل وسام الاستحقاق اللبناني المذهب

١٩٤٨

مطبعة العمال اللبنانيين

بيروت * الحازمية

لا مانع من ان يطبع

الفاحص

+ مكان الختم الخوري فرنسيس نادر
رئيس كهنة مار الياس رأس بيروت

بيروت في ١٢ تموز سنة ١٩٤٨

يمكن طبعه

+ مكان الختم الاباتي يوحنا العنداري
اب عام لبناني

دير الناعمة في ٦ آب سنة ١٩٤٧

فليطبع

الحقير

بولس المعوشي
+ مكان الختم مطران صور
رئيس اللجنة الرسولية

مدرسة عين ورقة في ١٢ تموز سنة ١٩٤٨

هدية احترام وتقدير
لمكتبة الجامعة الاميركية
من المؤلف
[illegible]

بيروت - شارع عفرو رقم ١٤٤
٢ اول نيسان [illegible]

مقدمة الكتاب

كل صباح ، تطلع عليك ، ايها القارئ الكريم الصحف والمجلات والكتب ومحطات الاذاعة ودور السينما بألف قول ولون وصوت ؛ فهل لحظت في تهافتك عليها ، حرصاً منها على الحق ، او ثورة منها على الباطل ؟ لا شك في انك تشعر في اعماق نفسك بخيبة تدفعك الى الاسف على وقت ضاع ، والى الحسرة على صفاء ربما تكدر ، والى الالم من ظمأ الى الحق وددت ارواءه وما ارتوى . ذلك ان انتاج اليوم ، قلّما سيّرته الدوافع الاصيلة للانتاج . آلهة كذبة سيطرت على المؤلفين والناشرين والممثلين — على قصدٍ منهم او عن غير قصد — فسخروا القوى لغير الحق او قلّما ابهوا له . سنتهم ، اغلب الاحيان ، التجارة ، استغلوا في سبيلها الاهواء — من اي نوع كانت — وما احترموك عندما قدّروا ان تجارتهم عن هذا السبيل ستغدو رابحة .

واليك ، اليوم ، كتاب « بين المادة والروح » ان هو حرص على شيء فعلى ألاّ يكون من نوع الانتاج الذي خيب املك . وقد لا تجد فيه ما تجده في غيره من المغريات . وقد تتطلب منك قراءته جهداً . ولكن حبذا الجهد اذا أفاد . فنحن اليوم في عصر اعرض عن كل جهد الا في سبيل الضرر ، فلا تبخلن بجهد موقوف على الخير يتيح لك هذا الكتاب

بذل بعضه لخيرك .

نحن اليوم في عصر ، قضاياه كثيرة معقدة ، سواء في حياة الفرد او في حياة المجتمع ، ومخاطره شتى محيقة بكل منا . وقد تعصى على اولي الامر حل القضايا ، وتعذر عليهم دفع المخاطر . فما يكون السبب يا ترى ؟ نشهد اليوم رجعة من رجعات الوثنية الزخمة ، المستترة ، الهدامة . ولا عجب في ذلك ، فالوثنية قائمة ما قام الانسان ولكن العجب كل العجب في ان نحاول النجوة منها :ا توجيه هي من رأي ومسلك ! ونحن لو تصفحنا التاريخ لما فاتنا ان الوثنية لم يهزمها فيلسوف او فاتح ولا قضت عليها حكمة او قوة من قوى البشر ، وانها لم تهزم في النصوص والنفوس والعادات والاراء الا في وجه حكمة وقوة من نوع آخر ، يعدهما البشر جهالة وضعفاً ، هما حكمة الانجيل وقوته . وبقدر ما نعرض عن الاخذ بهاتين الحكمة والقوة تطغى علينا الوثنية .

وبعد انما يهدف هذا الكتاب الى عرض نواح من هذه الحكمة وبث بعض هذه القوة تجاه ما نتخبط فيه. ولا تتعجب ان هو عاد بك الى التاريخ ، فبسط امام عينيك ما آلت اليه آراء الناس وشرائعهم ومسالكهم ، قبل ان تستمد الهدى من الانجيل ، او بعد ظهوره عندما سارت على هديه او اكتفت ان تأخذ منه بمقدار ، ففي التاريخ عبر ، وفيه استحكمت اجيالاً هذه النزعة او تلك من نزعات الحاضر .

ولعلك بعد انجاز قراءته تقول في نفسك : ما كنت اعرف ان في ايماني وديني مثل هذا الغنى ، وان الحياة ، مهما تشعبت وتطورت ، لن تقلل من جدته وحيويته ، وان آراء الناس جميعاً بائخة امام تعاليمه . وفي اعترافك هذا تثني اجمل ثناء على المؤلف الذي لم يضيع عليك الوقت ولا ألهاك بلذة عابرة ، بل

هداك الى بعض ما فاتك من ايمـان سلمت به ولو استوحيته كل حين لما لقيت ما تلقى من قضايا مستعصية وخطر محيق .

ولن نتوجه الى المؤلف ، قدس الاباتي باسيل غانم ، بغير هذا الثناء . فهو عـلى سعة اطلاع العالم ، ولباقة المحدث ، واندفاع الخطيب ، لم يرم الا الى التبشير بالحق وتقريبه من الاذهان. وما يؤخذ على الكتاب ، تجاه هذا القصد ، ان هو الا هنات ، نتمنى عليه تلافيها في طبعة مقبلة ، من مراجع تذكر الى لغة تصقل فيغدو متعة للاديب ومورداً لطالب العـلم وغذاء لكل راغب في الحقيقة .

ولا نشك في ان الشبيبة المتعطشة الى الحق فضلًا عن الكهنة ستقبـل الى مطالعة هذه المجموعة اقبالًا يوازي ما اوحاها من سمو الغاية وما تحمله من غنى العلم وما تبشر بـه من نيّر التعليم . فيكون الزرع قد نبت ونمـا واتى بالثمار ، وفقاً لكلام المخلص ، ثلاثين وستين ومائة .

الخوري ميخائيل ضومط

مقدمة المؤلف

تسيطر على عصرنا مدنيتان : مدنية ترتكز على المبادئ الازلية المطلقة ، الشاملة وتحترم شخصية الانسان وحقوقه وحرياته وتغترف من القيم الروحية الخالدة قوتها ومبادءها ؛ ومدنية لا تعتمد إلا على القوى الارضية ولا تؤمن بحقائق غيرها : لا بوجود الله ولا بوجود النفس الروحية في الانسان ، بل تضع الانسان في منزلة الآلة فتتحكم بضميره وحرياته غير آبهة لحقوقه الشخصية ، جاعلة غايته في الارض ، موجهة نشاطه وحيوياته في سبيل تفوق الطبقة والسلالات العنصرية ونشر مبدأ القوميات .

فواجب انسان عصرنا ان يختار من هاتين المدنيتين المدنيةَ التي تتيح له ان يتسلط على المادة وتعينه على ان يُبقي لحياته وحياة العالم معناها البشري .

لقد جهز الانسان بثلاث قوى ليكيّف العالم : هي الضمير والحرية والحب . فبالضمير ، يجب عليه ان يعلو فوق المادة ويمد سلطانه على قواتها الحية ، العاملة ؛ وبالحرية ، ينبغي ان يختار العالم الذي يريد وان يكون فيه سيداً ، لا عبداً ؛ وعندئذٍ يسهل عليه ان يجعل نفسه كما يجب ان يكون ؛ وبالمحبة ، عليه ان يوحد القوى المعارضة للوحدة وينسقها . وفي هذا السبيل ، عليه ان يميت فيه وفي الاخرين الانانية الفاحشة .

وفي الواقع ، لا بد لكل خليقةٍ من ان تساهم الى حدٍ في هذا العمل الهام ، اي في خلق نفسها وخلق العالم . والتقاعد امام هذا الواجب المحتوم

والجبانة امام هذا العمل الخلاق يؤدي بالانسان الى الانحطاط والعقم والانتحار!

ومن ثم تتضح لنا عظمة هذا العراك التاريخي الفاجع، الناشب بين النور والظلمة وبين الروح والمادة في الانسان، المسؤول عن مصيره وعن تطور العالم. عراك لم يتورع ابن الله عن ان يخوض غماره ويستهدف في عراكه لضربات الشر القاسية، لكنه، في النهاية، سحق الموت وخلص البشرية من هلاك كان محتوماً. فوجب على الانسان، والحالة هذه، ان يحرر نفسه نهائياً ويحرر العالم، بدكه، تعاونه نعمة الفداء، قوى الشر الكامنة في عالم الطبيعة وفي عالم نفسه!

ففي عالم الطبيعة يتحتم عليه ان ينازل الشر الطبيعي المقيم في عتمة ماديته وثقلها الذي يخفي عنه الحقيقة ويحجب عنه النور الذي ينير كل انسان آتٍ الى هذا العالم، ولا بدع ان كلفه هذا العمل جهداً طويلاً ليكشح عن ذلك النور غيوم المادة المتلبدة كثيفة!

وفي عالم نفسه، ينبغي ان يناصب الشر الادبي، الشر الحقيقي الاوحد الذي يسيطر على عقله ويفسده. ان هذا الشر الادبي المتأصل في قلب البشر يعمل في الخفاء على محق القيم الروحية، في الانسان، وعلى ملاشاة كل ما هو انساني فيه اذ يسلط عليه حب الذات الاثيم فينكمش الانسان على ذاته ويتحجر قلبه وينصرف عن كل حب إلا عن حب ذاته! ومن نتائج هذا الانكماش انه يهدم احترام الشخص البشري اذ يجعله عبداً لاهوائه وخادماً لكبريائه ويهدم ركن البشرية اذ يثير كوامن القلوب بعضها على بعض وينمي عواطف الحقد والتباغض بين البشر ويفكك اوصال التعاون الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بين الناس.

ودليلنا ما نشهد اليوم! فالبشرية تعد وتسجل انتصارات فنية، انتصارات على عناصر الطبيعة والمادة، خلابة، رائعة، اما من حيث النظام الادبي فاننا نعيش في عصر نرى البشرية تسير مسرعة الى الخراب فالتلاشي على طريق الغباوة

والبلاهة !

لما رأى الانسان نفسه سيد الطبيعة يسخرهـا لخدمته فتطيعه صاغرة ، تجبر – وهنا المأساة البشرية – ونسي انه اذا كان ابن الله قد تجسد ، انما تجسد ليساهم معه في انهاض البشرية ورقيهـا ، تجسد لا ليمثل مهزلة على الارض ؛ بل لان الانسان كان بحاجة ملحاحة الى تأنسه وامثلته وحياته وتضحيته ليتمكن من ان يبقى اميناً لدعوته ويقوم بواجبه فيظل انساناً !

ومهما يكن من امر فاننا نرى ان الضربات القاسية والاهوال الفاجعة تحل بالبشرية كلما طغى التقدم المادي على القيم الروحية وكلما شط المزار بين التقدم المادي والتقدم الروحي ؛ وكلما بعدت المسافة بين رجل العلم ورجل الايمان كلما رأينا البشرية تسرع الى الخصام والتفرقة والحرب؛ والانسانَ يعدو الى ان يصير عدو نفسه وجلاداً قاسياً لاخيه الانسان .

وامام هذه الازمة الانسانية الخانقة نرى البشرية تقف جريحة ، ذليلة ، تتساءل حيرى ، يكويها الالم ، من ان يأتيها الخلاص وممن تطلب السلام .

ويقيننا ان الدواء الشافي الوحيد هو يقظة الضمير البشري ، فعلى الانسان، لكي يحقق غايته ان يساهم في خلق العالم وفي صوغ شخصيته . وفي سبيل هذه الغاية ينبغي ان يكتنه واجبه الاولي فيتسلط على اهوائه ويملك زمام نفسه ويوقن من ان احترامه لنفسه لا يتطلب منه التسامح بما يحق للغير فحسب ؛ بل ان تسيطر على علاقاته مع سائر الناس محبة ، سامية ، مجردة .

بقي ان نعرف من ذا الذي يستأصل من قلب الانسان محبة الذات ؟ هل الخرافة ؟ هل المساواة الاجتماعية ؟ هل التقدم اللامحدود ؟ هل روح السيادة المطلقة الشاملة ؟ هل المادة؟ كلا! ان هي الا حقائق جزئية ، ولن تتخذ حقائق مطلقة الا لتزيد الشر شراً .

ففي العراك الفاجع ، المستميت ، القائم ، اليوم ، لا بد للانسان من ان يغرف قوته من ينبوع وجوده ، من الله ؛ وان يقتفي اثار ابن الله المتأنس

ليتم له الفوز النهائي . ويقيننا ان الله لم يتخذ جسداً مثلنا الا ليرينا كيف يجب ان نعيش لنكون بشراً . فلكي نحطم سلاسل المادة ونوقظ الضمير البشري ونسير على هدى الروح معترفين باولويته فلا مندوحة لنا من ان نتمثل بحياة ابن الله المتأنس ونسترشد بتعاليمه النيرة .

وهذا ما حدا بنا الى ان نعالج هـذه المواضيع من محطة الاذاعة اللبنانية والى ان ننشرها ، مجموعة في كتاب ، نزولاً على رغبة الكثيرين من مستمعيها وفي مقدمتهم امير الكنيسة ، صاحب النيافة والغبطة الكردينال جبرايل اغناطيوس تبوني الكلي الطوبى ، ولنا ملء الامل ان يلاقي كتابنا ، عند ابناء البلاد ، قبولاً فيقبلون على ابتياعه وقراءته لنتمكن من ان نتبعه بمؤلف آخر يقع في اربع مجلدات عالجنا فيها المبادىء الاجتماعية العصرية على ضوء الانجيل وغايتنا من وراء نشرها ان نزيد بالمسيح معرفة لنزيد له محبة .

واليكم صورة الرقيم السامي الذي تعطف نيافة الكردينال فوجهه الي :

المؤلف

PATRIARCAT SYRIEN CATHOLIQUE
D'ANTIOCHE
BEYROUTH - LIBAN

رقم م – ١٠٤٣
عن بيروت الى الدامور (دير الناعمة)
في ١٧ ايار سنة ١٩٤٨

حضرة المفضال الهمام الاب باسيل غانم، الاباتي العام
للرهبانية المارونية البلدية سابقاً الجزيل الاحترام

اما بعد اهداء البركة مقرونة بالسلام والمحبة بالرب فنقول.

لا ريب في ان الخطب الدينية التي تتوالون القاءها من محطة الاذاعة اللبنانية يوم الاحد تجد لدى السامعين عامة وارباب الاكليروس والمسيحيين خاصة اذناً صاغية وقبولاً متزايداً على الاهتمام الجدي بالقضايا التي تعالجون درسها وشرحها بلغة عربية فصيحة على نور الكتاب الالهي والمنطق فضلاً عن الشواهد النقلية والبينات التاريخية. فيما يتعلق بنا وبالكهنة القاطنين دار بطريركيتنا فاننا ما برحنا نصغي الى احاديثكم الدينية بانتباه واحترام ونستسيغ دروسكم القيمة الجامعة بين الايمان والعلم بصورة جلية تفند اعتراض المتقدمين.

واذ اننا نعلم يقيناً ان الغاية التي تنشدونها من هذه الخطب هي تنوير عقول الجمهور وانكم تودون ان تستمر فائدتها مدى السنين ، جئنا نعرب عن امنية تجول في خاطرنا ، وربما في خاطر فريق آخر ايضاً ان تتخذوا العدة لطبع هذه الخطب ونشرها بين الخاص والعام لا لتكسبوا شهرة وسمعة وانتم في غنى عن المديح والتقريظ بل لكي تثبتوا للجميع ان الحق واحد وان الكنيسة المقدسة أمنا لم تعدم بين افراد اكليروسها رجالاً يرفعون عالياً راية الدفاع عنها بقلم ماضٍ وعلم غزير .

فنحن نمحضكم الحب الرباني ، التابع للنجاح الذي تلقاه خطبكم الدينية ونتمنى لكم دوام التوفيق والفلاح نكرر ما سبق من اهداء البركة والحب والسلام واطال المولى بقاءكم .

الكردينال اغناطيوس جبرائيل تبوني

بطريرك السريان الانطاكي

اهداء الكتاب

اليك يا رجل الروح ، الساخر بالمادة

اليك يا رفيق الجهاد بالامس ورئيسي اليوم .

اليك يا من وجدت فيه صديقاً صدوقاً وأخاً محباً متفانياً في الملمَّات

اليك يا عزيزي ، الاب اغناطيوس ابي سليمان ، اهدي كتابي هدية شكر، وولاء واحترام !

ومن أولى به منك ، ايها الاخ الأحب ، اهديه اليه ؟ ألم ترافقه عنايتك من يوم تجسَّد في فكرة الى يوم سخَّرت الاثير يحمل كلماته الى اصقاع الارض ، الى يوم درج الى المطابع ؟ حقاً انه لولاك لظلَّ نائماً في ادراجه الى ما شاء ربك !

انا متيقن من اني تجرأت على تواضعك وزهدك وترفعك ومن انك ستلومني لاني لم اراع رقة شعورك ؛ ولكنها فرصة ترقبها قلبي فاغتنمها وأبى عليَّ الا ان اعرب عن شكره لك وثنائه على فضائلك وافضالك واقر امام الملا بعرفانه لجميلك واحسانك ، فأطعت .

فتفضل واقبل عاطفة رئيسك بالامس ومرؤوسك اليوم مكافأة لبعض ما لك قبَلَه من خدمات يعجز عن تعدادها وشكراً لك على اخلاصك وتزاهتك وتفانيك في حبه .

اخوك

الابائي باسيل غانم

اللبناني

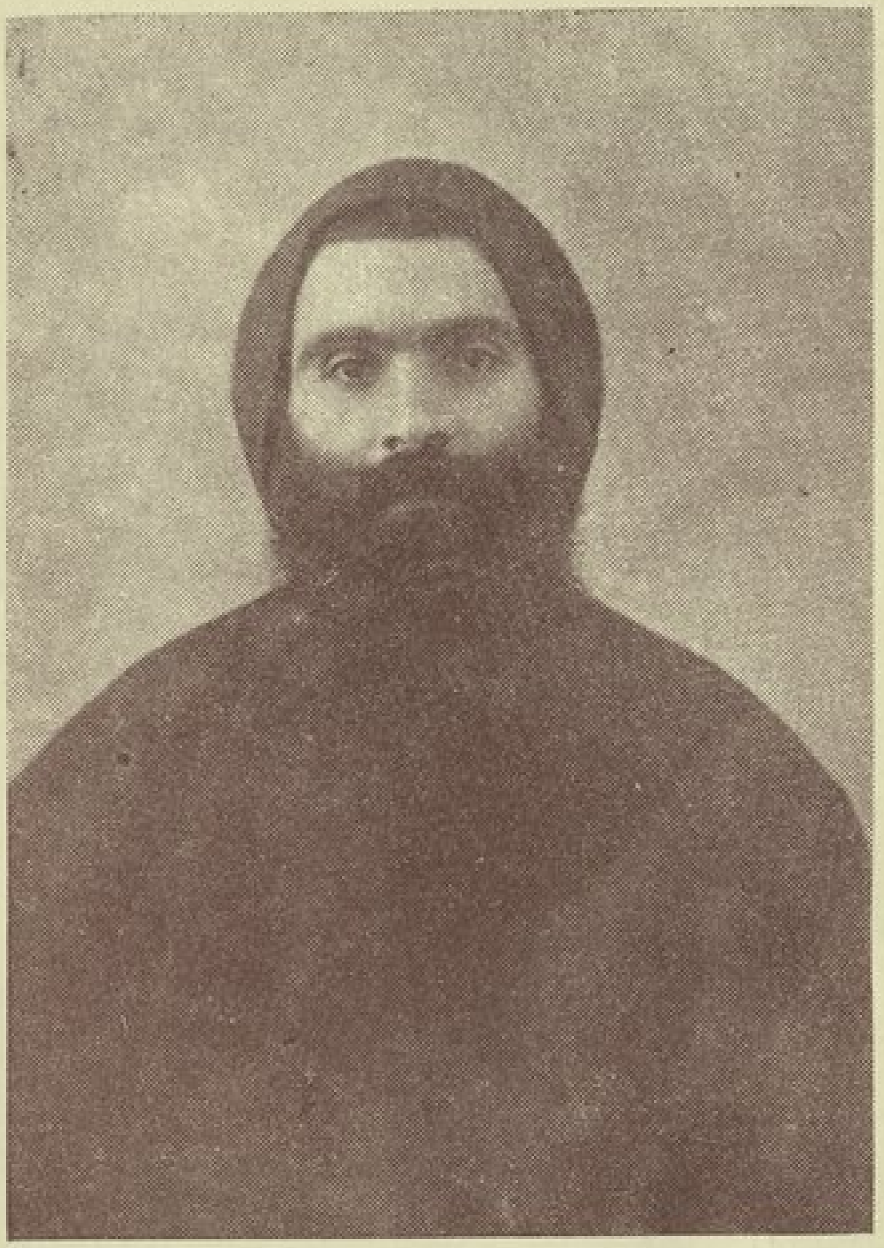

حضرة الاب الجليل المفضال اغناطيوس ابي سليمان

المدبر اللبناني العام سابقاً ورئيس دير الناعمة حالياً

الوافر احترامه

السلسلة الاولى

بين المادة والروح

الالهة الكاذبة

الالهة الكذبة

«انا هو الرب الهك لا يكن لك اله سواي!»

ايها الاخوة الاعزاء،

سلام الله عليكم في مطلع هذا العام الجديد. ورجائي اليه تعالى، وهو رب السنين والدهور، ان يكون هذا العام عام يمن وطمأنينة وسلام. تلك اماني اطرحها امام الطفل الاله، أسأله النور لعقلنا، والقوة لارادتنا، لنرى الحقيقة الراهنة والخير الصادق على ضوء الايمان وهدي ارادة الله المعلنة في الوصايا العشر، فيكون لنا السلام الداخلي في الدنيا والسعادة في الابدية.

انا هو الرب الهك لا يكن لك اله سواي!

تلك هي اولى وصايا الله، موضوع حديثي معكم في هذا الخطاب وفي الخطب الاتية. ووصايا الله، على ما تعلمون، دستور قصير الكلمات، كثير المعاني، تقادمت عليه الايام وظل جديداً.

نقشت هذه الوصايا، على حجر، منذ اربعة آلاف جيل؛ غير انها، منذ آلاف السنين طبعت على قلب الانسان طبعاً، فكانت وما زالت الطريق المثلى لتنظيم

حياة الفرد والعيلة والجماعة . فاذا ما تقيد الانسان بحفظها جعل له من الارض ، وادي الدموع ، ومنبت الشقاء ، موطن لذة وراحة وسلام !

وضعت هذه الوصايا ، ليس لليهود ولا للاجيال الخوالي فحسب ، بل فرضها الله على الانسان ما دام في الارض انسان . فالشريعة في الامس واليوم وغداً تحرم على رجل العصر ما ردعت عنه ابن الاجيال الماضية ! فلا يحق له ان يسلب مال غيره او يعتدي على عرضه او يصنع بصاحبه شراً او يغتابه بلسانه او يلقي على قريبه عاراً .

ففي احترام الوصايا والعمل بها سعادة الانسان . وبنبذها وانتهاك حرمتها حيد عن الطمأنينة والحياة الهادئة !

لقد تكبر انسان عصرنا وتجبر وحطم بيديه لوحي الوصايا وقال : لست بحاجة الى شريعة تقادم عهدها وفرضها علي كائن لست اراه ! ولكن ماذا حل بالانسان بعد هذا ؟ !

ان كسر لوحي الوصايا أدمت يديه . وعبثه بهذين اللوحين المقدسين حطه من أوج الرقي الى دركات الهمجية . وثورته على الله خالقه زعزعت اسس العالم الادبي وكادت تدك اركان الهيئة الاجتماعية دكاً !!

والشاهد ما نراه اليوم ونسمع به . فالتمادي بالبعد عن الله وتناسينا وصايا فرضها علينا لينظم حياتنا الفردية والاجتماعية يزيد في شعورنا بالحاجة الماسة الى شرائع نحمي بها هذه الحياة من كل نواحيها !

بحثت مجلة اميركية بحثاً دقيقاً عما سنته حكومات الولايات المتحدة من الشرائع ، منذ نشأتها ، فوجدت انها تجاوزت العشرة ملايين شريعة عداً !!

انه لعدد ضخم تنصرم دون قراءة عناوينه حياة الانسان . ومع ذلك الرقم الضخم من الشرائع نرى تلك البلاد اكثر ارض الله تمادياً في ارتكاب المحارم . فمتوسط حوادث الاغتيال السنوية فقط تنوف عن الخمس عشرة الف حادثة !

ان ذلك لامر يستدعي الروية والانتباه ! عشرة ملايين شريعة وضعتها حكمة البشر فعجزت عن ترويض الانسان ، وضبط اهوائه الطموحة الى الاجرام ، ففشي

من المحرمات اشكالا والوانا وارتكب من الفواحش ما عن له وطاب. وعشر وصايا فقط، قليلة الكلمات هي كفيلة بان تحفظ للانسان حقوقه في الحياة وتعلمه واجباته نحو ربه ونحو عيلته ونحو قريبه ونحو نفسه وتضمن له السعادة على الارض وبعد القبر.

اجل ان حفظ وصايا الله ليس بالامر السهل الهين، ففي الانسان نزوات واميال، وامامه عوائق وصعوبات؛ ومن حوله تجارب ومغريات تلوي به عن حفظ تلك الوصايا، على ان الانسان مخير في هذا الالتواء. فهو حر ان يسير في جادة الحياة الادبية فيسعد او يحيد عنها وفي ذلك شقاؤه في الزمان والابدية. وليس من يجهل ان لكل عمل صعوباته وما من حالة الا وتتطلب التضحيات.

وقفة امام البشرية بعد ان ابعدت الله عنها! فما هي اهداف السياسة فيها؟ وما هي حالة الزواج؟ وما قيمة الاداب والاخلاق؟ ما الشرف؟ ما الولد؟ ما الشبيبة؟ ما المرأة؟ ما العيلة؟ ما هي المدرسة؟ ما شأن هذا كله من دون الله؟ وما شأنه مع المحافظة على وصايا الله؟

سكت المدفع عام ١٩١٨ وعقدت المؤتمرات وتألفت جمعية الامم وتشاور اقطاب السياسة في العالم وتبادلوا الاراء، فقرروا الصلح وعقدوه، وحدهم، منفردين عن الله. ولكن اين السلام الذي نشدوه؟ أين السلام الذي من اجله قامت اللجن وعقدت المؤتمرات؟ أفي الجو سلام؟ أفي الارض طمأنينة؟ أفي البحر هدوء وسكون؟ أفي داخل الانسان راحة وامان. ألا احكموا، يا سامعي الكرام!

تقوضت الحواجز، نعم؛ وتدانت المسافات، سبحت الطائرات في الفضاء، ونهبت السيارات الارض نهبا ومخرت السفن عباب البحار وسخر الانسان تموجات الاثير فسرت امينة تنقل الاصوات والحوادث الى اطراف العالم! ولكن اين تقارب القلوب؟ واين تآخي الافراد والشعوب؟!

العالم، يا اخوتي، كتاب. وكل خليقة فيه سطر. والله وحده واضع هذا الكتاب! ونحن نأبى تجبرا ان نقر له بسلطان علينا ونقول في اعماق قلبنا مع الجاهل: «ليس اله» ونردد مع رئيس الملائكة العصاة: «اكسر نيري ولا اعبد».

على اننا سنعرف، يوماً، ان ذلك الاله هو الالف والياء، انه البداية والنهاية، انه الغاية والمحور في حياتنا افراداً كنا او جماعات شعوباً او حكومات! سنعرف يوماً ان شرائع الله اركان تقيم عليها الامم صروح مجدها وعزها، وان ارادته القدوسة هي حجر الزاوية في بناء سياستها!

فالالة والعلم والمال وماالبها لا تصلح اسساً لصروح المجد والسؤدد، ولا اعمدة وطيدة للسعادة والسلام.

تقدم البشر في العلم والاكتشافات، لكنهم تقهقروا في معرفة نفسية الانسان. افتح جريدتك واقرأ حوادث الجرائم والغدر، حوادث الخيانات في الاخذ والعطاء، حوادث الحروب وما اليها من مظالم واهتف: أف للبربرية والجور!

لسنا ننكر ان السينما الناطقة والتلغراف اللاسلكي والراديو وما في العالم من اختراعات واكتشافات هي من دواعي فخر مدنيتنا العصرية!

ولكن ما المدنية، يا ترى؟ وما قوامها؟ أقوامها الصناعات والبنايات وعيشة الراحة والرفاهية؟ فان كانت تلك، كان التمدين الكامل أولى بالاقدمين من الاشوريين والمصريين واليونان والرومان. فانهم مع تاريخهم الدموي، واخلاقهم البربرية قد شادوا ما شادوا من قلاع جبارة وجسور متينة وبنايات فخمة لا تزال شاهدة على ما كانوا عليه من الفن والقوة والغنى. ان المدنية الحقة هي غير هذا. فهي، على ما نرى، اعتبار الشخص البشري لا اعتبار اشيائه. هي احترام الانسان بكامله: النفس منه والجسد معاً.

فأنى لمبادئ المدنية العصرية من دون الله ومن دون الانصياع لاوامره ونواهيه ان تصل بنا الى هذا الاعتبار وتحملنا على هذا الاحترام وهي التي تعرفنا الى الانسان جسماً يرى وتتجاهل وجود نفسه الروحية الخالدة التي لا ترى! نعم لقد نست مدنيتنا او تناست ان الانسان نفساً هيهات ان تشبعها المادة! وتكفيها الارض وما فيها وعليها من خيرات واختراعات! وقد فاتها قول اغسطينوس: اللهم! لقد خلقتنا لاجلك ولا يزال قلبنا قلقاً حتى يرتاح بك انت خالقه!

اعتقد جدودنا ان الارض محور العالم ومع ذلك عرفوا ان ينظروا الى السماء مفكرين فيها ونحن العارفين ان الارض نقطة من الكون ومع هذا فقد لا تمعنا

معرفتنا عن ان نجعلها هدف الامال منا ومحط الرغبات!

اعتقد جدودنا ان الكون يدور حول الارض؛ وعاشوا مع ذلك عيشة ادبية روحية جعلت الارض باعتبارهم زائلة. ونحن، اليوم، نعرف معرفة واضحة ان الارض ليست نقطة الدائرة في العالم ومع هذه المعرفة نعيش كأن الارض غايتنا من الوجود!

ايها الاخوة

ان الانسان حيوان عاقل، ديني. لا بد له من آلهة. فاذا نقصه الاله الحقيقي، الاله الروح، استعاض منه بالصنم. فان خجل ان ينحته ويعبده حجراً او خشباً او معدناً على صورته وقامته وطبقاً لاهوائه ونزوات قلبه، وهو في عصر النور، فانه يعدل عن نحته في الحجر او الخشب وعن صبه في البوتقة ليخرج ذهباً او فضة او معدناً آخر، ليخلقه في دماغه او في قلبه، فيقيم له آلهة من افكاره القلقة، المائعة، ورغباته الزائفة، ومبادئه الملتوية، وعنصريته الفاسدة كما نراه يعمل اليوم. فلقد أله المادة في الحياة الاجتماعية، والشهوة في العيلة، والانانية في الفرد، والسلطة والدم في الدولة.

لذلك نرى ان الواجب يدعونا الى ان ننادي بمبادئ تكفل الحياة للنفس والجسد. بمبادئ تصلح للهيئة الاجتماعية اساً؛ ان ننادي بوصايا الله.

فوصايا الله تنفخ في العالم نسمة حياة وتقي النفس والاخلاق من الموت المريع؛ وصايا الله ترجع الى العيلة مقاماً اعده الله لها عالياً، وتعيد الى الفرد راحة القلب والضمير.

ان حفظ وصايا الله يجلب للعالم السلام المفقود والبركات المنشودة ويحدث على رؤوس الأشهاد ان الرب هو الاله الخالق وانه نقطة الدائرة في حياتنا. فالعبادة واجبة له اذن من دون سواه. «لان كلا به كون وبغيره لم يكن شيء مما كون». لذلك حق له ان يأمر:

انا الرب الهك لا يكن لك اله سواي!

العظة الثانية

تأليه المادة في الحياة الاجتماعية

ايها الاخوة الاعزاء.

تقدمنا فقلنا ان الانسان يفتقر الى اله يعبده فاذا ما ضل عن الاله الحقيقي، عن الاله الروح، استعاض منـه بالصنم ؛ وان خجل ، في عصر النور ، وأبى ان يعبده حجراً او خشباً او معدناً، فانه ينحت له من اهوائه ومصالحه اصناماً وتماثيل ينصبها في رأسه وفي قلبه وفقاً للهوى .

ولنا من التاريخ وما تقدمه من عصور ، شاهد على ان البشرية كانت وما زالت متدينة ، عابدة . لقد بدلت طرق عباداتها وتعرفت الى كثير من الآلهة وسجدت لها ؛ على ان ما طبعت عليه من شواعر العبادة والتدين لم يتغـير . فالجواهر ازلية باقية. والبشرية على تقادم عهدها لاتزال ظمآى ابـداً الى اله ترد ينبوعه ، صفا ذلك الينبوع او عكر .

ومهما قيل ، فان المشكلة الدينية لا يمكن التغاضي عنها باشارة ازدراء. ولا تحل بالقول عنها : انهـا شيء قديم ، خليق بالبسطاء ، او جدير بان يرسل الى متحف العاديات ! ! .

اجل انها لمشكلة ازلية : قديمة وعصرية ايضاً بلا جدال : ذلك لانهـا مشكلة بشرية !

اذا سبرنا غور النفس والقلب والغريزة من الانسان القلق على مصيره، الظامئ الى معرفة الكائن المطلق الذي يشبع رغباته ويكفيه ، نراه يرفع الخليقة التي تخدع مطامعه ، وينصبها على قاعدة ، ويمنحها الامجاد المختصة بالخـير الاعظم ويعبدها مكانه !

يا للضعف البشري! ويا لسخافة العقل! تثور الشهوات والاميـال، فنضل بالتصورات ونخطىء في الاحكام وندمج نظرية العقل بالخير المطموع فيه، فنرى الجميل حقيقة نختارها وتزينها لنا الرغبات والحاجات الداخلية فنصرخ: هذا إلهنا. غير انه اله ابدعته اميالنا الطبيعية فجاء الهاً كاذباً!

بلغ عدد الالهة عـدد الخيور والخلائق التي غشت عقلنا وافسدت قلبنا. وقد ضل من قال: «اننا نعيش في زمن تحتضر فيه الآلهة». فالالهة تكثر وتنشو ما تحولنا عن عبادة الله الحق! فالهيئة الاجتماعية، اليوم، اصنامها؛ وللعيال والافراد، اصنامهم.

جرت البشرية، بنسيانها الله، الى الظن بان غايتها تنحصر كلها في الحياة الحاضرة، فكان اكتفاؤها بالعالم الحسي حكماً عليها وكان تماديها في جهل غايتها الحقيقية، مبدأ ألمها وعذابهـا.

تناسى البشر كرامتهم الروحية فطرحوا ظهرياً الاهتمام بنظام ادبي، اساسه وصايا الهية تردعهم عن مطامعهم الدنيئة. لذلك تراهم يتهربون من واجباتهم المتبادلة ويسيرون وراء انانيتهم، جاعلين من الملاذ هدفهم الاوحـد؛ ومن القوة وسيلة شرعية توصلهم الى تلك المـلاذ. فقويت فيهم سيطرة الحيوانيـة وضعفت في نفوسهم شواعر الاحترام والتفاني والاخلاص. شواعر كان من شأنها ان تجعل منهم اخوة في عيلة واحدة فصير ضعفها الارض مذوداً، فيه ما تيسر من العلف؛ ومفرشاً معداً للانهماك بالمآكل والمشارب والناس عليها كقطيع مسكين، يائس من الرجاء الابدي. فافراح هـذا الاسطبل نفسها — وهي موضوع للتنازع الدائم بينهم — جعلت حياتهم قلقة لانهم اتخذوا لهم شعاراً: اغتن كي تزداد تنعماً ولكي تزداد ثروة نادِ بقوة، اضرب بقوة، كن قوياً بل كن القوي!!

ان هذا المنهاج المادي لعاجز عن القيام بتحقيق مواعيده المخجلة. فمطامعنـا باسرها تندلع كالنار، ساعة تشعر بان كل شيء في الحياة مباح لها. فاذا ما تُرك لها العنان الادبي شطت بعيداً ولم تعد تعتبر شيئاً يعلو عليها! وبنكراننا العقاب والثواب، بعد الحياة، ومن خوفنـا ان نحرم الملاذ الدنوية نجد وراء المغريات

لنحصل عليها بكل وسيلة وننعم بها . فما نصل الى رغبة حتى يزيدنا الوصال شوقاً الى سواها ولا نقف عند حد معقول ولن نرتاح الى شيء ونقول : كفى؛ لان الانسان ميال الى اللامتناهي فهو مع فوزه باكثر ما يصبو اليه لا ينعم بالسعادة ، ضالته المنشودة . فالسعادة لا يكونها ما ملكت وما صنعت يداه ولا تقوم بما يضمه الانسان الى ممتلكاته . فاذا اغفلنا تعاليم أنفسنا التورع عن الرغبات الارضية نجر الى عذاب منغص منشأه عجزنا عن البلوغ اليها .

كل يطالب بحقه او بما يظنه حقاً له ويسخر بحقوق اخيه وجاره ، ويهدف الى إرضاء الانانية راغباً في نوال ما استطاع ؛ وهذا السباق الى جمع الثروات أدى ويؤدي الى فقر عام ، شامل؛ وتلك الاطماع الشاذة التي تشل حركة الآلة المنتجة هي تحرك الآلة الهدامة المرعبة التي تفتك اليوم بالشعوب . فكل تمدن لا تخط رسومه اصبع الله، صائر، يوماً، الى تمدن عار من الانسانية؛ وعلى قدر علوق الانسان بالمادة يحرم، عادة، اللذة بخيرات الارض التي جعلها غاية مطامعه الوحيدة ، فيعيش معذباً ويموت حزيناً تتأكله الحسرة لانه لم يشبع . وفي جوعه المذيب لم يهتد الى الدواء الناجع الشافي ؛ وما كان الدواء للقلب الطموح إلا مزج الخيور الارضية بترياق الخيور السماوية !

فخسوف الفكرة الدينية حمل الانسان على ان يستخف بالروح ولا يؤمن إلا بالمادة فأمست خيور الارض آلهة الشعوب . فمن امتلكها وحصر فيها غايته توالت عليه محبة الذات ، ومحبة الذات تقسي القلوب وتخنق صوت الضمير ؛ ومن حرم من تلك الخيور تأكل الحسد قلبه وتلهبت بين جوانحه نيران البغضاء وجره الطموح الى ركوب الدنايا و . . . المنايا بلوغاً اليها وتعفيراً لجبينه على قدميها ؛ واهماً ان خيور الارض علة الوجود ومنتهى الاماني وموضوع السعادة !

ولا غرو ، فالانسان طموح الى ما يستحق : فلما تعشق البشر المادة وألهوا كل شيء في حياتهم إلا الله « لذلك أسلمهم الله ، يقول بولس الرسول ، الى رأي مرذول حتى يعملوا ما لا يليق . فانهم لما عرفوا الله لم يمجدوه ولم يشكروه كاله ؛ بل سفهوا في افكارهم واظلمت قلوبهم الغبية وقد زعموا انهم

حكما، فصاروا حمقى، واستبدلوا مجدَ الله بالباطل واتقوا المخلوق وعبدوه دون الخالق!»

كتب بول بورجه يقول: «العالم يموت لانه لا يؤمن بالله ولا يراه في خلائقه.» أجلس العلم على منصة الاله فتسابق البشر الى عبادته والتعبد له. فلم يسعدوا بل وجدوا العلمَ قاصراً عن ان ينيلهم بشرية منظمة حلموا بها!

انحن بحاجة الى برهان؟ أي عصر كان فيه من المدارس ما في عصرنا؟ وأنى للمدن والقرى والبيوت، في ما مضى، من الكتب والمكاتب ما فيها اليوم؟ فهل سبق ان توفرت للانسان وسائل التمدين على ما هي متوفرة في عصرنا؟ كلا، وأيم الحق، كلا! قالوا: «افتح مدرسة فتغلق سجنا!» ففتحوها عديدة، فهل تحقق زعمهم؟ حقًا ان البشرية، ما بليت، في زمان، بكثرة من الجرائم والمجرمين، بليتها بها وبهم اليوم!

لقد تفننوا باختراع الآلات، واتقنوها حتى بلغت حد الكمال، فكثر الانتاج لكن البشرية قد قطفت منه، بدل العنب، حصرما بريًا: ثلاثون مليونا من العاطلين عن العمل، كانوا في اوربا، وحدها، قبل الحرب، يجرون انفسهم الى الموت جوعا. فحكمت عليهم الآلة ليس بالراحة، يوم الاحد، بل بالبطالة الهدامة الدائمة!

لقد أحللنا مكان الله السياسة وجعلنا منها ديانات ذات مبادئ آمرة. فهبت الزوابع المفاجئة في زوايا المعمور تملأ الفضاء بدخانها وتغطي الارض بغبارها فحجبت انوار ابي الانوار عن البشرية التاعسة، فضلت سواء السبيل الى سعادتها.

لقد بدلنا الدين من فلسفات وشرائع ادبية مختلفة، متباينة، فكانت النتيجة عصراً وثنياً، عصراً ماديًا، عصر فراغ روحي، واسع الارجاء، حتى صار عالمنا، اليوم، عالما، كما قالوا، بدون ما روح!

وبرهاني: شغلنا الشاغل وتفكيرنا اليومي. فهل نفرق كثيراً عن الوثنيين الاقدمين؟

أليست مواضيع اهتمامنا في الحياة: ماذا نأكل؟ وماذا نشرب؟ وماذا

نلبس؟ ما سبل الربح؟ واي طرق اقرب الى التراحم؟ وكيف نُروي الغليل بالانتقام؟

أيتخطى حديثنا في البيوت والمنتديات سباقَ الخيل ومدنَ الاصطياف والعطلة القضائية والازياء والرقص والسياسة والزراعة وسعر الليرة والاعاشة والحلويات والمساحيق والوانها والسهرات وما يجري فيها ولعب القمار والرياضة البدنية وحمامات البحر والملاهي وما اليها: ان اللسان، يا اخوتي، ينطق من فيض ما في القلب. اننا بما فينا من فكر، ولنا من حديث وعندنا من رغبات، لبعيدون عن الروح وعاكفون على المادة.

من احب شيئاً اكثر من ذكره؛ فاين منا التحدث عن النفس وحاجاتها، عن الله وشرائعه، عن عطاياه وعن حسناته الينا، عن عنايته بنا وعن محبته لنا؟

سقطت رومة قديماً ودُكت معالم حضارتها لانها عبثت بالروح ورفعت المادة واشادت بالقوة والسياسة وتبجحت باولوية الذهب!

الذهب! أفٍ لك ايها الذهب من إله! لقد كنت ابداً ودوماً ذاك الالهَ الكاذبَ الخدّاع فجذبت بسطوتك الى هياكلك اكثرَ خلقِ الله!

عبدك الفينيقيون باسم «مون»! وسجد لك العبرانيون عجلاً! وخافك المسيح مزاحماً! فحذرَ منك قائلاً: «لا يمكنكم ان تعبدوا ربين: الله والمال»!! وتسابق اليك ابناء عصرنا يعفرون الجباه امام صناديقك فهويتَ بهم الى اللجج وأغرقت العالم في بحر من الوحل والدم! انك لسيد غاشم! ايها الذهب!

عبدك الساسة فكممت منهم الافواه؛ سجدت لك اقلام صاحبة الجلالة فملت بها عن المدح الى الذم فجرت، اليوم، تكيل الثناء على ما كان، بالامس، ويلاً وثبوراً! تلك يدك، ايها الذهب، تقبض على عنان القلم تلويه ما طاب لها الهوى. تلك يدك تهزهز كراسي الحكام والقضاة وتجعل البُطلَ حقاً والحقَ بطلاً! تلك إصبعك تُعلي وتُخفض، تنبذ وتدعو، توقد نار الثورات وتطفىء ضرامها. فانت مفتاح الابواب جميعها تفتحها على مصاريعها بوجه من تشأ وتوصدها بوجه من تهوى! فكل بك يبلغ المرام!!

ان في المدينة امثلة على مظالم المال تربو على ما في القرى منها فكم من ثروات ضخمة قامت على الوحل والدم، على الدنائة والظلم! انها لمشاهد تفتت الاكباد وتحز في النفوس الابية . أليس بين اتباع الذهب من رقصوا ويرقصون على قبور الاموات؟ اين قلوب عباد المال تتفطر لدموع سالت وتسيل في هذه الازمنة العصيبة .

المال! هل استطاع هذا الاله ان ينظم حياتنا؟ أفي الحياة الاجتماعية نظام؟

كم عالم من علماء العصر وكم فنان طارت لهما شهرة في عالم الادب والفن، وما اغنتهما الشهرة عن الفقر والعوز . اما الممثل السينمائي رودولف فالنتينو فيموت تاركاً ثماني سيارات فخمة واثني عشر كلباً وخمسين زوجاً من الشدود وألفي قيص!! أمنطبق هذا على النظام؟

كم فتاة عليها مسحة من الجمال وفيها شعلة من الذكاء حكم عليها الفقر بان تظل عانساً في بيت ابيها . وأمرأة شابة تقطع بحر المانش سابحة تتلقى مئتي طلب للزواج!

ان مصارعاً، في ليلة واحدة، يُغدق عليه من المال ما يضاهي معاش القاضي او المعلم اسابيع وشهوراً! أترون ان هذا منطبق على النظام؟ أهذا اعتبار النفس؟ لقد تدنت قيمة العقل والروح وارتفعت في ميزان الاجتماع كفتهما وعظمت قيمة العضلات والثروات وتطاولت اليها الاعناق!

ليت الانسان يعرف ان يضع حداً لصولة مطامعه الدنيئة! ليته يربأ بنفسه ان تضحي بعظمتها الروحية بين انياب الحياة الارضية وبراثنها! اذن، لجعل من المال عبداً يستخدمه لا سيداً يعنو له ويعبده .

ليته يعرف انه في الارض غريب، مسافر يجوز الى غاية قصوى هي الله خالقه! اذن، لاتعظ بامثال ابطال المحبة وأجناد الصدقة . فلقد حشد هؤلاء الميامين الذهب في صناديقهم وكفروا به في قلوبهم وحكموا عليه في عقولهم فنفعوا وانتفعوا . فباركتهم السماء وأغدقت الارض عليهم ثناء عاطراً، جديراً بهم . المستشفيات والمياتم وبيوت البر والاحسان والرحمة تلك بعض اعمالهم .

كونوا ، ايها الاخوة الاعزاء ، على ما تستطيعون من الغنى . فالغنى بذاته ليس شراً . ولكن احذروا من ان يعلق قلبكم به وهيئوا من الضمير مضطلعاً بمسؤولياته .

اجعلوا من المال منديلاً تمسحون به دموع البؤساء وذوي الحاجة .

اجعلوا منه ضمادة تلفون بها جراح الحزانى والمساكين .

اجعلوا منه بخوراً تحرقونه على مذابح التضحية والصدقة والاحسان .

ركبوا منه دواء ومرهما توزعونه في آنية من الحب ، والشفقة ، والحنان على بيوت البر والمستشفيات ، على عيال مستورة أشقتها الأزمة في هذه الايام ، فباتت ترقب اياديكم السخية تمتد اليها فتوآسيها !

اجعلوا من مالكم تماثيل سلام وحرية واخاء ، وارفعوها في القلوب وفي ساحات المدن وعلى مفارق الطرقات .

اقيموا منه حمى للاخلاق وحارساً للدين والأعراض .

ابذروه صحة وفرحاً في حقل الانسانية وحذار ان تخزنوه لتعبدوه . فالعبادة لا تحق لغير الذي قال :

انا هو الرب الهك لا يكن لك اله سواي

«انا الرب وليس آخر، ليس من دوني إله. اني نطقتك وانت لاتعرفني... انا مبدع النور وخالق الظلمة ومجري السلام وخالق الشر! انا الرب صانع هذه كلها.

ويل لمن يخاصم جابله وهو خزفة من خزف الارض؟ أيقول الطين لجابله ماذا تصنع او عملك ليس له يدان؟»

(اشعيا ٤٥ : ٥ - ١٠)

العظة الثالثة

تأليه الشهوة في العيلة

جاء، في عظتنا السابقة، أن الآلهة تتعدد بتعدد الخلائق والخيور التي تضل عقلنا وتفسد قلبنا؛ وأنها تكثر وتنمو ما تحولنا عن عبادة الاله الحق! ذلك ما نتثبت منه، آسفين، في درسنا العيلة العصرية. فانها تناست الله وجهلت حقوقه عليها وعبثت بالغاية التي وضعها تعالى للزواج فزجت ذاتها، من جراء ذلك، في لجة الفساد واتخذت لها من اللذة الها لا يهمها الا رضاه، ومن الاولاد، ان وجدوا، اصناما تخر امامها ساجدة، تعنى باجسادهم وعقولهم العناية المثلى وتهتم بان تمكنهم من مستقبل باهر في الحياة الاجتماعية، غير عابئة بصقل اخلاقهم ونحت آدابهم ولا مبالية بانفسهم الروحية، الخالدة وحاجاتها.

سلوا الشهواني ما غايتك في الحياة؟ ومن هو الهك؟ يجب بدون ما تردد: اللذة بلا قيد ولا شرط ولا حد! متخذاً شريعة يتمشى عليها ويطبقها في حياته مبدأ أبيقراط القائل: «كل واشرب وتلذذ؟ فغداً تموت! فما الانسان الا قناة هاضمة؛ وليس في العالم شريعة الا شريعة البطن فهو الذي يقود العالم ويسيره بقوتيه: قوة الهضم وقوة الولادة!»

على هذا الاساس الواهي رام بعضهم ان يشيد بناية العيلة وصرح المجتمع في عصرنا! فتداعت البناية. وكان نصيب بناتها الفراغ والجوع بدل الامتلاء والشبع؛ والمرارة عوض اللذة.

ما ذلك الا لان الانقياد للغريزة والفطرة، دون العقل، هو من شأن الحيوان، لا الانسان. فالنظام الذي يناسب طبيعة الانسان هو اسمى من اتباع الغريزة؛ انما هو العمل باحكام العقل واوامر الضمير ونواهيه. والضمير هو

العقل الحاكم على الارادة وهو مصدر الحرية والمسؤولية . به يضبط الانسان الحكيم شكيمة الشهوة، وعنه يصدر الحكم بافضلية الروح على ما ليس هو روحاً، فاذا اتبع الانسان هذا النظام، نظام اولوية الروح على المادة، استقر في طمأنينة وسلام لا يعرفهما قلب الانسان الراغب في الملاذ!

جرّب ان تكلم هذا الراغب في الملاذ عما هو فوق الحواس، فلا يفهمك . فالله والنفس، الضمير والتفاني، الشرف والتضحية، حب الوطن وشر الخطيئة وما الى ذلك، كلمات، هي، في عرفه، جوفاء فارغة! فانه عبد الشهوة والمادة لا يؤمن إلاّ بما تقع عليه حواسه . وعبادة الشهوة عبادة وثنية تمسخ الانسان وتحطّ من قدره ومقامه . وكل بيئةٍ سيطرت فيها المادة على الروح، وتغلّب فيها الجسد على النفس، وثارت فيها الشهوة ثورتها على النظام، أمست تلك البيئة جحيماً ناره الاضطراب الدائم والشقاء المستمر .

هذا في المجتمع! امّا في العيلة فاننا، ان اعتبرنا اللذةَ غايةَ الزواج، قضينا، بعملنا، على اسمى العهود واقدسها : فلا زواج، إذ ذاك، ثابت الوثاق، نقيّ الذيل؛ بل زواج، يجعل المرأة مُتعةً او عبدة او صنماً؛ مع ان الله قد خلقها لكي تكون عوناً للرجل وأمّاً للبنين .

ان الانسان الذي يحكّم عقله السليم وضميره المستقيم يرى في لذة الزواج فعلاً بشرياً فيخضعه لحكم عقله وسلطان ارادته ويعتبر اللذة واسطة كما وضعتها يدُ الخالق في مشاعر الانسان، ويصبها في مسبك الآداب الصحيحة ويضبط عنانها بالوصايا الالهية، فلا تعود تجمح به عنْ جادةَ الحكمة والصواب فيتأكد، عند ذلك، ان المرأة وُجدتْ لتكون له عوناً وشريكة، وانها خليقةٌ بمعاونته في إيلاد البنين، مهمة الاثنين معاً. وانها معه، في النسل، شريكة مناصفة، كله من الاثنين، وفيه شبههما مفرغٌ بقالب حياةٍ واحدة!

يقيناً انه، على تنوّع الادوار وتباين الوظائف واختلاف الواجبات قد خصّ الله، في العيلة، كلاً من الزوجين بوظيفة يقوم بها وبدور يمثله فيها . فالعائلة جسم : رأسه الرجل وقلبه المرأة واعضاؤه الاولاد . وكلّ من الرأس

والقلب والاعضاء عجيب هام !

فالوالد يملك في بيته سلطان الامر والقيادة . فهو ، مع كونه غيرَ مُبدع للحياة ، يُعدّ ، بحق ، ناقلها كمبدأ فعّال . لذلك اسماه الكتاب: « رأس المرأة ! » على ان الله اراده رأساً حكيماً يعرف ان يخفف ما في السلطة من حدّة ويحلّي ما في الامر من مرارة ؛ ويوصل افراد العيلة الى ما لهم من حقوق ويهديهم الى ما عليهم من واجبات !

وقلب العيلة : الامّ ! فهدف الام ، اذن ، العناية في البيت ؛ ومهمتها إذكاء نار الحبّ في العيلة لتجعل من بيتها ملجأ دافئاً وملاذاً حصيناً وعشاً هادئاً مصاناً . منه تشعّ البهجة والحبور ومن نوافذه تسمع الزقزقة والتغاريد ، فمرجع القوى في العيلة ، الام ؛ ومنها يتدفق الحنان ويتوزّع ؛ كما يصدر من القلب ، في الجسم ، الدم ويعود اليه .

فوظيفة الام ، اذن ، أرفع من ان تجعلها مُتعةً للذة او عبدةً للخدمة او شيئاً لزينة البيت او صنماً للعبادة ! فلا يجوز لها ، اذن ، ان تعتبر نفسها ، او يعتبرها زوجها هذا الاعتبار ، لا يجوز ان تعتبر ذاتها او يعتبرها زوجها صنماً يُحرق امامه بخور التكريم ويُضحى على مذبح غروره بصالح العيلة والبنين وتُكرّس الساعات من النهار والليل لاجل تجميله وتزيينه !

يا لتعس العيلة ! اذا ما هويت الام الاباطيل فحصرت همها في الملاذّ والملاهي وراحت تبذّر ما يجمعه رجلها من مال وارزاق في تبرجها او تجازف به وبوقتها على المائدة الخضراء ! يا لتعس العيلة ! إن جهلت الام او تناست انها عون لرجلها وام لاولادها لانها، بفعلها، تجاب على ذاتها العار وتجر الى بيتها الشقاء والوبال وتكون قد نصبت من جسدها صنماً تعبده وحملت الناس على ان لاينظروا فيها الا اليه .

مع ان حليتها وجمالها هما في نفسها وفي ما حسنَ من آدابها وفيما طاب من أخلاقها وفي ما أتت من تفانٍ في جنب عيلتها وخير بيتها وبنيها ! !

اما وديعة الخالق بين ايدي الوالدين : اما الولد . فما كان ، ولن يكون

ملك احد : لا ملك الحزب ولا ملك الدولة ولا ملك الوالدين ؛ انما هو ملك الله خالقه وباريه ؛ لان الله لم يعطه بعض كيفيات الوجود فحسبُ بل الوجود ذاته .

أجل ! ان الله يترك إتحادَ النفسِ التي يخلقها بالجسد الى ارادة الوالدين، ولكن كي يقوما به وفقاً لشرائع طبيعية وضعتها يدهُ القدوسة ؛ فيترتب اذن عليهما إحترام حقوق الله فلا يجوز لهما تدنيسها والتصرف بها كما يهويان !

ان للولد حقاً في الوجود وقد شاء الله ان يدخله الحياة عن طريق الزواج الواحد ، الديني ، الوثيق العرى لكي يحيا حياة بيتيـة في حجر والدَين شرعيين ، مضطلعين بالمسؤولية التي تلقيها عليهما تربية النفس وتربية الجسد معاً.

ان غاية الزواج الاولية اذن هي إيلاد البنين ، بالمضجع النقي . فقلبُ النظام واعتبـار الغاية واسطة ، والواسطة غاية ، جنايةٌ على العيلة وعلى الدين وعلى الوطن واثم فظيعٌ امام الله ! والشر ، كل الشر ، ان يتخذ البعض من الزواج ستاراً ينعمون وراءه باللذة ، لاجل اللذة ، متهربين من واجب الابوة والامومة الشريف ، غاية الزواج الاولى ويحيكون المؤامرات على تدنيس ما قدسه الله وإفساد ما رتبه ليوصدوا باب الحياة بوجه ولد لا يزال في عالم الامكان ؛ وتوصلاً الى ما يبتغون يعمدون الى شتى الوسائل لاسقاطه نطفةً او جنيناً من بطن امه او لقتله طفلاً أبصر النور .

تلك فعلةٌ شنعاء ! وجريمة نكراء ! وخرقٌ للشريعة الطبيعية ! ومقاومة لارادة الله يأبى ان يأتي مثلها الحيوان الاعجم ! تلك جناية على اجنة واطفال ذنبهم الوحيد ان ربهم يريد لهم الوجود على الارض ، والحياة السعيدة في الابـدية فينكرهما عليهم الوالدان رغبةً منهما في الراحة وسعياً وراء اللهو والملاذ ! .

ان قلبنا ليلتاع أسىً تجاه مقدس العيلة وقد امسى موطناً للخطيئة ! خالياً من الاطفال ! ان قلبنا يتفتت حين نرى الام تعتاض من هزّ السرير لولدها بنبش القبر له ! ويؤسفنا ان تمسي البيوت والجنائن مقابر للاطفال الابرياء !

اننا لنلتاع أسىً على امة كانت ، حتى الامس الغابر ، مغرقة في عبادة ربها ، معتصمةً بالحياء والخجل من كل عار ووصمة ؛ محبة لكثرة الاولاد ،

مؤمنة بانهم نعمٌ من لدن الربّ . فنمت حينذاك عيالها وكثر اولادها فضاق بهم لبنان فهاجروا الى البلدان السحيقة يعملون ويجاهدون حتى إغتنوا وأغنوا !

على انه ، ليت بعضهم عاد الينا ، كما ذهب عنا ، فقيراً ، ولم يحمل الى لبناننا المال ومع المال آلهةً غريبة ، آلهةَ الشعوب العصرية !

ليتنا لم نأخذ عن المدنيات العصرية عاداتها القبيحة ! ليتنا لانقرأ كتبها ونشراتها وجرائدها الاباحية ! ليتنا لم نعتنق مبادءها الزائفة وافكارها الملتوية ! ليتنا لا نسجد امام اصنامها ! ولا نعبد آلهتهـا التي لم يسبق لشعبنا ان لوى ركبه امامها ! اذن لما أقفرت بيوت الله في بعض مدننا ودساكرنا وقرانا ، اذن لما امسخت عاداتنا الجميلة وانحطت اخلاقنا اللبنانية العالية !

هلاّ تذكر العيلة اللبنانية ماضيها المجيد وجهادها المستمر واستماتتها في سبيل الحفاظ عـلى تراثٍ ثمين سلمنا اياه الاجداد بعد ان استأسدوا بالدفاع عن حياضه . فانها ، لو فعلت ، لحالت دون انهيار صروح مجدنا الدينية ودك مباني عزّتنا الاخلاقية !

حجة بعض معاصرينا ومعاصراتنا بقلة الاولاد او تحديد النسل : ان الحبل مُضن، والايلاد مُوجع والاولاد عَقبةٌ وعراقيل في سبيل الزيارات والاستقبالات وموانع عن الملاهي وما لدواعي العصر من «موض» وكماليات ؛ وحجة البعض الاخر : ان الازمة خانقة والاشغال واقفة ومرتب المدارس باهظ وكل شيء في الحياة وفي سبيل العيش غالٍ ! !

عفواً ، سامعيّ الكرام ، دعوني اصارحكم بان المتزوجين والعازبين ، العابثين بشرائع الله ، الخائفين من الاولاد والزواج ، ليسوا ، غالباً ، من طبقة الفقراء ! فان هؤلاء يقبلون على الزواج في شبابهم ، وفي بيوتهم اولاد لا ترى عدداً يماثله في العيال الميسورة وفي القصور الشاهقة ، تلك التي تتمكن من اعاشة اولاد كثيرين ، عيش الشبع والرغد والصفاء ! فدعاهم يلقيه في قلوبهم وعلى شفاههم الوَنى عن الدين والجنوح عن وصايا الله رغبةً في كرع كاس اللذات حتى ثمالتها !

اجل ! نقول ، آسفين ، ان معالم الحياة الدينية كادت تتقلص من اكثر بيوت الغنى والمجد ، وعلى آثارها أخذ يدرج الفاترون من العامة ، حتى اوشكت تقاليد العيلة اللبنانية ان تتبخر وتذوب . فلا ممارسات دينيـة في بيوتنـا

ولاصور تقوية فيها ولاصلبان؛ ولقد نضب الماء المبارك منها وتبخر، وخزائنها خلت من الكتب المقدسة وسير القديسين او قد غشى على هذه الكتب الغبار وحاك عليها العنكبوت خيوطه وقد كانت، بالامس الدابر، سلوى العيلة وسيرَها ونديمَها وحماها واعتيض من كل ذلك بصور خلاعية وبنعال الافراس، مجلبة الخير والبركات والسعادة على زعمهم؛ ومن كتب مجونية ومشاهد فاحشة قد تفسد أخلاق الاحداث وتسمم عقولهم وقلوبهم وتدعو الى موكب الشهوة الشبان والشابات.

ان على وجه مجتمعنا اللبناني بثوراً كريهة! ما يدلنا على انه مريض وفي دمه فساد. ويقيننا نحن ان من العيال سرت العدوى الى المجتمع. ذلك ما يهيب بنا الى معالجة العليل. وعلاجه الشافي لا يقوم بنشر الكتب والمقالات ولا بسن الشرائع وابداء النصائح والمشورات. كل هذا جميل لكنه لا يعدو ان يكون كمرهم نضعه على ساق من خشب.

علة الداء ادبية دينية فلا تشفيها المحاضرات وسن الشرائع! ان شفاءها لا يتم إلاّ بالرجوع الى الايمان والعمل بوصايا الله وتسيير خوفه تعالى في القلوب وتقوية الشاعرة الدينية وتربية الضمير تربية حكيمة مستقيمة!

ان المربين، في عصرنا، قصروا همهم على كل ما يرونه في الولد فقط فعمدوا الى رأسه يحشونه علماً، والى جسمه يغذونه بالمآكل والى عضلاته يقوونها بالرياضة البدنية ويوقونه اخطار الحرّ والقرّ حتى انهم لم يتركوا وسيلة للترفيه عن الجسد إلاّ استخدموها؛ لكنهم تجاهلوا ان للولد نفساً، خلقت على صورة الله حرّة وعلى مثاله خالدة؛ فتركوها لا يعنون بها، فعلاها الغبار، غبار الشهوات؛ تناسوا ان فيه عقلاً لا تشبعه إلاّ الحقائق الازلية ولا ترضيه إلا المبادئ القويمة! تناسوا ان فيه قلباً، تحجره الانانية ولا يلين إلاّ اذا صُبّ في بوتقة الشرائع الالهية! تناسوا ان فيه ارادة حرّة؛ لكنها ضعيفة تميل الى الشر وتنفر من التضحية؛ فلم يحببوا الخير اليها ولم يقوّموا ما اعوج من اميالها ولم يصلحوا ما فسد من شهواتها!

يبكي الطفل ويضرب الارض بقدميه طالباً ما وقعت عليه عيناه من اشياء حلوة او براقة فتهرول الام ويهب الوالد ويقفان امامه يبغيان رضاه ويعملان بهواه ؛ يجيبانه الى مطاليبه ، ولو كان فيها اعوجاج وحيد عن الصالح له وعن الصلاح ، يودان ان يلبيا مطاليبه ، ولو كان مطلبه ، القمر ؛ وقد فاتهما ان الافضل له ولهما ان يبكي ويبكياه من الحرمان ، طفلاً او يافعاً ، على ان يبكيهما ويبكي ، شاباً يجري مع الهوى ويتهرب من التضحية !

أجل ! لقد ساءت تربية الكثيرين من البنين فاذاقوا الوالدين المر والحنظل وحاكوا لهم ثوب الذل والعار والمهانة ؛ فعض الوالدون اصابعهم ندماً على التواني في كبح شهوات الاولاد ، صغاراً ؛ وعلى كفرانهم بنصح الحكيم بتهيئة القضبان حزماً حزماً فاستفاقوا ، واذا بالهواء اولادهم ونقصانهم مسامير في عيونهم وحراباً في قلوبهم .

آه ! يا ليتهم يدركون ما رمى اليه نابوليون العظيم اذ أجاب من سأله : اي متى يجب ان نشرع بتربية الاولاد ؟ فقال : «قبل ولادتهم بعشر سنوات !» اذن لادركوا انه ، قبل ان يقدموا على تربية اولادهم ، يجب عليهم ان يكونوا هم قد تربوا تربية صالحة ؛ وقبل ان يعمدوا الى حث اولادهم على مخافة الرب والقيام بالواجب ، ينبغي ان يكونوا قد سمروا خوف الله في لحمهم ، وتعودوا الدقة في عمل واجباتهم ؛ متذكرين ذلك المبدأ الذهبي : «لا يملك الا المالك» ، وذلك القول المأثور : «الكلام يؤثر لكن المثل يجر».

فالولد ، من طبعه ، يعتقد بان كل ما يقوله والده صحيح ؛ وكل ما يعمله حسن . فمسؤولية الوالدين امام الله وامام اولادهم وامام الوطن عظيمة .

تراث ثمين أفلت او كاد يفلت من بين ايدينا ! : عيلة لبنانية اضعناها في سبيل اللذة والتقليد الاعمى فاضعنا السلام والغبطة وكدنا نخسر حقوقنا المدنية من قلة النسل . فسارعوا ، اذن ، الى العيلة والى تكوينها من الام التقية ، المتفانية ، من المرأة الفاضلة ، جوهرة البيت الثمينة . أنشئوها من الاب المتدين الحكيم ، من الرجل الذي لم يسلك في مشورة المنافقين ، وفي طريق الخطأة لم يقف ،

بل في شريعة الرب هواه؛ قوّموها من الاولاد البررة، المطيعين، العاكفين على عبادة الرب، والمعزّ بنواميسه؛ أقيموا اركانها عيلة لا تمشي في موكب الجحود والفساد تحت علم اللذة البطرة والشهوة الجامحة؛ بل عيلة يجعل منها الروح القدس هيكلاً له ويطرد منها اصنام اللذة الخداعة ويشعّ في جنباتها نور الايمان بالاله الحق فتصغي الى صدى صوت الرب يتردد في سماء البيوت وفي اعماق القلوب وتلافيق النفس، وينادي كلاً من اركانها الثلاث: الولدَ والابَ والام قائلاً:

« انا هو الرب الهك لا يكن لك اله سواي ! »(١)

---

١) فيما كنا نعود الى مركزنا، في بيروت، آنذاك، بعد ان اذعنا هذه العظة حتى طرق بابنا رسول يحمل الينا هذه الرسالة.

بالشكر تدوم النعم

حضرة الاباتي باسيل غانم رئيس الرهبنة المارونية المحترم

انا احدى السيدات التي اسعدها الحظ بسماع عظتكم القيمة يوم الاحد في ٢٧ ك ٢ الجاري وموضوعها « تأليه الشهوة في العائلة » لقد سمعت ووعيت كل كلمة من العظة البليغة التي يحق يقال عنها عقد من الجواهر الثمينة. لقد وفيت الموضوع من كل نواحيه ودخلت اصميم آفاتنا الاجتماعية فتكلمت عنها بكل شجاعة وصراحة. سلم الله فكرك وفمك وكثر من امثالك. نحن بحاجة كلية للتهذيب نحن بحاجة لكبح جماحنا بحاجة لمن يمسكنا بالاكتاف يهزنا ويوقظنا من غفلتنا لنفتح اعيننا ونرى الى اين نحن سائرون. لقد تأثرت جداً جداً من عظتكم الثمينة فلم اتمالك السكوت واتيت باسطري هذه اقدم لحضرتكم جزيل الشكر عني وعن كل عاقلة راجية ان تتحفنا بهذه العظات القيمة من وقت الى آخر. اخذ الله بيدكم وبارك رسالتكم

البلدة في ٢٧ ك ١ سنة ١٩٤٣ — مثالمة

العظة الرابعة

تأليه السلطة في الدولة

ايها الاخوة ،

جنح الانسان عن عبادة الخالق فألهب الظمأ نفسه واحشاءه فاتجه الى المادة يقيم منها الها يرد ينبوعه العكر ؛ فازدادت نفسه الروحية ، المخلوقة على صورة الله ، عاقلة ، وعلى مثاله ، خالدة ، ظمأ وجوعاً .

سعى الى تألية اللذة وتاه في مغانيها ، فاضناه الغرور وشط عن المحجة ، بعيداً ، وبات كطائر عالق بالدبق يحاول الافلات ، فيقع صريعاً مهيض الجناح . عجزت اللذة ايضاً عن انالته المرام ، فامسى حائراً في امره لا يدري على من يتكل ليصل الى السعادة المنشودة والراحة المرغوبة ؛ فاقبلت السلطة في الدولة تزين له ان مفتاح السعادة بيدها ، وانها الاله الذي يكفيه مؤونة الحياة فأغرته جاعلة نفسها غايته القصوى فاغتر ونصب لها الى جانب آلهته الكذبة صنماً يضحي على مذبح حبه بحريته وماله ، ووقته وولده وراحته وحياته !

لقد سبق للناس ان ألهوا المسلطين فاستعبدهم هؤلاء ولم يرعوا لهم حرمة وكرامة . لقد مارست الوثنية القديمة عبادة الدولة – الاله ، ليس عن طريق الفكرة العلمانية العصرية وانكار وجود الله ؛ بل عن طريق توحيد السلطتين : الروحية والزمنية في شخص الحاكم الامبراطور . وعبادة الاباطرة والملوك

في رومة وأثينا وبتفيس مشهورة ، فانها اتحدت الفكرة الدينية بالسلطة المدنية فكان المسلط حاكماً، قاضياً، كاهناً وحبراً اعظم .

على ان بشارة الانجيل قد نادت بفصل السلطتين : « أعطوا قيصر ما هو لقيصر، والله ما هو لله ! » وما عتمت ان دكّت هيكل الدولة — الاله، ولكن لم تمض اجيال حتى عاد الحكام الى الفكرة القديمة وراحوا يقيمون من شهواتهم ومطامعهم حجباً يخفون وراءها الحقيقة ويوارون المثل الاعلى المسيحي محاولين ان يرجعوا صنم الدولة الى هيكله المهدّم !

اقترح المشترعون تجديد بنائه ، في عهد فيليب الجميل ، ملك فرنسة ، وقام لوتاريوس ، في المانية ، يكرسه بتعاليمه منادياً بحرية الضمير الدينيـة للفرد ، معتبراً ان السلطة الكنسية المتسلسلة تجاوزٌ من الانسان على حق الله والضمير، وان لا حاجة اليها بعدُ، لان كل مؤمن كاهن ؛ فجرّ نداؤه الشعوب الى الفوضى . ولما تفـاقم شرها أوعز الى الحكام : « ان ابطشوا، فبطش القيصر بالفلاحين اخماداً لنار الثورة التي اشتعلت في كل مكان ؛ وكان من نتائج التحكم والاستبداد والارهاق ان طبق مبدأ : « الناس على دين ملوكهم ! » فدانت العامة واعتنق الناس ايمان المسلطين عليهم واسلموا امورهم الروحية، من جديد ، الى السلطات المدنية فصار الحاكم قيصراً وباباً .

ثم جاء جان جاك روسو يعلم ان الانسان وُلد حراً ؟ وان لا حدّ لحريته سوى حرية اخيه وجاره ، وأن الشعب وحده مصدرُ السلطات في الدولة ، فاذا ما أطاع قواده وزعماءه فانما يمارسُ ، بطاعته ، سلطةَ القى هو نفسه بمقاليدها اليهم ، مختاراً ! وأبقى لنفسه الحق بتكييفها وتحديدها ونزعها منهم ، ساعة يشأ ! فكانت النتيجة أن صار « الانا » هدف الانسان ! « الانا » مع ضونه وعتمته ، مع فضائله ورزائله ، مع اجتهاده وكسله ، مع طهارته ودنسه ، مع عُجبه وكبريائه ؟ « الانا » المكروه ، « الانا » القاسي صار، قلت ، مدبرّ العالم . ويا ويل العالم من هذا المدبر الغبي ! .

وقام غيره من الفلاسفة المتأخرين يتغنى بالمجتمع المدني ويؤله البشريـة

ويدعي ان الدولة ولية على حقوق الافراد؛ وفي ارادتها تذوب كل ارادة. لا يحد سلطتها شيء: لا الاتفاقيات الشخصيـة ولا المعـاهدات الدولية؛ فلها ان تعطي ما تشأ وتفرض ما تشأ وتمنع ما تشأ وتبيح ما تشأ؛ وان لها كل الحقوق وليس عليهـا واجبات: فلهـا ان تضرب بالوعود التي يبرمها الافراد عرض الحائط؛ ولهـا ان تنتفع من اي امر كان وباية وسيلة كانت، عدلاً كان الامر ام ظلماً؛ ولها ان تزوّر ولها ان تسرق ولها ان تصادر الاملاك والمباني وتحتكر ما يطيب لها من اصناف البضائع؛ لها ان تزيف النقود وتبدلها بما ترى من الاوراق النقدية ولها ان ترهق الشعوب بالضرائب التي تريد وان تختص بنفسها املاك الجماعات والعيـال وثروات الافراد لمصلحتها!

ويدهشك ان ترى ساسة الدول، منذ قرن ونصف القرن، يعمدون الى تطبيق هذه المبادئ الظالمة في تدابيرهم، ضاربين كشحاً عن السلطة الالهية وسننهـا وعن حقوق الافراد؛ فانتهى بهم الامر الى ان يغتصبوا، لمصلحة السلطة المدنية، حقوقاً مطلقة لا تحق الا للخالق دون سواه ويرفعون الدولة او البشرية الى مقام يكونان فيه بمنزلة الغاية القصوى للحيـاة، والقاعدة الكبرى لتنظيم الشرع والاخلاق! وتهوّروا حتى اقدموا عـلى حلّ الدولة من كل رباط يقيدها بالاله السرمدي وهو الذي يترتب على كلٍّ من الافراد وعلى السلطان وعلى المجتمع البشري، بما انه مجتمع، الخضوع لسلطانه من حيث هو العلة الاولى والرب الاسمى؛ وحرروا سلطة الدولة من كل احكام الضمير والمبادئ الادبية الاولية التي يرجع اصلهـا الى الله مسندين اليها حقوقاً تتصرف بها: إما على ما يطيب لمشيئة الحكام ومصالحهم الخاصة؛ وإما على مزاعم لا اسّ لها ولا مبرر سوى الظروف العارضة لادارة الامور!

رأينا الدول تمدّ يدها الى الافراد تستخدمهم كآلاتٍ لمطامعها وفتوحاتها؛ غير مراعية حرمة ضمائرهم وصيانة حقوقهم من كل حيفٍ وعدوان؛ ولم تكتفِ ان تطلب منهم اموالهم ودماءهم بل عمدت الى الانفس التي خلقها الله وافتداها

بدمه الثمين تنتزعها منهم ومنه تعالى !

رأيناها تمد يدها الى العيلة تسلبها الولد وتحرمها القيام بالمهمة السامية التي كلفها بها الاله السرمدي ؛ لقد سلبتها حق تربية الاولاد والاهتمام بما يعود عليهم بالخير فيما يتعلق بهذه الحياة وبالحياة العتيدة وتربيتهم تربية رشيدة ، تربية روحية تبعاً للاحكام الدينية القويمة – تلك التربية لا تستطيع ايما سلطة زمنية ان تستأثر بها لنفسها وتدعيها لذاتها بحجة انها هي الولية الشرعية على المواطنين تريد ان تصوغهم على الروح الوطنية وتوحد افكارهم حول الوطن واهدافه ؛ فان فعلت، دون ان تهتم بالنفوس وحاجاتها ، ضاربة كشحاً عن التعاليم الدينية الضرورية لصقل الاخلاق وتقويم اعوجاجها ، جنت على نفسها وعلى العيلة وتجاوزت حدود سلطانها اذ لا سلطة لها على النفوس؛ وخرقت حق الكنيسة والعيلة . ولقد امسينا ، ويا للاسف! نشهد ، بام العين ، نتائج التربية العلمانية وما جرته على الاخلاق من ويلات. فاخطارها تهدد مدنيتنا بالانهيار . ففي المجتمع فساد وفي العيال شقاق ؛ وفي الافراد انانية بغيضة وحرية زائفة لا تعرف حدوداً . فحب الذات قد فرق الناس افراداً واحزاباً ومزق وصال الوحدة الوطنية التي سعوا اليها عن غير طريق الدين والتدين!

رأينا الدولة تحاول الاستيلاء على المشاريع التي ينشط الافراد الى القيام بها فالحقت بتلك المشاريع اضراراً جرت ، في بعض الاحايين ، خسائر فادحة حتى على المصلحة العامة عينها. بينما كان من واجب الدولة ان تعكف، في ما يتعلق بحياة الامة ، على مراقبة مشاريع الافراد وتنظيمها وتنشيطها وتوجيهها توجيهاً رشيداً نحو خير الجميع؛ لا ان تشل حركة تقدمها او تصادرها او تستبيحها لنفسها ولمنفعة القائمين عليها .

على انه لما امتنعت الدول عن ان تخضع الحقوق البشرية للحقوق الالهية تأرجحت بين شططين : الفوضى والاستبداد !

لقد تحرر النـاس من القيود الطبيعية فظنوا انهم ارباب غايتهم فحلموا باقامة هيئة اجتماعية كاملة لا يعتورها نقص ولا فساد! ولمَ لا ؟ الم يولدوا

صلحا. ؟ كما قال روسو ؛ لقد حلوا نقابات العمال والمهن والصناعات القديمة سعياً وراء الحرية ؛ ولكن ما بالهم ، يفكرون اليوم ، في اعادة تلك المؤسسات التي حلّوها ، في الامس ، وكانت تحدّد حقوقهم وتحمي مصالحهم من كل ظلم وعدوان ؟

اين حرية الطبيب والمحامي والصيدلي والعامل والاديب والصحافي وهلم جراً من أحكام نقاباتهم العصرية ؟ لقد دفنوا الماضي تحت الرماد مضرّجاً بالدم لينعموا بالحرية. فانظروهم اليوم! فهل وجدوا الضالة التي نشدوا ؟ ها ان الدول تسعى علانية وفي الخفا. الى ان تقبض بيد من حديد على نقاباتهم لتوحي اليها بما تشاء او لتسيرها على هواها . وكل نقابة تأبى الاستسلام يكون مصيرها الحلّ والفنا.

انظروهم وقد ضعضعتهم الانانية وراحت البلبلة تمزق شملهم شر ممزق ؛ انظروهم يطالبون بحقوقهم المهضومة على مسمع من الناس ومشهد !

زعموا انهم هم مصدر السلطات ؛ وان المسلطين هم في حوزتهم ؛ وان احكام الشعب لا يعترض عليها ؛ وان ارادته هي الخير ؛ ومشيئته هي الشريعة. فاين الشعوب مما تاقت اليه ؟ اين هي تلك السلطات التي متعت الشعوب بالراحة والسلام واسكنتها فسيح جناتها الغنا. ؟ لقد انهارت جميع تدابيرهم ؛ لانها ارتكزت على اسس واهية : على الانتفاعية والكذب والمواربة وحب الذات؛ لا على الحقيقة والصدق والاستقامة وحب الخير العام .

ما هي، في نظر الدول ، العيلة والامة والوطن والشخص البشري ؟ لقد بطلت كلها ان تكون حقائق وحاجات اجتماعية ! ان هي الا موجودات مبهمة أبدعها العقل البشري !

ما قيمة الفرد ؟ واين هي حريته التي وُعد بها ؟ ان هو الا آلة صمّا. او حيوان يساق لخدمة الدولة سوقاً وتضحى كل مصالحه على مذبحها بدون ما مقابل !

لقد اقتصروا على تربية الولد تربيةً تقوّي منه العضلات ليخلقوه جندياً قوياً مدرباً على القتال ؛ وثقفوا منه العقل ليستفيدوا من علمه ، مهملين عمداً او تناسياً توجيه أبصاره نحو الوطن السماوي ، غايته القصوى ! فصار في

اعتبارهم ، كما كان في اعتبار الوثنية القديمة ، شيئاً تملكه الدولة.

قطعوا الربط التي كانت تشد الرجل الى امرأته وبنيه وقريته ، فهجر البيت، فكان خراب العيلة وتشتتها؛ وادار وجهه شطر المدن، فصارت القرى مقابر، وخيم عليها السكون ؛ وصارت الحقول سباخاً وكروم العنب والزيتون وما اليها مواتاً .

سهلوا له تأليف الاحزاب فهدّوا اركان السلطة فانحطت مكانتها واضمحلت هيبتها وبادت امام الاحزاب والمضربين ؛ وعلى هذه الانقاض رفعت الثورة الرائعة حرية الفرد الظافر ! فعلوا ذلك ، في الامس ، وها هم اليوم ، عاجزون عن إقامة ما هدّمت اياديهم !

انكم ترون ، ايها الاخوة الاعزاء ، ان خلاص الشعوب والافراد لا يكون بالقوة او بتحكيم السيف او بنشر المذاهب الفردية والاجتماعية والحزبية او بتأليه العرق او الطبقة بل انما يقوم بحفظ الناموس الطبيعي والعمل بالوصايا الالهية .

ان حق الله على النفوس والاجساد هو حق الهي؛ وحق الانسان في الملكية حق طبيعي ؛ وحق العيلة في تربية الاولاد ، حق مقدس خولتها اياه الطبيعة فلا يجوز لزعيم او لدولة او لحكومة اياً كان أو كانت ان تهضم هذه الحقوق وتنتزعها من اصحابها . فالشخص اقدم من الحكومة واسبق وجوداً ، والعيلة اقدم من الدولة والجماعة وابعد عهداً . فانتزاع الولد من حجر والديه وتلقينه مبادئ تناقض الشرائع الالهية وتدعوه الى الحرية المطلقة من كل قيد، يفسد الفرد ويفكك اواصر العيلة ويقطع اوصالها ويهدد ، في الوقت ذاته ، كيان الدول والمجتمع البشري . وهذه ، حوادث الايام ، وهذه ، احصاآت الدول لجرائم الاحداث ، وهذه ، احوال العيال وما ينتابها من ويلات وشقاء وشقاق لاصدق دليل على ما نقول . فكروا في هذا الامر واحكموا ، يا سامعي الكرام !

ألاترون ان علة امراضنا الادبية العصرية من فردية وعائلية واجتماعية ودولية هو

اهمال تربية الضمير تربية دينية مستقيمة . فالضمائر لا تهذّب ولا تصاغ قويمةً في حمى دولة « علمانية » تسنّ الشرائع غير حافلة بحقوق الله على الفرد وعلى العيال وعلى المجتمع وعلى الدول؛ غير مكترثة الا لمصلحةٍ واحدة تدّعيها عامة لخير المجتمع ؛ وهي، في واقع الحال ، مجحفة بحقوق الافراد ، حائلة دون حرية ضمائرهم ومعتقداتهم . فهل يسلم المنطق الصحيح بان يقوم للضمير الحي قائمة من دون ان يؤمن المرء بالسلطان الالهي ؟ فأنى للضمير ان يكون حياً مستقيماً قامعاً لما في الطبيعة من الاهواء والاميال اذا لم يكن لصاحبه ايمان بانه لا يستطيع ان يفكر فكراً الا بحضرة من ينظر اليه بعين اضوأ من الشمس ؟

ان حكم الضمير في ادبية الافعال يتبع حكم العقل فيها ؛ والعقل البشري ، المعرّض للضلال ، لا بدّ لربطه مع الضمير بالحق الازلي الذي هو الله . فما تسنه الدولة من شرائع خارجية يظل قاصراً عن متناول الافعال الباطنية . فكم من ذنوب وجرائم تفوت علمَ الحكومة ولا يطالها القضاء البشري ؟ وكم برّأ القضاء من مجرمٍ وسجن من بريء ؟

اجل ان للدولة الحق في أن تتذرع بكل الوسائل لتكون محترمةً قوية الشوكة ! يحق لها ان تسنّ الشرائع وتفرض الضرائب ؛ ولكن ، عليها في هذه الامور وسواها ، ان تراعي جانب العدالة والمساواة وحق الله والكنيسة والعيلة والشخص البشري . أمّا ان تدّعي حق السيطرة على الانسان كله : على نفسه وعلى جسده ، وتقيم من نفسها غايةً له من الوجود ، وتتصرف بقدراته جميعها كأنه شيء لها ، غير مباليةٍ بحقه في الحياة الداخلية ، واضعةً العراقيل في سبيل وصوله الى غايته القصوى ، الى الله خالقه ، عن طريق التربية الوطنية البحتة ، دون الالتفات الى حق الكنيسة وحق عيلته عليه ؛ فذلك ما لا يرضاه العدل والانصاف ! فاذا فعلت ؛ فانما تجعل نفسها الهاً مكان الاله ، الواحد ، الصمد ؛ وتمسي عبدةً ومعبوداً معاً !

نظر داود النبي من عرش ملكه الى هذه الاصنام الثلاثة ، موضوع

عبادة السلطة المتألهة ، فرأى ما يخيف ويرعب : رأى حروباً
مروّعة وخيانات سافلة ؛ حنثاً بالايمان ونكساً بالوعود ونقض
فصعّد نداء خالداً ما زال صداه ولفظه ومعناه يدوي من جيل
« لماذا ارتجت الامم وهزّت الشعوب بالباطل ؛ قام ملوك ا
ائتمروا معاً على الرب » ؛ ائتمروا على الرب وحاكوا من حوله الدسا
في الجلوس ، مكانه ، على عرش الالوهية ومذابح العبادة والتسلط ؛ ا
السماوات يضحك والسيد يستهزأ بهم » ويدك عروشهم وي
ويقذف بكراسيهم الواحدة تلو الاخرى .

رأى النبي العروش تتداعى والممالك تتوارى والجمهوريات
ان اركان الدولة تتزعزع ، اذا استقل ولاتها ، بامورها ، عن ملك
شرائعه المقدسة ونبذوا تعاليمه الالهية ، عابثين بالوصايا التي ط
الناس اولا ، ثم انزلها على موسى كليمه محفورة على حجر ؛ فقام يلقي ا
والعظات الثمينة ويوجه بوصية مغلفة بالتهديد ، مبطنة بالوعيد
الحول والطول ، الى المالكين في رقاب العباد يقول : « ايها ا
واتعظوا ! ويا قضاة الارض اعبدوا الرب بخشية ، وابتهجوا برعد
انكم في الارض نوابُ ربِّ السماء .

اعملوا ارادته في الرعية ؛ استنيروا بتعاليمه في التشريع ؛
القضاء والعقاب ؛ تعزّوا برحمته وحنانه في الشدة . واعلموا ان
ونصيبكم وكاس قسمتكم ؛ وانه الحكم وربكم وسيدكم
ايضاً :

انا هو الرب الهكم لا يكن لكم اله سواي !

العظة الخامسة

غاية الحرية

ايها الاخوة الاعزاء ،

الحرية هبةٌ ، من اجمل هبات الله واثمنها ، أفرزها الله على الانسان ومعها وهبه قوة المعرفة والتفكير والحكم وبها وبالعقل رفعه فوق جميع الخلائق المنظورة وصيّره رب اعماله وسيد العالم !

على ان حرية الانسان لا تخوله الاستقلال الذاتي الناجز عن خالقه ؛ ولا تحرره من ارادة الله القدوسة ؛ بل انه تعالى فرض ارادته على الانسان لتسيره في اعماله ؛ ولكن من دون ان تجبره على العمل بموجبها . فاذا أطاع الانسان فهذا هو الخير ، وان عصا فذلك هو الشر .

كان باستطاعة الله ان يبدع خلائقه العاقلة على صورته ، حرة ، تريد الخير الاكمل ، معصومة عن الغلط في اختياره ؛ لكنه لم يشأ ان يهب الانسان هذه الحرية الكاملة ؛ بل اراد اخضاع حريته للتجربة حتى اذا ما ظفرت بها وانتصرت على الشر ، اضحت ربة عظمتها وخالقة سعادتها !

وهب الله الملاك والانسان ارادة حرة يتساوى الميل فيها الى الخير والى الشر دون ما قسر واغتصاب ؛ فاختار الملاك الشر ؛ ونظراً الى كمال طبيعته المستنيرة ، عزّ عليه الرجوع عما رسم لنفسه فبات متصلباً في شره الى الابد.

اما الانسان فقد اختار الشر ايضاً؛ ولمّا لم يكن، نظير الملاك، كاملاً؛ رحمه الله وعامله برفق فمكنه من الندم على فعلته النكراء، فتاب؛ لكنه، بعد عصيانه على امر خالقه، فَقَدَ التوازن وامسى ميالاً الى الشر اكثر منه الى الخير؛ او قل: غشي الجهل على عقله فصار لا يميز الخير الاسمى عن الخيور العارضة؛ يسعى الى الخير لا يريد سواه؛ لكنّ انقياده الى امياله الحسية وجهله الخير الاسمى يزينان له ان يفضل الخيور العابرة على الخير الدائم!

يرقى الانسان معارج الكمال ما اخضع فيه ثورة الشهوات اللحمية وماكبح فيه الاميال الطبيعية. فكل انتصار عليها يضعف فيه قوة اختيار الشر ويقوي فيه الميل الى الخير. وكل اصلاح في حياتنا الفردية ورقي في تصرفاتنا الشخصية يكون له اثره في حياتنا الاجتماعية. فكما ان الفرد يعظم شأناً ما أُنمي فيه قوى ارادته، كذلك ترقى الامة ويعظم شأنها، ما قويت فيها السلطة وعظمت القوة الموضوعتان فيها لخدمة العدل والحق والفضيلة!

فهل نحن ذلك الفرد الذي يقوي فيه الميل الى الخير عن طريق كبح الهوى وضبط عنان الشهوات؟ وهل نحن تلك الامة التي تخدم العدل والحق والفضيلة؟!

أسفاً! اننا، بدل ان نجهد النفس باصلاح التشويش الذي اعترى ارادتنا، نزيده بلبلة باقترافنا الجريمة النكراء، القائمة بتأليه حريتنا الملتوية وعبادتنا لاميالنا الطبيعية.

يقول مؤله الحرية: «انا لا اريد الإفلات من الشريعة. انما انا احكم نفسي بنفسي فلا حاجة بي الى مشترع. لي من ذاتي شريعة أتمشى عليها في حياتي. والمرء في حياته الادبية ينبغي ان يكتفي بذاته، ليحيا شريفاً ويصعد سلم الارتقاء، غير مفتقر الى ما فوق الطبيعة؛ ومن دون ان يستند الى سلطة سماوية تفرض عليه قواعد رسمتها وخططاً أقرّتها!»

تلك هي خطيئة الملاك، اوّل مؤله للحرية وهو القائل في قلبه: «أصعد فوق اعالي السحب واكون شبيهاً بالعلي» ويأبى الا ان يأخذ من ذاته مبدأ سعادته! وما كانت السعادة الذاتية، يا سادة، الا صفة جوهرية من

صفات الله وحده ، فخسر الملاك جماله الاصلي وهبط الى الجحيم الى اقاصي الجب ؛ ومن فيه خرجت كلمة دنسة أضلت ابوينا الاولين « تصيران كآلهة » وجازت الاجيال مثيرة في كل مكان زوابع الكبرياء والغطرسة وقلة الحياء ؛ فأخذ بها الناس واقاموا لهم من حريتهم الهاً يعبدونه ؛ وظلوا ، على هذه الحال الشاذة ، الى يوم نزل المعلم الالهي من السماء يذكر الجنس البشري بخالقه ويعيد الى المجتمع ، بتعاليمه السامية وامثلته العجيبة، النظام الادبي والترتيب الاولي، القاضي باخضاع كل خليقة لارادة الاب السماوي وباخضاع الجزء الادنى فينا للجزء الاعلى اي بتسلط النفس على الجسد وتفضيل الروح على المادة .

لقد علمنا معنى الحرية الحقيقية « تعرفون الحق والحق يحرركم » ولم يكتف بان اصلح بنفسه ارادتنا الحرة بل ترك لنا ، يوم غادرنا الى السماء ، كنيسته، وصياً علينا ودليلاً لنا ؛ وهي سلطة حية ، سلطة سامية، معصومة عن الغلط : « من سمع منكم فقد سمع مني » وبالرغم من هذا فقد انكر لوتاريوس على هذه الكنيسة سلطتها في تفسير التعاليم الالهية واخضع شرح الكتب المقدسة وتفهمها لاهواء الارادة الفردية ؛ وتطرف غيره فانكر التعليم الالهي نفسه فنزع من المسيح الوهيته وجحد الوحي وامكانيته، وقد بلغت القحة بآخرين الى مهاجمة سلطة الله السامية فارسلوا اليه إخطاراً : « ان خلِّ لنا الارض فنحن بغنىً عنك ولا حاجة لنا بك ! » .

فأدت هذه المبادئ الفاحشة بالعالم الى الفوضى؛ فبات الناس يتذمرون من ضياع هيبة السلطة وكرامتها في البيت وفي المدرسة ، في المعامل وفي الشارع ، في دور الحكومات والبيئات الاجتماعية، ونفر الانسان من ايّ امر يصدر عن غير ارادته؛ وبهذا تمّ تأليه الحرّية .

نحن نسلم ان في الارض ظلماً اعتمدته بعض السلطات وضغطاً تسلح به عدد من الطبقات يحسن ان تتحرر منه الهيئة الاجتماعية، الجادة وراء الاخوة والمساواة.

نحن نسلم ان في العالم عبادةً شرعية للحرية؛ منها تتولد في الافراد والجماعات والشعوب تكييفات نافعة وانقلابات مجدية . أما ان نضع الارادة الذاتية مكان

ارادة الله وان نأخذ الحرية، كما نريد، لا ، كما يجب ان تكون ؛ فذلك مناقض للحق وهاضم لحقوق الله؛ وعبادة حرية مشؤومة لا تحصى اضرارها ونتائجها الوخيمة في عالم العقل، وفي عالم الاخلاق، وفي عالم العيلة، وفي عالم السياسة والاجتماع !

لقد تضآلت في عالم العقل سلطة التعاليم الالهية تضآلا تدريجياً فاستبحنا حق انتقاد اصلها وارتبنا بصدرها وشككنا بموافقتها لطبعنا وفائدتها لحياتنا وغشى الظلام انوار المبادئ الازليّة فامسى عقلنا في الحقائق الواضحة يتأرجح بين الشك والانكار وتعلّق بكثير من الاضاليل ؛ وانتقلنا من حرية الفكر المحدودة الى الحرية الطليقة فكتبنا ما نريد، وقلنا ما نريد، وعملنا ما نريد؛ فخلقنا في التعليم الشفوي وفي الصحافة مجرى من المضادات القلقة والانكارات السمجة واحتقرنا اعتقادات احترمتها الاجيال ، وعظمتها الشعوب وقدستها ؛ وافسدنا التفكير الاجتماعي فعجز عن ان يميز بين الضلال والحقيقة وبين الخير والشر .

وفي عالم الاخلاق تناسينا ان لله وحده الحق في تنظيم سبلنا اليه، وان ارادته الواضحة، من هذه الجهة، ينبغي ان تسود، ضرورة، علاقاتنا الدينية به. لقد طالبنا باحترام حرية الضمير والمعتقد؛ لكنا ضربنا كشحاً عما سنه تعالى من الشرائع لينظم حياتنا الدينية والادبية؛ وبتنا نعيش ناعمي البال، بين خليط من الاعتقادات والعبادات ، نفسح الطريق للشهوات، كأن الله غير موجود، ونرتاح الى النظر اليها تدوف سمومها في عقول النشء وتنشب مخالبها في قلوب الشبيبة ولا نتورّع عن ان نحسب اعمالها، فينا وفيهم، نوعاً من الادب والكياسة .

وفي عالم العيلة، قبلت إلهة الحرية سجود الكثيرين وهي عاملة على ان تقتل احترام سلطة الاب المقدسة الذي يمثل الله في العيلة ويسهر على مقدراتها واخلاقها ورفاهها؛ ففي العيلة، مهد الخضوع والطاعة، ينتصب روح الاستقلال الذاتي. فيقطع الوالدون حبل الصبر على البنين حيناً؛ ويتخلقون باخلاق التهاون والونى احياناً؛ ويشق البنون عصا الطاعة للوالدين ويستثقلون نير السلطة الوالدية فيطالبون بالميراث ويسافرون الى كورة بعيدة سبقهم اليها ، من عهد بعيد ، ذلك الولد الذي شطر مال ابيه وذهب ، حراً ، يبدرقه في القصف والملاهي بين الشباب الطائش والزواني !

وفي عالم السياسة والاجتماع، ما في العيلة من الفوضى والتشويش. فلقد خسرت السلطة احتراماً سامياً، كان عليه على الناس الايمان : « بانها ظلّ الله على الارض» فيكرمونها ويحترمونها ويطيعونها، حاسبين الطاعة لها، فعلاً شريفاً وواجباً مقدساً.

شاؤا ان يخلقوا شعباً حراً، فخلقوه شعباً سيداً مستبداً ؛ شعباً يعتقد ان ينبوع السلطة، هو فيه، وان له الحق ان يسقط، اليوم، عن الكراسي اولئك الذين رفعهم، في الامس، عليها لكي يسوسوا اموره ويدبروا شؤونه، شعباً يحسد كل من يعلو عليه، شعباً ينتقد ويحكم، يراقب ويشكو، يهين ويهدد ؛ شعباً يحلم بقيام فوضى، عالمية، شاملة يتساوى بعدها الغني والفقير، الرفيع والوضيع ؛ لهذا الوضع يعمل، وفي سبيل انجاحه بث الرسل والافكار الهدامة في انحاء العالم.

وشر هذه الحرية الجديدة مرتكز على تساوي الضدين في نظرها : الحق والضلال، الديانة والكفر، الفضيلة والرزيلة، التصون والتهتك، الخير والشر تساوياً تريده بعض السلطات المدنية العصرية ويلقى لديها الحظوى والحماية ؛ ولكن متى كان للشر ما للخير من حقوق، يا سادة ؟

أيستطاع بعد ذلك تمييز الخير من الشر ؟ لقد رأينا في التاريخ ان الذين نادوا بالحرية المطلقة وتغنوا بحرمة حقوقها وقالوا : «لا تمسوا حريتنا» أمسوا، اليوم، وهم في كراسي الحكم، من اظلم الظالمين واقسى المستعبدين. لقد هضوا حقوق الفكر، وقاموا على حقوق الضمير، وانكروا علينا حق الكلام، وتعدّوا على حقوق العيلة، في تربية الاولاد، وائتمروا على حقوق الله والدين وعبثوا بحق الملكية وسلبوا حق الفقير وحق الاحيا. والمنازعين والموتى، ومع ذلك، لم يخجلوا من ان يسموا عصر حكوماتهم المستبدة عصرَ الحرية ! لقد كموا الافواه وكسروا الاقلام وصارت حرية القول وحرية الفكر وحرية المعتقد أشيا. يصادرها الحكام ويخضعونها لمشيئاتهم واهوائهم الشخصية.

لقد حان لنا، يا سادة، ان نخاف نتيجة تأليه الحرية، حان لنا ان نربي، في داخلنا، الحرية المقدسة ونحييها وننميها باخضاعها لشريعة الله ونجعل منها سيدة غرائزنا الشريرة ونستفيد من الامثولات القاسية تلقيها علينا العناية الربانية في هذه

الايام السوداء، فنعدل عن تأليه الحرية وندخل في الرأي العام، وفي اخلاقنا، وفي مؤسساتنا، وفي عيالنا، روح الله ومبادئه لنصير احراراً حقاً .

أجل، حيث يكون روح الرب، فهناك الحرية الحقة. وروح الرب هو التقيد بشريعته . فالتباعد عن الله افقدنا ، كما فعل بغيرنا ، التراث الثمين تراث السلف الصالح ، افقدنا نحن اللبناني الراسخ في عقيدته ، الحريص على شرفه ، الامين بمواعيده ، الباذل الدم حفاظاً على الدرتين الثمينتين : الايمان والاداب . «فكيف اكدر الذهب وتغير النضار الخالص»؟ اين تلك الفتاة اللبنانية الحيية التي كانت تؤثر الموت الاحمر على ان يمس شرفها باذى؟. اين تصونها من خفتها، اليوم، ومرحها في الشارع والنوادي ؟ اين تحجبها في حمى والديها بنفسجة ينم عنها عبير تواضعها وطهرها، من تبذلها، اليوم، واندفاعها الى حب الظهور متعرضة للفحات سامة تذبل نضارة جمالها وتبدد رائحة شذاها ؟

اين ذلك الشاب الاديب، الرصين ، المطيع، البر بالوالدين؟ اين نضارة وجهه، وصفاء عينيه، وابتسامته الطاهرة ؟ اين مروؤته وشهامته ومحافظته على كرامة بيته وحسن صيته ؟ اين ذلك الوالد وتلك الام يربيان الاولاد بخوف الله ويسيران امامهم : مشاعل تنير سبلهم الى كل ما هو كريم وشريف ؟ اين احترام السلطة فيها؟ بل اين جدارتها بتمثيل الله بين البنين؟ اين هيبة السلطة في الدولة ؟ اين نزاهتها ؟ اين العدالة ؟ واين الاخاء ؟ واين المساواة ؟

ايتها الحرية ! ايتها الحرية ! كم من الجرائم قد ارتكبها الناس باسمك ! كم صرعت من جبار! واضللت من عقل! وافسدت من قلب! كم من دم في مشارق الارض ومغاربها هرق على قدميك ، ايتها الالهة الغاشمة ! كم من زهرات لفحتها نار مذابحك ! كم من وحول امام تماثيلك يتخبط فيها الشبان والشابات ! كم من دسائس حيكت ! كم من قتلى جندلت ! كم من حروب اثيرت! كل هذا من ثمرات تأليهك واعمال عبادك ! ايتها الحرية ! «من لرأسي بمياه، ولعيني بينبوع دموع، فابكي نهاراً وليلاً على قتلى بنت شعبي »! من لي بيد قوية تحطم اصنام الحرية الكاذبة، في مسارح التمثيل الخلاعي، في دور السينما وفي بيوت الفسق

والدعارة، وفي تضاعيف الكتب، واعمدة الصحف والمجلات ؟ اين السلطة الشاعرة بمسؤولياتها توصد الابواب بوجه الزوار والمتعبدين لتلك الإلهة المزيفة ؟ اين الاب والام يقبضان على ازمة البنين والبنات ولا يطلقان لهم العنان ؟ اين المعلمون والمعلمات يصفعون وجه إلهة الحرية صفعةً قاسية تبرقعه بالخزي والشناعة فيعاف الناس النظر اليه ويشيحون بوجوههم عنه الى ذلك الاله الحقيقي القائل :

انا هو الرب الهك لا يكن لك اله سواي !

... لا يعلمون ولا يفهمون اذ قد غُشيَ على عيونهم لئلا يبصروا وعلى قلوبهم لئلا يفهموا ... لا يتأمل في قلبه ولا علم له ولافهم ... لقد ازاغه قلبه المغرور فلا ينقذ نفسه ... اذكر هذه يا يعقوب ويا اسرائيل فانك عبدي . قد جبلتك فانت عبد لي ... انا الرب صانع الكل ، ناشر السماوات وحدي وباسطٌ الارض بنفسي ، مبطل آيات الكذبة ومُحمّقٌ العرافين ورادٌ الحكماء الى الوراء ومسفّه علمهم !... انا القائل للعمق انشق ؟ انا اجفف انهارك .

...بمن تشبهونني وتعادلونني وبمن تماثلونني فنتشابه . انهم يفرغون الذهب من الكيس ويزنون الفضة بالميزان ويستأجرون صائغاً فيصنع ذلك الهاً فيسجدون له ويخرّون ! يحملونه على الكتف ويقلّونه ويجعلونه مكانه فينتصب لا يبرح من موضعه بل يصرخ اليه صارخ فلا يجيب ولا يخلصه من ضيقه . اذكروا ذلك وكونوا رجالاً وتأملوا بقلوبكم ايها العصاة .

(اشعيا ٤٤ — ١٨ واشعيا ٤٦ : ٥-٩)

العظة السادسة

الله

في الفرد وفي الجماعة

تعود قدماء الرومانيين ، في اجتياحهم البلدان ، ان يحملوا آلهة شعوبها ، معهم ، الى رومة ، فيضعونها في هيكل ، هو آية في فن البناء ، أسموه هيكل الالهة ؛ رغبة منهم في ان يتوددوا الى الامم التي يكونون قد احتلوا ارضها وأخضعوها . فتقدم ، يوما ، احد المسيحيين الظرفاء من ولي ذلك الهيكل وقال له : يودي ان اطرح عليك سؤالا فهل لك ان تجيبني عليه ؟ قال وليّ الهيكل : « حاجتك مقضية ، اسأل ما بدا لك ؟ قال المسيحي : »ما لي اراكم تدخلون الى هذا الهيكل آلهة الشعوب ولا تدخلون اليه يسوع الناصري ، اله المسيحيين؛ مع ان اتباعه صاروا كثرة في انحاء الامبراطورية فانتشروا في حقولها ومزارعها ومدنها وتغلغلوا في دواوينها ومؤسساتها حتى بلاط القيصر لا يخلو منهم . فلمَ لا ترضونهم ، كما ترضون سائر الشعوب ، وتدخلون الههم الى هيكل كرستموه لالهة الامم الموالية لكم ؟ فاجاب ولي الهيكل قال : كنا نفعل ، يا صاح ، لو لم يكن اله المسيحيين الها حسوداً ! فلو ادخلناه الى هذا الهيكل ، كما تريد ، لطالب بطرد جميع الالهة منه ليجلس فيه ، وحده ، مالكاً !

اجل ! لقد أصاب الروماني الوثني في ما قال ، ايها الاخوة الاعزاء ، ان الهنا ، اله حسود ، اله غيور على كرامته ومجده ؛ اله أناني محب لذاته لا

يريد ولا يطيق ان يشرك الناسُ في عبادته احداً . وارادته هذه، ظاهرة في اولى وصاياه :

انا هو الرب الهك لا يكن لك اله سواي

يريد الله من الانسان ان يقيم له في الفرد وفي العيلة وفي المجتمع هيكلاً ليحل فيه ويتقبّل من على مذبحه بخور المحبة والاحترام والعبادة وامره هذا صريح ؛ أليس هو القائل : « احب الرب الهك ، من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل ذهنك ومن كل قدرتك » . انه ، بوصفه خالقاً وحافظاً وفادياً ، يطالب المحل الاول لنفسه ويرفض ان يتخلى عنه لغيره ؛ وهذه الصفات الالهية تخوله الحق بان يكون المعبود الاوحد ، والمخدوم الاوحد ، والمحبوب الاوحد ! وتمنحه سلطاناً على عقل الانسان وعلى ضميره وعلى ارادته وقلبه .

فعقل الانسان مجبر على ان يؤمن بالحقائق التي اوحاها الله ، لان الله صادق لا يغشّ الانسان ؛ ولانه يعرف الحقيقة ، موضوع العقل ، بل انه تعالى يملكها ، كاملة ، بل هو الحقيقة بالذات يعلنها لعقل الانسان ليتبناها الانسان ويؤمن بها . ويتقاضاه ان يعرف فيه، وحده، الحق بالذات الذي لا يمكن ان يغش؛ وان يرى فيه، وحده، النور الذي، اذا سار الانسان على ضوئه، فلا يمشي في الظلام. حتى انه تعالى قد علق امر خلاص الانسان على ايمان الانسان به تعالى ؛ « مَن لا يؤمن يُدن » وبهذا اعلن سلطانه وحقه على عقل الانسان ؛ ومطلبه هذا لا يُعدّ تعدياً على حرية الانسان ولا مطلباً جريئاً ؛ لانه ، ليس في ايمان الانسان بالله ولا في خضوعه لاحكامه ، عبودية لعقل الانسان ؛ بل شرف له وحرية.

ان شرف العقل ، كل الشرف ، قائم في البحث عن الحقيقة وإحناء الرأس امامها، اجلالاً لها ؛ لا بركوب الرأس والتفكير في ما يمليه الهوى . ومن البيّن انه ، كلما استسلم المرء الى الحقيقة واعتصم بحبالها ؛ كلما توفر غناه العقلي وتعززت عظمته وحريته الفكرية ؛ وكلما تمادى في رفض الحقيقة ، مدعياً الاستقلال المطلق في تفكيره واصدار احكامه ؛ كلما اطبق الجهل عليه وتوسعت شقة ضلاله !

ان لله سلطاناً، ليس على عقل الانسان فحسب، بل على جميع نواحي الحياة البشرية، فشرائعه على الارادة والضمير، آمرة، وناهية، هي القاعدة المثلى لاجادة الاعمال البشرية. فسلطان الله على عقل الانسان يفرض عليه، كما قلنا، ان يؤمن بما يوحيه الله ويعلمه. والايمان وحياً كان ام نقلاً ام تعليماً هو اساس الدين وركنه. وسلطان الله على الضمير يتناول العمل بمضمون ذلك الوحي؛ وهذا العمل هو نتيجة الايمان الطبيعية. فالعقل يذعن لكلام الله الحق؛ والضمير يواصل تطبيق الاعمال على الايمان، قاعدة الحياة المثلى. والاذعان وتطبيق حياتنا عليه، هما ثقة بالله نباشرها وسلطة لله علينا نعترف بها. ورسالة الله الينا وفينا، خلاصتها: حقائق نؤمن بها، ووصايا نعمل بها، وفضائل نمارسها وبهذه الامور، لا بسواها، يتم تحريرنا من الاضاليل وتكمل معرفتنا للحقيقة!

فبالحقائق التي نؤمن بها وبالفضائل التي نمارسها نبلغ سعادتنا وبالحيد عن هذه وتلك، عذابنا. فان اندفع الانسان وراء الهوى وجارى الفطرة وأغوته الشهوة والمنفعة الذاتية وجرّته الامثال الرديئة فسار في طريق الضلال ناداه الضمير، ترجمان الله فيه: «ما تلك طريقك. ان ذلك لشرّ»؛ فعدّ عنه. فاذا اصغى الى صوت المنادي وصم اذنيه عن كل صوت سواه وابى ان يخترع لنفسه قاعدةَ حياة، واطّرح الادّعاء بانه الحكَم في الخير وفي الشر؛ أقر، بعمله، بسلطان الله على الضمير، ونجا من التعرض الى تعاريج الحياة وملاويها، واضاليل العقل وترهاته، وسلم من الكبرياء. ومن جَعْله نفسَهُ هدفاً لنفسه، وكان له، عندئذ، من ضميره، دليل يهديه سواء السبيل الى الحق والخير، ومنادٍ يدعوه لاطاعة اقدس كائن: لاطاعة الله، رب الكمالات؛ فيرقى في عقله ويتحرّر ويبلغ ذروة الفضيلة، ويُضحي، حقيقة، ابناً لله، عزّ وعلا!

امّا اذا استثقل نير الله فخلعه عنه فيضل عن الحقيقة، ويتيه في مهاوي الجهل؛ وينحط عن مقامه الانساني العالي ويجدّف، كما فعل يهود اورشليم اذ قالوا: «لا نريد ان يملك علينا»... «ليس لنا ملك الا قيصر»! فلبسوا، برفضهم سلطان الله عليهم، العار، وامسوا عبرة: التفكّر فيها اليم والاتعاظ بها جميل!

فمَنْ من الناس قد انكر بلسانه او بقلبه او باعماله سلطة الله عليه وبات في عالم الاخلاق والاداب والصدق والاستقامة عظيماً ! ؟ واية عائلة عبثت بشرائع الله ونواهيه ، فزهت فيها الامانة الزوجية ؟ واحتُرِمت فيها السلطة الوالدية ؟ وظل الزوج فيها راساً حكيماً ؟ والام ، قلباً عفيفاً ؛ والاولاد فرحاً لقلوب والديهم ؟ واي مجتمع فضّل المادة على الروح وعبد الخلائق دون الخالق ؛ ولم يتبلبل ويتفكك ؟ واية دولة قضت على الله بالخروج من دورها ومحاكمها ومدارسها ومشاريعها ؛ وبقيت دولة قوية الشوكة ، محترمة الجانب ؟

ان الهنا ، يا اخوة ، اله غيور على مجده لا يطيق ان تبتذله خلائقه . والتاريخ ، بين ايدينا ، شاهد على نقمة الله واقتصاصه من البشرية، كل مرة، كانت البشرية تتناساه .

لقد رفع الله يده وضرب الانسان الاول، حين سولت اليه نفسه ، ان يصير إلهاً ، مثل الله ؛ فكان ان أخرج آدم من نعيم الارض الى جحيمها .

لقد رفع الله يده وضرب، حين انغمس الناس في الرزيلة ؛ فدنسوا الارض. مما اهاب بالله الى ان يندم ، يقول الكتاب ، على خلقه الانسان؛ فكان طوفان عرمرم غسل الارض وغرق فيه كل حي ، ما عدا نوحاً واولاده !

لقد رفع الله يده وضرب حين اجتمع بنو الناس وراموا ان يشيدوا برجاً من الارض الى السماء؛ فكان ان بلبل الله السنتهم وفرقهم شيعاً واحزاباً على الارض !

لقد رفع الله يده وضرب تينك المدينتين الدنستين : سادوم وعاموره فاذا بالنار تلتهمها ، بما فيها ، حتى انه لم ينج من غضبه تعالى ولا واحد !

تلك كانت سياسته مع الشعب الذي اختاره من بين شعوب الارض، خازناً لوحيه ومنفذاً اوعده ومعلماً لشعوب الارض كيف يجب ان تسلك مع الله وكيف ينبغي ان تقوم بواجباتها نحوه تعالى. فالسيف والوباء ، والتشتت والجلاء عن ارض الموعد، كان، على التوالي، عقاب النسيان وغموط النعمة وقلة العرفان؛ ولم يتورع الله عن ان يجعل سماء فلسطين حديداً وارضها نحاساً مدة ثلاث سنين

وستة اشهر ، جزاء لخيانة ذلك الشعب ، القاسي القلب ، الغليظ الرقبة ، الذي ترك الهه ، وقد اخرجه من ارض العبودية ، ليعبد « البعليم » وسائر آلهة الارض . وما زال الله يحنو عليه ، مرة ، ويقسو عليه اخرى حتى ارسل اليه ، في ملء الازمنة ، ابنه الحبيب ؛ فتنكر له ذلك الشعب ، المادي بافكاره ورغباته وابى ان يملكه عليه ، وبلغت به القحة الى ان يصلبه ويحمل نفسه مسؤولية جريمته : « دمه علينا وعلى اولادنا » فكان ان قرصص هذا الشعب قصاصات هائلة ، وكانت اولاها ، كما سنرى ، حصار تيطس الروماني لاورشليم وتشتت اليهود ، تحت كل كوكب .

تلك كانت خطة الله مع الافراد والعيال والدول والشعوب ولا تزال هي هي ؛ وقد زاد تجسد الكلمة ونشر الانجيل الارضَ مسؤولية امام العدل الالهي . فاجرآته ، على ممر الاجيال بينة ؛ وقصاصاته رهيبة ؛ وغضباته التي اعلنها باحرف من نار ، تثبت ان الانسان لا يمكنه ان يستغني عن السلطة الالهية ولا ان يتملص من سلطان الله عليه .

امّا الذين عرفوا سلطة الله الادبية فآمنوا بها او افاقوا من سكرة ذهول عنه ونسيان له كانوا يتخبطون فيها ؛ فهؤلاء قد سمت نفوسهم الى ما هو اشرف واسمى فصاروا زينة التاريخ برسومهم وتراجمهم ؛ والفضل ، في إنابتهم الى الله ، راجع الى ضميرهم ، الخاضع لسلطان الله . فنظرة الى داود والى شاوول بولس والى المجدلية والى اغسطينس والى شارل فوكول والى غيرهم ، وهم كثرة ، تنبأكم عن حطتهم ، بعيدين عن الله ؛ وعن سموهم بعد توبتهم . لقد أصغوا الى صوت الضمير فأفهموا العالم ان الله ، هو في الحقيقة ، رب الضمائر وان سلطانه على الضمير خيرٌ لمن يخضعون له ؛ ونفعٌ لمن يعبدونه .

وكما ان سلطان الله يشمل الانسان شخصاً فرداً يشمله متى انضم الى مثيله وألّف عيلة بشرية ؛ وذلك بالزواج الذي اشترعه بقوله « انميا واكثرا » ويشمل النسل بالولد ، موجباً ولادته ثانية من الماء والروح ؛ ويتناوله بتربيته وتعليمه ومدرسته واستاذه وكتابه والمؤسسات العائلية والدينية والمدارسية

القائمة على تهذيب النش. واعداد رجال الغد .

والحياة الاجتماعية كالحياة الفردية والعائلية تخضع لسلطان الله الاسمى. فالشعب في حالته ودعوته الاجتماعية مرجعه الله . فهو الحاكم بسلطانه على حياة الجماعات السياسية والاجتماعية ، على المهن والعمل والنشاط الاقتصادي ، وفي الجملة على الافعال البشرية بأسرها . فالقائمون على الحكم ، ايًا كانوا وكان شكل حكوماتهم ، لا يزالون ، وهم في منصة حكمهم ، كسائر الناس ، بشراً يتعلقون به تعالى ويرجعون اليه رجوعهم الى مبدعهم وخالقهم . فهم «للناس مشترعون؛ يحكمون فيهم ؛ اما ، في عين الله ، فهم والنـاس سواء ، يذكرهم بهذا قول الحكيم : «وانتم ايها الملوك فاسمعوا وتعقلوا . ويا قضاة اقاصي الارض اتعظوا . اصغوا ، ايها المتسلطون على الجماهير ، المفتخرون بجموع الامم فان سلطانكم من الرب وقدرتكم من العـلي الذي سيفحص اعمالكم ويستقصي نياتكم »

اجل ان كل سلطة ، مصدرها الله ، لا يقوم لها ، من دون الله ، وزن ولا كيان ، فعلى ساسة العالم ان يكونوا على وفاق والفكرة الدينية الصحيحة في مرمى هذه الحياة ؛ فيعترفون اعترافاً ، لا غبار عليه ، بغاية الانسان الفائقة الطبيعة من وجوده ، ويساعدون الناس بشرائعهم وتدابيرهم على بلوغ تلك الغاية من دون ما تفريق بين شعب وشعب او جنس وجنس ، فانهم اخوة لاب واحد ؛ هو الله

ان اهتمام الدولة بالخير العام الزمني يجب ان يكون ، من حيث طبيعة الاشيا ، وتنظيمها ، خاضعاً للاهتمام بالخيور الابدية التي عهد بها الله الى السلطة الروحية ، الممثلة له في الارض ؛ لذلك لزم الدولة ان تراعي في تشريعها ارادة الله وتستنير بآراء السلطة الروحية .

وشر ما تأتيه الدولة بحق هذه السلطة ان تهمل او تتغافل عن إخضاعها الخير الزمني للخير الابدي والانسانَ لله خالقه . فان ابت ان تحترم هـذا الوضع الالهي وعبثت بملك الله ، زعزعت اركان سلطتها المرتكزة على ايمان الناس بكونها ظلّ الله على الارض . فان الله لم يعط انساناً الحق ليكوّن المملكة البشريـة على خاطره وهواه ؛ غير حافل بوجوده تعالى وغايته من

خلق الانسان .

فالايمان بالله حقيقة اساسية لا بد منها للمجتمع البشري في جميع حالاته . فوجود الله في العيلة يحفظ نظامها . فالرجل يكون رأسها والمرأة قلبها ، والولد، نواتها وبهجتها ؛ وبالايمان يخيم السلام في ارجائها وتتقدس الافراح والالام فيها.

وجود الله في المدرسة يذكر الاستاذ بضرورة مزج التعليم بالحقيقة الابدية فيعرف ان التلميذ ليس رأساً يحشوه علماً فقط؛ بل قلب يهذب ارادته ومشاعره ويقوّم امياله واشواقه ؛ وليس جسداً يقوي منه العضلات فحسب ، بل نفس حرة خلقت على صورة الله ومثاله فيطبع فيها الاخلاق الحسنة ويمرّنها على الفضائل بامثلته وكلامه .

ووجود الله في الدولة يذكر الحاكم بان سلطانه من الله وانه مقام لخدمة الشعب ومصلحته العامة ؛ لا لاجل اللذة والتنعم بالجلوس على الكراسي وقبض المعاش ؛ وانه « سيمضي على الحكّام قضاء شديد. فان الصغير أهلٌ الرحمة اما ارباب القوة ، فبقوة يفحصون ورب الجميع لا يستثني احداً ولا يهاب العظمة لان الصغير والعظيم كليهما صنعه على السواء . وعنايته تعم الجميع ! »

وجود الله يذكر القاضي بان يحكم للناس بالعدل ؛ عالماً ان له ديّاناً يناقشه الحساب. ويذكر المشترعين بما عليهم من واجب في فرض شرائعهم وفقاً للنظام الازلي ليقودوا الناس في طريق الخلاص .

فمن اعلى السماوات يفيض الله اشعّةً من عدله ورحمته على حكام الشعوب. ومجرد الايمان به ايماناً حياً يضمن الطمأنينة لهم والسلام فيهم؛ لكنهم، يومَ عزلوه من نواديهم ومن مجالسهم ومدارسهم ومستشفياتهم ، وانزلوا صوره من بيوتهم ومن فوق اسرّتهم، تزعزعت اسس العدل في الدول وتفاقمت الاضطرابات وحل البغض والحسد في قلوب الناس من مختلف الطبقات ؛ فكثرت جرائم الاحداث وتفشى الفساد والشقاق والطلاق في العيال وَسئم المرضى الالم والحياة وتأفف العمّال من العمل وقسّى المالُ قلوبَ الاغنياء. ولم يعد من ثبات للعقود ولا من قيمة للمعاهدات وانتُهكَ كل شرع ادبي ولم يبق من وسيلة للحؤول

دون نكبة الشعوب بالحروب ، والعيال بالشقاء والاضطراب . وامسى بعض الناس ، مع اعتصامهم ، ظاهراً ، بواجباتهم الدينية ، يتصرفون كما لو كان لهم ضميران ؛ فيسلكون في ما يتعلق بشغلهم او صناعتهم او مهنهم او تجارتهم او وظيفتهم ، سلوكاً قلما يتفق ومقتضيات ايمانهم الآمر بالعدل والمحبة فيشككون الضعفاء ويفسحون للاشرار مجالاً واسعاً للحط من منزلة ديانتهم نفسها .

وقد خرقوا حرمة العدل والحق الواضح ، يوم عدوا الله عدواً للمجتمع البشري ونسوا انه بعد ان قال : « أعطوا الله ما هو لله ، » أضاف و « أعطوا قيصر ما هو لقيصر . » فتسلحوا عليه بسياسة رؤساء شعبه ونادوا بما نادى به ذلك الشعب الذي قتل الهه : «لا نريد ان يملك هذا علينا». فعاقبهم الله على كفرهم به ؛ فلم تمض بضع عشرات من السنين على صياحهم امام بيلاطس : « ليس لنا ملك غير قيصر » حتى احاطت جنود قيصر باورشليم وانزلت بها اهوالاً دونها اهوال الاجيال الغابرة ؛ وسمح الله بان تجتمع الى الحرب الخارجية حربٌ داخلية اهلية ؛ فاقتتل الاخوان في المدينة المحاصرة وتذابحوا ؛ وبلغت المجاعة اقصى حدودها فذبحت الام ولدها واكلت ثمرة احشائها وتعددت اوامر طيطس بعقوبة الصلب فنفدت الاشجار التي كان جنده يصنع منها صلباناً للمحكوم عليهم وتدفق الرومانيون سيلاً جارفاً على المدينة فذبحوا الاطفال والنساء ؛ الاغنياء والفقراء ؛ الكهنة والشعب ؛ ومشوا على جثث القتلى وجعلوا هيكل سليمان الفخم ، مجد اليهود ، كتلة من نار ولم يبقوا في المدينة حجراً على حجر ، والقى القيصر الذي طلبوه وملكوه عليهم يده الحديدية عليهم وعلى مدينتهم وحول ارضاً ، كانت تدر عليهم لبناً وعسلاً ، صحراء قاحلة .

« ليس لنا ملك غير قيصر » فيا للسخافة ! ويا للجنون !

ان العاقل مَنْ اعتبر ، يا سامعي الكرام ، والتاريخ مدرسة الحاضر يلقي على الناس دروساً تجعلهم في منجاة من الخطر وتسعدهم ان عملوا بها .

ولكن الغرور اغوى أناساً في عصرنا فساروا في طريق العصاة السالفين ورددوا : «لا نريد ان يملك الله علينا» . . «ليس لنا ملك غير قيصر» ، غير شهوتنا

غير ما نرى ونلمس ، غير حريتنا . نحن احرار في تفكيرنا ، احرار في بيوتنا واولادنا ، احرار في مدرستنا ، احرار في تشريعنا واحكامنا، احرار في سياستنا واجتماعنا . فكانت حوادث هذه الايام المؤلمة نتيجة التحرر من سلطان الله الاسمى : حروباً واهوالاً دونها حرب طيطس وأهوالها ، ناراً طعامها الشبان والشابات، الاطفال والشيوخ، القرى والمدن، الزرع والضرع ، ناراً احرقت الف هيكل وهيكل ودكت الف صرح وصرح ؛ فساداً فكك اواصر العيلة البشرية وجعل الانسان ذئباً ازاء اخيه الانسان ، فأرجعت البشرية الى الوثنية ، الى الوراء اجيالا .

فيا ليت الذي اضطهدوه ، يظهر لهم من السماء ، كما ظهر لبولس في طريق الشام ، فتستنير عقولهم ويؤمنون به ويقولون : « ماذا تريد يا رب ان نصنع » فيسمعون عندئذٍ في اعماق ضمائرهم وقلوبهم وفي طيات نفوسهم صوت الله «يا إسرائيل: اعقد هذه الوصية على جبينك واحفرها في قلبك ورددها على بنيك: »

« انا هو الرب الهك لا يكن لك اله سواي ! »

صنّاع التماثيل كلهم باطل ومشتهياتهم لا فائدة فيها وهم شهود عليها بانها لا تبصر ولا تفهم . . . والنجار يمدّ الخيط ويعلم الخشب بالمغرة ويسويه بالمنحت ويرسمه بالبوكار ويصنعه على شكل انسان وجمال بشر . . . يقطع له ارزاً ويأخذ السرو . . . ويعمل منه الهاً ويخرّ له ويصنع منه تمثالاً ويسجد له. يُحرق نصفه بالنار وعلى نصفه يأكل لحماً . . . ويصنع بقيته الهاً، تمثالاً له ويسجد له ويخرّ ويصلي اليه ويقول : انقذني فانما انت الهي .

(اشعيا – ٤٤ عدد ٩ – ١٨)

العظة السابعة

إما الله ، وإما الخرافات !

ايها الاخوة الاعزاء ،

الايمان بالله ميزة من مزايا النفس البشرية ؛ ولكن هناك محاولات أجريت وايادي امتدت لتنتزع هذا الايمان منها ؛ ففشلت ولم تبلغ هدفها ؛ ولا يزال الظمأ الى الالوهية ، في الانسان ، محرقاً . فان وُجد ، على الارض ، اناس استطاعوا ان يفسدوا معتقدهم بالاله الحي ؛ فانهم لم يقووا على ان يلاشوا الشعور الديني فيهم ؛ بل رأيناهم ، على مر الاجيال ، ينغمسون في وحول الاوهام والخرافات ، ما بعدوا عن الايمان بالاله الحق !

قوام الخرافة ، ايها الاخوة ، ان ننسب الى خليقة ، اية كانت ، قوة لم يخولها الله اياها ! فاذا درستم تاريخ العالم الديني ، دهشتم ان تروا الاوهام والاعتقادات الباطلة والخرافات تنشأ وتترعرع في ادمغة الزعماء والمفكرين في البشرية قبل ان تتجسم في عقول السوقة وعامة الشعب !

اعتقدت رومة بالالوهية وخلود النفس ؛ بالشريعة الادبية وبالواجب ؛ بالثواب والعقاب بعد القبر ؛ فقويت شوكتها ؛ وعظم شأنها ؛ فهابتها المسكونة ودانت لها ؛ على ان الشبع من خيور الفتوحات والتخمة من المسلوبات أبطرها ، فافقدها غناها وبطرُها ايمانها بالله ؛ فذابت عندئذ عظمتها وامسى الرومانيون ماديين

بافكارهم ورغباتهم ؛ اشراراً ، قاسين في معاطياتهم وجبنـاء في لادينيتهم ؛ فتهافتوا ، في كفرهم ، على الخرافات ؛ واهمين انهم ، بذلك ، يسدّون فراغاً في انفسهم ؛ فراحوا يكثرون من بناء الهياكل لالهة جديدة ؛ كأن آلهتهم القديمة، لم يعد بوسعها، ان تكفيهم. ومع انهم كانوا كافرين بالالهة القديمة والجديدة معاً ظلوا يمتثلون امر القيصر، الههم وحبرهم الاعظم ويترددون الى الهياكل لاقامة شواعر العبادة وتقديم الضحايا لالهة كانوا يحتقرونها .

على ان احتقارهم الالهة ، عجز عن ان يمحو من عقولهم وقلوبهم رهبـة القوات الخفية ؛ فتمسكوا بالخرافات ، في زمان كفرهم والحادهم ، اكثر من امس فما قبـل ؛ فنمت اعتقاداتهم الباطلة وتناسلت في لادينيتهم كما يعيش الدود في الجثث ويتناسل !

لقد قصّر المؤرخون ، مع غلوهم ، عن تعداد خرافات رومة في عهد امبراطرتها الكفرة . فيولوس قيصر ، المشهور بشكه بالالهة وارتيابه بوجودهـا ، كان يتلفظ ، كصبي ساذج ، بايات يمليها عليه السحرة والعرّافون ، قبل ان يصعد الى مركبته الحربية ؛ وطيباريوس ، المخيف ، المائل ، ألزم الناس بعبادتـه ؛ وعبد هو منجمه ؛ ومارك اورال ، الاديب العالم ، والحكيم المشهور ، لم يحجم عن ان يتلمّس المشورة من افواه المجوس والكهّان ، ويستطلع طالع اموره ونياته ومقاصده من حية سبق فألها ؛ وجوليان الجاحد ، الذي حنت عليه الكنيسة وربته ثم انقلب عليها وراح يعضّ الثديين اللتين ارتضعهما ؛ كان يرى أشباحْ الشؤم ، في كل مكان ، مما حمله على ان يكثر من حوله العرافين والكهّان، ليتقي شر تلك الاشباح واخطارها ! واكبر المفكرين، وأعظم الساخرين بالعرافة، الهازئين بالسحر ؛ شيشرون ، وتاسيت ، وهوراس لم يتورعوا عن الاخذ باقوال المنجمين والعمل بفتاويهم ! «وسياتون» المؤرخ و«بلين» الكاتب المفكر قد انكرا وجود الله ، ووجود النفس ، واستسلما الى خرافات لا يمكن تصورها؛ فاعتقدا بقوة الطلاسم والرقى ؛ وتشآما وتفآلا مع العرّافين بحركة الطيور في اكلهـا وبحركة احشائها بعد بَقْرها! ويضيق بنا المقام اذا جئنا نعدد الخرافات التي

اعتقد بها ارباب القلم وامراء الفكر في الوثنية القديمة الملحدة . لكن الشيء الذي نمتعض منه هو ان نرى الرومانيين ، يوم كانوا يعـدّون التبشير بالدين المسيحي ، جريمة ، كانوا يؤسسون للعرافين مدارس ؛ ويقيمون للمنجمين منابر ، فشاع ، في تلك الايام ، الادعاء بمعرفة الغيب وساد الاعتقاد بالسحر واخذت كل عيلة غنية منجماً لها او عرافاً ؛ كما تأخذ العيال ، في ايامنا ؛ اطباء لها ؛ فاحترف في دولة احرار الفكر ، حرفةَ السحر كثيرون وأثروا !

كل هـذا لم يرو غليلَ اولئك الوثنيين الملاحدة ؛ بل كنت ترى ، في رومة وفي سائر البلدان ، التابعة لها ، اباء العيال وامهاتها يصومون ويتقشفون ويجلدون اجسادهم ويبترون اعضاءهم ؛ لا رغبةً في اخضاع اللحم للروح ؛ بل بغية ان يقوموا بعبادة ام الالهة الدموية ؛ وطمعاً بعطف آلهة كانوا كافرين بها ، وارضاء لمـا في نفوسهم من غريزة دينية ضلّت السبيل الى موضوعهـا الحقيقي ، الى الله الذي خلقها !

خاف الكسندروس سيفار وأدريانوس وغيرهما من الامبراطرة الملحدين ان يسيئوا الى اله مجهول ؛ فرفعوا يسوع الى مصاف الالهـة ؛ لكنهم اشترطوا عليه ان يرضى بكهنة « مارس » و « فانيس » خَدَمَةً له وان يعمل ، في سبيل شهواتهم الامبراطورية ، على منوال سائر الالهة ؛ وما درى المساكين ان يسوع لم يأت ليامي النـاس ويمالق أميالهم ؛ بل جاء ليشفيهم من شرورهم الروحية وامراضهم الادبية ! لكن بني اليأس آبوا ان يُشفوا « وعجزوا ، كما قال تيتليف ، عن ان يحتملوا أوجاعهم ويستذوقوا أدويتها » ؛ فرأينا شعب رومة ونبلاءها يغرقون في وحول الخرافات ويشحذون السيوف ويخترعون الات التعذيب للتنكيل بالمسيحيين ويربّون الاسود والوحوش الضارية ليطلقوها على المسيحية لانهم حسبوها خرافة !

أترانا ، نحن ، في عصر النور ، نبصر الامور وندركهـا اكثر منهم ؟ قال شاتوبريان : « لا بد للانسان من رجاء » ، وقال شاعرنا العربي : . . . ما أضيق العيش لولا فسحة الامل » ! وكلاهما محق ، صادق ! فاذا حُرمَ الانسان الانبياء

لجأ الى العرافين ؛ واذا أقفل معابد الرب ، فتح مغاور السحرة !

ان الاوساط اللادينية ارضٌ تنمو فيها الخرافات . فيا ليت الذين يحوّلون البشر عن الله خالقهم، بسلبهم الايمان من العقول وبانتزاعهم الرجاء من القلوب، دافعين بها ، إمّا الى اليأس وإمّا الى الخرافات والاعتقادات الباطلة ، يقطعون تقطيعاً .

اننا نرى ، اليوم ، والالم يحزّ في نفوسنا ، كما رأينا في التاريخ ، العلماء والادباء والمفكرين يسبقون العامة والبسطاء الى الكفر والخرافات .

قال « تان » : ان المجامع العلمية العصرية قامت ، اليوم ، مقام مجامع الكنيسة ؛ على ان البشرية لم تكن بحاجة الى هذه المجامع العلمية العصرية لتفسد على الانسان ايمانه بالله وتحيد به عن العمل بالوصايا والتعاليم الالهية ؛ ان مشعوذاً واحداً كان يكفي ليقوم بهذه المهمة! وقال علماء جيل الالحاد ، بعد زعيمهم فولتير : « لنسحق اخطبوط الخرافة » وعنوا بقولهم هذا ، الكنيسة الكاثوليكية ! فأخذوا يصلونها حرباً عواناً ليتمكنوا من سحقها والقضاء عليها وينعتقوا هم من خرافاتها ويحرّروا البشرية منها ، كما ادّعوا ، كاذبين ! لكننا رأيناهم ، في حريتهم الملتوية ، يطيرون الى مغارة « مسمر » والى ربها كاجلياسترو الذي كان يزعم انه يتعاطى دائماً مع ملائكةٍ سبعةٍ ؛ ويسيم كاهناتٍ من الشابات الجميلات . وكان مؤلفو دائرة المعارف وقارئوها ، في ذلك العصر ، يقبلون عليه ويقبّلون رجليه ويستغيثون به ويدعونه الاب المعبود ويخرون امامه ساجدين وينصبون تمثاله النصفي في مكان الصليب . أمّا والدنيا أخرة ، فاننا رأينا ذلك الاب المعبود يموت في السجن لانه سرق وقتل وتهتك و . . . !

ان الذين هيأوا الثورة الفرنسية هم جماعة الاحرار، احرار الفكر والمعتقد؛ بيد ان الثورة التي أثاروها هي التي ابدعت آلهة العقل ثم عبادة الكائن الاعظم ثم عبادة البشرية واقامت روبلسبيار الدموي كاهناً لها . فاعادوا اللحم الى مقامه السابق؛ فألّهَ اربابُ العقل والحرية الشهوةَ اللحمية وسجدوا لها ، في شخص شابة متهتكة

اقاموها مكان تمثال السيدة العذراء ، في كنيستها الكبرى ، في باريس ، وقامت الاشتراكية الحديثة العهد فوعدت جميع الناس بنعيم ارضي ، لا تعب فيه ولا ألم ، وأكد عالمها « فوريه » ان الانسان سيعيش في النعيم الجديد ، مئة و٤٤ سنة وان قامته ستبلغ الثلاثة امتار على الاقل ، وانه سيحول بقوة الحامض الشمالي ، مياه البحر الى « ليموناضة » واسماكه الى حيوانات لنقل الاثقال على وجه الارض .

فهل تلاشى هذا الجنون في عصرنا ؟ كلا ! يا سامعي الكرام ، فانه لا يزال شائعاً ، لكنه أخذ بماشة « الموض » والازياء ، فلقد بدل زيه ولباسه. « ففوريه » يعدّ معتدلًا جداً بالنظر الى «اوجين فورينار» ، الاشتراكي المشهور. لقد قرأنا له في مجلة « ماركسيست» ابحاثاً غريبة في بابها . قال : « لقد دنا وقتٌ وحان زمانٌ يحفظ العلمُ فيه الانسانَ من الموت ؛ اللهم ! ان لم يشأ هو نفسه ان يموت . فعظامه ستصير اقسى من الماس واصلب ، واجهزته ستقوى وتكثر ، مما سيساعده على ان ينتقل متنزهاً من كوكب الى كوكب !

مسكين ، انت ايها العلم ، كم من البلاهات والخرافات نقلوها عنك! وكم من الجرائم إرتكبوها باسمك !

اننا لنعجب من قوم كافرين يسبقون المؤمنين الاقحاح الى الايمان ! يعتقدون بعجائب فسبزيانوس لئلا يؤمنوا بعجائب موسى ، يخجلون من وضع المصلوب في بيوتهم ويسمرون على مداخلها نضوة فرس ، يستحيون من ان يعلقوا في اعناقهم ايقونة او صليباً ويضعون على صدورهم حبة زرقاء - وقاية لهم من العين الشريرة - ورسم حذاء او تمثال كلب او ثعلب او حيوان آخر .

ألم تقرأوا ، كما قرأت انا - ان سيدة اميركية ابتاعت حبل مشنوق باربعين الف دولار لتحمله عليها تفاؤلًا وانتجاعاً للخير والبركات ؟ او لم يستعض اهل عصرنا من ذكر الله والصليب بلمس الخشب والضرب عليه؟! ألا تتشاءم بعض الاوساط برأى كاهن يرتدي السواد وتقول : « صباح النوري ولا صباح الخوري » ألا تتبرم اذا صادفنا قطيعاً من الماعز ، في مسائنا او صباحنا ، وتنبسط اساريرنا

اذا ما التقينا بقطيع من الغنم ؟! ما معنى تلك التعاويذ نعلقها على صدورنا ؟ وتلك الطلاسم تنيطها على اعناق مواشينا ، وعلى مقدمات سياراتنا ؟ ما للقوم لا يجلسون ثلاثة عشر الى طاولة ولو كانوا اخوة واقرباء ؟! ما بالهم لا يباتون في غرفة من غرف فندق نزلوا فيه اذا كانت تحمل ذلك الرقم المشؤوم على زعمهم! ألا بحقكم قولوا لي في، اي عصر نعيش؟ فهل نحن في عصر النور والاكتشافات ام في عصر الجهل والظلمات؟

ألم يعتقد «فولتير» الملحد وصديقاه «ديدرو» و «دالمبار» بايام الفأل والشؤم؟ ألم يصدقوا السحر والعرافة ألم يقل «فيكتور هوغو» بمناجاة الارواح وبدوران الطاولات؟ ألم يتشاءم «اميل زولا» برقم ٣ وعدد ١٣ ويتفاءل بعدد ٧ بحيث انه كان يكفيه ان يفتح عينيه سبع مرات ، في ظلام الليل، ليبعد عنه شبح الموت. أجل لقد تمادى هؤلاء العلماء والكتبة والفلاسفة في اضاليلهم وان لم يعتقدوا بصدق ما به كانوا يعلمون، لذلك رأينا مشكلة ما وراء القبر تقلقهم وتحرم عيونهم النوم.

اما الانجيل فقد وفر لامثالهم جواباً صريحاً، مشبعاً للعقل، ومريحاً للقلب فانتقصوه لصراحته ووضوحه، لانهم اعداء النور والوضوح مؤثرين ان يختبئوا وراء ظلام الاوهام والخرافات!

كانت مهنة الكهانة والسحر والرقى في رومة اوسع المهن استدراراً للمال وها هي اليوم في الاوساط اللادينية، اوسع منها في القديم. يحقق لنا القول ما ينشره العرافون ومريدوهم على صفحات الجرائد من الاعمدة الطويلة دعايةً لهم. وفي بيروت، مدينة العلم ومنارة الشرق لم تخجل بعض صحفها ولم يتورع بعض ابناء لبناننا العزيز من ان ينشروا اشياء كثيرة عن «دكتور» أدهش بعض العقول بما ادعى من مهارة في علم الغيب. وليس العهد بهم وبه ببعيد.

تعليم محذور ومهنة تمنع تعاطيها مجلة القانون، ومع ذلك، ردّوا، ان استطعتم، عن ابوابهم العملة والمفكرين والشعراء والعلماء واصحابَ المصارف. ففي غرف هؤلاء العرافين ارواح تناجى وطاولات تدور وزلال بيض يسيل وافكارٌ

وخطوطُ يدٍ تقرأ، وطرقُ سعادة تمهد، وثروات تحصل؛ واسطر ترسم على الرمل واحلام تفسر ولكن بعد جرائم منكرة ترتكب!.

فالبشرية التي فقدت الهها وانكرت ايمانها بالروح لم يتغير عليها شيء، حتى في عصر القنبلة الذرية! حرّمت رومة على المسيحيين ان يفتحوا المدارس لتلقين احداثهم المبادىء الدينية يوم كانت تفتح المدارس للمشعوذين والمخرقين وكذلك تفعل دول عصرنا اللادينية؛ فانها تحرم على فئة من المواطنين حقهم الشرعي في فتح المدارس وتأذن لاولئك المضلين ان ينشروا ما يريدون، ويكتبوا ما يشاؤون، ويلقوا على الناس من تعاليمهم السحرية الخداعة ما يبتغون! كل هذا ونحن لا نزال على مدخل غابة الخرافات. فهناك الجمعيات السرية وطقوس الماسونية. فقد مضى جيلان ونحن نرى اناساً لا يؤمنون. عقول ذكية راجحة، قوم اغنياء، وموظفون لهم سطوتهم ونفوذهم في عالم الاجتماع تمادوا في الغوايات وانغمسوا في الخرافات. اسمعوا اميراً بدل ثيابه من ثياب كاهن اعظم وشد ازره بمنطقة من جلد ولمعت حوله المثلثة الزوايا وشعت في عينيه عين «يافه»، عين المهندس الاعظم، اسمعوه يقص عليكم مجازفات سيدنا سليمان وعظائم حيرام وافعال الاخ يعقوب ابي الاسباط. ففي عصر النور الذي استغنى الانسان فيه عن الله، رأينا رجالاً احراراً يخضعون لطقوس تقزز النفوس توصلاً الى الانخراط في سلك تلك الجمعية السرية. عدوا السجدات، ان استطعتم، واسمعوا المواعظ وارهفوا آذانكم الى سماع الاقسام المغلظة بالطاعة العمياء، وانظروهم يجتازون رويداً رويداً من الظلمة الى النور ليصلوا الى آخر الدرجات، الى الدرجة الثالثة والثلاثين!.

نعم لقد اوجز ارباب هذه الجمعيات طقوسهم، في ايامنا، وحذفوا الاستغاثة بالمهندس الاعظم، فدبّ بينهم الشقاق من جراء ذلك وتفرقوا بدعاً وشيعاً. واختصر الشرق الاعظم «ليتورجيته» ولكنه اعتاض منها بما هو اقبح: بمحاربة الله وكنيسته، بمحاربة كل سلطة على الارض لا تكون من صنع يديه: حرب طاحنة وعراك مستمر لا هوادة فيها وفيه؛ كل ذلك ليسلبوا الكنيسة غناها

المزعوم والسلطة المدنية وسائلها وقواها ليذروا في حقل البشرية زؤان تعاليمهم الكفرية . وعندما ننظر الى ما وضعوه موضع الحقائق التي علمها المسيح يذهب بنا الفكر الى الملك الذي باع مملكته واشترى بثمنها قطيعاً من الاوز .

افتتح بيوس التاسع المجمع الفاتيكاني في الثامن من كانون الثاني سنة ١٨٦٩ فتحداه الاحرار وفتحوا مجمعاً في نابولي حددوا فيه أنَّ العلم هو ينبوع الاعتقاد ونبذوا كل حقيقة تستند الى الوحي وطالبوا الدول بالثقافة العلمانية المادية البحتة ؛ زاعمين ان الايمان بالله هو مصدر الظلم على الارض، وان الديانة الكاثوليكية هي المحافظة على هذا الايمان ؛ لذلك اتخذوا القرارات ووضعوا الخطط لابادتها وملاشاتها. وقد وضعوا الانسانَ مكان الله ، ومكان عبادته، عبادةَ البشرية ؛ معتبرين انها الآلهة الحقيقية : لها كل الحقوق وليسْ عليها واجبات . ومحلّ الثالوث الاقدس اقاموا ثالوث العيلة : الوالد والوالدة والولد؛ وعلى هذه الاسس الواهية اقاموا صرح البشرية فنشبت حروب قوّضت معالم الفن ودكت العروش ودحرجت التيجان وقلبت الكراسي بمن عليها وساد الحسد والبغض بين طبقات الهيئة الاجتماعية .

لفظ الكاتب الشهير، لويس برتران، خطاباً في جمعية الامم فذكّرها بالاتحاد المقدس الذي عقد سنة ١٨١٥ وحمل تواقيع الدول ، الا دولة واحدة ، وعُقِد باسم الثالوث الاقدس غير المنظور وكانت الغاية منه بسط السلام في العالم؛ فعاش السلام اربعين سنة !

ترقى الفكر وتحرر واستغنى الانسان عن الله خالقه كما ادّعوا ، فقام ويلسن، بعد الحرب الكونية، فألف جمعية الامم وعمدها باسم ثالوث آخر هو الحق والعدالة والديموقراطية. فعاشت الجمعية هزيلة نحيلة وعجزت عن فصل اختلافات نشبت؛ وما عتمت ان تفككت عراها لانها لم تراع الحق ولم تعمل بالعدل ولم تفهم من الديمقراطية الا مصلحة القائمين بها وعليها ، فقامت القوة تفرض ارادتها فدوى المدفع وازّت الطائرات وغمر البشرية طوفان من الدم عرمرم . فنفرت حمامة السلام مروعة؛ وبتنا نرقبها تعود الينا، حاملة غصن الزيتون، بقلوب كثيرة وعيون

دامعة ونفوس حزينة !

الفراغ، ايها الاعزاء، لا يملأ الفراغ، والنفس جائعة ابداً الى خبز الالوهية ظمآنة الى معين يبرد غليلها . فباطلاً تحاول سد جوعها بفتات يتساقط من موائد المنجمين والعرافين وعبثاً تبحث عن آبار العبادات الباطلة المشققة، عن حفنة ماء تنقع بها غلتها وتبرد بها عطشها، فالآبار الآسنة مورد النفوس السقيمة، الضالة والمضلة، ومنتجع القلوب الفاسدة التي تصرف مسامعها عن الحق وتميل الى الخرافات.

ان عقلنا الجائع الى الحق وقلبنا الملتهب عطشاً الى السعادة لا يجدان لهما خبزاً حياً ولا يهتديان الى ماء نقي، عذب، الا على مائدة ذلك المعلم الالهي. فيسوع هو «الطريق والحق والحياة». فمن آمن به لا يخزى ومن سار على ضوء انجيله لا يمشي في الظلام، بل يسير تواً الى الحق الازلي، الى الاله الحق، الى رب السماء والارض الذي سحق الاصنام ورذل الخرافات وتعداد الالهة وقال آمراً :

انا هو الرب الهك لا يكن لك اله سواي !

على كل مربي ان يكون خلاقاً ، خلاق ألهة ؛ والعقل ، دون الدين ، لا يوصله الى بغيته . فان اعتمد على العقل وحده كان اشبه بقائد يأمر جنوده ليحتلوا حصناً منيعاً ؛ لكنه يسهى عن ان يزودهم بالسلاح والغذاء . اما الدين فانه يصدر الاوامر عينها : كن طاهراً ! كن عادلاً ! كن محباً ، مضحياً ومعها يقدم للمؤمن ما يحتاج اليه من أعتدة ومؤون . فيعلمه الصلاة ويسهل له ممارسة الاسرار . فهذه ، وان لم تعف من الجهد والجهاد ، فانها تجعل الجهد ممكناً والجهاد سهلاً !

العظة الثامنة

إما الله وإما لا شيء!

ايها الاخوة الاعزاء،

جاء في الكتاب المقدس ان الله امر يونان النبي بالذهاب الى نينوى لينذر ساكنيها بالتوبة وان لم يتوبوا، في مدة ثلاثة ايام، تخسف نينوى المدينة العظيمة؛ فاستصعب يونان العمل وحاول ان يهرب من وجه الرب الى ترشيش – اسبانية اليوم – فركب البحر وما ان قطعت السفينة بعض اميال حتى هاج البحر فخاف يونان وهبط الى قعر السفينة ونام؛ فدنا ربانها منه فوجده مضجعاً في جوف السفينة مستغرقاً في النوم فأيقظه وسأله: من انت؟ ما مهنتك؟ من اين جئت؟ والى اين تذهب؟ فأجاب يونان: «انا خادم الرب، اله السماوات، الذي صنع البحر واليبس»!

بهذه الكلمات حصر الكتاب المقدس الانسان كله في الله؛ مَن انت، يا يونان؟ – انا خادم الله! ما مهنتك؟ – خدمة الله! من اين جئت والى اين تذهب؟ – من الله والى الله!

اجل، يا اخوة، ان الله هو كل شيء للانسان! هو الخالق والحافظ والفادي والغاية؛ هو الالف والياء؛ هو نقطة الدائرة في حياة الانسان: منه أتى ولاجله يحيا واليه يعود. قال بولس الرسول امام علماء اثينا في معرض

كلامه عن الله « فاننا به نحيا ونتحرك ونوجد » مذكراً اياهم بقول شعرائهم. «اننا نحن ذريته» فيحق لله اذن ان يفرض على الانسان شرائع ، وان يتسلط على عقله وقلبه ، على نفسه وجسده ، وان يبسط سلطانه على جميع نواحي حياته ومراحلها: من البطن ، الى المهد ، الى اللحد ، الى ما وراء القبر ؛ لله سلطان ان يأمر الانسان ، وعلى الانسان واجب ان يطيع الله ويعمل بنواميسه مخضعاً أحكام عقله لاحكام الله ، ورغبات قلبه لمشيئة الله ؛ فيتعلق بالله تعالى تعلق الشيء بصانعه ، والعبد بسيده ، والولد بوالده ، ولكن على نوع اكمل وحال اسمى !

عرف الانسان هذه الحقيقة، في كل أين وآن ، وثبت عنده ان الله حي فيه ، فاستخفَّ قوم نيرَ الربِّ واستطيبوا حمله فاقاموا حدود الشريعة الالهية ؛ بيد ان غيرهم قد استثقلوا النير فخلعوه او كسروه ونبذوا وصايا الله وانكروا عليه تعالى الحقوق والموجبات ؛ ولكنهم مع ما صرفوا من وقت واستخدموا من وسائل وتسلحوا بقوى لم يقووا على ان يرحلوه عن نفوسهم وعن الارض وعما عليها وفيها ، بل انه لا يزال مقيماً في كل مكان ومقام : في النفوس وفي التشريع ، في المعابد وفي المدارس ، على قمم الجبال وفي بطون الاودية ، في الساحات وفي البيوت ، في المستشفيات ودور الرحمة ؛ على مفارق الطرق وفوق المقابر !

إنَّ الانسان الذي كسر لوحي الوصايا ومحا كلماتها من كتبه ، وطرد الله من بلاده واحب ان ينظم الارض على هواه فمزق الصور التقوية وسحق التماثيل الدينية وهدم بيوت العبادة ونسف الكنائس وحرق كتب الطقوس والصلوات واصلاها حرباً عواناً على كل ما يمتّ الى الله بصلة ، ما زال مُكرهاً على الاقرار بوجود الله ؛ وما كانت الغارة التي يشنها على الله الا اعترافاً ملموساً منه بذلك الوجود ؛ وما كانت التجاديف التي يتلفظ بها على اسم صاحب الجلالة الا اقراراً غير مقصود منه بوجود العلي ، لاسمه السجود !

على اننا لا نزال ، الى الان ، نجهل ما به اله الثورات يضاد نظم الحياة الهنيئة ؛ وما به يعارض سعادة الانسان على الارض حتى يسعى الانسان الى الانعتاق من سلطانه ويرفض واجب خدمته وحبه والتعبد له ؟

لقد اراد الله الانسانَ سعيداً في حيـاته ، سامياً في غايته ؛ فخلقه ليكون روحياً بل الهياً حتى بلحمه؛ فَلمَ يؤثر الانسان ان يكون لحمياً حتى بروحه ؟ لِمَ يؤثر وَحلَ الارض على ان يكون ابناً لله .

لقد خلق الله الناس اخوةً فلمَ يتباغضون ؛ لقد خلقهم اسياداً على المادّة فلمَ يفضلون ان يصيروا عبيداً لعبيدهم : للمال واللذة والجاه والسيادة ؟

أمن الارض ، نحن ، ام من السماء ؟ هل نرغب في ان نعيش اشباه ملائكة، مؤمنين بوجود الله، جادّين الى سعادتنا بالتمتع به في ازليته، مقدسين اسمه على الارض قائمين بخدمته ، عاملين على امتداد ملكوته ، خاضعين لمشيئته كما يفعل الملائكة والقديسون في السماء؟ أم نشد الرحال وراء المادة ونعيش ، كالحيوانات ومعها ، للارض، للمادة ، جاهلين المبدأ والمصير ، قانعين من الحياة بالمآكل والمشارب والملاذ، وفخر الحياة ؛ نفرح حيناً ونتألم احياناً ؛ نحيا زمناً ثم نموت ؛ وبالموت ننتهي ؟

انّنا ، وأيم الحق ، نتأرجح بين الارض والسماء ! ولكن اي انسان سليم العقل لا يحتج عـلى من يحاول اقناعه بانه ليس الا قناةً للهضم : ليس الا بطناً للاكل واللذة والولادة ؟ !

اذا قلنا للانسان ليس بينك وبين الحجر فرق جوهري ، ليس بينك وبين النبات فصل ؛ ليس بينك وبين الذئب تمييز ؛ ألا ندفعه الى الجمود او التدحرج كالحجر ، الى الرضى بشذاب الغريزة المستبدة به وبكل ما له ، الى العيش عيش الذئاب ؛ فيمسي ، اذ ذاك ، حيواناً مخيفاً، لا شريعة له الا شريعة الغاب ؛ ولا سيد له الا اهواؤه ولا واجب عليه الا مجاراة اميال الطبيعة الحيوانية المنحطة ، لا وطن له ولا عيلة ؛ لا اخوة في مجتمعه ولا مساواة !

اذا قلنا له يمكنك ان تحوّل المادة روحاً لتشبع رغبات نفسك وتملأ ما فيك من فراغ ؛ الا نحمله عـلى ان يحوّل الروح مادة ونقضي عـلى الرقي والتقدم في العالم ونزجه في القلق والاضطراب ؟

جردوا الانسان من نفسه الروحية ومن الله واسألوه ان يعيش مع ابناء

جلدته بسلام ؛ كلموا قريتين من النمل جارتين بضرورة العيش بسلام واقيموا بينهما الحدود ؛ فانهما سوف لا يرضيان بالخط الذي تقسمونه لهما ؛ بل ستكيد الواحدة الاخرى وتدّعي انهـا هي المدافعة وتلك هي التي بدأت اشعال نار الحرب والقتال !

يريد ساسة العالم ، في عصرنا ، ان يخيم الامن والسلام على الارض وتوحد اهداف البشر ليخلقوا إنسانية موحدة ؛ لكنهم ضلوا الطريق الموصلة الى الغاية الشريفة التي ينشدونها ؛ لقد زاغوا عن « الطريق والحق » بقتلهم الله في الانسان واقناعهم اياه بانه مادّة ومادة فقط ، وبان لا شيء ينتظره بعد القبر ؛ ولو فطنوا الى مثالات التاريخ لعرفوا انه حيثما قتلوا الله ، فقد قتلوا الانسان ؛ وان المادة هي علة الحروب بين الشعوب ، وسبب الشقاق في العيال والخصام والتفرقة بين الافراد ؛ حقًا ان المادة في كل مكان كانت ولاتزال حربًا في كل مكان !

عبثًا يحاولون تهذيب الحيوان برفعه الى مقام الآلهة . فانه لا يبرح حيوانًا ! فعبادة الحيوان المؤله ، سواء أكان العنصرية ام الطبقة ؛ الحزبية ام الامـة ؛ السلطة ام المسلط ؛ الانانية ام البشرية ، فانه لا يعدو ان يكون وثنًا وعبادته عبادة وثنية ، عبادة ارضية مادية ؛ ومن ورائها محرك واحد يقضي بالسجود امام بشرية بربرية تجهل من الانسان ماهية الانسان : تجهل منه النفس الروحية والعقل والضمير والارادة الحرة . وجهلها هذا خيانة عظمى لسلطان الله وتحقير للانسان واذلال له !

إنّ الانسان الروحاني يفكر في ما هو روح وحياة ، ويقر بسلطان الله ويحترم ، في الوقت ذاته ، حقوق اخيه الانسان ؛ اما الانسان المادي ، لمّا لم يكن له هدف في الحياة ، سوى الأنا المكروه ، فانه يضحّي على مذبح شهواته ومنافعه كل حق وكل شرف وكل عرضٍ وكل عدل .

أروح الله قد قرر اجتياح البلجيك ، في بدء الحرب الكونية الاولى ، واستباح احراق مكتبة لوفان وامر بمذابح موسكو وفظائع اسبانيا وجرائم المكسيك ؟ أهو الذي دفع النازية الى ما اندفعت اليه ، فألهت الدم الجرماني

واغرقت العالم في بحر خضم من الدم؛ أروح الله يسوّل الى الوالدين بان يحددوا النسل ويسقطوا الاجنة او يحولون دون وجودهم؟ اهو الذي يفكك اواصر العيلة ويعرضها للخيانات الزوجية ويحملها على الخصام والشقاق والطلاق وتشريد الاولاد؟ اهي يد الله التي تبذر زوان الحسد والبغض والحقد والكبرياء في حقل الاجتماع وبين الافراد؟

باطلاً نتعب لنصير الحيوان روحاً؛ لذلك لا ننفك نردد على مسامع الانسان: ان فيك، يا اخي الانسان، شيئاً غير الحيوان: ان فيك نفساً بسيطة روحية، حرة، خالدة على مثال خالقها يجب عليك ان تجعلها سيدة الحيوان الذي فيك! ان فيك ضميراً هو صوت الله يلزمك ان تصغي اليه؛ ان فيك نفساً مقرها النعيم او الجحيم الى الابد، بعد القبر، تبعاً لما تكون عليه من صلاح ام شر في هذه الحياة! ان فيك ارادة حرة تتوخى، في جميع اعمالها واتجاهاتها، خيرها الاسمى؛ ارادة ما فتئ اخصام الديانة يناصبونها العداء ليجعلوا منك آلة يستخدمونها او دابة يسومونها الاشغال ويحملونها الاثقال! فانت اسمى من هذه وتلك، يا اخي الانسان، انت ابن الله ووريث ملكوته السماوي!

لقد تمادى القوم بشططهم فعلموا انه لا يمكنهم ان يستفيدوا من العابدين لله في عالم السياسة، بحجة ان لهم مُثُلاً عليا، فائقة الطبيعة؛ وما درى هؤلاء المساكين ان العابدين يعملون ويجاهدون، بحكم ايمانهم بالحياة وغايتها وبما تمليه عليهم مُثُلهم العليا، ليحققوا على الارض العدل والمحبة والسلام، الضالة التي تنشدها البشرية المتألمة! وبرروا مدعاهم بقولهم ان المنفعة المادية وحدها تسيّر البشر كما تفعل بالحيوانات العجماء؛ اما نحن فنؤكد أن ليست المنفعة الارضية حتى ولا المنفعة الفائقة الطبيعة هي التي تحرك العالم العاقل؛ بل انما الحب هو الذي يحركه، الحب الذي هو اعمق عواطف النفس وارسخها واساسها، الحب الذي حدد به يوحنا الانجيلي الله فقال: «الله محبة» وما كان الحب الا عطية الذات وبذلها في سبيل القيام بالواجب – هذا هو الحب السامي الذي نكلمكم عنه لا عن تلك الشهوة الحسية الانانية التي مرغوا الحب المقدس في

اوحالها . فالحب الذي نعني هو خميرة الحياة البشرية، خميرة رقيها؛ خميرة استمدت قوتها من هذه الحقيقة الابدية وهي : ان الخليقة عدم وان الخالق هو الوجود ؛ الخليقة نقص والخالق كال . تلك الخميرة لا ترى في الجسد والجسديين انما هي في النفس؛ولا يشعر بوجودها الا الروحانيون؛ هي تلك المحبة التي تُسَر بالعطاء اكثر من الاخذ ، وتفرح بالتضحية اكثر من الراحة ؛ وتعتز بالفقر اكثر من الغنى؛ هي تلك المحبة التي لا تحسد ولا تبغض ؛ لا تتعظم ولا تتبجح ؛ لا تغضب ولا تقتل ، لا تسرق احداً ولا تستغله ؛ لا تظن السوءَ باحـد ولا تنتقم من احد! بل تنسى ذاتها وتحب الخير لجميع الناس ، تبذل من وقتها وراحتها ومصلحتها قياماً بواجبها وتجود بالحياة خدمةً للانسان وارضاء لمبدع الانسان : « ما من حب اعظم من هذا وهو ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه ! »

فهل هذا تغرير ام غرور ؟ هل هو نقص في الاتزان ؟ فان كان العابدون على غرور وكان في حياتهم نقص في الاتزان ، فما نكون نحن اذن ؟ هم ، في الحقيقة ، جبابرة بشرية « نحن فيها اقزامٌ ، نحن فيها ديدان تدلف الى العدم ! » كما قال « بيار لوتي » ؛ هم ، قضوا الحياة عاملين ، فكانوا أمثلة قوة وشجاعة ، وامثلة اعتدالٍ واتزان ؛ ونحن نصرف حياتنـا ، في مهبّ الرياح ، تتقاذفنـا الشهوات ، نعمل تحت تأثير الغريزة او القسر الخارجي. قال «برغسون»: « ابطال البشرية وهداتها هم كبار المتصوفين لا عظماء الفلاسفة والسياسيين ! »

ان اوغيست قيصر ومارك اورال ونابليون واسكندر الكبير لا نفوذ لهم بعدُ ؛ اما يسوع ، اما بولس ، اما مارون ، اما منصور دي بول ، اما فوكول وغيرهم من التائبين العظام فلا يزالون قواداً ينادون البشرية فتمشي وراءهم الى الرقيّ ، الى الصعود الى السماء ، وطننا الخالد !

وعلى فرض المستحيل وكانت حياة العابدين بدون ما هدف ولم يكن لها محركٌ يدفعها الى الارتقاء والسموّ ؛ بل كانت كوكباً لا يجذبه كوكب آخر ؛ لوجب ، مع ذلك ، ان ندخل مدرستهم ونتخرّج عليهم بمـا في ارادتنا من شوق للحياة ورغبةٍ فيهـا . فانهم لا يبرحون ان يكونوا الدواء الناجع

لامراضنا الادبية القاتلة ؛ الدواء الشافي لنا من ميكروب الانانية الوحشية ، البغيضة ، الكامن قوياً فينا ؛ لا يبرحون ان يكونوا الثقل المعدل لسفينة العالم التي تكاد تغوص في وحول المادة النتنة !

كتبت جريدة فرنسية سنة ١٩٣٧ ان ستة من النجمات المسرحية والسينمائية أقدمن ، الواحدة تلو الاخرى ، على الانتحار ؛ مع انهن كن يملكن كل ما تستطيع ان ترغب فيه شابة عصرية : ارباحاً رائعة واصدقاء اغنياء وخلاناً ذوي مراتب وألقاب ! ثم خلصت الجريدة الى القول : انه كان ينقصهن شيء ان لم نقل كل شيء : لانا رأيناهن ، وهن في مقتبل العمر ، ممددات على الاسرة ورؤوسهن مثقوبة وايديهن قابضات على قنادق المسدسات .

اجل ! ان شيئاً كان ينقصهن ، يا سادة ، : الله ! ومع الله كل شيء ! فذوق الخطيئة المرّ يضجر ، وبُطل الافراح يترك فراغاً في القلوب والحزن ينهشها والضجر يتأكل الاحشاء . ويرعى العقول فتمسي نفس الانسان عذاباً لنفسها ، فييأس الانسان وبعد اليأس الانتحار ! لان مياه الانانية لا ترويه وعيشة البذخ والتفخل لا تشبعه والملاذ لا تزيد نار الشهوات الا وقوداً واشتعالاً ؛ ما ذلك الا لان الانسان اكبر من طعامه واعظم من ثيابه . وما تكالبه في جمع الخيرات الا دليل على عوزه وفقره وحاجته الى ما يسدّ ذلك الفراغ الذي يحسه والى ما يطفىء ذلك الظماء المذيب الذي يلهب قلبه وجوارحه !

والا فكيف نشرح تلك القوة الروحية التي ترجع بالانسان عن حياة بدأت بالانانية وارضاء الشهوات ثم غيرت مجراها الى قمم الزهد وقهر الذات ؟ ما اسم تلك القوة التي غيرت المجدلية و اغسطينس وتاسيا الزانية وفوكول ، ضابط الخيالة الذي طرد من سلكه لاجل تبذله وخلاعاته ؟

اعتبر كفرة الجيل الثامن عشر ان من الضرورات درس تقلبات الشرنقة الى ان تصير فراشة ، لكنهم تمنعوا عن درس حالات نفس لويز دي لافاليير ، خليلة لويس الرابع عشر التي هجرت البلاط الى دير الكرمليات فقضت فيه ستاً وثلاثين سنة تصوم وتصلي وتتقشف لتكفر عن خطاياها ؛ مع علمهم ان الانسان

العاقل لا يسمّر نفسه طول الحياة، مختاراً، على صليب التوبة من دون ما سبب معادل. يطاب الوضعيون وقائع! فتلك من ابرز الوقائع وأفجعها. فالباعث عليها لا يمكن ان نعدّه غروراً او نعتبره احلاماً فارغة لان الانسان لا يكذب على نفسه ويغرّها اربعين سنة يقضيها بالتقشفات الخفية والاماتات المضنية! هذا السبب المعادل يحمل اسماً واحداً، مفرداً، هو حقيقةٌ اكيدة، حقيقة تسمى: الله. فاذا لم يكن لهذه الحقيقة من وجود امتنع علينا الاخذ بعلم النفس وبمبدأ العلة الكافية.

لسنا نلوم الجادين في البحث عن القوة الخفية، عن الجاذبية التي تحرك الارض والفضاء؛ بل نلفت نظرهم الى التفتيش عن قوة هي ايضاً غير منظورة تحرّك لا جماداً فقط بل نفساً، تجذب الى السماء، بحركة منظمة، لا سيارات فانية، بل بشرية عاقلة، بشرية اكثر ثقلاً وابعد اثراً في تقدم العالم!

ان القوة التي رفعت المجدلية واغسطينس وفوكول من حضيض الحيوانية الى مصاف امراء القداسة والبشرية الراقية انما هي الله، المحبة المُحبة، المحبة الخالقة، ذلك الخير المطلق، الكافي نفسه بنفسه.

هذا هو الاله الحقيقي ضالتكم المنشودة، يا من تحاولون نفساً قلقة، نفساً لا يشبعها إلاّ اللامتناهي، نفساً لا تجد لها سلاماً وراحة إلاّ فيه!

هذا هو الاله الذي فقده العالم المضطرب المتقلب على فراش اليأس، مريضاً، العالم الذي أسأمه البغض وأضجرته الحروب والمنازعات!

هذا هو الاله الذي يستطيع وحده ان يعطي الراحة والبركة والسلام.

هذا هو الاله الرب الذي يوصي، اليوم، شعوب الارض، كما اوصى شعبه اسرائيل قائلاً: «اسمع يا اسرائيل انا الرب الهك، رب واحد؛ فاحببني من كل قلبك وكل نفسك وكل قوتك؛ احفظ وصاياي في قلبك ورددها على بنيك واكتبها على ابواب بيتك. فان اطعت امر ربك تبارك انت ويُبارك ثمر بطنك وثمر ارضك وثمر بهائمك وان لم تطع وتعبدت لآلهة غريبة اجعل السماء التي فوق رأسك نحاساً والارض التي تحتك حديداً» لتعلم انني:

انا هو الرب الهك لا يكن لك اله سواي

العظة التاسعة

الانسان

بين الاله الحق والآلهة الكذبة

ايها الاخوة الاعزاء،

حياة الانسان على الارض تجنّد. هي نزاع داخلي عميق، نزاع مزدوج يرافق الحياة ويواكب كل ما يمت الى الانسان بصلة؛ حرب حامية الوطيس يخوض غمارها في باطنه: «الجسد يشتهي ما يضاد الروح؛ والروح تشتهي ما يضاد الجسد»؛ عذاب دائم: «الخير الذي يريده لا يعمله؛ والشر الذي لا يريده، اياه يعمل.» تقطيع روحي في نفس كائن مسكين، يتأرجح بين الارض والسماء؛ كائن: رغباته كثيرة، متشعبة، متناقضة: الجسد يسوّل اليه ان يكتفي بالارض وبما عليها من خيور وملاذ؛ والنفس تشوّقه الى الترفع عن تلك الملذات والارتقاء الى ما فوق؛ يحسّ في قلبه الواحد بميل الى ما هو محسوس؛ ويشعر، في الوقت ذاته، بوثبات الرجاء الى ما وراء القبر، «الى ما لا تنظره عين ولا تسمع به أذن ولا يخطر على قلب بشر.» فانه، كما قال عنه الشاعر الفرنسي، لامرتين: «اله صريع تعاوده ذكريات السماء!»

يصطدم، وهو يشق طريقه في الحياة، بخساساتٍ ودناآتٍ؛ ويلقى خصوماً واعداء؛ ويحتك بمتزلفين قساةٍ على الصغار وعبيدٍ للعظماء والمتنفذين؛ ويضطر

الى مخالطة من يتاجرون بالشرف ويستعبدون العدل والحق ويبيعون الاوطان بربح طفيف ؛ فيحس بالتعب والضجر والحاجة الى الراحة وتعاف نفسه حياة الاجتماع ويود لو انه يذهب فيقبر ذاته في دير او محبسة يصرف فيه او فيها ما بقي له من ايام في الصلاة والنسك ، سالكاً الى الخلاص طريقه الضيق ؛ لكن الاختبار يعلمه ان الخلوة وحدها لا تكفي لتغير نفساً ؛ وان للوحدة ايضاً معاركها وحروبها ؛ وان المسيح نفسه قد حاصرته في البرية تأثيرات العالم وانتابته تجارب ابليس ؛ وان الباب الضيق الى الخلاص لا يُسار اليه بالهرب من الصعوبات بل بمجابهتها والعمل على تذليلها ؛ وما كان مفتاح ذلك الباب، باب السماء ، الا الصليب والرضى بالحرمان والسرور بالتضحيات !

يسمع ان البشرية كانت دوماً، كما هي اليوم ، وكما ستبقى، شقية ابداً، مندفعة نحو الحيوانية دائماً، وان الفضيلة، كلمة ، والشريعة الادبية، مهزلة ؛ على ان ضميره يوحي اليه بان الاستسلام للشهوات حطة للانسان، لا ارتفاع؛ وان الخروج على النظام جبانة، لا شجاعة ؛ وان البطولة الحقيقية هي في خوف الله ؛ وان ليس كل بطل قديس بل كل قديس بطل ، وان كل قديس حكيم لانه يعرف غاية الحياة ؛ ولان له في الانسان فكرة جديرة بالانسان ؛ والاختبار يثبت له ان الوثنية وعبادتها؛ سواء اكانت قبل المسيح ام بعده ، قد حطت كل شيء : العمل ، المرأة ؛ الولد ؛ السياسة والحرب حتى انها لم تبقِ للحياة ولا للموت معناهما ؛ وان في المتقين الله وحدهم قد تجسم معنى الحياة وتجسدت عظاتها الحقيقية الشريفة .

ذلك هو العراك الهائل الذي ينشب، في نفس الانسان، بين الحقيقة والكذب، بين الاله الحق والالهة الكذبة ؛ وتلك هي مشكلة حياة الانسان الادبية .

لقد جرّب اناس، في عصرنا، ان يحلوا تلك المعضلة ليريحوا الانسان من عذابه؛ فما وجدوا حلاً لها سوى القضاء على النفس الروحية ، غير المنظورة ، المخلوقة على صورة الله تعالى ومثاله ؛ وفي سبيل ذلك حاولوا ان يجردوه منها؛ فعلموه ان لا يؤمن بكائن حقيقي الا بالكائن الذي يقع تحت حواسه ، الا بالمادة، وادخلوا في وهمه ان ايمانه بالنفس خرافة ؛ وان اعتقاده بوجود الله بلاهة ؛ وبذلك لم يبقوا فيه الا

حيواناً بشرياً سجنوه في قفص الارض الضيق وقالوا له : « محظور عليك ان تخرج منه فحظك ان تدور فيه ، ما عشت ايها الانسان ، فحياتك ظلّ يمضي ولا مرجع لك بعد الموت . بل انت صائر الى العدم والفناء ، فتمتع ، اذن ، بالطيبات الحاضرة وابتدر منافع الوجود ما دمت في الشبيبة ؛ تروَّ من الخمر الفاخرة وتضمخ بالادهان ولا تفتك زهرة الاوان ؛ تكلل بالورد قبل ذبوله ولا يكن مرج الا تمرّ لك فيه لذة واترك في كل مكان اثار الفرح فان هذا حظك ونصيبك! » قوتك هي شريعة العدل فكن قوياً؛ بل كن القوي. فان الضعف لا يغنيك فتيلاً ، فان كنت ضعيفاً سحقك القوي وان كنت صغيراً اكلتك الاسماك الكبيرة . تلك هي شريعة تنازع البقاء !

ولكي يساعدوا الانسان على نسيان الله ، ابعدوا الله عن الارض وعمدوا الى هياكله وكنائسه وجوامعه التي شادها ايمان الانسان بـه فنسفوها او حولوها في بعض البلدان والممالك الى مراقص وملاعب واندية لهو وطرب ؛ لكنهم ضلّوا في ما ارتأوه. إنّ شرهم اعماهم فلم يدركوا اسرار الله ولم يرجوا جزاء القداسة ولم يعتبروا ثواب النفوس الطاهرة ونسوا ان الله خلق الانسان خالداً وصنعه على صورة ذاته ؛ لذلك استحال عليهم ان يقضوا على الروح ورغباتها الروحية السامية ، في الانسان ؛ فبقي المسكين يئن ويتأوه يريد الافلات من دبق الارض ليطير الى الاعالي ؛ وظل العراك قائماً بين مذهب الاباحيين وبين الفكرة الفائقة الطبيعة في الحياة. وكيف يتفقان، وهما مختلفان على الغاية من وجود الانسان ؟ فذهبت عبثاً مساعي الوفاق بين المتعارضين طبعاً ، وليس ثمّ سبيل للموافقة بين الله والالهة الكذبة ، بين الديانة الحقيقية وديانات اخترعتها مصالح الناس واميالهم . فباطلاً يحاول الاباحيون ان « يعلمنوا » الشرائع الانجيلية والتعاليم الدينية ؛ وعبثاً يفتشون عن ان يجعلوا من الثقافة والشرف والتعاون وحبّ البشرية قواعد للحياة : فاماً الله واماً لا شيء ! فليس من سبيل للموافقة اذن بين الحيوان البشري ، ابن الاباحية وبين الانسان العاقل، ابن الله العالي : الم يقل السيد المسيح للفريسيين : « ان ما يفصلنا : هو انكم انتم

من اسفل وانا من فوق ! »

فانسان الطبيعة يريد ان يكفي نفسه بنفسه ويكون لنفسه غاية ؛ اما انسان النعمة فيثق بان حاجته الى الله حاجة ملحاحة ؛ لذلك يضع كل رجائه فيه تعالى ، عالماً : « ان نفوس الصديقين هي في يد الله فلا يمسها عذاب ؛» ويتيقن من ان جوعه الى السعادة ، تامّة ، لا تسدّه خيرات الارض، وان كثرت؛ وعطشه الى الراحة، كاملةً، لا ترويه ملاذ الحياة ، وان وفُرت ؛ وان قلبه لا يزال قلقاً ما لم يرتح في الرب خالقه ؛ فانه بالله، ولاجل الله، يستعذب الالم مردداً كلمة اغسطينس: « حيث الحب لا تعب؛ وان كان ثمّ تعب ، فالتعب محبوب » او كلمة تراز افيلا : « إمّا الالم وإمّا الموت ! »

قال الكتاب : « ان لم يبنِ الربّ البيتَ فباطلاً يتعب البناؤون » فاذا ما بَعُدَ الانسان عن الله ، فسلبه الله نعمته وانواره ، استيقظ الحيوان في الانسان وراح منطقُ العالم يعمل عمله فيه ، فحين يعبث الانسان بنعمة الايمان تتبخر فيه حتى مبادىء الديانة الطبيعية ، ويمسي الانسان جليداً بازائها فلا تعود تؤثر فيه؛ فيسفل الانسان باخلاقه ويسفّ بافكاره ورغباته وينحط من اوج الانسانية العاقلة الى دركات الوثنية الحيوانية ، الواقفة له بالمرصاد ابداً . وما تعداد الالهة، عند اهل عصرنا ، الا شكل جديد لمذهب قديم، يردّ اتباعه ، اليوم، كما ردهم في الماضي ، عن عبادة الرب فينكرون نعمته ، تلك القوة ، الفائقة الطبيعة التي تجترح عجائب ادبية في النفوس ، تلك القوة التي تفوق كل درس وتحليل نفساني. وحين يزدرون بالثواب والعقاب الابديين تسارع الوثنية فتقرع ابواب عقولهم وتنقر على اوتار قلوبهم، فاذا بهم ، وهم في عصرنا ، عصر النور، يتسكعون في ديجور الهمجية ويتخبطون في اوحال الوثنية التي تسكع فيها وتخبط الوثنيون القدماء !

ايتها الوثنية الخالدة ، يزعمون أن العلم قد نفّذ حُكمَ الموت فيك ! أصحيح ما يدّعون ؟

نعم ان النظام الفائق الطبيعة هو ملكٌ خاصّ بالله ! فاذا ما جردّنا الطبيعة البشرية من النعمة امسى الانسان امام الله وامام الفائق الطبيعة كحيوانٍ واقفٍ

امام الشمس وهي تغيب، يرى خيوطها وجمالها ولا يقوى على ان يقول لنا شيئاً عنها.
ان الافق الطبيعي للانسان هو أفق الارض، وميـل ارادته الطبيعي يتجـه توا الى الخيرات التي يراها ويلمسها، وصار، بعد سقوطه الاول، يميل الى ان يجد لذته بما حقُرَ وتَفِهَ من اللذات، أمّا النفور من الصعوبات في عمل الخير، ونحن في حال النعمة، وتردد طبيعتنا امامها، فلا يجوز ان يثير فينا العَجَبَ. فخير الله الفائق الطبيعة لا يمكن ان يضحي خيرنا الطبيعي الا اذا جاوبنا على حثّ النعمة وساعدناهـا لتعمل عملها الفائق الطبيعة فينا!

وهذا التناقض فينا هو نتيجةُ لتجاذب روحين وتعارض محبتين: روح الاباحية التي تتخذ قاعدةً للحياة حكمةَ اللحم؛ وجهدهذه يتجه بالانسان الى حياة ارضية وسعادة دنيويّة، قريبة المنال، توفرها له الحكمة البشرية وحسابات أنانية وتحصر غاية الانسان في الحياة الحاضرة؛ اما تأكيدات الديانة، فلا تعدو ان تكون، في نظرها، خيالات وخرافات، او على الاقل، اوامر غير قابلة التحقيق. وفي شرع حكمة العالم: انه من الجنون المطلق ان ننظم حياتنا باتجاه شيء لا يمكن ادراكه. فالعاقل مَن اكتفى بما يعرفه والحكيم من سعى الى سعادة ارضية هي في متناوله. ومن ادعاآت الفطنة البشرية ايضاً انه اذا ما أصلَحَ الفرد حياته صلح المجتمع ولدى الانسان من الشرائع الطبيعية والادبية والعلمية ما يكفيه مؤونة البحث عن شرائع سنها كائن لا يراه. اما الانسان المؤمن فيعيش، لا لاجل ذاته؛ بل لاجل الله، فمحبّة الله تسكر قلبه وقيمة الزمان، في نظره، تُستمد من كونه بابَ الابديّة؛ يعرف انه وُلدَ لما هو اعظم من هذه الارض ومن هذه الحياة؛ ولما كان رجاؤه بالخلود وطيداً، نراه يعمل لتقدم البشرية اكثر من سواه؛ بل نرى فيه المساعد الاكبر لرقيّها: لان له من ضميره ومن شرائع دينه دستوراً كاملاً للواجبات؛ ولديه بواعث قويّة على العمل لا يضاهيه بها احدٌ: فيحب الوجود ويحب الحياة ويحب المسؤولية لانه يوجّه بحبّاته هذه الى مستقبل أحسن وهدف أسمى، الى الابدية!

« فجهالة الصليب » دكت عرش الحكمة البشرية وشعور الانسان المؤمن باللامنظور غلب فيه ميله الى الاشياء المحسوسة!

روحان ومحبتان! فالشوق والمحبة يطيران على جناح المعرفة واحكامنا في الحياة ثمرة لمحبتنا ونتيجة لها. فالمحرك الاكبر لاعمال انسان الطبيعة، هي محبة الذات، هي الأنانية؛ وكيف لا يكون ذلك وليس فوق الانسان الا الله. فلما انكر الانسان وجود الله ونعته بغير المدرك لم يبق له وامامه شيء يحبه الا ذاته؛ على ان محبة الذات هي محبة خالية من النظام، محبة طليقة العنان! لانها تفضل الذات على كل شيء في الحياة حتى على قواعد المحبة وتدفعنا الى تجاهل الحقوق الاولية التي سنها الخيرُ الاعظم آمرةً وناهية؛ اما حكمة الله في انسان النعمة فتقابل تلك المحبة القاتلة ببغض لمحبة الذات مقدّس، ببغض هو مظهر من محبة الذات المنظمة، البانية، المفيدة؛ مظهر من محبة الذات التي تهذب الانسان وتجعل منه ينبوعاً للافراح فياضاً، صافياً، وتوطّد بناية الهيئة الاجتماعية، فتعقد ازهارُها ثماراً للحياة الابدية

قال بوسويت محبتان شادتا مدنيتين: «محبة الذات، البالغة الى احتقار الله، قد بنت مدينة الارض؛ ومحبة الله السامية حتى الى احتقار الذات قد بنت مدينة الله. فالاولى تمجدّ نفسها بنفسها والثانية تستمد مجدها من الربّ؛ الاولى تطلب من الناس خلودها، والثانية تفتش عنه في العلي؛ تلك تتمايل متعجرفة في كبريا ظفرها الوقتي وهذه تقول للربّ: انت مجدي وبك وبنعمتك استطيع ان ارفع الرأس عالياً!»

وقال بسكال: «خلق الله الانسان وخلق في قلبه محبتين: الاولى محبة الله والثانية محبة الذات. فمحبة الله غير متناهية اعني لا يكون لها غاية الا الله نفسه؛ ومحبة الذات متناهية ومسيّرة نحو الله؛ على ان الانسان خسر، بعد سقطته، المحبة الاولى، محبةَ الله، واحتفظ بالمحبة الثانية، محبةِ الذات في نفسٍ خلقها الله كبيرةً، قادرة على محبة غير متناهية، فامتدت محبة الذات الى كل الوجود وطفطفت على الفراغ الذي تركته محبة الله».

ان الالهة الكذبة هي برّاقة، كالمرآة في يد الاشل، تغش الانسان وتأخذ بجامع قلبه؛ لانه لا يملك الا قليلاً من الفهم والذوق للحياة الداخلية التي تقوده الى الله، الاله الحقيقي؛ ولان عدو الله هو في كل مكان يلبس لكل حال لبوسها فهو صيرفي ومحاضر، معلم ومحام، سمسار واديب، صحافي وموسيقار رجل

سياسة واجتماع وقد يتظاهر احياناً بانه حبيس ناسك! أمّا انت، يا رب، ايها الاله الحقيقي، فلماذا انت نائم؟ «نجنا فقد كدنا نهلك»! لماذا انت صامت؟ لماذا تعمل في الخفية؟

اوحِ الى الضمائر ارادتك الآمرة! أخفتْ يا رب هذه الاصوات، اصوات الجحيم التي تنعب على الارض وتقلق راحة الخلوات السعيدة حيث تفتش عنك وتنعم بك نفوس اجلتك؛ نفوس تعلقت بك ولا تريد عنك انفصالاً! يا امير الصامتين، كم من الارتيابات والتنهدات تتصاعد من رأس البشرية المتألمة وصدرها، قبل ان تشرق شمسك وتمزق غيوم الشك والريبة بك وبقدرتك؟

فالحرب بين مبدأين: مبدأ الهي ومبدأ بشري، بين الروح والحيوان، حرب ابدية. فعلينا، قبل ان نحقق انتصار الروح في قريبنا، ان نحققه فينا، ينبغي ان ننتصر على كبريائنا، على طموحنا، على قساوتنا؛ والله، اله الخير يسبر غور القلوب ويراقب ساحات الحرب رقابة تمتد الى يوم الدينونة واذ ذاك يلفظ الحكم المبرم، فيفصل بين المعسكرين فصلاً تاماً وثيقاً. وعندئذٍ تتخبط بابل في خجلها الابدي؛ واورشليم؛ المبنيّة بدموع الالم والمنفى ومضادات الاشرار، تتحول، الى الابد، مملكة يستقيم فيها النظام وتستقر فيها الحقيقة ويخيم فيها السلام. اما مَنْ فيها من النفوس الظافرة الخالية من كل مزيج وخليط، فسترسل بفرح، ومحبة واتحاد كامل، انشودة السلام، محيّية انتصارات الله وممجدةً فوزَه بسحق الالهة الكذبة وبجعله كَسَرَ اصنامها موطئاً لقدمي ابنه الذي توشح بارجوان صبغه بدم التضحية والجهاد!

...«ايها الرب اله الجميع، ألقِ رعبك على جميع الامم الذين لم يلتمسوك ليعلموا انه: «لا اله الا انت ويخبروا بعظائمك. ارفع يدك على الامم الغريبة ليعرفوا عزتك. وكما ظهرتْ فينا قداستك، امامهم، هكذا فلتظهر عظمتك فيهم، امامنا، فيعرفوك كما عرفنا نحن: ان لا اله الا انت فيعبدونك وحدك» عاملين باولى وصاياك:

انا هو الرب الهك لا يكن لك اله سواي!

السلسلة الثانية

المرأة على ضوء الانجيل

الحديث الاول

المرأة

في المدنية اليونانية قبل المسيح

احييكم ، ايها الاخوة الاعزاء ، في مستهل هذا العام واتمنى لكم وللعالم سنة راحة وسلام! يبدأ حديثي معكم اليوم وينتهي في احد افتتاح الصوم أما موضوعه فهو :

المرأة

ولِمَ لا ؟ فقضية المرأة في عصرنا وبلادنا قضية هامة والحديث عنها هو على كل شفة ولسان . فعلى درسها اجمع الباحثون الاجتماعيون وبها اهتمت الحكومات وفي حقوقها تناقش النواب وعالج مشاكلها الاديب والطبيب ، السياسيون والمشترعون ، الصحافة والمسرح فَلِمَ لا يعالجها المنبر الكاثوليكي هو ايضاً ؟

لقد قرأنا اكثر من بحث ومقالة واطلعنا على دروس ومقترحات : محورها حقوق المرأة في الحياة ورأينا الراقيات من سيداتنا وانساتنا يتنادين لعقد المؤتمرات بغية المطالبة بحقوق المرأة المهضومة ؛ ولكن هل ذكر الباحثون

وتذكرت المرأة أنَ لتحرير المرأة دستوراً هو الانجيـل يجب الرجوع اليه في الكلام عن حقوقها وواجباتها ؟ هل ذكرت المرأة انها مديونة للسيد المسيح بتحررها ؛ وانه هو اول من نظر اليها باحترام وتقدير وأعان وجوب مساواتها بالرجل حقوقاً وواجبات ، وأمر بان يرجع بها الى مقامها الاصيل الذي اوجدها فيه مبدعها الحكيم ؟

أتريدون برهاناً عـلى ما اقول ، رافقوني ، اليوم ، في سياحة الى المدن اليونانية قبل المسيح ، الى أثينا ، منارة العلم والفلسفة في ذلك العصر ، والى «سبارت» منبت الشجاعة والبطولة ؛ وهناك نفتش معاً في مجتمعها وشرائعها عن المرأة وحقوقهـا ؟ وانتقلوا معي الاحد الاتي ، الى رومة ، مدينة الحضارة والتشريع فنقرأ نصوص شرائعها واراء حكمائها وأدبائهـا ، واقوال مؤرخيها في المرأة ، وفي الاحد الذي يليه نذهب الى فلسطين فنلم بدرس احوال المرأة إلماماً عند اسرائيل ثم نغوص سوية في درس الانجيل فتتبين لنا فكرة يسوع في المرأة وحقوقها وواجباتها فنرى كيف عاملها وكيف علمها ان تكون ؛ وفيما بعد ، نتبع رسله قاطعين الاجيال حتى عصرنا ، ناظرين ، على ضوء الوقائع والتاريخ ، مدى الانقلاب الذي احدثته المسيحية الحقة في حياة المرأة ونخلص الى تبيان واجباتها تجاه الرب يسوع ، محررها الاوحد . قائلين كلمتنا في شأنهـا ومقامها في الانجيل والكنيسة وفيما يحل بها ان تناست مبادىء الانجيل واغضت عن تعاليم الكنيسة مبتعدةً عن يسوع ربها ومليكها وعن الكنيسة امها الرؤوف . وما كان معلم الاجيال ، الا التاريخ ، ايها الاخوة الاعزاء .

المرأة في المدنية اليونانية

كانت مقومات العيلة في المجتمع اليوناني القديم ، كمقومات العادات والمنظمات والفنون ، تتألف من عناصر طبيعية وعنصر ديني يسيطر عليها ويسيرها كيف شاء . وما كان العنصر الديني في العيلة اليونانية إلا عبادة الجدود . فنفس الميت ان

نسيها ذووها ولم يكرّموها امست ، في اعتقادهم ، مؤذية لهم ، مضرة بهم بَدلَ ان تكون حامية لهم في الحياة وناصرة لهم في المليات ! ولقد اهتمت الدولة بعبادة العائلات وعضدتها بسنّ الشرائع حفاظاً عليها وتقوية لها . وتمسك بها القدماء تمسكاً جعلها من اشد الصعوبات التي انتصبت بوجه الديانة المسيحية، فاضطرت الكنيسة الى استخدام كل قواها لمحو مبادئها من اذهان عيال اعتنقت الانجيل وحملها على ابطال طقوسها الوثنية .

وكان من اولى نتائج عبادة الجدود اقصاء الابنة والمرأة عن الاشتراك بها وجعل القرابة بالمرأة قرابةَ عاطفةٍ ليس لها من قيمة شرعية وحصر صلة القرابة بالذكران فقط يتوارثون العبادة كابر عن كابر . فباتت غاية الزواج ولادة ذكر وارث ليقوم بواجب العبادة، لا ولادة البنين ؛ فان لم يلد رب العيلة ذكراً، تبنّاه ولو كان له بنات ؛ لان وجود الابنة في العيلة، ان لم يعتبر نقمة، كان شيئاً لا يؤبه له.

ومن ثمرات عبادة الجدود ايضاً تحويل رب العيلة سلطة مطلقة على بنيه يقتل الذكور منهم بعد خمسة ايام لولادتهم ، ان اراد. ويميت البنات يوم يبصرن النور ولا لوم عليه ولا تثريب، كما تفعل ربة البيت ، اليوم ، بصغار هرتها ، او كلبها ترمي بها كلها او ببعضها في سلة الاوساخ ولا حرج عليها ؛ ذلك لان الشريعة لم تفرض على رب العيلة تجاه امرأته وبنيه واجبات، بل قد سلحته بكل الحقوق ! فقبلة واجباته واحدة : العيلة او القبيلة او الدولة. فمن صلح منهم لها ، أبقى عليه، ومنْ لم يكن موافقاً لها قتله او رماه .

أجل لقد خلف لنا الادب اليوناني عن العيلة قطعاً من الشعر والنثر مؤثرات خالدات ؛ لكن الاعمال والتشريع يكذبان الكتبة والشعراء . فمن اطلاعكم على الشرائع والاعمال تدركون الى اية دركات من الذل والانحطاط هوت المرأة في تلك المدنية الفتانة !

لقد سجل التاريخ كلمات وحشية تلحق المهانة بالزوجة والازدراء بالام على السواء . منها ما قاله داموستان، خطيب اليونان الاشهر : « اننا نقتني خليلة للملاذ وسريّة لتعنى بصحتنا وزوجة لتلد لنا البنين الشرعيين وتسهر على

ما في البيت من مؤون وخيرات !

اما ما كان ينقص المرأة اليونانية ، في العيلة المؤلفة طبقاً للشريعة ، فهي الحرية، ميزةُ ابن آدم على الحيوان · لقد شاءت الشريعة ان تبقى المرأة ، حياتها كلها ، قاصرة ، تعيش خاضعة لسلطة ربٍّ ، ما طاب لها العيش ، محرومةً من حقوقها المدنية كلها ، لا ترث ولا تورث ، لا توصي ولا تكون وصية ، لا تشتري ولا تبيع ، ولا تملك حقَ ابداء الرأي في ادارة البيت والارزاق والاولاد . فان لم يكن ربها والدها كان زوجها والا كان أبنها او وصياً غريباً عنها .

الى هذا الربّ يعود حق تزويج الابنة ، ان شاء ، وعليها ان ترضى بمن يختاره لها . والدها يقبلُ هدايا الخطبة وخطيبها يأخذ مهرها ، على ان يبقى للوالد سلطان مطلق على خيراتها الشخصية وعلى ما يمكن ان تجنيه من ارباح في سني زواجها ، وحقه هذا يمتد الى أبعد : الى فسخ زواجها واسترجاعها متى شاء ، ولا تتحرر المرأة ، حتى ولو مات والدها ، فجميع حقوقه عليها تنتقل الى وصيها الشرعي ، كما قلنا ، ولا تفلت من ربقة تلك الوصاية ، ما عاشت !

واذا مات والد فتاة ولم يكن لها شقيق يرثه ، دعيت هي لوراثته ، ولكن لاجل الولد الذكر الذي سيولد منها ؛ وفي هذه الحال تضطر الى ان تتزوج باقرب رجل الى ابيها ، فان رفض ، فتتزوج بمن يأتي بعده في درجة القرابة !

اما الزوج فقد خولته الشريعة حقاً على زوجته يتصرف بها كيفما شاء . فله ان يطلقها او يهبها من شاء او يوصي بها لمن اراد . آه لقد كبلت الشريعة المرأة اليونانية ، بسلاسل العبودية ولم تترك لها الا باباً ضيقاً تخرج منه لتتخلص من رجلٍ فُرض عليها فرضاً او زوجٍ يضايقها ويكيل لها الضربات . ذلك الباب كان الطلاق .

على ان الطلاق ، ان أقدمت هي عليه ، اورثها العار وجلبها بثوب الفضيحة وكان لا بد لها ، ان رامت الوصول اليه ، من ان تلجأ الى المحاكم ، متسلحة باسباب هامة وبواعث قوية ؛ وهيهات ان يمكنها زوجها من حرية الخروج والاتصال بالقضاة لتعرض عليهم ظلامتها . ان « هيبارات » زوجة

«ألسيبياد»، بعد ان سئمت خيانات زوجها الطائش ، القلوب ، وضجرت من معاملته الشرسة ، الوحشية، هربت من بيتها الى المحكمة تطلع العدالة على ما عندها من اسباب تهيب بها الى طلب الطلاق ؛ فكمنَ لها زوجها امام دار المحكمة وامسكها من شعرها وجرّها ، ولم يجرؤ احد على نزعه اياها او على تخليصها من لكماته ورفساته، بل عادت، والسوط يلهب لحمها ، الى البيت ، مرغمةً وفيه قضت حياتها .

اما الزوج فان عنّ له ان يُطلق ، طلّق ؛ واحتفظ بالاولاد دون ما حاجة الى مراسيم ودعاوي واحكام ؛ بل يبلغُ المرأة ارادته سراً او امام شهود؛ فتخرج المسكينة لا تلوي على شيء. ولا تأخذ الا مَهرها وجهازها !

هذا هو شأن المرأة في شرع مدنيةٍ طارت لها شهرةٌ بعيدةٌ برقة الشعور والايناس ولطف المعشر ودماثة الاخلاق !

اما كيف اتفقت الاداب اليونانية اللطيفة مع هذه الشريعة القاسية وكيف كان يَتم تطبيقها ؟ فاننا مضطرون الى التسليم ، وبين ايدينا بيّنات ، بأن الاخلاق كثيراً ما اصلحت من عنف الشريعة . لقد مُدحَ «باريكلاس» لانه ، وقد اراد ان يهب امرأته صديقاً له ، تنازل ، قبل ان يفعل ، وطلب رضاها !

يشهد التاريخ ان الطلاق قد شاع في عصر اثينا الذهبي شيوعاً جرف معظم النساء الى مهاوي الفحش والشقاء. ولم يعد من رادع يصد الرجال عن جنوحهم الى الطلاق وعن استبدال زوجاتهم الا ارجاع المهر ، ضمان الزوجة الوحيد .

اسمعوا ما دوّنه مؤرخ المرأة اليونانية السيد « لاليير » قال : «كانت المرأة «متاعاً» يتصرف به الرجل على هواه. تقضي المرأة يومها غير امينةٍ من غدها وتتوقع، في كل لحظةٍ ، طردها من البيت وفصلها عن اولادها ، حبات قلبها . يكفيها عذاباً تفكيرُها في ان غريبةً تحلّ محلها وتحرم، هي، لذّة العيش في بيتها وبين اولادها، فلذات كبدها ! » وانهى المؤرخ كلامه قائلاً : «كان الطلاق جرحاً بليغاً لقلب الام واهانة لشهامة المرأة وازدراء بوقار الزوجة .»

ان اريسطو لم يعرف إلا فضيلة واحدة أوجب على المرأة ان تتحلى بها وتمارسها : هي الطاعةُ العمياء لرجلها قال : «ان المرأة من طبعها أدنى من الرجل وأحطُّ ؛ فما عليها اذن إلا ان تخضع له.» ودليله: «ان الطبيعةَ نفسها بتّت بحال المرأة والعبد؛ فلم تخلق بين النساء والعبيد أناساً يصلحون للحكم والادارة!»

على انه مهما كانت الاقوال والاراء ، فالشريعة اليونانية لم تحسب خيانة الرجل لامرأته خيانةً ؛ ولكنها جعلت من خيانة المرأة لعهد زوجها جريمة مدنية، حقّ لكل مواطن اقامةُ الدعوى عليها ، دون ان تنزل به قصاصاً، ان جاءت دعواه عليها زوراً وبهتاناً. واطلقت يد الزوج بقتل امرأته ان أخذت بالجرم المشهود والزمته بتسريحها ان اتصل به خبرُ خيانتها، وقضت على المطلقة ان لا تخرج الا وهي مرتدية ثياباً خشنة وعلى وجهها برقع كثيف، ناهيةً اياها عن ارتياد المجتمعات وعن دخول هياكل الآلهة للصلاة!

وفي «تنادوس» سمحت للرجل ان يقطّعَ بالفأس زوجته الخائنة ؛ وفي «لوكرس» ان يفقأ عينيها وفي «تيريوس» ان يعرّضها لهزء الشعب كأن توبط بذنب حمار ويدار بها في المدينة ؛ ولقد بلغت القحة ببعض ازواجٍ الى إلباس الخائنة ثياباً شفافة وربطها بدون ما طعام ، ثلاثة ايام، في الساحة العامة !

حدد «داموستان» دور المرأة قال: « انها للمتعة وللولادة وللحفاظ على البيت». لذلك لم تعن المدنية اليونانية بتعليم المرأة، بل سمحت لها بان تتعلم الرقص والغناء فقط ؛ فتكونت هوة سحيقة الغور بين الولد المثقف وبين امه الجاهلة واستحكم بينه وبينها نفور شديد وقلما رأى التاريخ اولاداً تفاهموا مع امهاتهم !

مسكينةً كانت الشابة اليونانية في ذلك العصر ! فما تكاد تخرج من سجن ابيها حتى تقبر في حَرَم زوجها تعيش تحت اعين الرقباء: لا حق لها بالخروج ولا باستقبال الضيوف ولا بالظهور؛ بل كل واجباتها كانت محصورة بالخدمة واعداد الطعام ! مسكينة ! لقد اذلتها الشريعة واخضعت لسلطان زوجها حتى خزانة ثيابها ، فامتنع عليها ان تملك من الثياب الا ثلاث بدلات وحجرت عليها ، في الليل ، لا تخرج الا في عربة تتقدمها مشاعل . وان كانت منحتها حقاً بتمثيل دور هام في الاحتفالات الدينية فلقد منعتها عن حضور المآتم والالعاب

وتمثيل الروايات .

لكن الجدير بالملاحظة ، ايها الاخوة الاعزا. ، هو رضا المرأة بهذه المعاملة الوحشية ، وقناعتها بهذا النصيب من الحياة وعدم شعورها بذلك الاحتقار والذل والازدرا..

اجل لقد تربت الابنة في «سبارت» تربية عسكرية وبرهنت في كثير من مواقفها على شجاعة وبطولة؛ لكن «ليجارج» قد ابى ان يسن لها شرائع تخصها احتقاراً منه لها . على ان هذا النقص في تشريعه عاد بالضرر على بلاده وغيّبها. فما لبثت بلاده ان امست جدبا. ، قليلة الرجال وكان، لفحش المرأة، اليد الطولى في هذا الخراب ، فبسببها انحطت الاخلاق وتفشت الخلاعة وقلّ النسل .

ليست المدنية اليونانية اذن هي التي أعلَتْ قدر المرأة ولا شرعُها هو الذي حرّرها . ففي اثينا ضغط وقسر وحرمان ، بالرغم من لطافة الاخلاق؛ وفي سبارت شذوذٌ واباحة، بالرغم من قسوة الشريعة؛ وفي كلا الحالين كانت المرأة خليقة محتقرة، لا شرف لها ولا شأن، ولا حب تنعم به ولا حق ؛ بل عبودية ترسف في اغلالها !

(راديو الشرق في ٦ كانون الثاني سنة ١٩٤٦)

المرأة في نظر نيتشه :

قال : « يجب ان يربّى الرجل للحرب ؛ والمرأة لمتعة المحارب .

وزاد : « في ذهابك الى النسا. ومعاطياتك معهن فلا تنس المقرعة ولا تسهَ عن السوط : هررٌ هن النسا. أبداً ؛ هرر او عصافير واذا حسنت حالهن ، فهن بقرات . »

وهذه المبادى. الزائفة وغيرها حملت اميل فاجه على ان يقول عنه : «ليس المجنون خطراً ؛ على شرط ان يعتبر مجنوناً ويُعامل كمجنون . »

الحديث الثاني

المرأة

في الدولة الرومانية قبل المسيح

لقد ترك لنا الفن الروماني تحفة اسماها واضعها «الزوجان الرومانيان» تمثل امرأة يافعة، حلوة المنظر، جذابة، ورجلاً في ربيع الحياة ممشوق القامة ممسكاً بيدها. على وجهيهما علامات الغبطة والرصانة وفي وقفتهما دلائل الحشمة والالفة والمودة والثقة. تمثال استوحى الفنان، عند حفره، مثلاً أعلى، كان دوماً، هدف اخيار الرومانيين وافاضلهم؛ الا ان نائبات الفجور انتابت هدفهم هذا ونالت منه منذ عهد بعيد.

على انه مهما يكن من امره، فلا يسعنا ان نغضي، ونحن نحدثكم عن المرأة الرومانية، عن تحديد الزواج وضعه الفقهاء الرومانيون لانه يكشف عن فكرتهم بالمرأة وحقوقها وعن رأيهم في الزواج كما يجب وأحبوا ان يكون؛ قالوا: «الزواج هو اتحاد حياتين واختلاط ميراثين وجعل خيراتهما مشاعاً للاثنين.»

أهذا هو اذن رب العيلة الذي حولته الشريعة الى كائن مخيف فدججته بكل الحقوق وعفته، تجاه امرأته وبنيه، من الواجبات، منيطة به وحده صوالح العيلة جمعاء، زاعمة ان حصرها فيه يكتب لها الخلود؟

اهذه هي المرأة التي جعلتها الشريعة عبدة اواقل فبخستها حقوقها العائلية،

وحرمتها الامكانيات المدنية وحكمت عليها ، بحجة عجزها ، ان لا تهتم الا بما تفهُ في الحياة : بتزيين جسدها لتكون متعةً للرجال يستحلونها ؟

أعن ازميل النحات ام عن كتب التشريع نأخذ حقيقة حال المرأة الرومانية؟ عن الاثنين معاً ، ايها الاخوة الاعزاء ، ففي كتب الشريعة نرى المرأة الرومانية أنقصَ نساء العالم حريةً واكثرهنَّ حرماناً من حقوقها . فالوصاية عليها لا نهاية لها ، تلازمها من مهدها الى لحدها ؛ وسلطان الوصي عليها لا حد له ؛ فهو مطلق على شخصها واشيائها ، في زمن عزوبتها وزواجها وترملها ؛ ولم يمتد عهد الوصاية على المرأة في بلدٍ ، ما امتد في رومة !

اما في الواقع فلم تنعم المرأة ، قدماً ، بما نعمت به الرومانية من الحرية والاكرام والتقدير ، في اجيال رومة الأوَل ، يومَ ذلّلتها الشريعة وعبدتها للرجل يتحكم بها وبمقدّراتها ؛ فلقد كان حظها اسعد بدرجات من حظّ اختها اليونانية . فبينا كانت هذه ترسف في اغلال العبودية ، محجورةً في الاحرام ، كانت هي تخرج ساعة تريد ، تزور وتُزار وتتقدم على زوجها في استقبال ضيوف الدار . وبينا كانت اليونانية تُحسَب « شيئاً » تتداوله ايدي الرجال والازواج ، شاركت الرومانية زوجها واولادها في عبادة الجدود واعانته بتدبير المنزل وتربية الاولاد ، وعرف فيها العبيدُ ربةً ودعوها مولاة . وبينا كانت اليونانية لا تجيد الا الرقص والغناء يتناساها التاريخ ولا يحفل الا ببعض خليلات اقترن بالجمال والذكاء والمناقب ، نعمتْ الرومانية بثقافة تحاكي ثقافة الرجال سعةً وعمقاً وكتب التاريخ عنها الصفحات الطوال مجداً بطولتها وأمانتها وتغنّى بآتي تانكيل وتيمليا الطوحتين ، و«فرجيني» و« كورنالي» و«أورلي» و«أسترا» و«جوليا بروسيلا» أم «اجريجولا» الامبراطور .

فبعض هذه الاسماء يذكرنا بحوادث تاريخية واصلاحات اجتماعية ؛ بل بثوراتٍ على الطغيان ؛ والبعض الاخر يعيد الى اذهاننا ذكرى نساء فريداتٍ كنَّ امثلةً حية لربّات البيوت القديمة ، عرفنَ ان يتصرّفن ، في زمنٍ تفاقم فيه الشر ، تصرفاً حميداً ، جديراً بكل مديح واطراء .

فمن اين هذا التباين في مقام المرأة وشأنها في مدينتين جارتين تشابهت

شرائعها باذلال المرأة واستعبادها ؟

التباين لم يكن في الشرع بل في الاخلاق ، ايها الاخوة الاعزاء ،. انهمك الروماني في التجارة والادارة والحروب وانصرف الى التوسع والفتوحات وثقل نفسه بابهظ الواجبات؛ فاحترم الطهارة وعظم التضحية وتمرس على الجلد، واحتمال المشاق واكتفى من نعيم الحياة بالكد والعمل والبساطة في العيشة والاذواق ؛ فاعادت هذه الاخلاق للطبيعة قسماً من حقها ورفقت بالمرأة وأرجعت اليها ما سمح نظام العيلة، في عهد القبائل، بان تعطاه من الشرف والمقام، مبقيةً على تلك الشرائع التي قدسها ذلك النظام.

نعم لقد لطفت الاخلاق شدة الحق وقسوة الشرع وقد كان موضوعها خيرَ الدولة لا سعادة الافراد ! الاخلاق انشأت محكمة عائلية لم تقل بها الشريعة ، مؤلفة اياها من الاقارب المدنيين والدمويين فكان انها حدّت من سلطة رب العيلة على امرأته وقضت على استبداده ببنيه، مانعة اياه، تحت شديد اللوم، عن ان يصدر احكاماً في الخطبة والزواج والطلاق والميراث قبل دعوتها وانعقادها واستشارة اعضائها . فكان من نتائجها : ان حمت المرأة والابنة ، وجعلت حوادث الطلاق نادرة ؛ لان الامانة الزوجية صانت المرأة من هذه الآكلة الفتاكة ، واحترامَ العفاف سيّج المنازل بوجه خنازير الدنس والعهارة ؛ فباهى الرومانيون — وفي مباهاتهم غلو ! — انه في مدة خمسمائة سنة لم يحدث في رومة حادث طلاق !

أجل لقد عرف الروماني القديم ومارس فضائل خليقةً بالاعجاب ، ولم تخل الحياة الفردية ، حتى عند العبيد ، من فضائل طبيعية : كالمحبة الوالدية والابنية والزوجية والتضحية والاخلاص ، لكن تلك الفضائل كانت مقصورة على المصالح المادية . ولما لم تكن مستندة الى سلطة آمرة بها ، رأيناها تنهار وتذوب ، تبعاً لمقتضيات الحال والزمان والمنافع الشخصية ؛ ذلك لان الديانة الموحاة وحدها تفرض اوامرها الموجبة ، ساخرة بالنفع والضرّ الماديين . واي شعب عدل عن الايمان بها والعمل باوامرها ونواهيها ، تدهده في مهاوي الفوضى الاخلاقية !

هذا ما ناب رومة ، في اوائل الجيل الثالث ، قبل المسيح ، اذ راحت

الانانية الممقوتة تتسرب الى المجتمع الروماني وتنساب الى العيال وتتغلغل في الحياة الفردية ؛ فتذبه حبُّ السيطرة البغيض وقلقل العلاقات بين الرجل والمرأة .

ان الروماني عامل نشيط جَاود ، ولكنه شغوف بالكسب ، عابد للارباح ، محبّ للسيطرة ، طموح . فهمّه في صيانة عيلته وانماء ثروته وتوسيع سلطانه ، جعل منه رجلًا فاقد الرحمة ، قاسي القلب على الضعفاء ؛ وثورات الشعب المحقة على الاغنياء الذين حولوا بيوت مديونيهم الى خراب واشخاصهم الى عبيد ، ان هي ، الا دليل واضح على ما كان يبطنه الروماني من القساوة والعدوان !

سرحت ذئبة رومة في الارض وحلقت نسورها في الاجواء وانقضت على البلدان تنهش لحومها ، فتخمت ودجنت ؛ فما غزا اورليانس مصر وانتهبها حتى كتب الى شعبه يقول: «من اورليانس قيصر الى الشعب الروماني ، المتعبد له ، سلام ؛ يصل اليكم قمح مصر دون ان تفرط منه حبة الفرد ؛ يمموا اذن دور الملاهي والالعاب ، فحاجاتكم ، نحن لها ؛ واما انتم ، فالى التفكه والتلذذ انصرفوا .

سمحت رومة واستسلمت للبطالة ، فغرقت في اوحال الرذيلة واغرقت في السفه والفساد وأسرفت في طلب الشهوات حتى جعلتها غاية الحياة .

كان الشعب ينتظر ان تقسم عليه المغانم سواسية ، ويتوقع ان ينعم بفردوسه الارضي بالمساواة ، فاذا بآماله تضيع وباماتيه تتبخر ؛ لان أقساط اللذات التي يوزعها القيصر ، ذات اليمين وذات اليسار ، كانت ابعد عن ان تروي غلة الطمع عند هذا وذاك . فالى جنب المواشي البشرية الوضيعة والذباب ، كانت تربض الضواري والكواسر العظيمة النهمة . فلهذه يقتضي حصة تضاهي ، ثلاث مرات ، حصة تلك . فامست الحاجة الى الذهب ماسة . فالى الذهب اذن ؛ لانهم به يشترون اللذات ليطفئوا نار الشهوات !

اتفق المؤرخون والاخلاقيون على التأكيد : ان للنساء ، في غارة الغنى على الاداب والفتك بها ، قسطاً وافراً . فرغبة المرأة في الحلى والتبرج والزهو ولذيذ الاطعمة والمباهاة بكثرة الحشم والعجلات ، عجلت بالقضاء على العيشة

البسيطة الهادئة ومسخ ما جُمِّل من الاخلاق!

راحت المرأة، في بطالتها التوّاقة الى التنعّم والملاذ، وحردها واصرارها على تلبية مطاليبها؛ تقذف برفيق حياتها الى مواطن الكسب، يجمع الاموال بكل الوسائل اشباعاً لشهواتها وارضاء لغنجها ودلالها؛ وكانت الارياف أولى مطامعه الاشعبية، فساد فيها عهدٌ من الارهاق والنفي والتقتيل؛ فاغتنمتها المرأة فرصةً تغزو فيها البيوت فتنهبها وتحمل المتروكات فتتنعم بها. ففقدت الحياء، وبالغت بالقحة حتى باتت جديرة بارتكاب الجرائم والموبقات وانتهاك ما قدسته الاجيال والعادات! تشهد، على هذا، حوادث ذلك العهد القاتم الكريه، عهد اعياد «باكيس»، اله الخمر والدعارة فقال «جفنال»: «لم تقع عيني على شيء يقزّز النفوس وقوعها على امرأة غنيّة!»

فخلاعة المرأة وتحرّرها من شريعة لم ترتّب عليها واجبات، دفعاها الى حذف الولد والعبث بالامومة، اعظم واجباتها الطبيعية واقدسها، لئلا تفقد بالامومة شيئاً من قوامها ورشاقتها واناقتها! وكيف يتسع المكان للولد في بيوت هدمتها الرذيلة والانانية!؟ قال بلين الفتى: «ان شغف الوالدين باللذة لم يأذن لهم حتى بولدٍ وحيد!»

هذا الفساد قد بدأ في الرأس ومنه امتد الى الاعضاء، فالامبراطرة، في مدة مئتي سنة، لم يعترفوا الا بولدٍ واحد شرعي هو «بريتَنيكيس» ابن اللئيمة «مسالين»، زوجة كلوديوس الاولى! والاشراف، قد حذوا حذو اربابهم، فاستعاضوا من الزواج بعشرة المومسات ومساكنة الخليلات فعمّ الفساد طبقات الامة جمعاء. واستحال على رومة ان تجد في امبراطوريةٍ تعدّ مئتي مليون من السكان، ست شابات يرتضين حال العفاف حالاً لمن لتنيط بهن الحفاظ على النار المقدسة! وكيف السبيل الى وجودهن في حضارة تقدس البكارة ولكنها تؤله اللذة اللحمية وتعبد الزهرة! حتى قال «سناك»: «صار العفاف دليلاً على شناعة الوجه وقباحته!»

هالَ اوغست ما يجري، فهبّ الى الشرائع يسنها إكثاراً للنسل وحفاظاً

عـلى الحشمة والحياء . فعجلت شرائعه دورَ الانحطاط وصيرت الزواج عبثاً ومهزلة . فأقبل الرومانيون على الزواج لينجوا من مصادرة الاملاك . يتزوجون؛ ولكن ليطلقوا في الثلاثة الاشهر التي تتبع عقد زواجهم !

وفي هذه الحال ، طغى الطلاق وتفشى ، فامست المرأة سلعة توهب وتشرى وتبـاع وباتت كل البواعث صالحة للطلاق . فخروج المرأة ، سافرة ، سبب للطلاق ووقوفها في السوق تحادث عبداً محرراً سبب للطلاق ايضاً، رجل يطلقها لانها ، دون اذنـه ، حضرت مشاهد الالعاب ، وآخر يطلقها لانها مريضة ؛ هذا ، لانها عاجزة، وذاك، لانها شاخت. « فكاتون » المؤدب وَهَب امرأتـه صديقه «اورتانيس» ، ولما قام لهذا نسل منها، استرجعها «كاتون» اليه ولم يرَ في عمله عيباً . وشيشرون ، نعم ، الشريف شيشرون عـاش ثلاثين سنة ، عيشة حب واحترام مع « ترنسيا » امّ اولاده ؛ ثم عاد تسرحها ، وهو في السابعة والخمسين من عمره ، طمعاً بالشابة «بيليليا » ليدفع من مهرها ما تراكم عليه من ديون . ولماذا نكثر الشواهد . الم نقرأ كلمة «سنك» عن عصر اعطيت فيه المرأة ، هي ايضاً ، حرية الطلاق؛ قال : «لم تعد المرأة تخجل من كسر زواجها؛ لان النبيلات اعتـدن ان يُحصين سني اعمارهن ، لا باسماء القناصل والولاة ، كما كانت العادة؛ بل باسماء ازواجهن . يطلقن ليتزوجن ويتزوجن ليطلقن ! » .

اجل لم تعد الاسباب معينة ، فأتفهها صار كافياً للطلاق ؛ واذا ما انتفت العلل ، ارجع الرجل الى زوجته مهرها ، وسرّحها ؛ ولما كان الطلاق ، لعلـة زنى ، يعفي الرجل من رد المهر، عمد الكثيرون الى انتقاء زوجاتهم من بنات مشهورة بالخلاعة ، ليسهل عليهم ارسالهُن وتكتيلُ الامهارا !

في تلك الحقبة اندفعت المرأة الى منافسة الرجل ، حتى في القوة الجسدية ، فتركت اعمال الخياطة والتطريز واهملت الطبخ وادارة المنـازل ومالت عن القراءة والغناء وحشرت نفسها في اضبارات الدعاوي والمحاكم وعشقت السياسة وألفت الرياضة البدنية وفتنت: بالصيد تلبس لبس الرجال وتنازلهم في سباق العجلات وتلاعبهم العاب السيف والترس وتخوض معهم معامع القتال . تحمـل

الحربة بيدها والخوذة على رأسها وتذهب الى صيد الخنازير في غابات « الاتروري » وسهولها .

وكان من سوء الطالع ، ان الرومانية ، وقد ارادت ان تشابه الرجل في كل شيء ، انتهت الى مجاراته في ارتكاب الجرائم والفواحش وساوته بالشراهة فالسكر ، تأكل ، مثله ، لتتقيأ وتتقيأ لتأكل ، وتعيش ، راكبة رأسها ، غير عابئة برجلها ، تتمرس على كسب معاشها بدونه ، وفي غالب الاحيان ، بثمن خياناتها الزوجية ولا تتكلف حتى عناء الخجل من حريتها الذميمة فحق «لجيفنال» ان يكتب عنها : « اي حياء تستطيع ان تحتفظ به امرأة تنزلت عن عرش انوثتها ووضعت على راسها خوذة وحملت بيدها حربة ! »

الى تهتك المرأة وسفهها ، والى فساد المجتمع الروماني ألمع بولس الرسول في رسالته الى اهل رومة قال : « اسلمهم الله الى اهواء الفضيحة فان اناثهم غيّرن الاستعمال الطبيعي بالذي خلاف الطبيعة، وكذلك الذكران ايضاً تركوا استعمال الانثى الطبيعي والتهبوا بعشق بعضهم بعضاً ، ففعل الذكران بالذكران الفحشاء ونالوا في انفسهم الجزاء اللائق بضلالهم . زعموا انهم حكماء فصاروا حمقى ! »

على انه، كانت في رومة وفي سائر انحاء الامبراطورية، ارادات حسنة ونفوس ابيّة ، محبة للعفاف راغبة في حياة العيلة الهادئة ، تنتظر فرجاً لتقطع سلاسل العادات القبيحة وتطير محلّقة في اجواء الشرف ، نظيفة من وحول الارض ودناآتها ؛ وكان فيها ينابيع ادبية صافية تجري مختفية تحت ما بقي من عادات حميدة واخلاق عالية . ودليلنا : السهولة التي وجدتها التعاليم المسيحية القاسية عند نفوس كريمة شايعتها منذ الساعة الاولى .

رادیو الشرق في ١٦ ك٢ ٩٤٦

الحديث الثالث

المرأة

في اسرائيل حتى مجيء المسيح

قال الله لابراهيم : « انا الله القدير . اسلك امامي وكن رجلا . » وبهذا نصب تعالى للاداب هدفاً وأفهم ابراهيم، خليله ، الباعث القوي على ممارسة الفضائل . وبفضل هذا الهدف العالي وهذا الباعث القوي رقي اباء العهد القديم في سلم الاداب وتقدموا في دنيا الاخلاق رقياً وتقدماً لم يصل اليها الخوارج ! ولكن ، مع ترقيهم الى عبادة الاله الحقيقي ، وتمتعهم بشرائع تفرض الحفاظ على شرف العيلة تأميناً لثباتها ودوامها، ومع اعطائهم وصايا تأمرهم ، صراحةً ، باكرام الاب والام وتمنعهم عن الحاق الضرر بخيرات القريب الطبيعية وهي حياته وزوجه وماله وصيته وتحذرهم من الطمع والشهوة ، ينبوع الخطايا ، بالاعمال ، قاضية على اصول الشر في مكمنه ، في القلب ؛ مع كل هذا ، قلت ، لم يتمكنوا من ان يخلعوا عنهم ، عملياً ، قساوة الاخلاق القديمة، فطبقوا شريعة الثأر بشراسة وغدر ، وامتهنوا الابنة وباعوها بيع العبيد ، وعددوا الزوجات وأذلوا المرأة وأمعنوا في الطلاق !

لا يضير شريعة موسى ما فيها من نقص اذا قوبلت بشرائع الانجيل . فهناك عادات واعتقادات ، وهناك عقلية وبيئات ، كان القضاء عليها مستحيلاً ومحوها

من الحياة العملية محاولة فاشلـة ؛ فاضطر موسى المشترع الحكيم ، الملهم الى ان يسكت عن بعض امور ويصلح بعض امور ويكمّل بعض امور ويحدّ من شدة البعض الآخر.

كان اليهودي، في عهد موسى، انانياً؛ فلم يفكر المشترع في ان يطلب منه العدول عن الاستفادة من مخالفة الشريعة ؛ وكان قليل الشعور بـدعوة الله له الى كمال ادبي ، عال يتقاضاه احتراماً كاملاً لخطة الله ولاتمـام ارادته القدوسة . ففي هذه الظروف ، نظر موسى الى مخالفـة بعض الشرائع نظره الى شر ادنى فاباح تجاوزها بشروط يصعب تحقيقها، بغية ان يُبقي المحافظة على الشريعة مفضّلة على الاستمتاع بالاباحة ومنعاً لشر اعظم يحصل من الاصرار على تنفيذ ارادة الله تنفيـذاً لا هوادة فيه ولا مراعاة !

كان موسى يقود شعباً لا يزال ولداً في معرفة الله وعبادته، شعباً قاسي القلب غليظ الرقاب. قال حزقيال: «ان آل اسرائيل باسرهم صلاب الجباه وقساة القلب» (٣ : ٧) وكان يشترع لشعب عاش اجيالاً ، عبداً ، في مصر ، بين الوثنيين ، ورأى كيف يعاملون الضعيف ويحتقرون المرأة فتخلّق باخلاقهم وجاراهم في اساليبهم وتقاليدهم وحمل معه ، من ارض العبودية ، عقلية وثنية لا ترأف بضعيف ولا تشفق على مسكين . ولما اراد هذا الشعب ان يطبق المبادئ الوثنية في حياته الفرديـة والعائلية والاجتماعية ويعمـل بعادات لا تتفق مع الشريعة الطبيعية والالهية مطالباً بسلطان الحياة والموت على نسائه وبنيه؛ قام موسى وسلبه هذا الحق المزعوم. على انه اضطر، آسفاً، الى ان يترك للوالد الحق ببيع ابنته كالعبدة؛ لكنه اشترط عليه ان لا يخرجها خروج العبيد قال : « ان باع رجل ابنته امةً فلا تخرج خروج العبيد » ومنعاً للفحش والدعارة اجاز تعدد الزوجات وأذن بقتل الزانية رمياً بالحجارة، ان اخذت بالجرم المشهود ! ولكي يقضي على اعمال الشراسة ويحفظ السلام في العيـلة وبين القبائل اباح لليهودي ان يسرح امرأته على شريطة ان يسلمها كتابَ طلاق يعلن فيـه علة تطليقها ويشهد بصيرورتها حرة مستدركاً موقف المرأة الشرعي حسماً لادعاآت الزوج المطلّق ان صارت مطلّقته لرجل جديد .

قال : « اذا اتخذ رجل امرأة وصار لها بعلاً ثم لم تحظ عنده لعيب انكره عليها . فليكتب لها كتاب طلاق ويدفعه اليها ويصرفها من بيته » .

ان موسى لم يحدد الاسباب التي تخول الرجل حقاً بتطليق زوجته فاتسع مجال التفسير امام علماء الناموس، فتشعبت اراؤهم وانقسموا الى مدرستين : مدرسة المحافظين، المتمسكين، الشداد وعلى رأسهم «شماعي» فهؤلاء عينوا للطلاق اسباباً هامة: اولها الزنى والحنث بالعهد، ومدرسة الاباحيين والمتساهلين ومعلمها الاكبر « هيلل » فهؤلاء قالوا بجواز الطلاق لاجل كل علة. فراح اسرائيل يتفنن بخلق الاسباب والعيوب وايجاد بواعث الطلاق وانتهى الى تسريح المرأة ان شوطت القدر او لم تصلح طبخةً بالملح واجاز المعلم « اكويلا » للرجل ان يطلق امرأته ان رأى غيرها اجمل منها ووقع في هواها !

وعلى توالي العصور امعن اسرائيل في احتقار المرأة واذلالها عابثاً بشأنها، لا يبالي بمقامها، فاعتبر ان وجود البنت في العيلة غمٌ لوالدها وتاقبتها الخسران . وتطوح الى ان جعل مكالمتها عاراً على معلمي الشريعة ! والشاهد ان ساداتنا الرسل تعجبوا من تنازل الرب يسوع الى محادثة المرأة على بئر السامرة !

تلك تقاليد وعادات اقتبسها اسرائيل من الشعوب والخوارج. فقد أجلي الى البلدان الوثنية واجتيح وطنه مرات ودخلت فلسطين جيوش الكلدانيين واليونانيين والرومانيين وحوّل الرومان ارض الموعد الى شبه مستعمرة رومانية كثر فيها الموظفون والجنود والسواح . وكان اليهود « الشتات » الضاربون في اربع زوايا الارض سعياً وراء الدرهم : في مصر وبابل والبونت والجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين والكبادوك وروما يرون ويسمعون ويقصدون، كل سنة، الى اورشليم للعبادة ، حاملين معهم عادات الامم وتعاليمها فيروون اخبارها واقاصيصها على اخوة لهم في فلسطين . فكان ، لكل هذه الامور ، تأثيرها العميق في حياة اسرائيل العائلية والاجتماعية حتى امسى شعب الله المختار « إلاّ بقية قليلة منه » لا يقل وثنية في نواحي حياته جميعها، لاسيا في احترامه المرأة ومعاملته اياها ، عن الوثنيين المغرقين في وثنيتهم !

مع كل هذا، لم تحرم الاسرائيلية حريتها ولم يُحجر عليها ؛ بل لعبت دوراً هاماً في اسرائيل ، فنجته من مخاطر اعترضته وكادت تقضي عليه وتمحوه من الوجود ؛ وكان لنفوذ المرأة تأثير ، حيناً ، جيدٌ ومفيد ، وآخر ، سيءٌ ومضرٌ . يكفينا ان نلفظ اسم ساره وراحاب واستير ويهوديت وبتشباع وعتليا وايزابل ودليله ليتبادر الى ذهننا ما قامت به بعض النساء من اعمال جسام ومآتي عجز عن القيام بها الرجال !

وكان ، بين بنات اسرائيل ، نساء صالحات رفعن علم الفضيلة عالياً وعشنَ عفيفات مع بُعدهن عن اورشليم واقامتهن في اوساط وثنية لا تساعد على حفظ الشريعة والعفاف . فأمثال سوسنة العفيفة وحنة، ابنة فنوئيل كثيرات . فلقد اسمعنا يشوع بن سيراخ ثناء عليهن خلناه عقد جمان وحسبناه دراً لم ينثره على امرأة من قبله رجل . قال : « رجل المرأة الصالحة مغبوط وعدد ايامه مضاعف . المرأة الفاضلة تسعد رجلها وتجعله يقضي سنيه بالسلام ، المرأة الصالحة نصيب صالح تُمنح حظاً لمن يتقي الرب فيكون قلبه جذلاً ووجهه بهجاً كل حين ، غنياً كان ام فقيراً » . وقال : « من يجد المرأة الفاضلة ؟ ان قيمتها فوق اللآلىء . المرأة الحيية نعمة على نعمة . الشمس تُشرق في عُلى الرب وجمال المرأة الصالحة في عالم بيتها . والمرأة المحبة للصمت عطية من الرب . لطف المرأة ينعم رجلها وأدبها يسمّن عظامه ! »

أعلن يشوع هذا الثناء ، بعد ان خبر شر المرأة ورأى ما كان يجري في المجتمع اليهودي بسببها من فحش وفجور فحذّر الشعب الاسرائيلي من شرّها قال : « لا تسلّم ثروتك الى النساء ولا طرقك الى مبيدات الملوك ، المرأة الشريرة نيرٌ قلقٌ ومثَلُ متخذها مثَلُ من يمسك عقرباً . المرأة الشريرة سخطٌ عظيم وفضيحتها لا تُستر . زنى المرأة في طموح البصر ويُعرف من جفنيها . واظب على مراقبة البنت القليلة الحياء لئلا تجدَ فرصة فتبذل نفسها . تنبه لطرفها الوقح ولا تعجب اذا عقتك » ! ثم قال : « كل ألم ولا ألم القلب . وكل خبث ولا خبث المرأة . لا رأس شر من رأس الحيّة ولا غضب شر من غضب المرأة . مساكنة

الاسد والتنين خيرٌ عندي من مساكنة المرأة الخبيثة، رجلها يكمد بين اصحابه واذا سمع تأوه بمرارة. كل سوء بازاء سوء المرأة خفيف. مثل العقبة الكثيرة الرمل لقدمي الشيخ، مثل المرأة الخبيثة اللسان للرجل الهادئ. . لا تجعل الماء مخرجاً ولا للمرأة الشريرة سلطاناً. فالمرأة الشريرة ذلة للقلب وتقطيب للوجه وألم للفؤاد! لا تلقَ المرأة البغي لئلا تقع في شراكها. لا تألف المغنية لئلا تُصطاد بفنونها، لا تجالس ذات البعل البتة ولا تكون لها منادماً على الخمر . . . »

اجل لو لم تجارِ الاسرائيلية اختها الوثنية في الشذوذ والاباحة وتقلد حريتها المعوجة، تقليداً أعمى، لكان مدحَ ابن سيراخ المرأة وصمت، ولو كانت اليهودية كرهت الرذيلة ولم تسقط في تلك « الهوة العميقة » لما تلفت فيها وبادت قوة شمشون الجبار، ولو كان اسرائيل، حافظُ الشريعة الالهية وحارسها، سمع لانبيائه يعظمون العفة ويمارسون الزهد ويقرّعون الاوثان الدنسة « لما ازاغت قلب سليمان نساؤه وافسدت عليه حكمته » كما ضمحلت ومحقت شرف شعوب الارض جمعاء. وابادت مدنياتها ولاشت حرياتها؛ لكن اسرائيل، الشعب الغليظ الرقبة، المانع الايمان لم يفهم ولم يرعو بالرغم من القصاصات الهائلة والجلاء. والتشتيت والتنكيل والعقارب والحيات بل سجد لاصنام اللذة يحرق امام مذبحها عواطف قلبه ويلاشي على قدميها دعوة الله له ليكون شعباً، غيرَ شعوب الارض.

وقد قلد اليهود، قبيل مجيء المسيح، اربابهم الرومانيين في الفجور فماثلت اورشليم، المدينة المقدسة، رومة، المدينةَ الوثنية، الدنسة. وتتبع ملوك فلسطين خطوات القياصرة فخنق هيرودس الكبير مريام امرأته وامها وفتك بولديه منها وطلقت شقيقته «سالومه» زوجها «كوستابروس» خلافاً للشرائع اليهودية، كما قال يوسفوس المؤرخ؛ وطلق أنتيباً زوجته واقتنص هيروديا ابنة اخيه «اريسطوبليس» وزوجة اخيه فيلبس وجرّ معها الى فراش السفاح ابنتها «سالومه» ولم يجرؤ على تبكيته من علماء الناموس أحد! الا رجل واحد طاهر ولانه طاهر هبّ لنصرة الحق والاداب ومناصرة الضمير والعدل والشرف،

رجل واحد لا غير ؛ ألا وهو يوحنا المعمدان الذي وقف مرات بحضرة المرزبان وصاح به عالياً : « لا يجوز لك ، لا يحق لك ! »

سكت هيردوس الثعلب على مضض وراوغ ، وهو داهيــة في السياسة محنك ، لئلا يثير غضبة الشعب عليه ، ولانه ، يقول الكتاب : «كان يحترم يوحنا ويسمع له بانبساط » . الا انه ، كانت هناك ارادة اقوى من ارادته في الشر واصلب ، ارادة هيروديا المسيطرة عليه . فما زالت تدس الدسائس على ثقيل كان يضايقها باوامره ونواهيه حتى امسك الطاهر وزُج في سجن « ماسرونت » .

وجرياً على خطة ، قديم عهدها ؛ اخفي الباعث الحقيقي للقبض عليه بكذب تبنته الدول وجرّت عليه ، كل مرة ، ارادت ان تمحو من الوجود رجلا حراً ينتصر للحق ويقول لاربابها : «لا يجوز لكم» ! فقال «يوسيفوس» المؤرخ ، المحب لسلالة هيرودس ، العاذر لها على فواحشها : « ان يوحنا مقلق للشعب ، مثير للشغب في اسرائيل ، فقضت سلامة الدولة بان يزول من الوجود ، قبل ان يطوح بالشعب الى الثورة » ! فكان اعتقاله اول مأثرة تقيدت ، في سجلات المسيحية ، للدولة العلمانية ، الخانقة الحريات ، تحت ستار السلام ، والامن العام . آه كم من مرة ، باسم هذا الامن ، وباسم هذا السلام ، قد اقدموا على نحر الحقيقة من الوريد الى الوريد !

فبينا كان «هيردوس انتيبا» ، يوماً ، ممدداً على اريكة ارجوانية وقد تكلل بالزهور وتضمخ بماء الورد والعطور ، يترأس مأدبة ملوكية بين المدعوين والمدعوات من اصحاب الزلفى ، يأكل ويشرب ويفرط ، اذا به يأمر سيافه بان يقطع رأس يوحنا ، سجين القصر ، ويحمله اليه بعجلة ، على طبق ، اجابة لطلب امرأة عاهر . فذهب الجلاد وفعل ، وحمل لمليكه رأس المعمدان فسلمه الملك لاميرة شابة كانت ترتدي ثياب راقصة خليعة ؛ فحملته الصبية ، وهو يختلج ، الى امها . وامها ، وقد هزها الفرح والحقد معاً ، اخذت خنجراً ، يقول « ايرينئوس » وثقبت ذلك اللسان الذي طالما ردد على مسامعها : « لا يحق لك ، لا يجوز !

اجل الى هنا انتهى الفحش بالمرأة في اسرائيل ، الى هذه المخازي والفضائح

والاجرام والتهتك بتقلدها المرأة الوثنية!

الى هذا الحد من الكفر والاستبداد والاستعباد وصل ملوك اسرائيل ورعاياهم؛ ولكن من حظ البشرية، ايها الاخوة الاعزاء، ان بقية من شعب الله بقيت لله ولم تسجد «للبعليم»؛ بقية نفوس ابية، نبيلة، متدينة ما انفكت، بالرغم من عجيج انهر الفساد وطغيان بحر الكفر والالحاد، تصرخ نحو السماء: «ان امطري ايتها السماوات الصديق من فوق» ... من السماء؛ «لان شفاء العالم، بات مستحيلاً، كما يقول افلاطون، ما لم يأت اله يساعده!»

(راديو الشرق في ٢٠ ك ٢ سنة ١٩٤٦)

الاشتراكية الملحدة هي بنت العلمانية واللادينية من جهة، وبنت المظالم الاجتماعية من جهة اخرى. فالقضاء عليها يقوم بالقضاء على الاسباب التي اوجدتها! ويقيننا اننا لا نقوى على مجابهتها، ما زلنا لا نطبق مبادىء الكنيسة التي نشرها الاحبار الاعظمون في رسائلهم العامة.

لقد استمدت الاشتراكية قوتها من الافكار المسيحية التي «علمنتها» فافسدت معاني كلمات الكنيسة عن غاية العالم وعن النعم وعن شركة المؤمنين. أما ضعفها فكامن في كونها ترفض عطية الله وتحاول ان تجعل الانسان وتصيّره، بوسائله البشرية البحتة، ما لا يستطيع ان يكونه ويصير اليه بدون الله!

ففي حصرها غاية الانسان في الارض جعلته عبدًا، بل آلة تستخدمها القوة! فالايمان بالله هو ضمانة لكل ما هو بشري. ونكران الايمان به تعالى يفضي الى ان يجعل الانسان ذئبًا مفترسًا.

من الثابت أنَّ باستطاعة الانسان ان ينظِّم الارض بدون الله، ولكنه، ان فعل، كان عمله، جناية على الانسان. لانه حيث لا اله ليس انسان! فقَتَلةُ الله هُم هُم قتلةُ الانسان!

الحديث الرابع

المرأة

في الانجيل

حدثتكم عن المرأة اليونانية والرومانية والاسرائيلية، قبل مجيء المسيح، ورأيتم، على نور التاريخ، ما كانت عليه من ذل وعبودية؛ فقد حان لي ان انتقل بالحديث معكم عن المرأة في الانجيل، رسالة المحبة والرحمة والحرية!

جاء الرب يسوع، وفيما كان يعلم في احد المجامع، يوم السبت، «اذا بامرأة فيها مرض، منذ ثماني عشرة سنة، منحنية الظهر، لا تستطيع ان تنتصب البتة. فلما رآها يسوع شفق عليها، ودعاها وقال لها، قبل ان تسأله الشفاء: يا مرأة انك مطلقة من مرضك، ووضع يديه عليها وفي الحال استقامت ومجّدت الله!»

غضب رئيس المجمع وانتهر الجمع؛ لانه رأى في عمل يسوع انتهاكاً لحرمة يوم الرب. فقال يسوع: «يا مراؤون أليس كل واحد منكم يحلّ ثوره او حماره، يوم السبت، من المذود وينطلق به فيسقيه؟ وهذه ابنة ابراهيم التي ربطها الشيطان، منذ ثماني عشرة سنة، أفما كان ينبغي ان تطلق من هذا الرباط، يوم السبت»؟

اجل، ايها الاخوة الاعزاء، لقد هالَ يسوع ان تظلّ المرأة، منذ اجيال

مقوّسة الظهر لا تستطيع ان تنتصب لترفع عينيها الى الله خالقها وربها بحجة ان الشريعة المدنية او العادات او الفلسفة قد حكمت عليها بان لا تعني الا بما هو جسدٌ ووحل؛ مع ان المرأة انسان لا تقلّ بشرية عن الرجل. نفسها مثل نفسه: بسيطة، روحية، عاقلة، حرّة، خالدة. وهي، مثله، ابنة لابراهيم، خلقها الله لتعرفه وتحبه وتخدمه وتسير امامه لتكون كاملة فتخلص! فلماذا أناخها الرجل فبركت تتخبط في اوحال الارض ودناآتهـا، لا تنتصب البتة؟ لماذا حكم عليها بالجهل وجعل نفسه سيداً مطلقاً عليها، يتصرف بها على هواه، محولاً غاية وجودها الى متعته ونفعه؟ لماذا ينكر عليهـا ان تُعامل برفق واحترام وهي شريكته في السرّاء والضراء، وعون له في الحياة؟ قال الرب الاله: «لا يحسن ان يكون الانسان، وحده، فاصنع له عوناً بازائه!»

عرف الرجل ان يلطف قساوة الشريعة في سبيل حيواناته؛ لكنه غضب اذ راى يسوع يرأف بمريضة: هي ابنة ابراهيم واخت له في الدين والشريعة والطبيعة!

أسف يسوع ان يرى شعب الله يجهل ارادة الله؛ اسف ان يرى علماء الناموس يعاملون الحيوان برفق يرفضون ان تعامل، بمثله، امراة مريضة. وعرف ان حطة المراة كانت، في كل زمان ومكان، علامة انحطاط الديانة الآمرة بحطتها وحرمانها من حقها؛ عرف انه، متى انحطت المراة، حطت معها زوجها واولادها وبلادها، فعمد، في تصرفاته وتعاليمه، الى نشل المراة من حضيض الذل ورفعهـا من عبودية جسدها وعجزها واشواقها واشواق الرجال، فقوّم ظهرها المقوس قبل ان تتقدم فتسأله وقطع سلاسل عبوديتهـا الثقيلة حلقةً، حلقةً!

لمّا اراد ايوب ان يعبر عن حقارة الانسان قال: «انه مولود المرأة، قليل الايام، كثير الشقاء.» امّا يسوع فلم يأنف من المرأة؛ بل في احشائها تجسد ومنها ولد وحليبها ارتضع.

احتقر الفريسيون والعلماء المرأة وعدّوا مكالمتهم اياها، امام النـاس؛

عيباً ورفضوا ان يسمعوها تعاليمهم، بل قالوا، وقولهم ذهب مثلاً عندهم: «احرق كلمات الشريعة ولا تعلمها النساء.» اما يسوع فلم يتورع عن تلقين المرأة اسمى تعاليمه واغمضَ اسرار ديانته، ولم يخف ولم يخجل من ان يبشر بحقيقة رسالته، على بئر السامرة، امرأة فاجرة ذات خمسة رجال، عدوة لشعب الله، اسرائيل!

كان سقراط، في احاديث الفلسفة، يطرد النساء من الاجتماع لئلا يفسدن على الرجال حكمتهم، اما يسوع فكان يقبل النساء بين سامعيه ويقدم لهن الخبز قوتاً لاجسادهن والتعاليم السماوية غذاء لانفسهن؛ اشفق عليهن واستجاب مطاليبهن وتناول عطفه حتى النساء الوثنيات، فلم يخيب امل الكنعانية بـه؛ وان كان جافاها بالكلام، فلكي يخجل، بايمانها وثقتها به، غلاظة اسرائيل وتعنته! حادث السامرية وقبل اكرام المجدلية وبكى لبكاء ارملة خطف الموت وحيدها، فاوقف حاملي نعشه ورد الحياة الى الفتى الميت شفقة على امه وتعزية لقلبها الكسير! انحنى فوق فراش حماة بطرس ولمسها فابرأها من الحمى؛ وشفى نازفة الدم، لدن لمست طرف ثوبه؛ واقام ابنة جائير وامتدح صدقة الارملة الضئيلة واكبر عملها واقامها مثالاً للمتصدقين؛ وصادق مرتا ومريم واحبها ووقف على قبر اخيها يبكي؛ ثم اخرجه منه حياً وكان قد انتن!

اما النساء فقد احببنَ يسوع الطاهر حباً لم ينعم به رجل قبله؛ وسيظل مغموراً بهذا الحب، ما زال للمرأة قلب طاهر، وديع، يعرف جميل المحسن اليها! يذكر الانجيل ان النساء كن، عند مرور يسوع، يتسابقن ويقدمن اليـه ابناءهن ليباركهم ويتبعنه معجبات بسماع تعاليمه وكان بامكان كل امرأة ان تصيح في الجمع قائلة: «طوبى للبطن الذي حملك وللثديين اللذين رضعتهما»

ويسوع بادل المرأة حباً بحب وثقة بثقة واشركها بعمل الرسالة فرافقته اثناء تجواله في الجليل، مهتمة بحاجاته، ممهدة له طريق الرسالة، مسهلة اموره تنفق من مالها عليه وعلى رسله؛ ان سالومه ومريم كلوفاس ومرتا ومريم وحنة زوجـة «قوزا» قهرمان هيرودس وسوسنة وغيرهنَّ كثيرات كان لهن من المحبـة

ما حملهن على اتباعه والتعلق به حتى في اشد ساعات آلامه ؛ فلحقنه ، لا الى اكل الخبز ، فحسب ؛ بل على طريق الجلجلة، باكيات، يلطمن الوجوه. فنسي يسوع اوجاعه وغصصه والتفت اليهن ، معزياً ، وعلمهن ان البكاء واجب ؛ ولكن لا عليه ، بل على اولادهن وأزواجهن الذين انكروه وجحدوه وأسلموه للسخرية فالجلد فالصلب ! واتقدت نار الحب والشفقة في قلب فيرونيكا فتقدمت، ساخرة بالحياء البشري، وبهزء الناس ، وجابهت شراسة الجنود وتحدت فظاظة روساء الكهنة ومسحت بمنديلها وجه يسوع المقدس وقد غشاه الغبار وسال عليه العرق والدم والبصاق. وما زلن سائرات معه يرافقنه حتى وقفن مع امه ، قبالة الصليب ، حزينات باكيات ! فبامانتهن له وتعلقهن به وشجاعتهن العجيبة خلصن شرف الانسانية الجاحدة وكفرن عن جريمة الامة اليهودية ، القاتلة الهها . فكافأهن يسوع ومتعهن، قبل ان يمتع الرسل، برآه المجيدبعد القيامة وارسلهن يبشرن تلاميذه الجبناء بقيامته، فكانت النساء رسولات الرسل والتلاميذ!

ولم تقف محبة يسوع للمرأة عند هذا الحد ؛ بل تعدته الى الغاء الشرائع التي اذلتها ! رأى الفريسيون معاملته الحسنى للمرأة فجاؤوا اليه ، يوماً ، صاخبين ، مجربين، وهم يجرون امرأة اخذت بجريمة الزنى وطلبوا منه رأيه في قضيتها مذكرينه بشريعة موسى الآمرة برجمها ، وراحوا يشرحون قضيتها ويسهبون ويعظمون ذنبها ؛ فذابت المسكينة خجلاً فأغمضت عينيها وغطت وجهها بشعرها ويديها ولازمت الصمت ، خائفة ، ترتجف كغزالة تطاردها كلاب الحي ؛ فما كان من يسوع الا ان اطرق واكب يكتب على الارض خطوطاً ؛ متظاهراً كأنه غير سامع او كأنه لا يريد ان يسمع !

لقد قال بوحدة الزواج بين الرجل والمرأة وقبح الزنى وحرمه حتى بالنظر ؛ لكنه انكر على هولاء الجواسيس جرأتهم وعلى هولاء القساة عنادهم وعلى هولاء الخطأة وقاحتهم وتصميمهم على تنصيب انفسهم حكاماً على الخطيئة . لا يستطيع ان يبرر المرأة من فعلتها الشنعاء : فلقد خانت عهدها وخالفت شريعة الله ؛ على انه لم يشأ ان يدينها ؛ بل قام بعمل من اعمال

المحبة، جريء، أو ليس من اعمال المحبة العظمى ان نطرق ، ايها الاخوة الاعزاء، ولا نتفرس في القريب في بعض ساعات، من ساعات، حياته ؟. ثم انتصب يسوع وحدق الى واحد، فواحد، من الشاكين المشائيم واجاب ، وقد سكت عن جوهر سؤالهم ، متسللاً الى ضمائرهم وقال : « من منكم بدون خطيئة، فليرمها الاول بحجر ! » وكأني به تعالى قال لهم : ان الحكم على ذنب هذه المرأة ليس من خصائصكم وسعيكم الى ان تعرفوا رأيي باوامر موسى ليس من حقكم. اعنوا اولاً بانفسكم . أأنتم انقياء الى حد، يخولكم ان تتظلموا الي من هذه المرأة وتخبروني بسوء فعلتها !

اجل، ايها الاخوة الاعزاء، ان للانقياء، وحدهم، الحق في ان يدينوا ! ولكن هل على الارض انقياء ؟ فانهم، لو وُجدوا، لتغلبت رحمتهم على عدالتهم وحلمهم على حقهم ! فكان ان انسل الشاكون، وفي مقدمهم الشيوخ، تاركين البؤس، وحده، امام الرحمة !

اما المرأة فلم تجرؤ على ان ترفع نظرها ؛ ولم يكن لها من القوة ما يمكنها من ان تلتفت الى يسوع . فلقد شعرت بانها امام البار الذي يحق له وحده ان يرميها بالحجارة القاتلة! فاكتفت بعاطفة شكر وندامة اختلجت في قلبها المسحوق

لم يرمها واحد من الشاكين بحجر ؛ لانهم، كلهم، خطأة . اما البار القدوس فلم يحكم، هو ايضاً، برجمها بل افهمها شناعة اثمها وانكر عليها خيانتها وقبح خطيئتها واطلقها، حرة، بهذه الكلمات : «اذهبي ولا تعودي تخطأين». كان فعلها اذن، في نظره، خطيئة ؛ فرذل الخطيئة؛ لكنه غفر لتلك التي ارتكبتها ؛ وبموقفه هذا، أتى عمل رحمة، بجانب امرأة، لم يأت بمثله، في الوثنية، ولا عند اسرائيل، قبل تجسد ابن الله، احدٌ، وبه ارغم منفذي الشريعة على التفكير في نفوسهم تفكيراً يقلع بهم عن دينونة الاخرين وعلمنا ان نكره الخطيئة ونبغضها ونعطف على الخاطئين ونحبهم ؛ لكنه عمل اكثر ؛ فلقد الغى تلك الشريعة الوضعية التي خولت شعب الله والزوج المفجوع باقدس امانيه الحق بقتل الخائنة، واخضع الرجل والمرأة لشريعة ادبية واحدة، لا تميز بين

خطيئة الرجل وخطيئة المرأة ولا تفرق بين خيانتها وخيانته : «من منكم بدون خطيئة فليرمها الاول بحجر !»

والطلاق ، ذلك السرطان المرعب ، لقد رأيتم كيف امتد في جسم البشرية وكيف سرت عدواه حتى الى شعب الله الخاص وقوض صرح العيلة وطوح بالمرأة الى مهاوي الفجور . فبسببه انهارت المدنية اليونانيـة ، واضمحلت القوة الرومانية ، وفسدت عند اسرائيل التعاليم الالهية ؛ فوقف يسوع ، الجراح السماوي ، امام هذه الآكلة الفتاكة ، ترعى جسم البشرية الاصفر ، وقد ابى عليه حبه لها ان تذهب فريسة ذلك الداء العضال ، فأعمل بعنف مبضعه بها فأستأصل اصولها . قال في اولى عظاته من على الجبل : «قد قيل من طلق امرأتـه فليدفع اليها كتاب طلاق ؛ اما انا فاقول لكم من طلق امرأته الا لعلة زنى ؛ فقد جعلها زانية ، ومن تزوج مطلقة فقد زنى !

تعليم جريء لم تسمع البشرية ، قبل المسيح ، بمثله ، ولما اتصل بمسامع الفريسيين جاؤوه يوماً ، يسألونه مخادعين : «هل يحل للانسان ان يطلق زوجته لاجل كل علة» ؟ فاغتنمها الرب فرصة يرجع فيها الزواج الى قدسية اصله ! ولما كان الزواج ، كما وضعه الله ، واحداً : رجل واحد لامرأة واحدة ، وامرأة واحـدة لرجل واحـد . انكر يسوع ان يكون ثمّ طلاق بالمعنى الذي ارادوه ، ولما لم يكن هناك طلاق ، فليس ثمّ اسباب للطلاق ليوضحها لهم . فأجاب : «او ما قرأتم ان الذي خلق : ذكراً وانثى خلقها ولاجل هذا قيل : يترك الرجل اباه وامه ويلازم امرأته ويصير الاثنان جسداً واحداً ، لا اثنين .»

وهذا يعني ان الرباط الذي يتحد الاولاد بوالديهم لهو اقل متانة من الرباط الذي يتحد به المتزوجون . فالزوجان يصيران كائناً واحداً لا ينقسم ؛ «وما جمعه الله» لا حق لانسان ، اياً كان ذلك الانسان ، ان يفرقه ! فألح السائلون : «لماذا اوصى موسى بان تعطى المرأة كتاب طلاق وتسرح ؟» وكان حق هؤلاء العلماء ان يخجلوا من هذه الاباحة ، لا ان يتعللوا بها ؛ لكنهم قد ارادوا ان يبقوا حيث وقف اجدادهم ، انصاف الوثنيين ، في اسفل درجة من سلم الرقي الادبي ، وفضلوا ان يظلوا ،

بالرغم من الاجيال، وتعاليم الانبياء، اولاداً في معرفة الله وفي فهم شريعته الازلية! فأجابهم يسوع: «لاجل قساوة قلوبكم» منعاً لاعمال الشراسة والتقتيل وحفاظاً على السلام «أذن لكم موسى بان تطلقوا نساءكم، ولم يكن منذ البدء هكذا» اجل! ان يسوع لم يسن هنا شريعة جديدة، بل اصلح شريعة قديمة، افسدتها الاهواء، وحورتها مشيئات الناس وعبثت بها شهواتهم! فهم الفريسيون فكرته في وحدة الزواج ودوامه فلم يجادلوه، بل انصرفوا خجالى! فهال التلاميذ تشريع معلمهم وكانوا لا يزالون يهوداً بافكارهم؛ وما ان اختلوا به حتى راحوا يستفسرونه ليتحققوا منه ما اذا كانوا فاهمين ام واهمين. فثبت عندهم، من تكرار تعليمه، انه يريد وحدة الزواج وديمومته، حتى بعد التسريح، لعلة زنى؛ فاعترضوا: «ان كانت تلك حال الرجل مع امرأته» ان كان محكوماً عليه ان يساكنها وان سكيرة، خبيثة، غضوبة، طائشة، شرهة، مخاصمة؛ وان يبقى معاقاً بها وتبقى له وان خائنة، مطلقة؛ فالافضل له ان لا يتزوج. سمع يسوع اعتراضهم ولم ينف ما في الامر من صعوبة؛ لكنه رفع افكار تلاميذه من هذه الاعتبارات الانانيـة الى الاهتمام بملكوت السماوات، ففي سبيله وحده يمكن الانسان ان يعدل عن الزواج. فمن استطاع ان يفعل، فليفعل! «من استطاع ان يحتمل فليحتمل.»

ان نية يسوع بيّنة صريحة! فلقد اراد ان يلغي كتاب الطلاق عند اليهود ويرجع الزواج الى وحدته الاولى وثباته الاصيل. ولكتاب الطلاق، عند اليهود، نتيجتان، الاولى: تسريح المرأة؛ والثانية: اتخاذ غيرها شرعاً. اما في الانجيل فقد الغيت الثانية. فان كان يسوع قد ابقى للرجل الحقّ بتسريح امرأته، لعلة زنى؛ فحقه هذا لا يجر حتماً شرعية اتخاذ غيرها. فعلى رأينا يجب ان نقرأ جملة متى الانجيلي هكذا: «من يطلق امرأته لغير علة زنى التي تبيح له تسريحها ويتزوج اخرى، يزني. ان الطلاق يمكن ان يتم بالرضا المتبادل بين الزوجين، كما يمكن ان يكون نتيجة حكم قضائي؛ الا ان رباط الزواج يبقى قائماً بين الزوجين؛ والا، لماذا عدّ يسوع زانياً من يتزوج المرأة التي طلقها زوجها؟

١٣

وفي خوف الرسل ووجلهم من الزواج مع هذا التشريع وتفضيلهم حال العزوبة عليه ، مصداق لما نقول ! فليس في الانجيل اذن طلاق بالمعنى الحصري الذي يفهمه الناس بل هجر فراش موقت تحكم به السلطة الكنسية لاسباب جد هامة يصعب ازالتها . والكنيسة الكاثوليكية اذا ما حكمت بالطلاق للمتزوجين فلا تفسخ عهد الزواج ولا تفرق ما جمعه الله ، بل تعلن ، في بعض الاحوال ، ان ليس ثَمّ زواج وتأمر : إمّا بتجديد رضا المتزوجين وإما باطلاق حريتهما ليعقدا زواجاً جديداً .

الا ترون ، ايها الاخوة الاعزاء ، انه اذا صح فسخ الزواج لاجل علة زنى ، كانت هذه العلة مدعاة للزنى وتحريضاً عليه وجائزةً تشجيع لفاعليه ! ان الذين يضجرون من زواجهم او يترقون الى عقد زواج آخر يجدون في الزنى نفسه وسيلة تحررهم وتنيلهم بغيتهم . فيكون ربنا قد افسد على الزواج وحدته ودوامه بَدَلَ ان يرجعه الى مثامه الاصيل !

ومع هذا الزعم ، لا نعود نفهم كيف يكون الزواج في الانجيل افضل من الزواج قبل الانجيل ، بل كيف يكون السيد المسيح قد حلّ مشكلة الطلاق حلّاً يختلف عن حلّ « شمّاعي » لها . واذا كان الزنى علة شرعية لفسخ الزواج ، كما يدّعون ، واهمين ، نضطر الى الاقرار بان الزواج المسيحي هو اقل ضمانة للحياة العائلية من الزواج عند اليهود ، قبل المسيح . فشريعة موسى حكمت على الزانية بالرجم ، اما يسوع يكون قد كافأها بالحرية ! وتنزّه يسوع عن ان يفعل هذا ، وهو القدوس الذي أتى ليكمل الشريعة لا ليحلها .

لا نكير ، اذن ، ان ربنا قد أباح للرجل ان يهجر امرأته الخائنة ، لكنه قد حذره من ان ينظر الى غيرها نظرة شهوانية وأثّمه ان فعل ، وعدّه زانياً !
« من نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه »

انه لتشريع لم يحلم به مشترع قبله ! لقد حمى المرأة حتى من عين الرجل الشريرة وحتم عليه ان لا ينظر اليها الا باحترام . وبهذا قد أقرّ قاعدة الآداب وكمّلها واعاد لشريعة الله حقوقها على الانسان كله : على نفسه وعلى

جسده ؛ وسنّ شريعة بشرية تحكم على الزوجة الزانية وتحميها معاً . وبهذا حرّر المرأة من عبودية الرجل وجعلها مساوية له حقوقاً وواجبات فاصبحت في بيتها لا خادمة ولا عبدة ، لا مطيّة ولا متعة ؛ بل مساعدة ورفيقة وشريكة كما خرجت من يد خالقها ؛ وبات رباط الزواج الجامع بينها وبين الرجل وثيقاً لا يفكه الا الموت ؛ لانه عمل الله « وما جمعه الله لا يفرقه انسان » ، ايّاً كان ذلك الانسان مدنياً كان ، ام كنسياً !

اجل ان الانجيل وحده قد اعاد المرأة الى مقامها ؛ وفهمه يرفع مستواها ، والعمل بشرائعه يحررها ويصونها ومعها العيلة ؛ ويحمي آدابها وبها اداب الامة واخلاقها . فالمراة مديونة اذن ليسوع برفعة راسها وحريتها وحقوقها ولا تفيه دينه عليها الا بالاخلاص والمحبة والتقيّد بتعاليمه لانها بها وحدها تحررت وتتحرّر !

راديو الشرق في ٢٧ ك ٢ ١٩٦٦

كلمة المستقبل ابنة كلمة مسيحية :

عادة الله ان يصنع من لا شيء عظائم ، لكننا قلما ننتبه الى اعماله ! ان حبة حنطة ترمى في الارض فتنبت عشباً ثم تصير سنبلة ثم قمحاً ذهبياً نخزنه في الاهراء ، هي اعجوبة كبيرة تضاهي بعظمتها اعجوبة تكثير الخبز .

ان المسيحية هي دعوة الى الشجاعة ، الى البطولة لانها ترفع ، فوق المذابح ، الشهداء الذين عرفوا ان يموتوا وعلى ثغورهم مرتسمة ابتسامة مغربة . فكل غاية وكل ديانة ليس فيها شهداء ماتوا ليثبتوا حقيقتها ، حقيقة وجودها ، لهي غاية ، لهي ديانة لا تلبث ان تضمحل !

فالموت في سبيل القيام بالواجب ، الموت في سبيل العدل والحق ليس انكساراً ، بل غلبة . فالمغلوب ، في مساء الجمعة العظيمة ، كان اسمه يوذا وبيلاطس وقيافا او ابليس ، اما الغالب ، المنتصر فكان اسمه يسوع !

الحديث الخامس

كان في المدينة خاطئة

اريتكم ، في حديثي ، الاحد الماضي ، كيف رفع السيد المسيح قدر المرأة وحطم سلاسل عبوديتها وساواها بالرجل حقوقاً وواجبات ، وأبنت لكم بعض ما اظهرته المرأة من حب ليسوع وتفهم لتعاليمه وتعلق به ؛ اما اليوم، فاريكم معاملة يسوع لامرأة ذات قلب كبير كانت شردت على الله واستسلمت للفجور واضعة نفسها ، بارادتها ، في مصاف نساء فضّل ابن سيراخ «مساكنة الاسد والتنين على مساكنتهن ! » تلك هي المجدلية !

لم يعرّفنا لوقا الانجيلي باسمها ولم يخبرنا شيئاً عن ماضيها ؛ بل اكتفى بان يقدمها لنا بهذه الكلمات : « كان في المدينه خاطئة » انما التلمود قد افاض بالتفاصيل عن جمالها وقوامها وشعرها الطويل وغناها وعثراتها وعثارها ومما قاله : انهـا كانت زوجة « لبابيس » ، احد معلمي الشريعة ، الذي كان يحبهـا جداً ويغار عليهـا شديداً حتى كان يقفل باب البيت عليهـا اذا قضت عليه ظروف الحياة بان يتغيب عنها فأبت على الحسناء نفسها ان تخنع وقررت ان تتحرر من هذه العبودية والتحقت بقـائد روماني من نائيم وتبعته الى المجدل ؛ والمجدل مدينة على شاطىء بحيرة طبريا كانت ، في تلك الايام ، مدينة مياه تؤمها الجالية الرومانية للاستجمام . ومتى قلنا مدينة مياه قلنا مدينة لهو وملاذ !

ففي هذه البيئة، عاشت الزوجة الخائنة، تخرج ساعة تريد وتعاشر من تريد وترتدي من الثياب ما تريد؛ فراح الناس يتهامسون ويتغامزون، اذا مرّت بهم، وتناسوا اسمها ليلقبوها بالخاطئة؛ وفي تلك الضواحي كان يسوع، منذ سنة، يجول مبشراً؛ وفيها اجترح اكثر معجزاته ومن على قمة جبلها لفظ اشهر عظاته؛ فتسنى للمجدلية ان ترى ذاك الذي كانت جماعة الشعب تهلل له؛ والعلما. يلاحقونه ببغض الحاسد؛ وان تسمع منه تعليماً جديداً لم تسمع مثله من زملا. زوجها القديم؛ فانفتح قلبها القلق ودخلت اليه الثقة اذ رأت البرصَ يطهرون والعميان يبصرون وابن ارملة «نائيم»، من الموت يقوم، والخطأة والمساكين يبشرون فاعتقدت ان باستطاعتها، هي ايضاً، ان تنهض من سقطتها وتدخل ارض الاحيا. حيث الحب لم يعد كلمةَ دنسة! وسوف لا يهدأ لها بال قبل ان تحقق املها وتنال من يسوع مغفرة خطاياها!

هي ذي النفس الوحيدة في الانجيل التي اهتمّت بالتفتيش عن يسوع بغية ان تنال منه نعمةً روحية. اما الباقون، اليهود بارواحهم وافكارهم ورغباتهم، فلم يلجأوا اليه الا ليأكلوا الخبز ويشفوا من الامراض والعاهات الجسدية!

والى هذه الصفة النادرة، الى هذه الشهامة عند المجدلية، ألمع يسوع، على ما نعتقد، في قوله للفريسيين المتحفين بفضائلهم الخارجية: «ان الزانيات سيسبقنكم الى ملكوت السماوات!»

ان ما يطلبه الفريسيون من يسوع هو المحافظة على نظافة الكأس والاناء من خارج، ان ما يريدونه منه هو ان يستشيرهم في امور الخير والشر وفي امور العدل والظلم، بوصفهم معلميها وحماتها! اما مغفرة الخطايا! فلن يطلبوها؛ لانهم اطهار ما وُجدوا الا ليصدروا الاحكام؛ لا ليحكم عليهم!

وكان ان سمعان، احد هؤلا. الاطهار، قد تنازل ودعا يسوع ليتغذى عنده. فلماذا؟ أفضولٌ؟ أمباهاة؟ ام تجسس على معلم لم يتخرج عليهم ولم يحمل شهادة من مدارسهم؟ فلا نعلم!

عرفت المجدلية بالدعوة فعقدت القلب على ان تذهب الى يسوع ولا

تخرج من حضرته قبل ان تسمع كلمة الغفران من فيه! لقد سمعته يقول: «تعالوا الي ايتها المتعبون والثقيلو الاحمال وانا اريحكم!» ففهمها كلامه وشعرت تلك البغي بان هناك حباً هو اجمل من الشهوة واللذة اللحمية؛ هناك فقراً هو اثمن من الدراهم واوزان الفضة والذهب؛ فقصدت بيت الفريسي، غير جاهلة، انها محرومة وانه محكوم عليها، شرعاً، بالقتل رمياً بالحجارة؛ قصدته مع علمها بان الشريعة تقضي على صاحب الدار بطردها؛ ولكن ما همها من كل هذه الاعتبارات: انها تحبُّ؛ والانسان، مع الخوف يفكر؛ ومع الحب يعمل!

دخلت البيت غير ما كانت بالامس! فنفسها تغيرت وحياتها تبدلت وشفاهها تطهرت وجسدها تنقى ويداها تنظفت وعيناها تعلمتا ان تبكي! دخلت الى البيت وبدخولها كانت على استعداد، على حذر وعد الملك، ان تدخل الملكوت؛ فمن خلاعة البارحة لم يبق لها الا الجرأة، فلقد تركت فجور المرأة العالمية المتهتكة، لكنها استبقت جبهتها وعدم حيائها؛ دخلت بيت سمعان، حاملة عليها اناء مليئاً من سنبل الناردين، لتسكبه على مليكها وتشكر شكراً جهارياً ذلك الذي نظف نفسها وانعش قلبها، ونشلها من الذل، ورفعها من اوحال العار والفضيحة! دخلت صامتة، مغمضة العينين لم تفتحهما الا لترى اين يجلس ربها يسوع! وما ان لمحته حتى وقفت من ورائه وكسرت قارورة الطيب وسكبت نصفه على رأسه فتلألأت حباته على شعر يسوع كالجواهر. وبيديها المحبتين اخذت تفرك ذلك الشعر حتى ترطب ولانَ ولمع، فامتلأت القاعة من رائحة الطيب وتسمرت اعين المدعوين من العجب! ثم ركعت على رجلي حامل السلام الى قلبها وافرغت عليهما ما بقي في الاناء من السائل الذكي الرائحة. كان بودها ان تقول ليسوع ما يختلج في قلبها من عواطف الحب وعرفان الجميل، فلم تقوَ؛ فوكلت الى عينيها ان تعبر عن عواطفها فسقطت دموعها سخية وسريعة وسخينة!

بكتْ ماضيها الأعوب، بكت حياتها الطائشة، بكت عفافاً فقدته؛ بكت خياناتها الفظيعة، بكت معاثر زرعتها؛ بكت نفوساً افسدتها؛

لكن دموعها كانت ايضاً دموع فرح وتعزية حررت قلبها من ضغط استولى عليها! بكت فرحاً لانها استرجعت طهارتها واستعادت سلام قلبها المفقود وولدت بالروح ولادة جديدة! بكت فرحاً لانها ستعيش عيشة الايمان والرجاء، عيشة الحب الذي نشلها من وهدة المادة ولجة الفجور وهوة الرذيلة! وامعنت بالتواضع فحلت شعرها واخذته بيديها وبه مسحت بلطف قدمي ربها وقد بللتهما بدموعها.

كان يسوع كمن لا يشعر بشيء! فاضطرب سمعان وغضب وعلت شفتيه ابتسامة هزء؛ ثم انتصر فرحه على غضبه؛ لقد حكم على يسوع. لو كان هذا نبياً، كما وهمت جماعة الشعب، تلك الجماعة الملعونة، الجاهلة الشريعة، لعرف من هي المرأة ولابعدها خيفةً من ان يتدنس ويتنجس!

ان هذا المرائي القديم هو من طغمة تلك القبور المبيضة الخارج. هو من طغمة يكفي افرادها، ليكونوا اطهاراً، ان يتجنبوا لمس ما يظنونه نجساً، ولو كانت نفوسهم مغاور دنس، وقلوبهم تطفح حقداً وشراً! قوام طهارتهم وضوء وغسيل! يمرون بالجريح ويجتازونه لئلا ينجسهم دمه ان ضمدوا جراحه، ويتركون الجائع يموت ولا يمسون، يوم السبت، قطعة النقود! ومثل سائر الناس يسرقون ويزنون ويقتلون ثم يغسلون ايديهم ويعتقدون انها عادت نقية ولا نقاوة ايدي الاطفال الرضع.

كان سمعان متشبعاً من الشريعة الموسوية وكان صدى كلماتها يرن في اذنيه: «لا يكن مومسات بين بنات اسرائيل» فهاله ان يرى إحداهن تدخل بيته وتلمس امام الناس ضيفه وعجز عن ان يفهم كيف ان رجلاً، تظنه العامة نبياً، لم يعرف، بعد، اية امرأة لمسته وقدمت له هذا الاكرام الشائن!

قرأ يسوع في قلب سمعان ما فيه، فضرب له مثل المديونين قال: «كان لمداين مديونان: له على واحد خمسمائة دينار وعلى الثاني خمسون. ولما لم يكن لهما ما يوفيانه ترك لهما ما حق له عليهما. فأيّ الاثنين سيحبه اكثر، يا سمعان؟ فقال سمعان: أظن ان الذي ترك له الأكثر! فاجاب يسوع: بالصواب حكمت! والتفت الى المرأة وقال لسمعان: أترى هذه المرأة؟ انا دخلت

بيتك فلم تسكب على رجليَّ ماء، وهذه بلّت قدمي بالدموع؛ انت لم تقبلني وهذه منذ دخلت لم تكفف عن تقبيل قدمي. انت لم تدهن رأسي بزيت، وهذه دهنت بالطيب رجليَّ. لاجل ذلك اقول لك: ان خطاياها الكثيرة مغفورة لها، لانها أحبت كثيراً!»

لقد خطأت هذه المرأة كثيراً وبقوة توبتها سومحت بالكثير؛ ولانها سومحت بالكثير أحبت كثيراً ذلك الذي ردها الى التوبة وهداها الى الحق وغفر لها خطاياها الكثيرة.

اجل لو كانت تلك الخاطئة قد دخلت الى بيت سمعان قبل ان تغيّرت بالتوبة والمحبة، لما استطاعت كل طيوب مصر والهند وكل قبلات فمها الحارة ودموع عينيها السخينة ان تنيلها سماحاً وغفراناً من حياة قضتها في الشر والعهارة! ولكن ما لنا والتلميح. لقد اساء بعض الكتبة الاباحيين وافسدوا معنى كلام المسيح كتبوا: «ان خطاياها الكثيرة مغفورة لها لانها احبت كثيراً ... الخطيئة؛ وادعوا، كاذبين، اننا باستسلامنا الى الشهوة اللحمية نحرر الروح؛ وان كل شهوة متى بلغت ذروتها تطهر! كلا! ايها الحميون، ان المجدلية لم تنل السماح ولم تستعد طهارتها الا بعد خروجها من اصطبل حواسها وانعتاقها من مطاليب جسدها الدنسة. ان الاكرام الذي قدمته لربها كان شكراً على الغفران الذي نالته، لقد احبت مخلصها كثيراً. فبكت نادمة على ما فعلت وطيبت رأسه وقدميه؛ وستحبه في المستقبل اكثر لانه تنازل وسامحها بالاكثر!

ثم نظر يسوع الى المرأة وقد صار في حلٍّ من الشريعة لان المرأة لم تعد دنسة؛ ووجه اليها الكلام قائلاً: «مغفورة لك خطاياك!» كلمة اثارت بين الفريسيين عاصفة من التذمر! مَن هذا الذي يدّعي لنفسه سلطاناً، هو لله وحده؟ من هذا الذي يغفر الخطايا؟ اما هو فلم يعبأ بهم؛ بل كل حديثه مع المرأة قائلاً: «ايمانك خلصك إمضي بسلام!»

ان زملاء الفريسيين، في كل عصر ومصر، يسقطون شبيهات هذه المرأة بتمليقاتهم وقساوتهم ثم يعودون فيحتقرون ويدوسون تلك الضحايا، ضحايا

فسقهم . يقسون ؛ ولكن لا على الخطيئة ؛ بل على الخاطي ؛ اما الخطيئة فانهم يكللونها ويعيدّدون لها ويصفقون! اجل، هناك سقطات لا ينسونها بل يغتاظون منها ويحزنون ، ولكن لا على حدوثها بل على وقوعها في ظروف . . . تنافي اللياقة والآداب الخارجية. ان الحقيقة لا تهمهم ؛ بل الظواهر ! اما يسوع فالى الداخل «الى القلب ينظر» والخطيئةَ ذاتها يشجب ! فلمّا رأى نفس المجدلية طاهرة وتوبتها صادقة وحبها نقياً ومقاصدها وثيقة ، غفر لها وأعادها الى سابق اعتبارها بجسارة تحير الالباب ، فقبلها الى جانب مريم في مدرسة النساء القديسات. عاشرها وهو الطاهر ، ونزل في ضيافتها وهو البار القدوس وحامى عنها حين حسدتها اختها مرتا ولامتها فقال: « مرتا انت مهتمة بامور كثيرة والمطلوب واحد ؛ اما مريم فقد اختارت النصيب الاوفر». ان النصيب الاوفر الذي اختارته مريم، اذ جلست على قدمي المخلص تسمع كلامه، هو ارادتها ان تتعلم قبل ان تباشر العمل ! لقد تعلمت ان حاجة الله الى ايدينا، هي اقل من حاجته الى قلوبنا؛ لان الايدي تسترخي اذا كانت القلوب بعيدة عن الله، لا يسكنه الانسان فيها . ودافع عنها امام التلاميذ وقد ندّد بها احدهم لانها كرّرت عملها وهرقت على قدمي ربها ، قبيل آلامه وموته ، طيباً ثمنه ثلاثمائة دينار قال : « دعوها ، انا حفظته ليوم دفني ؛ فان المساكين هم عندكم في كل حين ؛ واما انا فلست عندكم ، في كل حين » ثم وعد يسوع تلك التي سكبت الطيب ، مع حبات قلبها ، على قدميه ، بالخلود ، ما خلد الانجيل .

لقد لمع مجد هذه الخاطئة أجلى لمعان وبانَ عملها ، نهار الجمعة العظيمة، على قمة الجلجلة ، اذ وقفت ، قبالة الصليب ، الى جانب مريم ، ام يسوع ، وعليها استراح نظر يسوع الاخير ، ساعة استراح على تلك التي حبل بها بدون دنس الخطيئة الاصلية !

لقد لمع مجدها وبانَ عملها ، في صباح الاحد، حين سبقت الى القبر الرسلَ اجمعين. ولما رأت يسوع قائماً وظنته البستاني قالت له بلهفة المحب : « اذا كنت رفعته، فقل لي : اين وضعته ؟ لاذهب واخذه ! » فحبّها جهلَ المستحيلات : انها تحمله بالرغم من ضعف ذراعيها ! تحمله ولا تخاف مجمع اليهود ولا تهاب جنوده

المسلحين. فكافأها يسوع وعرّفها بنفسه وارسلها الى الرسل تبشرهم بقيامته. فكانت هي المختارة لتكون رسولة الرسل!

لا! ليس بطرس المندفع هو الذي أمامَ البرهان على الامانة لمعلمه. لقد تبعه بعد ان أمسك في البستان؛ ولكن من بعيد؛ بل هي المرأة، هي المجدلية ورفيقاتها اللاتي اقمن الدليل على ثباتهن متحدات بيسوع مع ما تعرّض له من الذل ورأين فيه من الضعف! هن اللواتي تبعنه عن قرب، في اخطر ساعات رسالته، وفي اشدها ظلمة!

فقلب المرأة الكبير كان على الجلجلة، ولا يزال على قمم آلام الكنيسة. لان المرأة عارفة بان يسوع انتشلها من اعمق ظلمة الرق والعبودية. واجلسها على كرسي المساواة وعلى عرش الحرية، وكانت اولى العارفات بهذا الجميل تلك التي قدمها لنا الانجيل بهذه الكلمات:

«كانت في المدينة خاطئة»

رادبو الشرق في ٣ شباط سنة ١٩٦٦

الخسيس النفس لا يغفر لك احسانك اليه! أتريد ان تجعله عدواً لك؟ أقرضه من مالك! انشله من الشقاء وحرره من العبودية، فانه سيستخدم الحرية التي هو مديون بها اليك، ويتسلح بالمكانة التي هي منك وبالنفوذ الذي اوصلته اليه وبالمال الذي اعطيته اياه ليحط من شأنك ويبخسك حقك ويلحق بك ضرراً. ان على الارض اناساً يقدمون غموط النعمة، ويعبدون نكران الجميل! اما كبير النفس فتعرفه من عرفانه لجميل المحسن اليه!

***

بقدر ما يفتقر عصرٌ الى الابطال، بقدر ما يطنّون فيه البطولة، وبقدر ما يفتقر الى رجال الحرية، بقدر ما يحدثون عن الحرية، وبقدر ما تحتاج جماعةٌ الى رجال جرأة بقدر ما يكلمونك فيها عن الجرأة. ان الكلمات الاكثر شرفاً تمتهن الى حدّ ان الشريف لا يعود يجرؤ على استعمالها.

الحديث السادس

ها منذ الآن تطوبني جميع الاجيال

ايها الاخوة الاعزاء،

في الكتاب المقدس خبر هو اكثر اخباره روعة: اربعون سنة قضاها بنو اسرائيل سائرين في برية «صين» قاصدين ارضَ الموعد. فلمّا اطلوا على نهر الاردن اغتبطوا؛ على ان صيحات الظفر والامل عقبتها جلبة القنوط والفشل: الثلوج تذوب والنهر طافح من جميع شطوطه ومياهه الموحلة تغطي المخاضة؛ وهم وقوف يحدقون اليه يرغد ويزبد. أمر يشوع بن نون الكهنة حاملي تابوت عهد الرب بان يدخلوا في النهر؛ فما انغمستْ اقدامهم في حاشية المياه حتى انفلق الاردن ووقف ندًا واحدًا. فعبر الشعب. وكان عندما نقل الكهنة اخامص اقدامهم الى اليُبس ان مياه الاردن رجعت الى موضعها وجرت كما كانت تجري من امس فما قبل على جميع شطآنه!

ذلك رمزٌ الى اعجوبة اعظم: نَبَعَ نهر الفساد في الفردوس الارضي وتدفقت مياهه الوسخة تتشعب جداولها فحسد قايين هابيل اخاه وقتله وسفل «اونان» وفسدت الارض امام الله وملئت جوراً. فتلوث الانسان بالاثم وهو نطفة في بطن امه. الا ان سيل الفساد وقف، يوماً، في وسط السنين، وجازت امرأة: وضيعة بين الناس، عظيمة عند الله: انها تابوت عهده الجديد! فتابوت

العهد القديم يرمز الى النقية من الدنس ، وما فيه ، الى ثمرة بطنها. انفلقت مياه نهر الفساد وقامت نداً واحداً حتى عبرت مريم ، البريئة من دنس الخطيئة الاصلية ، الممتلئة نعمة ، المباركة بين النساء. ثم عاد النهر الى سالف عهده يصخب ظلماً ويجري فساداً وفحشاً.

اجل ، ايها الاخوة الاعزاء ، انه لا يمكننا ان ننسى مريم ونحن نكلمكم عن تحرير المرأة. فهي الكلية الجمال ، الكلية الجودة ، القوية كالصفوف المنظمة ، المنزهة عن كل عيب ؛ فمن المستحيل عليها ان لا تغدق على شقيقاتها ، بنات آدم ، نعم الطهارة والجودة والقوة والحرية !

ينتهي العهد القديم بسفر المكابيين وينطوي على مجموعة من اخبار الحروب والدسائس والمنازعات ؛ وفي اول صفحة ، من العهد الجديد ، نسمع ملاكاً يبشر مريم ، الشابة الناصرية ، ان امير السلام يتجسد في حشاها. قدمها والداها ، طفلة ، الى الهيكل فاقامت فيه حتى زمن خطبتها تتعلم الكتب المقدسة بين العذارى وتغسل آنية الهيكل ، وتوشي حلل الكهنة وترتل مع رفيقاتها اناشيد البهجة وترقص معهن على انغام الطبل والسناطير والدفوف. اما الله الذي ارادها نقية واختارها لتكون حواء الجديدة فقد نظم في داخلها حياة عبادة هي ابعد عن ان تنقص التوازن البشري فيها ؛ بل انمته وقوته وصقلته وبلورته فسلحها بقوة عظمى على فهم الامور وجرأة فريدة على تحقيق المثل العليا. فادركت مريم معنى الشفقة على شعبها ، يوم كانت ترى ، في اروقة الهيكل ، الجلبة والضوضاء ، اثناء ايام الاعياد ؛ يوم كانت ترى الكهنة يرتدون الثياب البيضاء فيلطخها دم العجول والحملان ، ويتقدمهم سمعان ، الكاهن الاعظم ، بوشاحه الازرق الدباوي تعلوه جلاجل ورمانات ذهبية ؛ وعلى رأسه عمامة مثلثة التيجان يمشي الهوينا حتى يبلغ قدس الاقداس ، الفارغ من يوم أخذ ارميا تابوت العهد وخبأه ، لئلا تدنسه جنود نبوكدنصر وتنجسه !

ادركت مريم معنى الشفقة على شعبها ، يوم كانت ترى هيرودس وحوله نساؤه واصحاب الزلفى يرأس الاحتفالات الدينية وعلى رأسه اكليل من حجارة

ثمينة وعلى محياه علامات الشراسة والغدر ودلائل القلق والشحوب ؛ وفي عينيه برودة واستخفاف ، ينظر الى ما يجري امامه نظرة الاحتقار والازدراء ! يوم كانت تسمع في الهيكل ، بالرغم من ضجيج الصنوج والعيدان والمزامير ، خوار الثيران وثغاء الحملان وصراخ الباعة ورنين الدنانير ، وتشاهد دم الذبائح يجري نهراً الى وادي قدرون وغيوم البخور تتصاعد وتغمر وادي الاموات حتى سياو ... يوم كانت تلاحظ الفريسيين ينظرون الى العساكر الرومانية نظرة المقت والبغض وفي عيونهم دموع ، وفي قلوبهم غصات وحسرات ، على ما آلت اليه بلادهم من ذل وعبودية ووصل اليه شعبهم من ضعف وتضعضع ! مسكين اسرائيل ! لقد جعل الهه مادة ليقيم منه منفذاً لمطامعه وخادماً لطموحه!

ففي هذه الضوضاء الصاخبة فكرت مريم في النفوس : هل من يذكر نفسه بالعدل والحق ؟ هل مَن يفكر في موجز الشريعة : « احبب الله وقريبك ؟ » هل مَن يدرك الى مَن ترمز هذه النعاج والحملان المذبوحة ؟ ان علم الله لفي افواه الفريسيين ، الا ان ذلك العلم امسى فقهاً أرعن واستثماراً دنيئاً ! فتألم قلب مريم ! لعلمها ان ليس لدم التيوس والخرفان ورائحة اللحوم ودخان البخور من قيمة في اعين الرب مثل القلب الخاشع المتواضع ! لقد ضؤلَ ايمان اسرائيل وتدنست قلوب كهنته وسفهت شفاه معلميه وباتت اعمال ديانته اعمالاً فارغة من الحب : انه يعبد الله بشفتيه واما قلبه فبعيد عنه؛ لذلك قال الله: «باطلاً يعبدني» .

فهمت مريم ان الرب ، لاجل فداء شعبه ، يطلب منها الوعد بالبتولية . ومع ان هذا الوعد يقطع عليها الامل بامكان صيرورتها ، يوماً ، اماً للمسيح المنتظر ؛ قامت مريم ، وكما رضي ابوها ابراهيم بتضحية امله ، رضيت هي ايضاً وضحت بأملها وقبلت بعار العقم الذي شانَ اليصابات نسيبتها حتى شيخوختها!

كانت العادة والشريعة تلزمان مريم بالزواج . فهل يضادّ الله نفسه بنفسه ؟ لقد حلت عنايته عقدة هذه المشكلة وارسلت اليها رجلاً من قبيلتها اسمه يوسف فطلب يدها وكان ، مثلها ، قد اختار البتولية جرياً على عادة ، كانت عند الرجال في ذلك الزمان ، اكثر شيوعاً منها عند النساء . فصار يوسف خطيباً لمريم .

استمرت مريم في بيتها تشتغل وتصلي وتردد في صلواتها مع انفس كثيرة : «اقطري ايتها السماوات من فوق ، ولتمطر الغيوم الصدّيقَ . . . »راغبة في ان تكون خادمة لتلك المرأة المباركة ، بين النساء جميعهن ، التي سيسعدها الحظ فتلد المسيح المخلص ! واذا بصوت من السماء يقول لها : « السلام عليك ، يا ممتلئة نعمة ، الرب معك . » سمعت مريم واضطربت فاردف جبرائيل ، رسول الله : « لا تخافي ، يامريم ، فانك نلت حظوة عند الله . وها انك تحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع وسيكون عظيماً وابن العلي يدعى ، فقالت مريم الملاك : « كيف يكون هذا وانا لا اعرف رجلاً ؟ فاجابها : « ان الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك ، ولذلك فالقدوس المولود منك يدعى ابن الله ! »

بشرها الملاك وانتظر ! لقد احترم الله حريتها فلم يشأ ان يتم عمله قبل ان يأخذ رضاها . ومريم لم تعجل باعطاء الجواب ، بل وقفت ، مالكة شعورها ، تفكر حتى انقشعت غيوم كانت تخفي عنها فهمها النبوآت لاسيما نبوءة اشعيا « لاحاز » : « ها ان العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعوه عمانوئيل » ؛ فأحنت راسها وتممت كلمة رضاها قائلة : « ها انا امة الرب فليكن لي حسب قولك ! » سمعها الملاك وانصرف من عندها وما ان ارتضت مريم بما قيل لها من قبل الرب حتى انبثق فجر عالم جديد : « صار الكلمة جسداً وحل فينا ! »

كان العالم يئن ويتوجع لان لفظة مَلَكَ كان معناها غلب وساد واسترق واستعبد ؛ اما العهد الجديد فقد اتخذ شعاراً له ، كلمة مريم : « ها انا امةُ الرب » ؛ ودستوراً له كلمة ابنها : « ما جئت لأُخدَم بل لأَخدُم ! » كانت المرأة ، قبل بشارة مريم ، عبدةً للرجل لا يأبه لها ولا يلتفت اليها بعين الاحترام ، فاحترم الله ، رب الانسان ، حرية مريم وارادتها ، فلم يرد ان يصيّرها اماً له إلاّ برضاها .

بعد هذا لبّت مريم دعوة الملاك وقامت مسرعة الى جبل يهوذا ، الى قرية عين كارم تزور فيها نسيبتها اليصابات ، الحبلى بابن في شيخوختها ؛ فبسطت هذه ذراعيها تضمها وتعانقها قائلة : « مباركة انت بين النساء ومبارك ثمرة بطنك ! من اين لي هذا : ان تأتي ام ربي الي ! فانه عندما بلغ صوت سلامك الى

اذني ، ارتكض الجنين من الابتهاج في بطني . فطوبى للتي آمنت بما قيل لها من قبل الرب » ! فأهاجت مريمَ ايضاً نفحةُ من الروح القدس وارتجلت انشودتها الجميلة : « تعظم نفسي الرب وتبتهج بالاله مخلصي ؛ لانه نظر الى تواضع امته . فها منذ الان تطوبني الاجيال لان القدير صنع بي عظائم . »

انشودة ُختمت بها دورة الازمان الماضية! كانت المرأة ، الى ذلك العهد، مبتذلة، كانت عبدة، كانت متاعاً فصار سيدها بالامس ، بجسدها ، اليوم ، على مقام نالته ومنزلة عالية أحلها الله فيها . كانت الاجيال تزدريها فصارت تغبطها . كانت البشرية بالقوة تفاخر ، ومريم العارفة بان قد تحققت فيها عظائم ، فاخرت هي ايضاً ؛ ولكن بضعتها لا بما نالته من كرامة وُحقق فيها من عظائم !

فكرت بشقيقاتها المهضومات الحقوق ، فكرت بالمرأة المضحاة قرباناً على مذبح انانية الرجل فقالت : « حط المقتدرين عن الكراسي ورفع المتواضعين »! فمن ارض فلسطين اذن خرجت رسالة تحرير المرأة ومن انشودة مريم انبعث نورها ساطعاً . ولا تزال « بيت كارم » حجاً يتسابق الى زيارته العالم ليكرم فيه اثار امرأتين آمنتا بان ليس « امرٌ غير ممكن لدى الله !

خدمت مريم ، راضية ، العجوز الحبلى ، ثلاثة شهور ، عادت بعدها الى الناصرة حيث كان خطيبها ينتظرها . وما هو الا قليل الزمن ، حتى بدت علامات جنين في حشاها ! كان يوسف عالماً بارادة خطيبته وعزمها على البقاء عذراء ! حادث ضير رهيب وموقف هائل ! فلمَ لم ُتطلع مريم خطيبها على سر البشارة وعلى حبلها العذري ؟ ! ألتحفظ ؟ اتواضع ؟ أأحترام لاسرار الله ؟ لا نعلم ! وما يضيرنا ان قلنا لا نعلم ؟ فاي عار يلحق براعي الغنم الامي ان اعترف بعجزه عن فهم صفحة من اشعار هوميروس او عن فهم مقالة من مقالات « برغسون » ؟

فهل جهل يوسف كل الجهل نبوءة اشعيا : « ان العذراء تحبل وتلد » ؟ اجل انها لنبوءة غامضة ، كأكثر النبوآت ، لا يوضحها الا تحقيقها ؛ ولكن مع غموضها، كانت كافيـة لتمنع يوسف عن ان يشجب مريم ويدفعها للقضاء . فترجم .

وبما انه كان باراً ، اعني : قاسياً على نفسه شفيقاً على الآخرين، عزم على ان يخليها لاهلها سراً ويهاجر الى مكان بعيد ؛ على ان تخليتها قد لا تخلص شرفها من الوصمة ولا تصون ابنها من العـار !

متى وقف الانسان عاجزاً ، تدق ساعة الله ، ويظهر تعالى قديراً « لا تخف يا يوسف ، من ان تأخذ مريم خطيبتك اليك ، فان المولود فيها انما هو من الروح القدس » فاطاع يوسف امر الملاك واخذ مريم الى بيته وبأخذها اليـه اتم عقد الزواج !

جلس البار في بيته يستريح ويسرح نظره الى زوجته الشابة باندهال كله احترام واعتبار ؛ انها لجميلة ! وجمالها يضاهي البدر الكامل ؛ وطهارة نفسها تشع على تقاطيع وجهها فتكسبه جمالاً على جمال : ذلك هو بهاء الـبرارة الاصلية ؛ فاجبها . ومريم احبت رجلها الصالح النية الذي لم يضع خاتم الزواج في اصبعه الا ليكون خادماً للمقاصد الالهية والصديق الامين لهـا والوالد المحب لثمرة بطنها !

اننا عارفون بافكار الشك والتجديف التي تثيرها هذه الحقائق ؛ ولكن ضعوا حيواناً في قلعـة بعلبك وخذوا رجـلاً اعمى الى معبد « سكستين » ولتحرك اناملكم امام اطرش اصم أعذبَ قطعة من موسيقي «بيتهوفن» جادلوا واشرحوا واعطوا البراهين. كل ذلك عبث على السوا . . فالمؤمن بالله لايحتاج الى شروح والكفرة والمدانيس لا ترضيهم الحجج ، وان دامغة ! لان البشرية قد افسدت فكرة الحب ومرغته في الوحول. وما كان الحب الا من السماء اصلـه ! « الله محبـة » أمـا الانسانية الدنسة فقـد جعلت من الحب الهاً لا يغلب ومن الجمال الهةً متهتكة فعبدت « ايروس » وسجدت « للزهرة » ولم تعد تفهم بالحب الا اللذة اللحمية ؛ فانقلب الحب النبيل الى شي. بذي. على متناول البشرية المنحطة وامسى رعشة عابرة في جسد الحيوان البشري.

ان الله اوجد اللذة في حنايا الضلوع ليضمن تناسل الاولاد ويوطد معاونة النفوس بوحدة العيلة ودوامها فغيّرتها الوثنية من خادم نبيـل الى سيد مطلق

السلطان على الانفس والاجساد فسممت اللذة حياة العيلة وفككت اواصرها فاستسلمت للطلاق وحذفت الولد وخدرت العقول وحجرت القلوب ففرغت من الحب الشريف والود والعهد والرحمة ؛ واضحى خادم الحياة هداماً لها وحفاراً للقبور !

فيا كوخ الناصرة ، انت هيكل الحب الطاهر ! عليك درست سلالة الاعفاء في عصور الكنيسة فعدلوا عن الملاذ الجسدية ، لا تهرباً من متاعب العيلة ؛ بل قياماً بمشقات عيلة النفوس التي تفوق تلك كثرة وعناء .

يا كوخ الناصرة ، لقد كنت فياضاً بالقاء الدروس ؛ فلم تكتف بان علمت مثالة الطهر والعفاف ؛ بل انك أبدعت الحب الزوجي النقي ، مجد العيلة المسيحية وفخرها وسلامها ! أبدعت حباً يعرف ان له حقوقاً ولكنه يعتبرها دون واجباته عدداً ؛ أبدعت حباً مضحياً يعرف انه ليس لذة لحمية عابرة ؛ بل هو بذل الذات في سبيل المحبوب ، بذلاً كملاً ! مبارك انت يا كوخ الناصرة ، إنك علمتنا ان ننشل الحب من الذل ، ونرفعه من اوحال الدناءة ، ونعيده الى سابق شرفه ومقامه !

في تلك الايام التي كان فيها العالم صامتاً ، هادئاً ، تسيطر عليه من النيل الى الفرات الى التيبر حضارة مادية زاهرة ، كانت المرأة تتخبط في ليل من الذل والعبودية ، دامس ؛ وكان كل شيء إلهاً الا الاله الحقيقي ؛ في تلك الايام التي قام فيها للرذائل اصنام ولاسياد رومة تماثيل انبطحت على اقدامها وامام دواليب عجلاتها الكرامات تعفر جبينها ، وعلى مذابحها كان الاقوياء يضحون بالضعفاء والاغنياء بالفقراء والنبلاء بالعمال والعبيد ! في تلك الايام التي هزت فيها كلمة اغسطس قيصر العالم الروماني ومنه فلسطين ، فنزح كلٌّ الى مسقط رأسه ليكتب اسمه فيه ؛ في تلك الايام لم تجد مريم ، المرأة العذراء ، الفقيرة ، بيتاً تأوي اليه فوضعت ابنها ، الكلمة الالهي في مذود للبهائم فاخرج البشرية من اصطبلها ، نظيفةً ، ورفعها الى سابق مجدها وفتح بوجهها ابواب السعادة الابدية التي كانت موصدة !

كانت مريم المساعدة الاولى للاله ـ الانسان على اعماله الجبارة. ففي احشائها تجسد، ومن لحمها اخذ لحماً، ومن لبنها تغذى، قدمته لابيه قرباناً وهو صغير، وهربت به الى مصر، طفلاً، وحرصت عليه، يافعاً، وتممته حملاً لا عيب فيه، ورضيت، بوقفتها قبالة الصليب، بذبحه فداء عن البشرية!

اشتراك فعلي بعمل الفدا. قامت به مريم، راضية، فارتفعت به ارتفاعاً عجيباً عن شقيقاتها بنات حوا. اللواتي ما كن يجتزن، قبلها، عتبة الاحرام الا لاشغال يدوية مضنكة. لقد تحررن من نير الرجل القاسي، المستبد وانقشع عن عيونهن غشاء الجهل والخنوع. وبـدل ان كن يتأوهن، مطلقات، ويتحسرن، مبتذلات، وتتأكلهن نار الغيرة، مكدودات، كثيرات، تحت نير رجل واحد: صارت امرأة واحدة لرجل واحد لا يفصلها عنه الا الموت! وحق لهن مظلومات مهضومات الحقوق، انى كن، وايا كن ان يقفن متعجبات متساءلات: كيف يحل لكم ظلمنا، يا رجال، ومريم امرأة والاجيال تغبطها.

اجل، ايها الاخوة الاعزاء، ان المسيحية قد اعلت قـدر المرأة وبالغت باحترامها وعملت على تحريرها ومساواتها بالرجل حرية وحقوقاً بسبب تلك المرأة التي رفعها الله وجعلها اماً له واقامها سلطانة على السما. والارض وكانت على حق حين قالت: « ها منذ الان تطوبني الاجيال »

راديو الشرق في ١٠ شباط سنة ١٩٤٦

قال بسكال:

« المسيحي الحقيقي هو السعيد وحده في الحياة، لان شرائع الله لا تشبع ما في الانسان من ميول الى السعادة فقط، بل تتجاوز حدودها ».

اختر اصدقاءك، وليكن لك من عزة النفس ما يحملك على ان تختارهم خليقين بك.

انكم تحاربون الحياء لا لتتخلصوا الآداب، بل لتبرروا الخلاعة.

الحديث السابع

المرأة

في الكنيسة الكاثوليكية

ايها الاخوة الاعزاء ،

«انتم الذين اعتمدتم بالمسيح ، المسيحَ لبستم؛ ليس يهودي ولا يوناني ، لا عبد ولا حرّ، لا ذكر ولا انثى ؛ بل انكم جميعكم واحد في المسيح ! فاذا كنتم للمسيح فانتم اذن نسل ابراهيم وورثة بحسب الوعد . »

هذا هو مبدأ المساواة الذي اقرّه بولس الرسول والنصرانية بعدُ في مهدها ؛ وعليه تمشت الكنيسة في اجيالها؛ فلم تفرق بين الرجل والمراة إلا في امرين : اولها : انها لبواعث لياقية حرّمت على المرأة حق قبول الدرجات المقدسة ؛ وثانيها : انها الزمت المتزوجة بالخضوع لرجلها بوصفه راسها ومدير البيت ؛ وفيا عدا ذلك فلقد ساوتها حقوقاً وواجبات؛ ناصحة للمرأة ان تستوحي في تطوّرها كلام بولس الرسول القائل : «ليكن كل شيء على وجه لائق ومنظم» ؛ وبيّنٌ ان اللائق يختلف باختلاف الازمان والبلدان !

لا ننكر ان الوثنية قد حرّرت المراة من بعض قيود ؛ لكنها لم تقوَ على تخليصها من العقلية المادية ؛ بل استهدفت اكثار النسل ومصلحة الدولة حاصرةً غاية المراة من الوجود بالولادة ؛ اما الكثلكة فاعتبرت الامومة ، للسواد

الاعظم من النساء واسطة لا غاية ؛ طبقاً لتعليم بولس الرسول القائل : «انها ستخلص بولادة البنين ان استمرت على الايمان والمحبة والقداسة!» لذلك خولت المرأة الحق في ان تختار نصيبها إمّا الزواج واما البتولية! وفي حال الزواج لم تلزم الكنيسةُ المرأة بان تقتصر على واجب الامومة؛ بل منحتها الحق في تنمية قواها المتنوعة وصقلها باستخدام كل الوسائل التي لا تتنافى مع واجباتها البيتية ولم تمنعها من ان تنظر الى ابعد من دائرة العيلة ، وكثيراً ما نصحت لها بان تهتم بمعضلات النظم الاجتماعية العامة!

ويقيننا ان حال العفاف قد ساعد جداً على نهضة المرأة؛ فدعوتها لمشاركة الرجل في حال تفرض التسلط على الشهوات الآمرة ، قد رفعتها باعين نفسها واعلتها في نظر الرجال ووصلت في ترفعها الى البطولة فتمرست على الفضيلة واقدمت على التضحيات .

عرفت الكنيسة ان نفسية المرأة هي غير نفسية الرجل، وبدون ما تحديد لهذه الفوارق ، رأت من واجبها ان تميز ما استطاعت بين ما يتأتى ، حقيقةً ، من اختلاف النفسية وبين ما هو ناتج عن عوائد قديمة مصدرها الوراثة ، مقرة بان المشكلة لا تزال غامضة يعوزها الدرس والتمحيص تاركة الزمان ولتأثير التربية والشؤون الاجتماعية ، ان يخففا او يقللا من هذه الفوارق التي أوجدتْ تميزاً عميقاً بين الذكران والاناث حتى بين الذين هم من بطن واحد .

غير انه لم يفتها ما تحلت به المرأة من مناقب ؛ فوفرت لها فرصاً كثيرة لاظهارها . ففي عصور البطولة المسيحية ، عصور الاضطهادات اقدمت المرأة على تحمل العذابات فالموت، مثل الرجل ، شهادةً لحقيقة الانجيل وقامت تجاه الاخوة بالف خدمة وخدمة! فلدى عجز الرجال عن الاتصال بالسجناء والموقوفين كان الاساقفة يوفدون المرأة فتجابه غضب السجانين وتحمل المساعدة والتعزية الى المعتقلين فحيرت بصلابتها القضاة والحكام وكان ثباتها ، في معمعة العذاب وغمرة الالام ، سبباً لانقلاب الكثيرين من معذبين الى معذَّبين قدموا اجسادهم للنطع واعناقهم للقطع شهادة على حقيقة الايمان الذي اعتنقوه اقتداء بها !

وان عجبنا فمن ذوق الكنيسة الصائب في اختيار ما يوافق فطرة المرأة من الاشغال . فلقد كلفتها برسالة المحبة : فاعتنت بالمرضى وعزّت الحزانى وشرحت للموعوظات التعاليم المسيحية وعاونت الاسقف في تعميد شقيقاتها ومسحت بالزيت المقدس، ما عدا الجبهة، اعضاء المدنفات واتصلت بالمسيحيين الموجودين في عائلات وثنية ان كان في تردد الشماسة اليها ما يجعل موقف المسيحية حرجاً وحرست ابواب الكنائس التي تدخل منها النساء. وكانت البالغة من العمر، قصياً، والفاضلة اخواتها، رزانة، صلةً بين الاكليريكيين وبين اللاتي علم الاختبار ان المعاطيات الدائمة معهن لا تخلو من خطر على الاخلاق والآداب؛ وبهذا وبغيره أدت المرأة للكنيسة جماً من الخدمات سجلها تاريخها بمداد الشكر والعرفان! فكافأتها الكنيسة بسهرها على وقايتها الادبية واهتمامها بتوفير الراحة الجسدية لنسوة ما كان باستطاعتهن ان يفدنها الا باعطاء المثل الصالح لبنيان القريب!

واكثر النساء حاجة الى تلك الحماية بوجهتيها: الادبية والمادية، في مجتمع ظل وحشياً، تحت ظواهر التمدين، كن الارامل. فلقد بقين، حتى في غمرة انتصار المسيحية، عرضة لتعديات الافراد وظلم الادارة الاميرية. فهبت الكنيسة، عضد الضعفاء، للمحاماة عنهن؛ وكان ان مجمع سرديك الذي حرم على الاساقفة الدخول الى قصور الاباطرة عاد فأمرهم بالتردد اليها ليرفعوا الحيف عن الارامل ويردوا غوائل الظلم عن الابرياء.

وامتدت شفقة الكنيسة الى أبعد فأعالت الارامل المحتاجات وانشأت لهن جمعيات كرست المنضويات اليها؛ وبهن اناطت الاعمال التي اشرنا اليها وسنت لهن قوانين دلّت بها على فهمها نفسية المرأة؛ فساعدهن حفظ القوانين على ان يكن وديعات، محتشمات، محبات للسلام، بعيدات عن البطالة والكبرياء والخبث والغضب، مبغضات للنميمة والثلب والثرثرة، مجتنبات الخفة والحسد ونقل الاخبار الجارية بين الشعب، وبهذه الطغمة الصالحة اوصى بولس الرسول تلميذه تيموتاوس: «اكرم اللاتي هن ارامل حقاً!»

واهتمام الكنيسة بالارامل لم ينسها حاجات ام العيلة. فلقد قال كتاب

النظم الرسولية. ان كانت هناك ارامل يستطعن القيام بأودهن وكان ثمّ متزوجات معيولات او مريضات او فقيرات فالافضل ان تعطى المساعدات لهؤلاء لا لاولئك!

اما العذارى فلقد انشأ لهن ساداتنا الرسل منظمات تسهر عليها وتتفقدها شمّاسة؛ ولها عليها شيء من الرئاسة؛ وكانت المنضويات اليها ينذرن العفاف الدائم ويعشن، عيشة العزلة، وهن في بيوتهن، بعيدات عن التبرج والغنج، يواظبن على تلاوة الصلوات، في ساعاتها القانونية، وينعمن باحترام المسيحيين ويتقدمن في الكنائس على الارامل والمعترفات اللواتي ما كن يبارحن الكنائس قبل ان يطلبن من العذارى قبلة السلام؛ واتصل صيت طهارتهن بالوثنيين وكان مدعاةً لحمايتهن في غالب الاحايين!

ولم تقف الكنيسة في معاملتها المرأة عند هذا الحد؛ بل عملت على تحريرها، سواء اكان بتعاليمها المباشرة ام بتكييفها الاداب الاجتماعية فاتصلت بالامبراطرة المسيحيين فلطفوا قسوة الشرائع التي عبّدت المرأة وجعلتها قاصرة، طيلة حياتها، وما زالوا بهم حتى الغوها جميعها وتمّ للكنيسة ما ارادت سنة ٣٢١ اذ ادخل قسطنطين بنداً على الشريعة يقول: «حق النساء في المعاملات والعقود هو كحق الرجال» وبهذا إبطال لمبدأ الوصاية ابطالًا تامًا؛ فخرجت المرأة، لاول مرة، من سجن عبوديتها وعجزها الشرعي؛ وكمّل يوستنيانس تشريع سلفه وقرّر للمرأة حق الوصاية على اولادها بدون ما نظر الى عددهم؛ ودعاها الى وراثة زوجها وبنيها بدون ما شرط؛ فكان عمله كلمةَ الفصل بين الحق القديم المبني على القوة، وبين الحق الجديد، القائم على الطبيعة؛ وبقي هذا التشريع، على مر الاجيال، بالرغم من التحوير والتبديل، المبدأ الاساسي للحق عند الامم المتمدنة؛ فصار الرجل، في المسيحية، عضداً للمرأة وقد كان عليها، في الوثنية، ربّاً! فدخلت المرأة المسيحية عصراً جديداً وراحت تقطع الاجيال تعمل، حرّة، في كل حقول العمل!

وبقطع النظر عن تفانيها في بيتها العائلي وتمتعها بحق تدبيره وتربية البنين

رأينا قلبها الكبير على قمم آلام الكنيسة، كما كان على جبل الجلجلة، نهار الجمعة العظيم: «فيليديا» «ودامارِيس» النبيلتان «وبريسكا» الوضيعة المخرطن في سلك الاخوات العاملات مع «بولس الرسول» «وكلوتيلد» «وكاترينا السيانية» «وتراز افيلا» خدمن الكنيسة وضمدن جراحها يومَ قام البرابرة يعذبونها وكتبةُ عصر النهضة والاصلاح المزعوم ينهشونها؛ وبقين مع رفيقات لمن، واقفات في ساعات الظلمة المدلهمة، اذ خيّل للعالم ان البابويّة ذاتها تتداعى، كما وقفت من قبلهن، على الجلجلة، تجاه الضعف والصليب والموت، «مريم ام يسوع» «ومريم اكلوبا» «ومريم المجدلية» وسائر النساء القديسات مؤمنات يطفح الرجاء من قلوبهن بيوم القيامة ودور الانبعاث! وعلى جلجلة الكنيسة، في عصرنا، نرى النساء صفوفاً متراصّة تراصاً لا عهد للكنيسة به. فمن «مرغريت ماري» الى «برنادت»، الى «تراز الطفل يسوع» الى «تابيجي» شابات لم يقتنعن باتباع يسوع وبتعزيته في نزاعه الدائم؛ بل رُحن يقتحمن الاخطار ويخضن ساحات الجهاد لمساعدته ولا يبارحنها الا ظافرات باكاليل النصر وغار الجهاد. فمن بداهة المرأة انبثقت المشاريع الكاثوليكية العظيمة: فالمؤتمرات القربانية العالمية ومشروع انتشار الايمان ومشروع القديس بطرس للاكليريكيين الوطنيين، إنْ هي الا خمير الغيرة وضعته المرأة في قلوب المؤمنين المعجونة بحبّ يسوع، فاختمرت كلها واعطت خبزاً شهياً على قلب الكنيسة؛ ان هي الا حبّة الخردل بذرتها المرأة في حقل الكنيسة فنبتت ونمت حتى دارت اشجاراً باسقة، غضة، تعشش طيور السماء في افنانها!

وعلى جلجلة الرسالة الكاثوليكية، في ايامنا، في النواحي النائية والامصار الهمجية، على الرمال المحرقة وفي الاصقاع الباردة، على قمم الجبال وفي الحزون والوديان، وتحت كل كوكب، عدد من النساء يفوق، ثلاث مرات، عدد الكهنة المرسلين. فكم من مدارس وكم من مستشفيات، كم من مآوٍ وكم من مستوصفات، كم من مذاود وكم من «بيمرستانات» تقوم على ادارتها واعمال خدمتها راهبات؟! كم من دير فيه نساء وقفن الحياة على العمل

الصامت والصلاة حتى صارت قباب مناسكهن «حربات» تردّ عن البشرية صواعق السماء، وتجلب على النفوس وابل النعم والبركات؟ اية اعمال تعود بالنفع على البشرية المتألمة؟ واية تضحية تتطلبها الانسانية ولم تقم بها، على اكمل وجه، الراهبات الكاثوليكيات؟ سلوا التاريخ والاجيال، ايها الاخوة الاعزاء، ينبئانكم ان المرأة لم تمنح، في غير الديانة الكاثوليكية، ثقة معقولة، جديرة بها؛ وانها لم تبرهن، في غير الكثلكة، عن انها تلك المساعدة الخليقة بالرجل وبالله الذي خلقها عوناً للرجل وشريكة! أجل ان المرأة مهمة متميزة عن مهمة الرجل في الحياة، لكنها قد اضطلعت بابهظ المسؤوليات وارتضت باثقل التضحيات، واحتملت اقسى الخيانات وبرهنت، في مواقف عدة، عن مروءة وبطولة تضاهي مروءة وبطولة الرجال!

لقد جال الطبيب «هيزر» الاميركي خمساً واربعين بلاداً من البلدان النائية يدرس الامراض المستعصية الفتاكة كالسل والبرص والجزام ومرض النوم وما اليها فأبهره، في جميع تلك البلدان، تفاني الراهبات الكاثوليكيات؛ فكتب اخبار بطولاتهن وتفانيهن في سفر خلته اسطورة ذهبية قال: لو كان لي ان اكافئ القائمين بخدمة الانسانية التاعسة لاعطيت الجائزة الاولى لبطلات المحبة، راهبات القديس بولس دي شارتر اللواتي يخدمن البرص والمجذمين في «كيليون» من اعمال الفيليبين؛ انهن يحولن بتفانيهن وابتساماتهن ذلك الجحيم الى نعيم.

في الحقيقة، يا اخوتي الاعزاء، ان للمحبة المسيحية اجنحة حملت المرأة الى اربع زوايا المعمور وهناك حلقت في اجواء الشجاعة والبطولة فتألق نور الانجيل وشعشع حيث ما حلت ركاب راهبات الكنيسة الكاثوليكية وتبددت غيوم الجهل أيّان اقن؛ وحال وجودهن دون استبداد الرجال بالنساء ومعاملتهن معاملة وحشية كنّ عرضة لها. فتعلمت عليهن البنات القراءة وحب العمل واحترام الذات؛ ولقد سمعتم وسمعنا وخبرتم ورأينا من مآتيهن وتأثيرهن في بلادنا وفي غيرها ما يكفيكم مؤونة البحث ويكفينا مؤونة السرد والاطناب!

ولم تكتف الكنيسة باعمال المحبة تكلف بها راهباتها بل شادت لهن

منابر للتعليم في الدياميس فلقد رأينا بذاتنا في دياميس رومة منابر لا تشبه بشيء منابر الاساقفة ، وحقق لنا المؤرخون انها كانت منابر الشماسات يلقين من فوقها التعاليم الدينية والاجتماعية على بنات جنسهن ، وفي الاجيال المسيحية الوسطى اعلتهن منابر التعليم . فثقافة المرأة ونهضتها ليست من معجزات « عصر النور » كما يزعمون ؛ بل من اعمال الكنيسة في تلك العصور التي وصفوها بالمظلمة ، وكانوا ، بوصفها ، كاذبين لو يعلمون . ولدينا على ذلك شواهد تاريخية : فبينا كان روسو ، نعم روسو ابو النهضة المزعومة والحرية المشؤومة يكتب الى زميله « دالمبار » ان ليس المرأة قابلية لتفهم الفنون؛ وبينا كان «كانت» الالماني الجاحد يعلن ان المرأة لا تحتاج الى ان تعرف عن العالم شيئاً سوى ان هناك عوالم غير عالمها وجمالات غير جمالها ؛ في ذلك الزمن ، ماذا اقول ، قبل ذلك الزمن باجيال ، في القرن الثاني عشر ، كانت الكنيسة الكاثوليكية تستخدم مواهب النساء وتستثمر معارفهن وتعينهن معلمات في كليات « سالرن » وبولونيا و« بادو » وكان البابا اينوشنسيوس الرابع ، في الجيل الثالث عشر ، يمنحهن حق الانتخاب ، اسوة بالرجال !

اجل ان اشتراك المرأة في الحياة الوطنية لا تعترض عليه الكثلكة ؛ بل تريده وتعلم بان للمرأة حقاً طبيعياً فيه ؛ وان تفضيل الرجال على النساء ، في هذه القضية ، لا ينطبق على العدل والحق ؛ ليقين الكنيسة ان تدخل المرأة في امور الاجتماع يعطي مجمل الحياة السياسية ، خاصة في ما ينظر الى الامور الدينية ، شيئاً من الانصاف والعدالة !

أعند هذا وقفت الكنيسة في تكريم المرأة واكتفت ؟ لا يا اخوتي ، ان الكنيسة قد كرمت المرأة في الحياة وأعلت مقامها بعد الممات فطوبت بعض النساء ، واعلنت قداستهن رافعة اياهن فوق المذابح موضوعاً لاكرام المؤمنين ؛ مقيمة اياهن وسيطات لدى الله لاحبارها الاعظمين واساقفتها وكهنتها وابنائها اجمعين ، وكثيراً ما كانت عيال تلك القديسات فقيرات ، لا شأن لها عند الناس ؛ فكان لعمل الكنيسة تأثير بعيد المدى في رفع مستوى المرأة وتحريرها

وتمجيدها ! ان المثلث الرحمات البابا بيوس الحادي عشر الذي اعلن قداسة تراز الطفل يسوع ورفعها على المذابح، اقامها شفيعة المرسلين ووضعها على قدم المساواة مع كسفاريوس، رسول الهند وانتهى به الامر الى ان يضع ذخيرتها وصورتها فوق سريره وان يدعوها طبيبه الخاص.

لقد كتب شابٌ عاش في بلاد مسيحية لنساء بلاده قال: «ان كل ما في البشرية من نبل وجمال وما فيها من علو ورفعة هو من عمل جنسكن اللطيف؛ انكن تحملن على اذرعكن الجيل الطالع ومنه تخلقن المواطنين الاقحاح ومن نظراتكن يستقي الشاب قوة نفسه وشجاعته المفكرة. فانتن للفضائل الاجتماعية والوطنية والدينية ملائكتها الحراس.»

تمنيت عليكن، سامعاتي الفاضلات، ان تكن كما ارادتكن الكنيسة المقدسة، وكما صور هذا التساوي نساء بلاده: ملائكة حراس للدين والاخلاق والوطنية الحقة!

(راديو الشرق في ٢٦ شباط سنة ١٩٤٦)

هل يأتي يوم يصبح الناس فيه بشراً؟ اي متى تنقرض وتغيب سلالة الذئاب والضباع لتحلّ محلّها ذرية الفرسان؟

يكون ذلك يوم يتعلمون على مريم العذراء الوداعة والقوة والاخلاص. ان مريم كانت وديعة، قوية ورحومة في قوتها، لذلك ظلت مخلصة. لقد ظلت مخلصة لاولئك الابناء الذين قتلوا ابنها، امينة مخلصة للبشرية التي انكرت فاديها، فانها لم تلعنهم بل بقيت محبتها لاولئك الجلادين، لاولئك الخونة، لاولئك الجاحدين اقوى من الموت، لقد بقيت مخلصة لابنها، المغلوب الاكبر، بقيت مخلصة لايمانها بقيامته حتى في مساء يوم الجمعة العظيم. وانت انما تبقى جديراً باسمك المسيحي، خليقاً بان تكون ابناً لامك مريم ببقائك مخلصاً اذا ما ادلهمت الايام بوجهك! انه من شأن العبيد ان يلحقوا بيسوع المنتصر ويجحدوا يسوع المتألم اما المؤمنون المخلصون فانهم لا يبرحون اولاداً لمريم وان خانها الاخرون. ابق اميناً لربك وان استهزأ بك وبه الناس اجمعون.

الحديث الثامن

المرأة اللبنانية

بين المسيحية والوثنية العصرية

قال بسكال: «ان اشد حرب يقدر الله ان يشهرها على الانسان هي ان يبقيه بعيداً عن تلك الحرب التي من اجل اضرامها جاء يسوع الى العالم: تلك الحرب الناشبة بين المسيحية والوثنية، بين الروح والمادة!»

منذ اشرق نور الانجيل على لبنان ولبنان ساحة لهذه الحرب الضروس. فلا التهديد آلين عوده ولا التمليق انساه عهوده؛ بل نازل الوثنية وهاجم المادية وخرج من المعمعة ظافراً، محتفظاً بايمانه وادابه المسيحية! وكان للمرأة، في هذا النصر، قسط وفير لانها كانت عنوان التقوى ومثال الاداب والحشمة والرصانة تسعى الى التمتع بحرياتها المشروعة بهدوء ورزانة؛ والرجل يحترمها وينظر الى تطورها بعين الرضى والارتياح. علمها بقدر ما تمكن وتركها حرة تختار دعوتها: إماً الزواج واما البتولية. فقامت للمرأة الاديار والمناسك تتدرب فيها على حياة الخلوة والصلاة واعمال الرحمة والرسالة تستقي من الانجيل مائية لحيويتها وقوة لنفسها ذللت امامها المصاعب وهي تتسلق قمة الكمال! وجارتها شقيقتها المتزوجة في ميدان الكفاح وكبح الهوى فقصرت همها على ارضاء ربها واكرام زوجها، متيقنة من ان العيلة مملكة صغيرة لا بد لها من رأس يحكمها

فخضعت لرجالها . وعرفت ان غاية الزواج الاولى هي ولادة البنين فأحبتهم على راحتها وفضلتهم على جمالها وملاذها وكانت ، إنْ حبس الله احشاءها ، تضرع اليه تعالى والدمع على خديها : « ربي هبني ولداً » او اموت . فتدفقت الحياة من البيوت اللبنانية وكان معدل الاولاد في العيلة من ثمانية الى عشرة : زنابق طهر تسقيها الوالدة بدم التضحيات !

اجل لقد عمدت اللبنانية الى تجميل نفسها بالفضائل قبل ان تحلي وجهها بجعد الشعر والمساحيق وعنيت بان تتمرس بالخصال الحسان قبل ان تزين عنقها بالعقود ويديها بالحلى وجسمها بالحرائر ، لعلمها ان الجمال الحقيقي انما هو جمال الاخلاق والاداب ، فاثارت حشمتها اعجاب الغرباء فاثنوا عليها الثناء المستطاب ومما كتب عنها الاب دنديني الموفد الرسولي الى الطائفة المارونية في اواخر الجيل السادس عشر قال: « ان الفتاة المارونية هي مثال الحشمة والاداب ليس فيها ما ينكر عليها: لا في هيئتها الطبيعية ولا في ملابسها ، لا في ادابها ولا في رصانتها. وما نستحسنه نحن في المرأة اللبنانية تفخر به المرأة الاوربية . . . » الى ان قال بعد وصف لملابسها : « ليس في هذه البلاد ما يوجب الريبة في سلوك النساء ، فلا مومسات فيها ولا من ذوات الهنات ولا يسمع فيها ما يستحى من ذكره ، لا حوادث طلاق ولا حكماً واحداً بشأن ولد طبيعي : انها لنعمة خاصة يفاخر بها الشعب اللبناني ! »

هذا ما كان ، ايها الاخوة الاعزاء ، اما اليوم فانا نرى « العلمانية » تصلينا حرباً عواناً لتقتل فينا الروح المسيحية . لقد عجز الاضطهاد عن ان يحيد بنا عن جادة الصواب فتركنا السهل الخصب واعتصمنا بصخور لبنان نفتتها ونعيش حفاظاً على ايماننا وحرياتنا الدينية والمدنية وما زلنا حتى هاجمتنا الوثنية العصرية ترشقنا بنبال فلسفاتها الاباحية فاصابت منا الصميم !

اجل لقد اصابت منا مقتلاً : فجنحت اللبنانية عن حشمة جداتها واعتنقت مبادئ وتخلقت باخلاق ان دلت على شيء فعلى « حيوانية هذا الزمان » واهمة ان الحرية تقوم بقلب النظام ومساواة الرجال في كل حال . فتنزلت عن

عرش انوثتها وخلعت عنها الحيا. وصارت إن قاتل الرجل قاتلت وان جلس في الحانات، فيها جلست ؛ وان سبح عارياً سبحت، ان دخن دخنت وان جرع المسكر جرعته. في المقامرة تجالسه والى المراهنة في سباق الخيل تسبقه وفي ألعاب التنس والسكي تابس لبسه وتنازله، ان ركب دراجة ماثلته وإن قاد سيارة قادتها وان نزل الى الشارع في تظاهرة شابهته وان لعن وفجر لعنت وفجرت مثله وان خان ربه وعهده وادار للكنيسة ظهره، حاكته.

جنون بليت به، من قبلها، المرأة الرومانية فبددت معه كنوز بلادهـا الادبية وضمحلت عظمتها فأمست رومة، تلك الشجرة التي القت على المسكونة ظلها، جذعاً بالياً؛ وكان تهتك المرأة أرَضة نخرتها وقتلت فيها الحياة ففقـد الروماني النبوغ والحكمة والقناعة والصبر على المتاعب والمصاعب. فمن يعيد الى رومة مجدها الغابر؟ أبرابرة غاليا ام وحوش جرمانيا ام همج الفنـدال؟ لقد لمّ هؤلاء شعثهم وادارو شطر رومـة المجانيق والعرادات التي علمهم الرومانيون استخدامها ودار الدهر دورته واذا بتلك العظمة الرومانية تخسف!

كان الرومانيون عظماء قبل ان تتسفل نساؤهم ويسقطوا تحت فأس الرذيلة، ويؤلهوا الزهرة؛ كانوا عظماء يوم عرفوا ان يحترموا الطهـارة ويمجدوا التضحية والكفر بالذات، كانوا عظماء يوم كرموا العيلة ونزهوها عن العيوب؛ ولكن عندما فجرت نساؤهم وتنادوا للتمتع بالطيّبات امسوا لعبيدهم عبيداً أرقاء!

ان ذات الاسباب تعطي دائماً ذات النتائج، ايها الاخوة الاعزاء، حدث تاريخي: ان الوثنية مؤمنة كانت ام اباحية قد جرّت الانسانية في كل اعن وآن الى مهاوي الحيوانية وانحدرت بها الى الرذيلة فالفوضى الاخلاقية!

اتريدون برهاناً؟ فهو تحت اعيننا. فلبنان الطاهر، لبنان القنوع، لبنان الذي صبر على المحن والاضطهاد لبنان الذي حارب المادية وانتصر عـلى الوثنية، لبنان الذي أعلى شأن الروح يكاد يفقد هذه الصفات منذ ان ربضت الوثنية في مطابعه ومسـارحه، في قصوره واكواخه وبذرت بذورها في حقل تفكيره

ونشرت تعاليمها في عياله. فرأينا تيار الخلاعة يجرف اخلاق بنيه الى بحر من الاوحال تأنف ان تخوضه الحيوانات! ان رومة واثينا الوثنيتين ما عرفتا الفحش الذي ينصبّ عليه ابناء عصرنا. لقد قبلنا العري في الفن والتماثيل، ولكن ليس في الحياة وعلى الشواطئ والشاشات؛ وهناك سفاهات، ان لم يتعشقها كل اللبنانيين فهم يغضون الطرف عنها ويبررونها حتى وصلنا او نحن واصلون الى يوم لا نعود نميز فيه المرأة المتهتكة عن المصونة، ولا نفرق بين الرذيلة والفضيلة ودليلنا انعزال البلاد برمّتها امام خلاعةٍ تدعي انها ادبية وهذا ما نسميه امتناع المرء عن ان يدفع عنه فساداً يدب في جسده فيفككه ويحوله الى نتانة. نعم الى هذا الحد نشعر باننا بالغون!

ان ما يهولنا ليس الشغف باللذات الانانية التي اتخذت شعاراً لها كلمة ستندال: «ما همني من الآخرين»؛ ليس ما نرى في الاعياد والمواسم من اقبال قومنا على رهن ما يملكون وما يحملون لينفقوا بدله على اللهو والمقامرة والمجون؛ ليس ما في المكاتب والشوارع من ادب وطني او غريب معظمه قبيح؛ ليس ما في المراقص وقهاوي الغناء من راقصات ومغنيات «وارتيستات» ينشقن فتيان لبنان وفتياته الرذيلة من حواسهم الخمس! لا ليس تلك الكتب البذيئة ولا القصص البوليسية التافهة ولا الاعلانات الفاحشة والمشاهد الفاجرة! لا ليست تلك الخلاعة تنبسط وتنتشر وتتشامخ وتضع تحت تصرفها قوات البلاد: الطباعة وجدران البيوت والقاطرات والبريد ورجال الدولة؛ بل الهول كل الهول، ان لا تهب بلاطات الشوارع فترجم اولئك القتلة المفسدين! بل الهول ان يسكت عنهم الوف الوالدين ولا يجرونهم الى قاعات الحكم فالسجون.

ولكن ألا يقتضي لمن اراد الشفاء ان يعرف انه مريض!؟ كم من جريدة تدعو الى الملاهي دون ما تمييز، وتشوّق اليها بعبارات هي السحر الجذاب وتستعين على الحواس والمشاعر بمشاهد من صميم الافلام خلابة تهيج الشهوات!! وعذر اصحابها: ان الجرائد من الاعلانات تعيش! على رسلك يا صحافة بلادي!

أمن العدل ان يدوفَ الاجزائي السمّ بالدواء ليربح المال ويعيش ؟ ألى هذا الحد تدنت قيمة النفوس والاخلاق في لبناننا الانوف!

ولكن متى صارت الحيوانية على متناول الجميع ومتى صارت المتاجرة بالعار مباحة ومتى كانت جلالة الصحافة تروّج للخلاعة ومتى ومتى... وكان الرأي العام لا يبدي ولا يعيد ؟ فعلى من نعتب ؟

مررت باحدى قرى فلسطين فوقع نظري على اولادٍ يلعبون بالزبل والتراب وعلى جلودهم يسرح القمل وعلى مناخيرهم واعينهم الذباب بالعشرات! فوقفت اتبصر ، فعجب اهلهم من دهشتي وكأني بهم يقولون: «أأنت قلق على عيونهم من الرمد فالعمى ومشفق على صدورهم من السلّ فالموت ؟ ألا تعلم ان كل شيء في الحياة مكتوب مقدَّر ؟

أليس بهذه اللامبالاة . بهذا التسليم بمبدأ القضاء والقدر نرى اولادنا امام ما كان ينبغي ان يرعبنا ، جالسين يتبصرون ويحملقون ولأحطّ العيوب يصفقون ؟ مع انه من السهل علينا ان نصونهم من هذه الدناآت . كتاب مفتوح الى محافظ المدينة يحمله على اصدار الاوامر الشديدة بوجوب كناسة الاسواق ونقل الاوساخ المتراكمة في الزوايا والمنعطفات . فما بال قومي لا يتحركون حفاظاً على طهارة الاخلاق ؟ ان شر الشرور ان لا نرى الشر او ان لا نميز انه شرّ !

لا ، ليس الشر المستطير ان تحمي اكثر شواطئنا مواخير . فالمجانين وتجار الاخلاق والشذاذ كانوا ، في كل زمان ومكان ، وسيكونون ، ولكناً نثور على ما شاؤوا فأسموه رياضة بدنية كان من احدى مفاعيلها قتل اجمل الفضائل البشرية وقد كانت ، لسنين خلت ، الفضيلة اللبنانية التي فاخرنا بها شعوب الارض ؛ قلت: الحياء اكليل بناتنا ونسائنا الزاهر الزاهي !

ولماذا التبسط بعد ؟ ! بيد ان هناك شراً مستطيراً لا يمكن السكوت عنه ألا وهو انتحار طوائفنا المسيحية بقلة المواليد ! على ان هذا نتيجة وكلامنا يجب ان يتناول الاسباب! إن نور الصاعقة لا يهدم ولا يقتل؛ بل الصاعقة هي الهدامة . والصاعقة هنا هي

الكفر، هي نسيان الله والعبث بشرائعه، الصاعقة هي الانانية المقوتة! الصاعقة هي اقلام لا يحلو لها الا نبش المزابل؛ الصاعقة هي سنن وخطط اقل ما يقال فيها انها دنيئة تفسد النسل وتقلله، انها هدامة جعلت من بعض عيال لبنان مقابر للاخلاق ومن حدائق بيوتها حفائر للاطفال، انها لصوصية تقطع على الاجنة طريق الوجود. لقد بُلي بعض الرجال قديماً بهذا الداء، أمّا ان تسري عدواه الى النساء فتعتاض المرأة من هز السرير بنبش الحفر تخفي فيها جرائمها؛ بحجة ان الحبل مضن والايلاد موجع والاولاد عقبة وعراقيل والازمة خانقة ومرتب المدارس باهظ، فهذا منتهى الخلاعة والقساوة والفجور!

ان هواء المآدب ورائحة الاعياد والبغاء تكاد تخنق الانفاس! ولكن فليحذر الذين أثروا وراحوا يرقصون على القبور. فان ثقلت احدى كفتي الميزان بالشقاء والحرمان وكان في الاخرى فخفخة وتفخل علت صيحات الغضب والنقمة وقد تعودت الدماء، في مثل هذه الحال، ان ترفع يدها وتضرب. ان تراث الاخلاق الثمين قد كلف جدودنا عرقاً ودموعاً ودماً! فما بالنا نترك نهر الفساد يطغي ويجرفه؟

فاذا كنتم، يا سادتي، لا تعتقدون معتقدي، فافسحوا لنا عن افكاركم وليكن لكم من الجرأة ما يجعلكم تفكرون عالياً. فعلى اي اساس تريدون ان تبنوا صرح عظمتكم؟ على اية مبادئ تقيمون استقلال بلادكم؟ أعلى رمل الفساد المائع؟

فيا له من دور عظيم الاهمية ذلك الدور الذي ندعو المرأة اللبنانية الى تمثيله! لقد قيل ان ارتفعت نفس رفعت معها عالماً! فكيف بلبنان ان سمت فيه نفس من وُكل اليها قيادة الافكار وهي فتية والقى عليها مسؤولية صوغ العقول وتهذيب القلوب؟! كيف لا يعلو ان علت نفس الام فيه، يا سادتي الكرام؟ ألم يقل نابليون ان التي تهز السرير بيمينها تهز الارض بشمالها؟

ان الوثنية التي استعبدتك، يا اختي المرأة، راجعة الى لبنانك العزيز بالف طريق وطريق. خسارة الايمان مصيبة على كل انسان؛ لكن وطأتها عليك

اشد ؛ لانك مع الاباحية تفقدين مقامك وشرفك وشخصيتك ؛ وببعدك عن ديانة حررتك لا تلبثين ان تصيري خليقة مزدراة او متاعاً يملكه* زوجك او ابوك يعاملانك معاملة حيوان أليف او معاملة تحفة من تحف البيت الغالية الجذابة!

ويا لتعسك ان كنت لا تملكين الا المال والجمال!

في احرج ازمنة النصرانية قام جوليان الجاحد وقال: «ان سلفائي كانوا بلهاء. ظنوا انهم يميتون القمح المسيحي بدفنهم اياه في اتلام من الدماء، فانموه واكثروه ؛ اما انا فاني ادرى منهم واحكم. لن اسفك نقطة من دم المسيحيين ؛ لكني سأستأصل القمح واذري حبوب الحياة. سأجعل المجتمع وثنياً بادئاً عملي بالشبيبة مستبدلاً الكنائس المسيحية ومآويها ومدارسها ومكاتبها من كنائس ومآو ومدارس وادياء وثنية ؛ ومتى، بعد خمسين سنة، يكلم الوالدون ابناءهم عن الناصري يكون هؤلاء بحالة لا تمكنهم من ان يفهموا شيئاً مما يقال لهم عنه!»

حرب قصيرة الامد ؛ لكنها هائلة! وحدت القوة الرومانية جبهة القتال وراحت تحارب لكي تعيد الوثنية الى سالف عهدها ؛ الا ان التاريخ اخبرنا ان جوليان لم يتبصر في كل الامور. لقد فاته ان في الامبراطورية مسيحيات قد امسكن بايدي بعضهن بعضاً من كولونيــة الى تنيفاد ومن «ليتسيا» الى «سيترا» وبقوة الحب التي تفوق قوة البغض، شدة، صحن به: لا! انك لن تمر ظافراً! وتلك المباني المسيحية التي اقفلتها او حولتها الى وثنية سنفتحها نحن في كل بيت من بيوتنا!

لقد قلن وفعلن! وكان ان جوليان قد مات يائساً، مزمجراً بين اسنانه حنقاً: «لقد غلبتني يا جليلي!» وفي غداة هزيمته الشنعاء تساءل نديمه ليبانيوس: «لماذا اخفق ولم ينزل بالمسيحية الموت الزؤام ذلك الذي توفرت لديه كل اسباب النجاح؟» ثم عادت الى ذاكرته بطولة المسيحيات، فكتب صرخة السخط هذه: «يا لهن من نساء، اولئك المسيحيات»

اننا نثني عليكن، يا سيداتي اللبنانيات، وقد تأكد عندكن هجوم

الوثنية على البلاد وشنها الغارة على المسيحية في لبنان ، وكان ، في مقدمة ما تحارب ، شرفكن وسعادتكن وحريتكن ، ان تقفن كما وقفت ، من قبلكن ، جدات لكن ، خضن غمرات الجهاد وخلصن النفس والاخلاق اللبنانية بامثلتهن الصالحة والصلاة وتردن اني ، عليهن ، العمل بنوع خاص لنكتب عنكن آية الاعجاب هذه : « اية نساء هن ، هؤلاء اللبنانيات ! »

(راديو الشرق في ٦ اذار سنة ١٩٤٦)

ليست الحياة المسيحية خنوعاً وتهرباً من الواجب . فالخلاص الابدي هو انتصار ، وكذلك الخلاص الزمني . فهذا شرط لذاك ، ونحن انما نربح السماء بالارض ومن على الارض . . . نحن بحاجة الى شيء ولو قليل ، من الحرية ورغد العيش والامن وعزة النفس لنتمكن من ممارسة الفضيلة . وهذا القليل لا نحصل عليه الا بالجهاد تدعمنا فيه الرغبة القوية في الغلبة .

لا تفتش عن الحرب ولا تسعَ وراءها فانك لست نمراً ولا ثوراً ، ولكن اقبل القتال ان دعاك داعيه . ففيه يعظم قدرك . ان في السماء وحدها تلغى الشريعة التي تعمل من الحياة حرباً وتجنداً وفيها يأخذ الاكليل الانسان الذي عرف ان يجاهد .

ومع ارادتك الحزومة ورغبتك في ان تنال اكليل الظفر ، كن فرحاً فلست ، بدون الفرح ، الا جندياً وكاهناً وملاحاً وعاملاً ومسيحياً ناقصاً . ان كل ما في المسيحية يدعوك الى الفرح ويحثك عليه . أن انشودة الملائكة ، ليلة الميلاد ، الى هاليل عيد القيامة حتى يوم الجمعة العظيم هو طافح بالفرح لانه يبشرنا بالقيامة . ولا يسهَ عن بالك ان الله يريد ان نخدمه بفرح وفي هذا المعنى قال داود النبي : ان الله يحب المعطي الفرحان — كن رحوماً ومع رحمتك كن عادلاً .

لا تخلط بين الحب والشهوة الحسية ان البون شاسع بين الاثنين :
هي عمياء اما هو فنير !

هي تمتع اناني اما هو فعطية سخية ، مجردة عن الذات ، هي تنبذ العقل والارادة اما هو فعليها يرتكز . الشهوة عبدة الهوى ، اما الحب فيسوده . الشهوة عدوة الواجب ، اما الحب فاسيره . الانسان جسد وروح . فقوام كمال الانسان في توازن الاثنين . ان الشهوة الحسية ليست الحب ولا هي غاية الحب .

الفن الثاني

بين الوثنية والمسيحية

الحديث الاول

الاخلاق

بين الوثنية والمسيحية

جهل الانسان ، قبل المسيح ، كيف يعيش انسانا ، لانه تناسى غاية الحياة فسار في ارض منفاه على غير هدى: يخيم على عقله ظلام دامس بعد ان امست فلسفته مجموعة من الاضاليل او الحقائق المشوهة ويسيطر على قلبه القلق والقنوط لانه جعل موضوع حبه ظل الخير لا حقيقته . فعشق المادة وأولاها المكان الاول فحطته من اوج مقامه الانساني الى دركات الذل والحيوانية . وامعن في احتقار الروح وتلهى بالخليقة عن الخالق فأله كل شيء الا الاله الحقيقي . فعبد المصريون الثيران والقطط وبنوا لها هيكلا يفوق هيكل سليمان جمالا وغنى واقاموا على خدمته آلاف الكهنة والكاهنات وجعلوا من اقبيته مدافن قبروا فيها الملايين من السنانير المؤلهة . واعجب غيرهم بجمال المخلوقات فسجدوا للكواكب والشمس والقمر وخاف غيرهم الخلائق المضرة فعبدوها ليأمنوا شرها . ولكي يستبيح الانسان المحرمات أله الرذائل كلها وشيد لها الهياكل ونصب لها التماثيل وعلى

اقدامها وامام دواليب عجلاتها عفرت الكرامات جبينها وقد قيل: ان هيكل الزهرة، كان له في كورنتس، الف كاهنة للرذيلة والفجور!

فمن الفرات الى النيل الى التيبر سيطرت حضارة مادية زاهرة احتقرت القيم الروحية احتقاراً جعلها شديدة القساوة، كثيرة الفحش فكان لرعمسيس الثاني، اعظم الفراعنة، مئات من السراري وعشرات الالاف من العبيد، يشغلهم في بناء الاهرام واقامة السدود والارصفة والسوط يلهب ظهورهم ويشق في لحومهم العارية، الاخاديد والاثلام. واستخدم كاوبس مئة الف عامل، مدة ثلاثين سنة، ليبني اكبر الاهرام واعظمها ليكون له قبراً!

ودوخت رومة العالم فاخذت، من بلاد اليونان، الفنانين ومن البرابرة، المصارعين والعبيد، ومن افريقيا ومصر القمح وطغت وتجبرت فدقت الاجساد وسحقت النفوس فارتعدت المسكونة فرقاً امام حاملي فؤوس القيصر؛ فباتت رومة، وفيها مئتا الف مالك فقط، يعمل تحت امرتهم مليون من العبيد يعيش الاسياد من اتعابهم ويلهون بمشاهدتهم يتصارعون ويتجندلون ومن لحومهم البشرية كانوا يغذون الوحوش الداجنة واسماك الاحواض وحيتانها. اما في العيال، تلك الممالك الصغيرة، فقد استبد ربها وطغا وانتحل لنفسه سلطة لم ينعم بها انسان في تاريخ البشرية، فراح يتصرف بحياة امرأته وبنيه تصرف المالك باشيائه بدون ما رادع ولا وازع؛ حتى صح قول من قال: «صار الانسان ذئباً بازاء اخيه الانسان وصارت الارض لكثير من الناس جهنماً.»

على ان النخبة من البشر شعروا بهذا الشذوذ وصعدوا الانين ولكنهم عجزوا عن ان يداووا الحالة ويرجعوا الحق الى نصابه بالوسائل البشرية فقال فيلسوفهم افلاطون: «لا تتوقعوا شفاء لهذا العالم ان لم يأت اله يساعده ويعلمه كيف يسلك مع الالهة والبشر»؛ اما شعب الله فانه ما انفك يصرخ الى السماء داعياً المخلص قائلاً مع أشعيا: «ليتك تشق السماوات وتنزل... واقطري ايتها السماوات من فوق ولتمطر الغيوم الصديق!»

اننا لا نجرد البشرية القديمة من كل صلاح ولا ننكر عليها بعض مزايا قد

تحلت بها ؛ لكننا نعلن ان بذور الفضائل الادبية والاجتماعية لم تبذرها في النفوس الا المسيحية. وما كان في الانسانية من فضائل بقيت ناقصة خشنة حتى جاء المسيح فكملها وصقلها وبلورها. فقبل مجيئه، كانت القوة حقاً، فصار، بعده، الحق، قوة؛ قبله كان الضعيف مهاناً ولاجله غدا معتبراً ؛ قبله كان التواضع ضعفاً وبه صار مجداً ؛ قبله كان الصفح عن الاهانة ذلا ولاجله صرنا نعده فضيلة ؛ قبله كانت التضحية جبانة وجنوناً ولاجله صارت شجاعة وحكمة ؛ قبل المسيح حسب الانسان الالم شراً وبالمسيح صار له من لدن الله نعمة ؛ قبل المسيح، كان المال سلطاناً غاشماً وبالمسيح صار للانسان عبداً ولعمل الخير اداة !

وهناك فضيلة لم يمارسها الانسان كاملة تامة، الا بعد ان اشرق على الارض نور الانجيل ؛ فهي من مواليده ، تلك الفضيلة هي العفاف !

لقد أعجب الوثنيون بالطهارة وفتنوا بشرفها وجمالها فرغب دموستان في ان يكون خدمة الالهة اطهاراً؛ وارادت رومة ان تحافظ على النار المقدسة ست كاهنات عذارى؛ ولكنها عبثاً جابت امبراطورية تعد مئتي مليون، وباطلاً اغدقت الوعود ، لكي تجد ستّ شابات يرتضين، بملء ارادتهن، حال العفاف حالا لهن، مدة لا تتجاوز الثانية عشرة سنة ، يسهرن في خلالها على النار المقدسة ! وكيف السبيل الى وجودهن في حضارة تقدس البكارة؛ ولكنها تؤله اللذة اللحمية وتكرم ألهتها بالسكر والفسق والفجور ! ؟

فبيسوع بدأ عهد العفة على الارض. هو طاهر ! وبطانته طاهرة ! فمن يوسف ابيه المربي، الى مريم امه، الى يوحنا سابقه الى يوحنا الرسول، حبيبه. لقد اقام لاتباعه الاطفال مثالا للطهارة، ليتحلوا بنقاوتهم قال: « ان لم تعودوا فتصيروا مثل طفل فلن تدخلوا ملكوت السماوات » . يسوع أصلح العيلة واعاد للزواج طهارة اصله وجعله واحداً : رجل واحد لامرأة واحدة وربطهما بعهد رفعه الى مقام سر من اسرار كنيسته وحتم ان لا يفصم عراه الا الموت وشجب حتى النظرات وحرم حتى الرغبات الدنسة فقال : « من نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه . وعظم من يعدل، بملء ارادته، عن الملاذ اللحمية الجائزة حباً للملكوت واقتداء به

واتباعاً له في طريق الجهاد والصليب والفداء.

سنة غريبة: «شك لليهود وجهالة للامم!» عراك هائل، شاق؛ لكن حفلاً من الشهود دخلوا المعمعة وخرجوا منها ظافرين، ثيابهم حمراء بدم الجهاد والحرمان والتضحيات وعلى رؤوسهم أكلة الظفر والمجد، وفي طليعتهم الكلية الجمال، الكلية الجودة، القوية كالصفوف المنظمة، البتولة مريم، البريئة من كل دنس!

زيدوا على هذه الفضيلة فضيلة اخرى خلقها لنا المسيح بميلاده، فضيلة جهلتها الفلسفات الوثنية ولم تفهها دياناتها. لقد خلق لنا القداسة وعلمنا ان نكفر بانفسنا ونتسلط على غرائزنا وننتصر على شهواتنا واهوائنا ومطامعنا؛ بينا كان الانسان، قبله، يعيش ويعمل «لشهوة العين وشهوة اللحم وفخر الحياة» مطالباً الارض بسعادة ابى الا ان تكون كاملة شاملة. ولما رآها عاجزة عن ان تنيله اياها الا ناقصة، نوعاً وكماً يوماً بعد يوم؛ تلفت واذا بالسماء فوقه نحاس وبالارض تحته حديد فقنط وثار على عالم كريه، أحمق، على دنيا كذوبة، مخاتلة؛ ولم يجد امامه غير الانتحار باباً ينجو منه لينعتق من احزانه ويأسه!

ولمَ نعجب؟ اليس في قعر اللذة ألمٌ وحزن، كما في مصب الانهر ماء مالح مر!؟ وما كان الحزن واليأس الا وليد الالحاد والاباحية! وكيف لا يكونه؟

ماذا تجيبون انساناً تسرح في وجهه اكلة تلتهم لحمانه؟ ماذا تجيبون اخر ان قرض كبده سرطان؟ ماذا تجيبون شيخاً غارت قواه وأملّه نكران الجميل؛ بل ماذا تجيبون شاباً متهتكاً أبرمته الملاذ وانزلت به نوازلها فصاح بكم: «كفاني ما اعاني»! ماذا تقولون لهؤلاء البؤساء لتعيدوا اليهم لذة العيش او على الاقل لتجعلوا الحياة عندهم محتملة؟ أتسرون في اذانهم رسالة عنى «اندره جيد» نفسه يحملها الى سفلة الارض قال: «ضع منديلك في فيك واصمت! فليس لنا وطن غير الارض فلا تقلقها بصراخك ولا تشوش موسيقاها بعويلك وحذار ان تفسد على الراقصين دورتهم؛ اصمت ومت في زاويتك متى دقت ساعتك! او عجل، اذا شئت، وتوارَ عن مسرح الحياة فما فائدتك من ألم تقاسيه تحت الشمس اذ لا شيء ينتظرك بعد القبر». فشريعة الطبيعة الكبرى هي ان تعيش او تموت كما

يطيب لك » !!

اجل، ايها الاخوة الاعزاء، هذا هو الدواء الذي كان الفلاسفة يعطونه الناس، المتألمين قبل المسيح . فألفوا فئة من الثائرين على الحياة وقادوهم قطيعاً تائهاً في مفاوز الارض يدفعهم حزنهم الى اليأس فالانتحار هرباً من ارض صيروها لهم اصطبلاً ضيقاً فارغاً؛ بينا نرى اتباع الناصري يحملون صليبهم فرحين اوعلى الاقل صابرين راضين، ووجهتهم دار الخلود مؤمنين بان آلام الدهر، وان طويلة الامد، شاقة، لا توازي المجد العتيد ان يتجلى فيهم؛ واثقين بانهم ليسوا في الضيقات وحيدين؛ بل بينهم يقيم من لم يعرفه العالم؛ والى جنبهم واقف من شاء بجبته الازلية ان يكون لهم صديقاً ورفيقاً ومعزياً وقوة؛ قائلاً لهم « انا معكم لا تخافوا »؛ بينهم أمّ، كالام بين بنيها، تحنو عليهم جميعاً؛ وتعطف على اشدهم ضعفاً، وتسند من اصطدمت بالحجارة رجلاه او غارت بالوحول قدماه، بينهم تلك التي غرقت في التألم؛ ولكنها لم تقنط؛ بينهم البتول مريم، سلطانة الشهداء !

ان شفاء الامراض والعاهات وقيامة الموتى، ما كانت يوماً اعجوبة المسيحية العظمى؛ بل شفاء البشرية من حب الذات البغيض وحملها على التهالك في محبة القريب : تلك هي اعجوبتها العظمى « ولد الرفق يوم مولد عيسى . . . » اعجوبة المسيحية الكبرى هي شفاء البشرية من الملاذ الجسدية وابلالها المفاجىء من تسلط الشهوات وسيرها على طريق الزهد والعفاف، اعجوبة المسيحية العظمى هي تغيير الانسان وتعريه من الانسان القديم وتخلقه باخلاق المسيح، الانسان الجديد .

« لا تتوقعوا شفاء لهذا العالم ان لم يأت اله يساعده »، قال فيلسوف الوثنية؛ اما نحن المسيحيين فنعرف جيداً ان العالم يشفى لان الهاً اتى فساعده ولا يزال وان يتركه الى الابد !

فما الذي يترتب علينا عمله اذن ازاء السياسة الوثنية العصرية والفوضى الاخلاقية العالمية ؟ لا شيء جديداً، يجيبنا العلامة المفكر « جلسون »، الا ان نعيد الكرة، ولكن بعزم مضاعف . لقد كان للمسيحيين الاولين من القوة ما جعلهم ينتصرون على عالم دنس، وهم قلائل؛ فما يكون من امرنا، ونحن كثرة، نحمل عشرين جيلاً من

الاختبار. والخبرة علمتنا ان ما يدعم العالم ويمنعه من التداعي فالانحطاط فالعودة الى البربرية ليس تقدمه في علم الحساب والكيميا. ولا معارفه التاريخية والفقهية ولا اكتشافه اسرار الذرة؛ بل الفضائل الحية العاملة؛ بل العمل بمبادئ الانجيل والسير على انواره المشعة!

قال كايو، رجل المال الفرنسي، وقد اعيته الحيلة في معالجة الشؤون المالية والاجتماعية! اذا شئتم ان اعيد لكم مجتمعاً اكثر انتظاماً يتوطد فيه للعامل حظ اوفر «أعيدوا الي الانجيل!» وكان في الامس الدابر يقول متبجحاً: «قدموا الي اقتراحاتكم بشأن الميزانية وانا بمعارفي انظم اقتصادياتكم واذلل صعوباتكم الاجتماعية!».

قوتنا اذن اننا نحمل في دمنا عشرين جيلاً من المسيحية! هذه الديانة التي عجنت العالم ووضعت فيه خميرة الحياة الالهية؛ حتى ان الذين يجحدونها ويقبحونها يبقون تلاميذها باحسن مما عندهم.

من ظن، يا سادة، ان في غداة صلب يسوع ينفلق الظلام عن صبح عيد الفصح وعيد العنصرة، فيقف العالم المادي بافكاره ورغباته، مصغياً الى رسالة هذا المغدور الذي مات وهو يشهد للحق وينادي باولوية الروح، وما عتم ان صار، كما قال له رنان الجاحد: «انك بعد موتك قد غدوت حياً ومحبوباً، الف مرة، اكثر مما كنت عليه في حياتك، على الارض. بحيث انك صرت حجر الزاوية في بناء البشرية، فاذا رفع اسمك من هذا العالم تزعزعت اركانه من اساساتها!»

اجل، ايها الاخوة الاعزاء، ان المسيح جدد العالم بميلاده وغير عقلية الانسان بانجيله؛ فصار الاستقواء على الضعفاء مستهجناً وغدا الانسان اخاً للانسان، يعترف له بحق الحرية وحق الحياة وبات انجيله شريعة تقاس عليها الاعمال فيحكم الضمير العالمي على الاعتداء بانه اعتداء، وعلى البطش بانه بطش وعلى الظلم بانه ظلم. وبالمسيح انتصر الانسان على غرائزه وشهواته وتسلط على اهوائه وعلى مطامعه. فعلى علم المسيح حق لنا ان ننقش تلك الكلمات التي تبجحت بها الثورة على انجيله: حرية، عدالة، اخوة، مساواة!

(الاذاعة اللبنانية في ٢٩ ك ١ سنة ١٩٦٦)

الحديث الثاني

الولد

بين الوثنية والمسيحية

المبادئ المسيحية والمبادئ الوثنية على طرفي نقيض، لكننا قد لا نجد موضوعاً تباينت فيه تباينها في اعتبار الولد. فالمسيحية رأت في الولد، وان جنيناً، انساناً كاملاً: فيه نفس بشرية مخلوقة على صورة الله ومشتراة بدم المسيح ومعدة للحياة الابدية؛ فاحترمته لاجل ذاته وعلمت انه غاية الزواج الاولى وانه رباط الحب بين الوالدين وبهجة العيلة ومحور حياتها.

اما الوثنية فلم تعتبر في الولد الا الفائدة تجنيها من وجوده العيلة، في بادئ الامر، ثم القبيلة، ثم الدولة. فان جاء مفيداً ابقت عليه والا اعدمته الحياة. وها هي شرائعها في «سبارت» تفرض على الوالد ان لا يستبقي من اولاده الا من كان صحيح البنية قوياً! وها هي في اثينا توكل الى الوالد ان يبت وحده في حياة ابنه او موته! وها هي في رومة تجعل من رب العيلة مشترعاً وقاضياً وكاهناً وتطلق يده في مصير بنيه: يسقطهم أجنة ويقتلهم اطفالا وينكرهم اولاداً له ويرمي بهم على الطرقات عرضة للحر والقر وطعمة لكلاب الحي ووحوش الغابات ويبيعهم ويرهنهم ويهديهم ويدفعهم تسديداً لمال عليه ويزوجهم، ساعة يطيب له، وممن يريد وينزل بهم العقاب، مذنبين؛ ولا يتملص الولد من سلطة

ابيه ما عاش ابوه. فلابيه ان يعزله عن منصة الحكم وان يقصيه عن الوظيفة وان يمنعه عن مزاولة المهنة ولا ينعتق من سلطته الا اذا بيع وتحرر ثلاث مرات!

ويا ليت الفلاسفة كانوا ارأف بالطفل والولد من العادات والشرائع. فهذا شيخهم اريسطو يقول باسقاط الجنين! ويعد اسقاطه واجباً اجتماعياً، على شرط ان يحرم الجنين الحياة قبل ان يشعر بانه حي! وهذا افلاطون يأمر بان لا يحتفظ الوالدون في «جمهوريته» الا بنخبة من اولادهم «لئلا ينحط القطيع» على حد تعبيره! وهذا سينكا الفيلسوف المشهور بالتعقل والاتزان والرقة يكتب، بدون ان يرف له جفن: «كما يحق للحكام اعدام المجرمين، وللناس قتل الكلاب الكلبة وذبح الثيران الهائجة، يحق للوالدين ان يخنقوا الضعيف والمريض والشنيع الوجه من اولادهم!» ويثبت ان ليس، في عملهم، ظلم وغضب؛ بل تعقل وحكمة، لانه اية فائدة لهؤلاء الاطفال وللدولة من حياتهم!

فان كان «سولون» حرم اسقاط الجنين؛ فقد أجاز للوالدين ان يرموا اولادهم؛ وفي هذه الحال، فاما ان يموتوا؛ واما ان تلتقطهم يد بحاجة الى عبيد فتربيهم عبيداً لها؛ واما ان يحظى بهم تجار اللحوم البشرية فيعنون بهم في اصطبلاتهم البشرية حتى اذا ما بلغوا من العمر ثلاثاً باعوهم. ولبيع اللقطاء فتحت سوق في الاسكندرية اشتهرت بالاولاد الحسان من كلا الجنسين؛ فاطلق عليهم الرومانيون اسماً ذا مغاز: فنعتوهم «باللذاذ» او «بالعذاب» ومن هؤلاء كان الاغنياء يبتاعون خدمهم فيلبسونهم الثياب الجميلة ويضمخونهم بالطيوب ويقيمونهم على خدمتهم في بيوت الموائد والحمامات ويعيشون معهم عيشة تحوم حولها الشبهات؛ اما الاناث فكن يتعلمن الرقص والعزف والغناء ويقذفن الى المآدب ساعة يثمل الاسياد! ومن الاسياد والاباء من كان يعمد الى فقرة من فقرات ظهر الولد فيعطلها او الى عينيه فيفقأهما ويرسله الى الاسواق يتسول اجتناء للارباح! اما في قرطجنة الفينيقية وفي الشرق فكان الوالدون يحرقون اولادهم احياء في جوف الاله «مولوك» اكراماً له او استرضاء

كل هذا، ولم يرتفع، في اجواء الارض، صوت يشجب هذه الاعمال البربرية ويقبحها ولم تحرك الدول ساكناً لتحمي الطفولة؛ بل كثيراً ما قضت السياسة

بقتل الاطفال، جملة، تدفعها الى جريمتها الاوهام والخرافات. ففي عهد يوليوس قيصر بلغ مجلسَ الاعيان ان الناس يتحدثون عن ولادة ملك، فقرر المجلس ان يقتل كل طفل يولد في المعسكرات الرومانية؛ وفي اورشليم امر هيرودوس، كما تعلمون، بقتل ثلاثة من اولاده وبذبح اطفال بيت لحم ونحوها ليتخلص من ولد ظنه جاء ليزاحمه على العرش والتاج!

اجل، هذا كان نصيب الاطفال في العالم قبل ان وُلد ذلك الطفل الالهي الذي احب الاولاد وأعاد اليهم الحق بالوجود والحياة وجزرهم وصيّرهم محترمين، أهلاً بالشفقة، وخليقين بالعناية، أصحاء الجسم كانوا ام مرضى ومشوهين؛ ذكوراً كانوا ام اناثاً.

اقبل اليه الاطفال، وهو يتجوّل في قرى اليهودية والجليل، فتصدّى لهم الرسل، المتشبعون من الافكار القديمة وحاولوا إقصاء هؤلاء الثقلاء، المبغوضين، عن معلمهم؛ فانتفض يسوع يدافع عن الضعفاء ويزجر التلاميذ قائلاً: «دعوا الاطفال يأتون اليَّ. لا تصدّوهم، فان لهم ملكوت السماوات!» وكأني بالسيد المسيح قد تذكر الشرور التي انزلتها الوثنية بنفس الولد وجسده، كأني به تذكّر اسفاف «اريسطو» وانحطاط «بليتارك» يعظّمان الرذيلة يعتدى بها على اجساد الاطفال؛ كأني به قد رأى الاشراك تنصبها السياسة المادية لاقتناص انفس الاولاد؛ كأني به رأى العوائق يقيمها الانانيون ليحولوا بين الجنين والوجود! كأني بـه راح يستعرض تلك المعاثر والمخازي تنشرها المطابع، والصور تعرضها دور الملاهي! والتغاضي عن النفوس يرتكبه الوالدون والمربون، حين انتصب يقبّح ويشجب ويهدّد ويقول: «من شكك واحداً من هؤلاء الصغار فالاجدر له ان يعلّق في عنقه رحى الحمار ويزج في اعماق البحار!»؛ كأني بـه اراد ان يفهم الارض ان الدنيا تسهر على الاطفال وتحميهم وتنتقم لهم؛ فأنذرها بسوء المغبة ان طال احتقارها لهم قال: «احذروا ان تحتقروا احد هؤلاء الصغار فاني اقول لكم ان ملائكتهم، في السماوات، كل حين، يعاينون وجه أبي!» وأعلمها ان عثار الصغار انما هو افساد

لعمله العظيم ، عمل الفداء ؛ فزاد : « واعلموا ان ابن البشر انما جاء ليخلص ما قد هلك » وامعن في تكريم الاطفال فجعلهم اخوة له قال : « كل ما تعملونه مع احد اخوتي هؤلاء الصغار فمعي تعملونه ! »

فهمت الكنيسة ارادة عريسها فعطفت على الطفولة وأحبت الاولاد فبذرت افكاراً وأوحت شرائع حامت بها حتى عن الاجنة في البطون ؛ وفتحت مدارس ومياتم لتنهض الولد من حضيض الذل والجهل وتربيه تربية تليق بولد هو ابن السماء ! ففي الرسالة المنسوبة الى القديس « برنابا » نرى الكنيسة تحرّم اسقاط الجنين وقتل الاطفال وبيعهم وتعريضهم للموت والعبودية والفجور، وتعلّم ان هذه الاعمال ، جرائم فظيعة ، وخطايا تهين الله. اليكم نتفاً من كتابات مسيحية توقفكم على فكر الكنيسة بالولد في اجيالها الاولى. سمع الوثنيون بالذبيحة الالهية يحتفل بها المسيحيون في مخابئهم فأشاعوا انهم يذبحون الاطفال فكتب اثناغور الى الامبراطور مارك اورال قال : « يتهموننا بالقتل نحن الذين نعلّم ان النساء اللواتي يتعمدن اسقاط الاجنّة هن قاتلات ، مذنبات امام الله وامام ضميرهن وامام الوطن ؛ يتهموننا بالقتل نحن الذين لا نرمي اطفالنا مخافةَ ان يموتوا فكيف يخطر لهم ببال ان يلصقوا بنا جريمة قتلهم متى كبروا . . . أمن المعقول ان نضادّ انفسنا الى هذا الحد ؟

وكتب ترتليناس : « ان ديانتنا تحرّم علينا القتل على اختلاف انواعه فتنهانا عن ان نسقط ما منه يتكون الطفل قبل ان يصير خليقة بشرية ، لانّا نعتقد ان منع الحبل والولادة قتل باكر . وفي الحقيقة اي فرق بين فصل النفس عن جسدها بالقتل وبين منعها عن ان تحييه . أفلا تكونون قتلة اذا لاشيتم ما منه سيتكوّن الانسان ! »

وكتب « لكتانس » مشير قسطنطين الى مليكه كتاباً جاء فيه : « لا تعتقد انه يجوز لك ان تسكت عن قتلة الاطفال . فقتلهم جريمة ونفاق ، لان الله لا يعطي نسمة الحياة ليفسد الاباء الاجساد التي تحييها . وكيف يقدم الوالدون على ان يحرموا من الحياة خلائق ليست لهم ؟ ام كيف يعفَ عن قتل

الاخرين من يغمس يديه بدم اولاده ؟ ويا لضلال الذين بداعي الشفقة والحب لا يقتلون اطفالهم بل يطرحونهم هنا وهناك عرضة للموت ويعتقدون انهم ابرياء من دمهم ! ابرياء ؟ وهم يعرضون للموت فلذات اكبادهم وثمار احشائهم ؟ افلا يعلمون انهم يعدّونهم ، ان نجوا من الموت ، اماً للعبودية واماً للفجور . فعملهم اهانة لله وظلم لاولادهم ! لقد سمعت والدين يتعللون بالفقر عذراً لهم . فان كان الفقر مانعاً يعيقهم عن تربية البنين فالافضل ان لا يتزوجوا من ان يتزوجوا ويفسدوا عمل الله بايديهم ! »

فعلى هذا الكتاب اجاب قسطنطين بخط ملوكي قَصَّرَ فيه سلطة الوالدين وحرّم عليهم قتل اطفالهم او تعريضهم للموت وذيّله بهذه العبارة ، وهي الاولى من نوعها في تاريخ البشرية : « اذا حدث ان والداً يمنعه فقره عن القيام بأود عياله فأعنوا بان يعطى له ، بدون ما تأخير ، ما يحتاج اليه ؛ اماً من خزانة المملكة واماً من اموالنا الخاصة ! »

أرأيتم تعليم الكنيسة بشأن الاجنة والاطفال فانه هو هو لم يتغير منذ نشأتها ! ارأيتم تأثيرها في الملوك وفي ساسة العالم من اي نوع هو ؟ فانها لا تبغي السيطرة لاجل السيطرة ؛ بل لتلغي الشرائع الجائرة وتبطل الحقوق المزعومة وتكيف الاخلاق المشبوهة .

اعتبرت الكنيسة الجهل نقصاً وهي لاتزال في مهدها ؛ وكافحت الامية ما استطاعت . فالتعليم الشعبي هو من خلائقها . فما ان نعمت بالسلام ، في عهد قسطنطين ، حتى عمدت الى فتح المياتم تربي فيها ضحايا الانانية والشقاء . وكان فضل الاسبقية ، في هذا الامر ، للكنيسة الشرقية التي فتحت في القسطنطينية ميتماً والى جانبه مدرسة صناعية كان لها فرع في اوكسيا . ولم تتنكر الكنيسة للاداب والفلسفة القديمة بل درّست العلوم البشرية كلها واضافت اليها دروس الكتب المقدسة ؛ فكان لها جامعات في انطاكية وفي القسطنطينية وفي نيزيبا وفي اداس وفي الاسكندرية يؤمها الاولاد من كل طبقة ولغة ولسان ويحضر دروسها مستمعون من رجال ونساء ؛ وفي الكنيسة الغربية امرت المجامع

المنعقدة في مدينة « اكس لاشابل » الاساقفة بفتح المدارس ، والكهنة بالسهر عليها ، والوالدين بارسال بنيهم اليها ؛ وسن البابا اسكندر الثالث قانوناً في المجمع المسكوني الثاني عشر اثبت فيه حرية التعليم ومجانيته بصورة نهائية وحننت قلوب الملوك المسيحيين على هذه المؤسسات فراحوا يزورونها او يستدعون الاولاد الى البلاط فيولمون لهم الولائم ويقدمون لهم الهدايا ، مطبقين بالحرف كلام السيد المسيح : « دعوا الاطفال يأتون اليّ . »

وبينا كانت المدرسة الوثنية لا تهتم الا بتلقين الاداب لتجعل من الولد كائناً مثقفاً دأبت المدرسة المسيحية في تعليمه الاداب ، ومع الاداب محبة الله ومحبة القريب المجردة والشفقة على المغلوب والعطف على الضعفاء والبؤساء ، محببة اليه الزهد والعفاف واعمال الخدمة والصدقة لتجعل منه انساناً كاملاً وما انفكت خطتها هي هي ولن تزال !

فيسوع كان ولا يزال ، اذن ، المحسن الاكبر للطفولة فقد خلص الطفل من الموت والرذيلة والجهل ؛ فباسم يسوع فتحت المدارس الشعبية والمستشفيات ومذواد اللقطاء ؛ وباسمه ولاجله قام على خدمتهم التفاني المجرد . وها اننا نرى ، اليوم ، الطفل يعود الى ما كان عليه في رومة واثينا وسبارت بمقياس ما تثقل رسالة يسوع على الاسماع وتبعد العيال والدول عن كنيسته . ألم نسمع ان بلداناً اقدمت على تحديد النسل وان اخرى اجازت اسقاط الاجنة وان غيرها انحطت الى اسفل فسمحت بالطلاق والزواج المكرر فخلقت ، بعملها ، للمدنية العصرية ، ذرية جديدة واتحفت المجتمع بالولد الذئب يعيش في الحياة على نفقة الدولة دون ان يعرف امه واباه ؟ وقد سفت واوغلت فاخترعت لصيد انفس الاولاد سلاحاً سامّاً فقتلت ، في الطفل ، روحه وجعلته مادياً لا يؤمن الا بما يقع تحت الحس ولا يعرف في حياته الهاً الا بطنه ورئيس دولته !

لقد شاؤوا فأسموا عصرنا عصر الاطفال بما خلقوا لهم من وسائل لنمو اجسادهم وتوسيع مداركهم فأبدعوا ؛ ولكن قد فاتهم ان حضارتنا ، بدون يسوع ، تشبه مجنوناً يبني في النهار ويهدم في الليل ما بنته يداه . ودليلنا

ملايين الاجنة الذين تحول الانانية البغيضة واللذة القاتلة بينهم وبين الوجود او تدفعهم الى موت باكر عجول ! دليلنا ملايين الاولاد الذين يسقطون ضحايا الكحول والرذيلة وارثين عن ابائهم عارها وعيوبها وامراضها ، دليلنا كثرة الاولاد يُعنى باجسادهم وعقولهم دون نفوسهم وارادتهم فيشبون وبالًا على الانسانية لا يعرفون لهم ربًا ! فحاجة الارض الى تقوى الاولاد وصلواتهم، حاجة ملحة ولقد آمنت الكنيسة بهذا الامر فطلب الاحبار الرومانيون صلوات الاولاد عونًا لهم على تفريج الازمات، لعلمهم ان الصلوات الخارجة من قلوب لم يفسدها الشر والناطقة بها شفاه لا تزال طاهرة تشق كبد السماء ولا تستقر، الا امام عرش العلي ، فتمطر الارض وابلًا من النعم وتغمرها بفيض من الراحة والحب والعدالة والسلام . قال الفلاحون : « سكوت العصافير عن التغريد ايذان بدنو العاصفة ! » فعسانا نعلم صغارنا مواصلة تغاريدهم لترأف السماء بتراب، لهم عائشين في الوثنية والجهل وتلين قلوبًا حجرتها اللذة فتسمح للاجنة بالوجود وتوقظ الغافلين فيروا في اولادهم نفوسًا خلقت على صورة الله فيربونها تربية توصلها الى السماء ، عسانا نعلم الصغار مواصلة تغريدهم ليستدل بها العالم على ان العاصفة بعيدة الهبوب ! امين

(الاذاعة اللبنانية في ٥ ك ٢ سنة ١٩٦٧)

تعلم يا بني ، ان تعرف ما انت مدين به لابيك وامك ، لوطنك وربك : ماذا لك ولم تأخذه . فهناك احسانات لا تتمكن من ان تفيها ابدًا حقها . واولى هذه الاحسانات الصداقة .

اعلم انه ، يوم لا يعود الاولاد يعرفون ان يشكروا المحسنين اليهم ، فذلك دليلٌ على تدني المستوى الادبي في العيال والاوطان وانحطاطه !

لا تنس نعم المحسن اليك ، فانه بذل نفسه لاجلك . الخاطىء يجرب من المحسن اليه واللئيم الروح يخذله وجاحد الجميل يخذل مخلصه .

الحديث الثالث

العبد

بين الوثنية والمسيحية

كانت العبودية، قبل المسيح بزمن لا يُعرف بدؤه، عقيدة متأصلة في الافكار والعادات والشرائع. وكان العبد، في نظر الوثنية، حيواناً، بل متاعاً يجوز لسيده ان يتصرف به على هواه. فقبل المسيح بثلاثين سنة فقط، قال فارون العالم الروماني: « ان آلات الفلاحة ثلاث فئات: فئة صماء هي السكة والمحراث، وفئة عجماء هما الثور والحصان، وفئة ناطقة هم العبيد.» وقال من قبله اريسطو: «لا يسعنا ان نحب العبيد لان قلبنا لا يهوى الالات الوضيعة، ومن مبادئه: « ان السيد، سيد بالنسبة الى عبده؛ اما العبد فهو، من طبعه، عبد. والعبدية خير للعبد وعدالة» واعتبر افلاطون العبيد حيوانات دنسة؛ وقال كزانفون الحكيم: « ان وجود انواع هذه الحيوانات التي نسميها عبيداً امرٌ واجب واوجب منه ان يكون لنا من المقدرة ما يجعلنا نسوقها بالسوط والعصا!»

اما الشريعة الرومانية فقد حرّمت العبد من كل حق: حق الوجود وحق الحياة وحق الملكية وحق العيلة وحق العبادة وساوته بالدابة ففرضت، على من يقتل عبدَ جاره وعلى من يقتل حماره عقاباً واحداً

واعتبرت ان لا ارادة للعبد ولا مسؤولية عليه ولا اثر للحرية في الطاعة المفروضة عليه؛ فطاعته انما هي طاعة عمياء؛ وإن بانَ فيها شيء من الحرية عُدَّ ثورة؛ ووجب ان يقمع بالشدة والقوة .

ذلك كان حظ ثلثي البشرية يوم ظهرت المسيحية! فالى هؤلاء المحرومين من كل حق، الى هؤلاء التعساء الذين كانوا يعاملون معاملة الحيوان، بل معاملة احطّ: لان الثور الفتي كان اثمن من عبدٍ هرم؛ الى هؤلاء البؤساء الذين ابعدتهم الوثنية عن الهياكل وحرمت عليهم الصلوات الجمهورية، وجهت الكنيسة اولا انظارها عاملةً بقول ربنا يسوع: « ان ابن البشر انما جاء ليخلص ما قد هلك!

على انها، تجاه العادات القديمة المتأصلة والظروف الاقتصادية المدضة وعقلية الاسياد المستبدة ونفسية العبيد الذليلة، رأت من الحكمة ان تداوي نفوس العبيد قبل ان تقطع سلاسل عبوديتهم وتعيد اليهم حقوقهم المدنية والا، لو اطلقت مئات الملايين من العبيد على آلاف الاسياد، لكانت اوقعت العبيد في ورطة اشقى من العبودية وجرتهم الى اباحية وشذوذ جوحين وانتشلتهم من وضعٍ كانوا فيه امينين من خبزهم، فبلتهم بفقر مدقع وطرحتهم في بلية من افجع البلايا تكون الحرب الاهلية وما تجره من تعس وشقاء اخف شرورها . والحرية، تلك العطية الغالية، لو منحت دفعة واحدة للعبيد كلهم لكانت اورثت حالةً من الفوضى والخراب لم يرَ لها تاريخ البشرية مثيلاً!

فمجانبةً لهذه الشرور آثرت الكنيسة القضاء على العبودية شيئاً فشيئاً وقد فعلت ذلك بتعليمها وامثلتها وجهادها المتواصل، المرافق للاجيال، الشامل انحاء المعمور كلها!

قامت اولاً على مبدأ العبودية فنقضته، معلنة ان الناس كلهم اخوة، وانهم جميعاً متساوون امام الله، حقوقاً وواجبات، سائرة على ضوء ذلك المشعل الذي نصبه يسوع ربنا، في وسط التاريخ، وهو باق مشعشعاً ما بقي الانجيل الذي بذر في الارض بذار الاخوة والمساواة، اما « انتم فانكم جميعاً اخوة » واذا صليتم قولوا: « ابانا الذي في السماوات » لان « اباكم واحد وانتم كلكم

اخوة» ، فعلى جبهة البشرية الجديدة كتبت كنيسة المسيح الاخوة القديمة باحرف من نور فصاح بولس رسولها : « ليس بينكم بعد يهودي ولا يوناني ، لا عبد ولا حر ، لا ذكر ولا انثى ؛ بل كلكم واحد في المسيح يسوع !»

اعتبرت الكنيسة ان السير على طريق التحرر الداخلي سيفضي حتماً الى التحرر الخارجي فعلمت العبيد ان يخضعوا لاسيادهم قائلة بفم هامتها : «فاخضعوا اذن لكل خليقة من اجل الرب ، وبهذا تطيعون ، لا الناس ، بل الله الذي دعاكم لا الى العبودية ، بل الى الحرية ؛ ولا يهيلنكم استعباد الاجساد ان كانت نفوسكم حرة ، لان العبودية الحقيقية هي عبودية النفوس»: وقبلاً قال ربنا :«لا تخافوا ممن يقتلون الجسد وليس لهم ان يفعلوا اكثر . . .

لقد فاخر بعض اليهود بحريتهم امام ربنا وتبجحوا بكونهم اولاداً لابراهيم لم يستعبدهم احد فأفهمهم انهم ليسوا لذلك احراراً «لان من يعمل الخطيئة فهو عبد . . . عبد للخطيئة . والى هذه العبودية المع بولس الرسول اذ قال : «هم انفسهم عبيد الفساد لان الانسان مستعبد لمن غلبه ! »

لقد علمت الكنيسة العبد واجباتـه لتجعل من طاعته فضيلة مسيحية لا لتُقرّ بشرعية العبودية كما ادعى اخصامها عليها ، كاذبين ، وبذلك رفعت قدر العبد في عيني نفسه وأعين العالم ؛ والى العبيد ساق بطرس، رئيس الكنيسة هذا الكلام العسجدي قال : « لستم احراراً فحسب ؛ بل انتم جيل مختار وكهنة وملوك وامة مقدسة وشعب مقتنى جعله الله خاصته ليخبر بعظائمه» أفلا ترون ، ايها الاخوة الاعزاء ، ان قد صار لحياة هؤلاء البؤساء ، في المسيحية ، معنى ؛ ان قد صار لها غاية شريفة . فهم في الكنيسة ليعاونوا الله على فداء الناس ، وعلى نقلهم من « الظلمات » الى نوره العجيب كما قال لهم ايضاً بطرس الرسول !

ولم تكتف الكنيسة بالكلام تنثره درراً على مسامع العبيد ؛ بل تعدته الى الاعمال . ففي الحيّ الشعبي ، في بيت أكويلا وبريسكا ثم في حيّ الاشراف ثم في سائر احياء رومة قد ساوت الكنيسة العبيد باسيادهم بالمعمودية ومتّعتهم ، في الاجتماعات الدينية ، بذات الحقوق وقدمت لهم ذات

الاعتبار والاكرام . الى مائـدة واحدة حملت اسماً عجيباً « اغاب » وتفسيره « المحبة » كان يتقدم ، بالمساواة ، الموالي والعبيد، والى فيلمون السيد ردّ بولس الرسول عبداً اسمه اونيسموس برسالة هي آية في البلاغة والحب جا. فيهـا : « اقبله لا كعبد ، فيا بعد ، بل كمن هو افضل من عبد ، كأخ محبوب » ولم تترك الكنيسة وسيلةً الا استخدمتها لرفع شأن العبد روحياً وادبياً وما زالت حتى ارجعت اليه انسانيته، لا بالكلام كالفلسفة، بل بالاعمال ، فقبلته في الاخوّة المسيحية ورفعته الى درجة الكهنوت والاسقفية وقدمت للذي من العبيد مات شهيد الايمان ، عبادة الاكرام المختصة بالشهداء. وحرّرت عبيدها وزيّنت للعيال المسيحية فاقتدت بها فحررت عبيدها ايضاً تاركةً لهم ما جمعوا من المال والزمت كل شاب يعتنق الدعوة الاكليريكية بان يحرّر عبيده قبل انخراطه في سلكهـا وأوصت المسيحيين بان يرفقوا بعبيدهم ، حتى ان كتاب النظم الرسولية امر الاسقف بان يقطع من شركة المؤمنين من أسا. معـاملة عبيده وشجّعت بكل الوسائل حركة التحرير وقد دعت ابنا.هـا الى ان يعززوه بالقسم ، امام المذابح ، جاعلة الرجوع عنه حراماً. واوحت الى الامبراطرة المسيحيين: قسطنطين وتيودوسيوس ويوستنيانس التشريع الذي ردّ الى العبيـد حقوقهم البشرية وضمن لهم حق الحيـاة وحق الاعتقاد وحرية الزواج وحق امتلاك الارض ، وحافظ على عفافهم وامّن لهم الراحة يوم الاحد. وفي سبيل ابتياع الاسرى من القرصان اجترحت الكنيسة عجائب المحبة والتضحية فتعرت من اثمن خيراتها وباعت آنية المذابح وسلمت اثمانها لرجال كانت توفدهم الى جميع السواحل ليشتروا الاسرى ويحرروهم ؛ ولاجل تلك الغاية اسست ايضاً جماعات رهبانية وهكذا قد كيفت الافكار ولطفت الاخلاق وغيرت الشرائع واستدركت المطامع واصلحتها ومشت الى الامام لا تعرف القهقرى ، هدفهـا التحرّر الشامل بالرغم من امواج الجبرية التي كانت تطغو ، حيناً بعد حين، فتوقفها عن عمل التمدين الذي باشرته !

اخلعوا على العبودية ما شئتم من الالقاب : أسموها عاراً ، انعتوها بالبرص،

صفوها بالتجارة الخسيسة فلا يعارضنكم منا احد . هي ذي الكنيسة التي افرغت عليها هذه الالقاب قبل السياسة بزمان بعيد ... بعيد ؛ وللكنيسة وحدها يعود شرف هذه البادرة ولها وحدها فخر البداية بهذا العمل الجبار ولها اكليل النهاية . وكان واضع حجر الغلق في هذا البناء السعيد الذكر ، أب العمال ، البابا العظيم لاوون الثالث عشر . لقد آلمه صمم اوربة عن تعليمه فوجه انظاره الى العالم الجديد فآسيا فجزر اوقيانيا فمفاوز افريقيا اللاهبة وخاطب امبراطور البرازيل والكردينال لافيجري والمرسلين قاطبة مطالباً اياهم بسحق آخر سلسلة من سلاسل العبودية . وتلبية لندائه حرر امبراطور البرازيل العبيد في ممالكه ونظم الكردينال لافيجري حرباً صليبية لمحاربة الاتجار بالرقيق. قال ابراهيم لنكولن رئيس الولايات المتحدة الأشهر : « ان لم تكن العبودية شراً ، فليس على الارض شر » ونحن اذ نذكر لذينك الشيخين لاوون الثالث عشر والكردينال لافيجري ، عطفها على العبيد واهتمامها بعتقهم وتحريض العالم الكاثوليكي عليه نقول : « ان لم يكن عملها حسناً وجميلاً فما من شيء حسن وجميل على الارض. » ذلك ما يشعرنا بما يختلج في قلب الكنيسة الأم من العطف والحنان على البشرية المتألمة .

وبعد هذا يقوم من يتهم الكنيسة بانها لا تحب الحرية ولا تعطف على الشعب . يا للقحة ! ان الكنيسة هي التي مهرت الانسانية وحلت جيدها بالحرية . لعشرين جيل مضى ، رأت الكنيسة العبد صريعاً ، على طريق الوثنية ، مثقلاً بالسلاسل ، منحطاً الى مستوى الحيوان ، ألعوبة يلهو بها الساسة ، وكرة تتقاذفها مطامع الاسياد ، لا شخصية له ولا اعتبار ، فحملته الكنيسة ، وهو على هذه الحال من العار والذل ، وضمته بحنان الى صدرها ؛ وبالرغم من الرأي العام ومن الشرائع ، رفعته الى مقامه الانساني وجعلته مسيحياً ، ابن السماء ! ومن عبد ، في البشرية القديمة ، قلبته الى شريك لسيده ، في الاجيال الوسطى ، ثم الى وطني كامل الحرية في عصرنا . وهي التي خلقت مكانة الشعب وارجعت له عظمته الروحية والادبية وحقه في الارض وفي العيلة وفي الهياكل . ففي

الاجيال الوسطى جعلت له حصناً وملجأ من عقائدها وشرائعها وهياكلها واديارها ومنازلها وجامعاتها . وانتشلت اولاده من الامية والجهل ولهم فتحت المدارس ووضعت فيها المعلمين والمعلمات . فالتعليم الشعبي وليد المسيحية . فمن احضان المذلة والهوان اخذت الكنيسة بعض اولاد الشعب وكستهم بالزيت المقدس ورفعتهم بجلال الكهنوت فوق كل العظمات البشرية ، والذين رأت فيهم نبوغاً وفضيلة بوأتهم ، وهم اولاد العمال ، عرش البابوية ارفع عرش في العالم فدُعوا غريغوريوس السابع وسكتس الخامس وبيوس العاشر .

شيء واحد لم تعمله الكنيسة لهذا الشعب ولن تعمله ابداً ! انها ما خدعته قطّ ! انها ما أضلته ! انها ما استثمرت بساطته واهواءه وآلامه ! فالكنيسة صادقة ، امينة لا تبتاع شعبيتها بالاكاذيب والاضاليل ، وتأنف من التنازل عن الحقيقة ، عن الحقيقة الوديعة ، عن الحقيقة القامعة اهواء النفس ونزواتها ، عن حقيقة الانجيل . فالكنيسة اليوم ، مثلها في الامس ، صديقة الشعب الحقيقية تقول له الحقيقة وتهديه الى الخير وتعمله له . دافعت عنه ، في كل العهود ، وحملت احزانه وشكاويه ، امام كل العروش ، ورفعت تأوهاته الى مسامع الملوك والى قلوب كل المسلطين وما انفكت تثير جميع بواعث التفاني لتصلح حاله وتتدارك احتياجاته وتصون مصالحه وهي براء من محنه واتعابه وظلاماته !

فالمسيحية ، اذن ، يا سادة ، قد حطمت سلاسل العبودية واعادت الى العبد حقوقه وحريته وأدبّته عليها ؛ فهي ام الحرية والمحسنة الاولى للشعب . فكل ما في مدنيتنا من حرية حقيقية ومن مساواة سليمة ومن اخوة رصينة انما هو عطية من يسوع المسيح وبثق من الانجيل واشعاع من الكنيسة الكاثوليكية !

اعلموا هذا ، ياسامعي الكرام ؛ ونادوا به عالياً : واذا ما قيل لكم الخلاف ، احتجوا بكل قواكم باسم التاريخ وباسم ما يجري امامكم . فناكرو الجميل ، وحدهم ، لا يعرفون قدر من القى بذور الحرية والمساواة والعدالة والاخاء ؛ اما انتم فباسم ربكم ، يسوع سبحوا ، وبقوة امكم الكنيسة وخصبها ومآتيها وامجادها تغنوا .

(الاذاعة اللبنانية في ١٢ ك ٢ سنة ١٩٤٧)

الحديث الرابع

العمل والعمال

بين الوثنية والمسيحية

العمل واجب فرضه الله على خلائقه. فلم يكد ينفخ في آدم نسمة الحياة حتى جعله في جنة عدن وامره بان يحرسها ويحوثها فكان هذا الامر، تاريخياً، اول امر وجهه الله الى الانسان وبه تقررت شريعة العمل وبه ايضاً اذيعت وكان ذلك قبل ان هبت على الفردوس سموم الخطيئة وافسدت الكبرياء خطة الله وتحول مجرى تاريخ البشرية !

اجل لم يُفرض العمل على الانسان قصاصاً للخطيئة. فلقد كان قبلها واجباً، لكنه واجب لذيذ يرافقه فرح بريء ويكافئه خصب سهل؛ انما التعب، صار، بعد السقطة، عقاباً؛ فثارت الارض بدورها على الخادمين المتجاوزين وصية سيدهما، الثائرين على الرب وراحت العاتية تقاوم عملهما وتنبت لهما شوكاً وحسكاً وأبت ان تعطيهما من خيراتها وتطعمهما الخبز ما لم تتقاضاهما تعباً وعرقاً واحياناً دماً !

اوجب الله العمل على الانسان لانه لم يشأ ان يقيم ملكاً بطالاً على ارض جعلها حانوتاً واسعاً، دائم الحركة، لئلا يكون توانى المليك عثرة لرعاياه الملتهبة حيوية، بل شاء تعالى ان يسد ربّ الكائنات الارضية حاجاته بالكدّ والعمل وينمي موارد مملكته ويتملص رويداً رويداً من عبوديات المادة

ويعلن سيطرة الروح على القوات الطبيعية على قياس اخضاعه المسكونة لسلطانه فيصبح شريك العامل الازلي في عمله !

على ان الوثنية نسيت هذه الشريعة وتجاهلت مشترعها ، فتورعت ، في ادابها ، عن مديح العمل وترفعت ، في صروحها الفخمة وبناياتها الجبارة ، عن نقش اي اشارة تدلنا على اكرام العامل واعتبار العمل ولم تخصص، في ميزانيات دولها الضخمة، غرشاً واحداً لاسعاف الطبقة العاملة؛ لان المدنيات القديمة قد اعتبرت العمل ،حطة وهواناً وتركته للسوقة او للعبيد الادنياء من طبعهم وحسبت ان الرجل الحر لا يليق به ان يمس آلات الصناعة وان مسها تدنس ، واهمة ان البطالة سمة الانسان الشريف والدليل على التفوق الاجتماعي . فراح البطالون يفاخرون بحظهم ويتبادلون التهاني ويعملون بتحديد الحياة وهو الذي وجد منقوشاً على بلاطة بين اطلال «تيمجاد» في ألجه : استحم ، تصيد ، ألهُ ، اضحك ، كُل واشرب : هذه هي حياتك » ! اما العمال والفقراء والعبيد الذين يحملون اثقال المجتمع فكانوا يجهلون ما يسمونه اعتباراً واكراماً وما يعدونه رفقاً وشفقة فكانوا يرضخون حيناً ويثورون آخر ولكن لم يخطر لهم ببال انهم سيسمعون بين اصوات الارض اللامبالية بتعسهم صوتاً يهبط من علُ يبشرهم : ان الهاً مخلصاً وُلد بينكم !

وُلد يسوع المخلص فكان همه الاول ان يرجع للفقير حقوقه وللعمل سابق شرفه . واذا جاز لنا ان نقيس اهمية عمل المخلص بقياس الزمان قلنا : «ان اعادة العمل الى سابق شرفه كان عمل يسوع الاهم فلقد كرس له معظم حياته . ومع كونه ابن الله ، اراد ان يكون بين الناس عاملاً ويحسب ابن نجّار ، وشاء ، وهو رب الكنوز ، ان يكسب خبزه بكده : فخشنت المطرقة يديه وحنت الاثقال ظهره وكتفيه وتصبب العرق من وجنتيه ونُقشت في جسده كل آلامنا واتعابنا !

قضى ابن الله في كاتدرائية الفقر والبؤس ثلاثين سنة يطيع ويعمل ليعطي عالماً اسأمته اللذة وابرمته البطالة امثولة الكفر بالذات وامثولة العمل ويعلن،

على مشهد من السماء ومسمع من الارض، عظمة العمل وقدر العمال وينهضهم من اوحال الذل والهوان وقد مرّغهم فيها الظلم والعدوان. وبعمله هذا وقّع، ثانية، على الامر بالعمل وابى ان يعفي منه احداً ولو كان ابن الله المتجسد!

بذلك جدد الشريعة الالهية، شريعة العمل وعلّم الناس اجمعين ان البطالة رذيلة والكسل عار، وعظّم قدر العامل، وضيعاً كان العمل او رفيعاً، سهلاً او مضنكاً، نظيفاً كان او وسخاً!

فمن حانوت الناصرة اذن تدفقت على عالم العمال الانوار المنعشة. فالعمل الذي كان، قبل المسيح، حطة وهواناً، أضفى المسيح عليه جمالا إلهيا، والعمال الذين كانوا، قبله، محتقرين ومنبوذين لفّهم المسيح بوشاح من الشرف والمجد وجعلهم اخوة له: «فكل ما تعملونه مع احد اخوتي هؤلاء الصغار فبي تعملونه» فان جاع الفقير تضور المسيح، وان عري الفقير برد المسيح، وان تذمر العامل شكا المسيح، وان تسول المحتاج فيد المسيح تمتد، ذل الفقراء يخجل المسيح، واذا ما طردوا يذهب المسيح واذا ما بكوا فدموع المسيح تجري من عيونهم واذا ما أغيثوا فالمسيح يشكر «لان كل ما لم تعملوه مع احد اخوتي هؤلاء الصغار فبي لم تعملوه!»

فهمت الكنيسة فكرة معلمها فوجهت انظارها، بعد العبيد، الى السوقة؛ فعلمتهم ان الانسان يساوي دم إله؛ وان الفقير هو اول من افتدي؛ وان يسوع احب الفقير: فولد وعاش ومات فقيراً وعظم الفقراء. فجعلهم شهوده واقامهم مقامه ونادى بهم ورثته. فاعتنق العمال طوعاً هذه الحقيقة الجديدة ومع انهم كانوا كثرة في العالم لم يثوروا على اربابهم الظالمين؛ لان الكنيسة كانت هناك لتربيهم على الحرية الحقة! عمل شاق قامت به الكنيسة فرافقها النجاح ولم يسبقها اليه احد.

كتب شاسترتون الانكليزي في كلامه عن الانسان – الانسان، غداة الحرب الكونية الاولى: قال «لقد وهم من ادعى: سهل ان يربّى الانسان على الحرية! فانا ارى ان هذا العمل هو اصعب الصعاب؛ فالماديون والملحدون هم حمقى يشوقوني

الى ان اصير كاثوليكياً ، لانهم افصح المحامين عن الانجيل وابلغهم ؛ فلما ارادوا ان يعلموا الولد – الانسان ان يمشي راحوا يقطعون رباطاته ويفكون إلزاماته الادبية والنظرية وتركوه يسير طليقاً ، فكان ان سقط في حفرة الحياة فتهشم وتكسر ؛ ولم يبق لهم الا ان يربطوه الى عجلة ويجروه الى حيث يريدون ولا يريد . فعندي اذن ان الديانة الكاثوليكية وحدها عرفت ان تخلص الحرية البشرية لانها وحدها عرفت ان تؤدب الانسان عليها وتضع الثقل اللازم في ميزان الطبيعة فتعادلت كفتاه وتوازنتا ! »

اجل ، لقد اصاب « شاسترتون » كبد الحقيقة . لقد افهمت الكنيسة العمال الذين وضعهم افلاطون في آخر مرتبة من مراتب البشرية أن يسوع عامل منهم ، وانهم اعضاء جسده السري ، وانهم يستطيعون ان يهبوا اعمالهم ، اية كانت ، روحاً ، وينفحوها بنفحة سماوية فتصير لهم ، لا قصاصاً للتكفير ، بل سلماً يرقون عليها الى السماء ، الى ذلك الشاب – الاله الذي تعب وشفق على المتعبين فدعاهم قائلاً ! « تعالوا اليّ ايها المتعبون والمثقلون بالاحمال وانا اريحكم ؛ » وتجرأت الكنيسة ، يوم كان الاشراف والاقوياء يرهقون العبيد والضعفاء بالاتعاب والمظالم ولم يرفع مفكر صوته محتجاً او مدافعاً ، تجرأت ، قلت ، وقادت الاشراف الاكثر وكلاً بعظمتهم والاقوياء الاكثر افتتاناً بسطوتهم ، قادتهم الى عتبة حانوت الناصرة وأرتهم فيه نجاراً ، شاباً مفتول الساعدين ، منتفخ العروق يرفع قطعاً من الخشب ويعمل فيها رابوخه والعرق يتصبب من جبينه قائلة لهم : « اسجدوا على هذا التراب وقبلوا رجلي هذا العامل واعبدوه ؛ وحباً له احبوا اخوتكم الذين يتعبون : « فانه الحكم جاء ليذكركم بهذا الواجب ، واجب العمل الذي نسيتموه !

على ان سوء الطالع ونكد الحظ عادا يخيمان على الفقير والعامل : ذلك لان البشرية بعد ان سارت اجيالا على ضوء نجمة بيت لحم وانوار حانوت الناصرة ، اغمضت عينيها عن انجيل المحبة فهوت بكل ثقلها الى الوهدة وعادت نظريات الوثنية القديمة واخلاقها الى السيطرة فتجمعت الثروات وتراكمت

بين ايدي عدد قليل من الناس راحوا يستخدمون عمالهم كآلات ؛ غير آبهين لانسانيتهم فتحول العمل اليدوي ، في احوال عديدة ، الى آلة فساد اخرجت المادة الجامدة من بعض المعامل اشرف واسمى ؛ اما الانسان فافسدته وامسى ادنى واحط ، كما قال ، آسفاً ، المثلث الرحمات البابا بيوس الحادي عشر . فهال الكنيسة مـا يجري فهب البابا العظيم ، لاوون الثالث عشر ، وكتب رسالته الشائقة الشهيرة « في الشؤون الاجتماعيـة » وفيها رسم للجنس البشري باسره قواعد امينة ليسترشد بها الى حل المشكلات التي اسموها « المعضلة الاجتماعية » وقد احتفل العالم الكاثوليكي بمرور اربعين سنة على تلك الرسالة القيمة فشرحها وعلق عليها البابا بيوس الحادي عشر برسالة عنوانها : « تجديد النظام الاجتماعي » ولو كان اصحاب الاموال يستوحون تعاليم الرسالتين في معاطياتهم مـع العمال ؛ ولو كان العمال يقرأونها ، فيما يقرأون ، لانتظمت العلاقات بين الطبقتين وانفرجت الازمة التي تتخبط فيها البشرية ولا تعرف لها مخرجاً ، مثل لبوءة وضعت في قفص من حديد ، تدور فيه على ذاتها زائرة ، غضبى تريد التملص ولا تستطيع : انهم اغلقوا بوجهها باب الحقيقة الذي فتحه فقير بيت لحم وعامل الناصرة !

ولا غرو ، ايهـا الاخوة الاعزاء ، فان الانسان ، اذ ينسى الله يغضي عن اخيه الانسان ويستخدم وسائل العقل وغنى الفلسفة ودهاء السياسة لتبرير ما ينزله به من تعنت وظلم وعدوان !

قال سبنسر : « كما ان للغابات حيواناتها المفترسة ونباتاتها القوية لتستأصل الضعيفة ولا تبقي الا على الاحسن ، يقتضي ان يكون للهيئة الاجتماعية ضواريها لتخلصها من الضعفاء ! » وزمجر نيتشه قال : « ان الاحسان الذي يخلص الفقير جريمة لان ديانة الشفقة تسد الطريق بوجه الانسان المتفوق » لقد ادعوا ، في بلاد النازية ، بانهم حماة الامة ؛ ولكنهم حشروا في المعاقل الالوف من رجال الامة لانهم لم يعبدوا الفوهرر ، رمز الامة ومنقذها ؛ وتبجح غيرهم بانهم عون العمال ؛ لكنهم ساقوا الى الغابات او الى منقع الدماء عمالاً أبوا ان يسبحوا باسم زعيم الساعة ! عمالاً بلغت بهم القحة الى ان يجدوا الخبز غالياً والعمل

مرهقاً وقيمة النقود لا قرار لها. فاعمال الساسة كذبت ما به يفاخرون!

قال «رنان» في مقدمة كتابه «مستقبل العلم»: «سيأتي يوم يمسي العلم فيه قوة مخيفة تفرض على القطيع البشري الحقيقة والخبز خوفاً من الجحيم لا من جحيم الخيال والخرافات... جحيم الديانات؛ بل من الجحيم الحقيقي» ذلك ما رآه السيد «موتا» اذ قال، في خطاب القاه في عصبة الامم محاماة عن حقوق العمال: «ان على ابوابنا شعباً من مئة وسبعين مليونا تفرض عليهم السياسة اللاإلهية الدخول في هذا الجحيم الحقيقي؛ وان مانع احدهم، تسحب منه اجازة العمل وبطاقة الاعاشة! على حدودنا بلاد فيها خمسة ملايين منفي سياسي يساقون الى الاشغال والسوط يلهب ظهورهم ويحسدون لعازار الانجيل على حظه! على حدودنا بلاد يطلق اربابها الرصاص على العامل ان جنح قطاره عن خطه؛ على السائق ان انقلبت سيارته برجل سياسي! على حدودنا بلاد قتل حكامها ثلاثمائة عامل لان واحداً منهم ذبح وزيراً؛ واعتبروا مسؤولاً عن هرب مجرمٍ اهله واصدقاءه وانزلوا بهم وبمن يمكن ان يكون شريكاً له في جريمة هربه قصاصات هائلة؛ مع ان المساكين لم يتوانوا عن تقديم الحجج والبراهين التي جعلتهم امام الرأي العام ابرياء! تلك البلاد ليست من اللواتي تئن تحت نير الخدمة العسكرية ولا تخضع لنفوذ البرجوازية واستبداد الرأسمالية؛ بل هي امة تنعي الروح العسكرية على سائر الامم وتنادي بحرّية العمال وبضرورة انصافهم!

ان شر عصرنا، يا سادة، وشر عصور الوثنية متآخيان متشابهان: هو فقر القلوب؛ وفقر القلوب اصعب الامراض شفاء واخطرها حالةً. فالديانة الكاثوليكية وحدها تحملُ الدواء الشافي لهذا الداء العضال، وحدها تدرّب الحرية وتربّي الضمائر على مبادىء الانجيل، وحدها يتغلغل عملها الى اعمق اعماق النفوس فيقلع منها محبة الذات البغيضة ويُغنيها بروحٍ جديدة، روح الذي قال: «مسحني ابي وارسلني لابشر المساكين واشفي منكسري القلوب، وانادي للمأسورين بالتخلية وللعميان بالبصر واطلق المهشمين الى الخلاص!»

الاذاعة اللبنانية في ١٩ ك ٢ ١٩٤٧

الحديث الخامس

السلطة

بين الوثنية والمسيحية

اجتمع شيوخ اسرائيـل وطلبوا من صموئيل ان يقيم لهم ملكاً فقال لهم : « هذه سنة الملك الذي يملك عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه ، لعجلته وفرسانه فيركضون امـام عجلته ويتخذ لنفسه رؤساء الف ورؤساء خمسين وأكرة لحرثه وحصاده وصناعاً لآلات حربه وادوات عجلاته ويتخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات وحقولكم وكرومكم وأفضل زيتونكم يأخذها ويعطيها لعبيده ويأخذ عشوراً من زرعكم وكرومكم ويعطيها لخصيانه وعبيده ويأخذ عبيدكم وإماءكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم في شغله ويعشر ماشيتكم وانتم تكونون له عبيداً » !

تلك صورة مصغرة لما كان يفعله المسلطون برعاياهم . كان العـالم قبل المسيح فئتين: عبيداً واسياداً ، وكان معنى «مَلَك» السيطرة على الاجساد والارواح يستبيح المسلط لنفسه ما شاء فليس لارادته حد ولا قياس الا نفعه وهواه . والسلطة التي وجدت لتحكم كرة الارض بالنظام والعدل والمحبة قد امعنت في البلبلة والظلم والبغض وتمادت في ازدراء الانسان؛ قد نسيت ما قدسته الحقوق الطبيعية وعبثت بما سنته الشرائع الالهية . فلم يكتف نبوكدنصر بان

يسجد افراد رعيته لتمثاله ، بل اراد ان تبطل كل عبادة الا عبادته ؛ وغالى الفراعنة في اذلال الشخصية البشرية فأشغلوا الناس تحت ضرب المقارع وصار القيصر ، في رومة ، إلهاً ينتقي كهنته من الاشراف فيمدحونه ويسبغون عليه مثل هذه الالقاب : « ألوهيتك » ، و « أزليتك » ! وكان لهـذا التأليه نتائج عملية : لقد أصبح القيصر رب الحياة والموت يسن الشرائع ويلغيها متى شاء ويلزم بها ويعفي منها على هواه .

واتصلت عدوى الاستبداد بملوك اسرائيل فاعتنقوا خطة ملوك الارض . لقد طغى شاوول مليكهم الاول وتجبر وقاوم اوامر الله لمنفعته فرذله الله ؛ ولم يكد صموئيل يسكب قرن الزيت على رأس داود ولم يكد الارجوان يُلقى على اكتاف راعي الغنم حتى استيقظت في داخله نفس الحاكم المستبد ولم يتعظ من نقمة الله على شاوول ، سلفه ؛ بل راح يحيك الدسائس لاوريا خادمه الامين حتى اوقع بـه في ساحة الشرف واقتنص بتشباع امرأته ؛ فضربه الله ضربات أليمة تأديباً له فأمات طفله من بتشباع واثار عليه ابنه أبشالوم وسلط عليه افراداً من شعبه فأهانوه ورجموه . امثولة قاسية تناساها سليمان مع ان الله آتاه حكمة عز ان ينالها بشر . فأوصى الملوك بالاتضاع وتكبر ، وحثهم على العدل وظلم ، وحرّضهم على خوف الله والاوثانَ عبد ! سليمان الذي فاقت حكمته حكمة جميع اهل الشرق وكل حكمة مصر قد ثقّل كاهل شعبه بالضرائب وانهكه بالاشغال فتنفس اسرائيل يومَ مات واجتمع شيوخهم الى وريثه رحبعام وقالوا له : « ان اباك ثقـل نيرنا ؛ وانت فخفف الآن من عبودية ابيك الشاقة ونيره الثقيل الذي وضعه علينا فنخدمك » . فأجابهم : « ان ابي ثقل نيركم وانا ازيد على نيركم ؛ ابي ادبكم بالسياط وانا أؤدبكم بالعقارب » . وعلى منواله نسج اولاده واحفاده .

اولئك ملوك شعب الله فما يكون من امر الملوك الوثنيين ، انصاف الآلهة الذين حكموا في ممفيس وفي بابل وفي رومة . ان ذرية الذئاب تلك ، تبدو كأنها بشرية ، اذا ما قوبلت اعمالها بأعمال هؤلاء !

على ان الذي يدهشنا ونقف منه موقف الحيرة ليس طغيان الملوك فحسب بل خنوع الرعايا وجبانتهم ! حقًا ان العبودية ، ان طال وقتها ، تسفل الانسان حتى الى حبها وتقبيل اغلالها !

ثار سبارتاكيس زعيم العبيد وقاوم الجيوش الرومانية ، مدة سنتين . فلما كبح الاسيادُ جماح العبيد ، صلبوا منهم ستة الاف رجل فسكت الباقون وسكنوا وكان عددهم يتجاوز المليون . ودرجت رومة على عادةٍ ان تقتل عبيد العيلة جميعهم قصاصاً لجريمة واحد منهم فطأطأ المليون رؤوسهم امام حفنة من الاسياد ؛ والمصارعون الذين كانوا ، في رومة ، جيشاً عرمرماً يسقط منه ، كل سنة نحوٌ من ثلاثين الفاً في الالعاب لم يفكروا الا في قتل بعضهم بعضاً ارضاءً للقيصر ؛ فيصرعون وهم يحييونه برؤوس سيوفهم قائلين : « سلام ، ايها القيصر ، ان الذين يذهبون الى الموت يحييونك » ! وجاء في التاريخ ان عشرين الفاً من الشعب ذبحوا في ملعبٍ فراح سائر الحاضرين يصفقون ؛ وبان مرة لكاليجيلا عدد المصارعين قليلًا فارتأى ان يرمي في الميدان الذين جاؤوا ليفرجوا همومهم بمشاهدة الالعاب ففعل واطاعوه واذا بالمئات من الشعب ينازلون الوحوش الضارية فتدميهم وتنهش لحومهم فيسقطون صرعى يتخبطون بدمائهم ؛ ورومة تنظر الى هذه القساوة البربرية نظرها الى امرٍ عادي لا يثير حفيظتها ظلم مليكها ولا تغضب ولا تحتج !

اما النبلاء والادباء والمفكرون فلم يكونوا اقل جرياً في مضمار العبودية من عامة الشعب ! يأمر القيصر النبلاء بان يجعلوه وريثاً فينفذون امره صاغرين ويمسكون عن الولادة لئلا يكون لهم بنون يقاسمونه الاموال والارزاق ويظهرون بمظهر الخدم والمزاحم لجلالة ازليته ! يأمرهم بالموت ليبتزّ اموالهم فيقطعون عروقهم خانعين حتى قال « سياتون » : « من الغريب النادر ان نرى نبيلًا يبلغ سن الشيخوخة ! »

نكّل اغسطس بشيشرون وبثلاثمائة من مجلس الاعيان وبالفين فارس فحنوا الرؤوس راضخين . وخلق طيباريوس طبقة من الشرفاء جديدة ثم خطر

له ان يمحوها من الوجود فلم يعارضه احد! ومن عشرين مستشاراً عينهم هذا الطاغية نجا اثنـان من العذاب والموت . وزاد ان خصص في قصره الذي شاده في « كَبْرِه » غرفة للتعذيب يُدخل اليها من شاء - وقد حكم عليه بالموت - من الاعيان والنبلاء ويجلس فيشاهد الامهم المبرّحة وعـذاباتهم المريعة دفعاً لضجره وقتلاً لاحزانه ، فيحني مجلس الاعيان رأسه اجلالا لحكمة مليكه ويعبده كاله ! ولقد بلغ بهم الخنوع الى ان يقيموا مأتماً مهيباً لغراب ربّاه اسكاف وعلّمه ان يحيي طيباريوس - الاله. وحملتهم الزلفى على ان يشيدوا له على طريق أبيان مقبرةً تحاكي بفخامتها مقابر الامراء !

لقد سفّ الشعب الروماني اسفافاً دفع بجاليجلا الى ان يقول اسفاً :« انه لم يعد يرى رأساً مرفوعاً في شعبه ليقطعه بضربة سيف » ! وعـافت نفسه الملوكية رؤية عظماء مملكته يتنافسون ويتبارون باحراق البخور امام تمثاله الذهبي فنصب حصانه « انسيتاتيوس » كاهناً له فانحنى النبلاء خضوعاً وصفقوا طرباً وتهليلاً .

عشق نيرون « بوبه » امرأة « أتون » فنفاه واغتصبها ثم عنّ له فقضى عليها برفسة احكمها في بطنها فبقرها ثم نادى بهـا إلهةً فتسابق الاعيان والفرسان يحرقون عـلى اقدام الالهة الجديدة اكواماً من البخور . وخطر له ان يحرق رومة ففعل وجلس على قمة يشاهد ألسنة النار تندلع من بيت الى بيت ومن حي الى حي ثم اوحى اليه ظلمه ان يقرف المسيحيين بهذه الجريمة النكراء ويلصقها بهم فراح الشعراء والفلاسفة واعيان الامة يرددون : ليت المسيحيون ولتفترسهم الوحوش! وسوّلت اليه نفسه الخسيسة ان يغتال امه ومعلمه سينكا واخاه بريتنكيس فغدر بهم فاجتمع الاعيان وقدموا الذبائح شاكرين للسماء هذه النعمة !

وكان ، في فلسطين ، على عهد اغسطس ، ملك اسمه هيرودوس جاء من برية ادوم على رأس الجيوش الرومانية واغتصب عرش اليهوديـة متبعاً سياسة « قسّم تسد » وفتك بنسل المكابيين وافناهم وحمله استبداده على قتل ذويه فذبح مريام امرأته واباها وامها واخاها ثم خنق ولديه ونال قبل موته بخمسة

أيام اذناً بقتل ابنه الثالث انتيبطرس ولم ينج الشعب من شراسته، فقطع به ما طاب له ان يقطع . وعندما أحسّ قاتل الاطفال بالموت يدنو منه ، وهو جثة حية يتآكلها الفساد ، حاول القضاء على حياته تخلصاً من آلام مبرّحة كان يقاسيها ؛ ثم عاد فأحب الحياة وساق الى النار يهوذا وماتياس وخمسين من اتباعهما، وذنبهم انهم اهانوا السلطة المنتدبة ، الممثلة العظمة الرومانية في اورشليم! ولما كان عارفاً بان الشعب يمقته وبانه سوف يفرح معيداً يوم مماته ، فكر الظالم في ان يُبكيه يوم يموت ويدفن فسجن في مسرح اريحا خمسة آلاف مواطن واصدر امره بذبحهم ساعة يلفظ آخر انفاسه!!

تلك كانت حال البشرية مع ملوكها واسيادها يوم ظهر متجسداً ذلك الاله الذي اتخذ شعاراً له : جئت لاخدم لا لأخدَم!

اجل هذه هي الحكمة التي اتبعها الكلمة المتجسد ؛ لانه اراد ان يشفي المسلطين من ضلالهم وجنونهم ؛ والشعوب من خنوعها وعبوديتها فعلّم ان للانسان قيمة رفيعة ، ينبغي ان تحترم لان فيه نفساً مخلوقة على صورة الله ومعدّة لوراثة الملكوت منادياً بالاخوة البشرية قائلاً « : لا تدعوا لكم على الارض أبا ، فان اباكم واحد وهو الذي في السماوات » فاثبت بكلامه ان القيصر هو اخ للعبد بالطبيعة ؛ وان القيصر والعبد يخضعان معاً لسلطة سميا؛ وان لكليهما حاكماً واحداً : هو خالق الكائنات كلها!

قال اريسطو ، امير الفلاسفة : سلطة السيد على العبد ، غايتها خير السيد ومنفعته ، فانكر المسيح على الفلسفة تعليمها وقال : « لقد علمتم ان اراكنة العالم يسودونهم وعظماءهم يتسلطون عليهم ؛ واما انتم فلا يكون فيكم هكذا : فمن اراد ان يكون فيكم كبيراً فليكن لكم خادماً ! » فعادت السلطة في شرع المسيح ، الى اصلها : لقد صارت خدمة يقوم بها المسلط ، لا نعمة يرفه فيها ، وصارت حملاً ، لا على الرعية ، بل على الراعي لان الراعي الصالح يبذل نفسه عن اغنامه! يعيش ليخدمها ويموت دفاعاً عنها .

ولكي يشفي المسلطين من وثنيتهم نادى بفصل الروحي عن الزمني :

فقال محدداً شريعة سياسته الجديدة: « اعطوا القيصر ما هو للقيصر، والله ما هو لله ! » وبهذا وضع حجر الزاوية في صرح الحضارة المسيحية ؛ على ان القيصر قابل هذا التعليم بثلاثة اجيال اضطهاد سقطت في اثنائها ضحايا كثيرة سجلت لنا بدمها حرية معتقدنا ، فقام صرح المسيحية على جماجم الشهداء . وبدمائهم جُبل طينه ! وحجة القيصر باضطهاده : ان الكنيسة مزقت وشاحه الملوكي وسلبت قطعة منه . فلقد كان الى ذلك الحين مساطاً على الارواح والاجساد ؛ لقد كان امبراطوراً وبابا ، ملكاً والهاً وكانت الديانة انجع وسائله السياسية . فكان جواب الكنيسة على احتجاجه قيام الفاتيكان تجاه الكبيتول !

قام الفاتيكان تجاه الكبيتول لا ضده يعلم بفصل السلطتين وباولوية الحق الطبيعي على الحق المدني ووجوب تفضيل الحق الالهي على ارادة المسلط ، وفي الوقت ذاته ، يفرض على المؤمنين ان يطيعوا ، في كل ما هو عادل ، اربابهم الجسديين ، لان من أطاع المسلط شرعاً فقد اطاع الله ! وبهذا علمت الكنيسة الناس ان العصيان على شرائع الظلم من حقوقهم ، بل واجب من واجباتهم الاولية !

اقتضى لانتصار هذه السياسة ثلاثة اجيال ، لا اجيال ثورات بل اجيال اضطهادات ، وكان على الكنيسة ان تغالب لا طمع السيادة عند القيصر فقط ؛ بل ما عند الرعايا من شهوة العبدية ، وظلت تحارب العقليتين معاً حتى اقصت من الهياكل ، في الجيل الرابع ، اولئك المدعين الالوهية ومنعت الناس عن ان يكونوا لهم عبيداً وعن ان يقدموا لهم الاكرام الذي لا يليق تقديمه الا للاله الحق ! واتحفت الاجيال بملوك عديدين ساسوا شعوبهم بروح الانجيل ، متخذين شعاراً لهم شعار يسوع ربهم : « جئت لأخدم » فاظهروا للملأ ما تجدي سياسة الانجيل من السعادة للشعوب وما تنشره من السلام على الممالك وكان في طليعة هؤلاء الملوك المسيحيين الذين عرفوا ان الملك معناه الخدمة ، لويس التاسع ، القائل لولي عهده : « انني اصلي ، يا بني ، لتتمكن من ان تجعل شعبك يحبك لانه من الاعذب على قلبي ان يأتي رجل من الايكوس ويحكم شعوب مملكتي بالمحبة والعدل من ان تحكمها انت بالقساوة والظلم .

لقد حبب لويس التاسع نفسه الى شعبه بتوزيعه العدل على الجميع بالسواء، مراعياً جانب الضعيف ولم يأنف من ان يجتمع بالفقراء تحت سنديانة « فانسان » ليسمع شكاويهم – لقد حبب نفسه الى شعبه بانشائه النقابات للعمال واصحاب المهن الوضيعة ومساواته اياهم بأشراف المملكة – حبب نفسه الى شعبه بتجنبه النفقات الطائلة وعدوله عن فرض الضرائب الباهظة ؛ فلم يأت عملاً غايته المجد والفخفخة ، بل عني باكثار المداخيل وانشاء الاسواق العامة حتى جعل من فرنسة سوقاً لاوربة – حبب نفسه الى شعبه بتوفير العمل للفنانين والعمال فشيد في طول البلاد وعرضها الكاتدرائيات الجميلة الزاهية بعجائب الفن وهي لا تزال ، حتى يومنا ، شواهد ناطقة بآيات الهندسة والعظمة وموضوعاً لاعجاب الاجيال بخالق فكرتها !

شاء لويس التاسع ان يخدم فملك : فعاش مطاعاً ومحبوباً ومات مأسوفاً عليه ومبكياً !

اولئك هم الملوك قبل المسيح وتلك سياستهم ، وهؤلاء هم ، من بعده ، وهذه سياستهم . فقابلوا ما بينهم ، يا أولي الالباب ، واحكموا !

الاذاعة اللبنانية في ٢٦ ك ٢ سنة ١٩٤٧

ليس الالم شراً ، بل هو مؤدب عظيم . فالمرض ان سمرك في الفراش والوحشة والصمت ان مدا رواقها فوقك وجميع محن الحياة ان هي الا نعماً من لدن ربك ! لانه لو كان الالم شراً لما كان الله الاب قد انزله بابنه وبام ابنه ، مريم العذراء ! فماذا تخاف ؟ فان عشنا فاننا نعمل ارادة الله ، وان متنا فاننا نراه !

انما الانسان بالالام يولد ! وفي الحياة آلام اشد هولاً من آلام حرب السيف ، هناك حروب ساحاتها النفوس ! المجد البشري كزهر الحقل يذبل ، وفي تصفيق الناس لك الشيء الكثير من المهزلة ، فليس الجوهري ان تظهر للناس بل ان تكون انساناً ، لانه بامكانك ان تجد غناك في فقرك ! أوَ لم يغننا المسيح بفقره ؟ اذكر هذا ولا تنسه .

الحديث السادس

الخلاف الدائم

بين القيصر والبابا

او

بين الوثنية والمسيحية

قلنا ، في حديثنا السابق ، ان الكنيسة عملاً بمبدأ مؤسسها : « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » نادت بضرورة الفصل بين الروحي والزمني وعلمت باولوية الحق الطبيعي والحق الالهي على الحق المدني وارادة المسلط ؛ والمعنا الى ان القيصر ، الذي كان ، الى ذلك الحين ، مسلطاً على الاجساد والارواح وملكاً والهاً معاً احتج على هذه السياسة وناصب الكنيسة العداء بغية القضاء عليها ، فظل ثلاثة اجيال يحاربها بثلاثة اسلحة قتالة : بالمثالب والتشريع والتقتيل . فاتفق العبيد والسوقة والاغنياء والفلاسفة والادباء ورموا الكنيسة باشنع التهم واقبح الافتراآت . فاسمى « سياتون » و« تسيت » المسيحيين خلائق مضرة واعداء الجنس البشري وملحدين متنكرين ؛ ورشقهم « سلس » و« بورفير » بسهام كتاباتها السامة ، الشريرة ، الطافحة بالخبث ؛ وراح الشعب يردد اقوال قادة الفكر فيه ويجسمها ، ناسباً كل بلاء يحل بالوطن الى المسيحيين : فان

غلب القياصرة في الحروب او تأخر فيضان النيل او غلا ثمن الخبز او حدثت زلزلة او صعق هيكل فانهار او تهدم مسرح او اصابت البلاد حطمة قالوا : ان المسيحيين هم علة هذا الشر او ذاك : وصرخوا ارموهم للوحوش ! واقطعوا دابرهم !

وعداء القياصرة للكنيسة حملهم على ان يخلقوا ، لاجلها ، تشريعاً كان دائماً ، في نتائجه ، وبلا على ابنائها ؛ فهاجمهم نيرون كذئب يهاجم فريسته وكانت شرائعه ترمي الى افنائهم ؛ وعدهم تراجانوس خونة يتآمرون على سلامة الدولة فحرم عليهم الاجتماع حتى للصلاة واقامة الذبيحة وقراءة الكتب المقدسة؛ وقضى فالريانوس على الفرسان والشيوخ المهتدين بقطع الرأس ؛ وعلى السيدات النبيلات بالنفي ، وعلى المحررين من عبيد بلاطه بالاشغال الشاقة في المناجم ؛ واقصى ديوكلسيانوس المسيحيين عن وظائف الدولة وسرحهم من الجندية !

ولو اكتفى القياصرة بالافتراآت يقذفون بها الكنيسة وبالشرائع يكبلونها بها ، لهان الامر نوعاً ؛ ولكنهم قطعوا رقاب المؤمنين بسيوفهم وخلعوا اجسادهم بمراكبهم الحديدية ورموا الكثيرين منهم طعاماً للنار وحكموا المقارع في اجسامهم فخددتها ونثرتها قطعاً واطلقوا الاسود والدببة والانمار عليهم فنهشتهم وسحقت عظامهم على أعين الشاهدين في المسارح والملاعب . وامتد الاضطهاد فشمل انحاء الامبراطورية ولم يوقر احداً : لا النساء ولا العذارى ، لا الاولاد ولا الشيوخ ، لا الاساقفة ولا الجنود ولا القواد ، لا القضاة ولا موظفي الادارة . فكانت ، كما قال رنان ، « روائح الدم تفوح من كل مكان » وبعد عراك دام ثلاثة اجيال خيل للقيصر انه انتصر على الديانة الجديدة واستأصل شأفتها فضرب ديوكلسيانوس ايقونات ذكراً لهذا النصر ورفع مسلة سنة ٢٩٠ نقش عليها هذه الكلمات : « بعد ان محي الاسم المسيحي في كل مكان »

على انه بالرغم من المثالب والتشريع والتقتيل ، بالرغم من المغالطين والمشترعين والجلادين ، بالرغم من الفلاسفة والكهان والامبراطرة ، بالرغم من السيف والنار والوحوش بقيت الكنيسة وما زالت تنمو وتكثر وتنتشر ؛ ذلك

لانّ فيها روحاً لا تقوى عليه المادة ولا القوة ولا القيصر .

فللقيصر ان يثلب ويشترع ويكبل بالسلاسل؛ له ان يسجن الاجساد ويقطع الالسن ويفقأ الاعين ، له ان يعذب ويقتل ؛ وقد فعل ما حلا له وطاب ؛ ولكنه كان « كناطحٍ صخرةً » فجنى على نفسه لا على الصخرة . فالصخرة البطرسية لم تُسحق والروح فيها لم يُخنق .

لقد طلب نيرون المبارزة فبدأت ملحمة الروح اجابةً لطلب هذا الوحش المتوج . لقد ادعى ، كاذباً ، ان بطرس ينادي بالثورة ويقلق الامن العام ويبلبل سلام الامبراطورية ؛ فالصفا كانَ براء من هذا الوزر . فكيف يكون مبلبلاً وثائراً وهو الذي يعلم قائلاً : « اخضعوا لكل ترتيب ولكل تشريع ولكل خليقة من اجل الرب . اكرموا الجميع ، أحبّوا المؤاخاة ، اكرموا الملك . . اخضعوا لساداتكم بكل مخافة لا للصالحين منهم والحلماء فقط بل للعنفاء ايضاً » ؟ فهل من ملكٍ رسم سياسة أحكم من هذ واختط له نهجاً ادعى لسعادة شعبه منها ؟ ولكن ما حيلتنا والقيصر يتقاضا الرعايا كل ما لها : اجسادها وضمائرها وأرواحها ويريد منها ان تخدمه وتعبده ؛ والصفا يرفض ان يعبد رومة وقيصرها ويأبى الا ان يضع حداً لحقوق القيصر ويعين له واجبات . حنق القيصر وهيج الشعب عليه ؛ فهاج وصابه مع ان بطرس من الشعب خرج والى الشعب احسن والسوقة هدى والعبيد حرر .

ثلاثة اجيال قضاها القيصر يسلب ويسجن ويعذّب ويميت ويغذي وحوشه الداجنة من لحوم المسيحيين حتى قُدر عدد ضحايا ظلمه باحد عشر مليوناً ! وفي وسط هذه الشدة الفاجرة ، ما فتئ القيصر ينزل ويصغر وبطرس يصعد ويعظم حتى جاء يوم استفاق فيه القيصر واذا به ساجد امام الصليب ! واذا بقسطنطين الكبير يذعن لارادة بطرس ، فيميز بين الروحي والزمني ويطبق ببراءة ميلان سنة ٣١٣ البند الاول من سياسة الكنيسة وهو الفصل بين السلطتين : الروحية والزمنية ويتخلى عن الاولى لبطرس !

واذا بالأسقف امبروسيوس واقف على باب كاتدرائية ميلان يمنع

تاوادوروس الكبير عن الدخول اليها لانه اصدر امراً بقتل بعض من اهل تسالونيك بدون ما محاكمة قائلاً لجلالته : « ان افراد الرعية التي تحكم هم اخوة لك بالطبيعة وخاضعون لسلطة عليا انت خاضع لها ايضاً ! » ومنعه من مشاركة المؤمنين بالصلاة او يمهل المحكوم عليهم ، ثلاثين يوماً ، ليتمكنوا من تقديم الدفاع عن انفسهم ؛ وبهذه المهلة خلّص الاسقف الجريء المشترع من شطط الحاكم المستبد وأثبت البند الثاني من سياسة الكنيسة : وهو اولوية الحق الطبيعي على الحق المدني وتفضيل ارادة الله على ارادة المسلط !

حدث هذا في الجيل الرابع ، يوم كانت الهياكل لا تزال قائمة ، في كل مكان ، لاكرام الملوك وعبادتهم ؛ يومَ لم يفكر احد ، غير الكنيسة ، في ان يقصي عن تلك الهياكل اولئك المدعين الالوهية ويمنع الناس عن ان يكونوا عبيداً لاولئك السفّاحين المتوجين !

على ان الندم عاود القياصرة على تركهم السلطة الروحية تفلت من ايديهم فيحرمون السيطرة على الضمائر والارواح ، فعمدوا الى طرق غير التي سلكها السلف ، في حرب الكنيسة ، فراحوا ينصبون بابوات لا يليقون بمراكزهم ليكونوا لجلالاتهم خداماً ؛ ويقيمون بازاء الشرعيين منهم بابوات دخلاء ينفذون اوامرهم ويخدمون مطامعهم . فرأينا كارلوس الخامس ، الامبراطور الكاثوليكي التقي الذي كان يتلو فرض الكهنة ويجلد جسده ويعمل كل ما بوسعه ليكون ذراع الكنيسة الزمني يجدّ ليجعل من البابا منفذاً لارادته . ولما طالب البابا بحريته واستقلاله في شؤونه سيّر اليه ذلك الامبراطور جيشاً من الالمان فاجتاحوا رومة وبقروا بطون الكرادلة وحرقوا الكنائس ورموا القربان الاقدس للخنازير !

وفي الجيل الرابع عشر بدأ نشاط جديد للعودة الى القيصر – البابا ، الى قيصر يجمع في شخصه السلطتين : الروحية والزمنية ؛ وكانت كلمة السر : « اغلقوا ابواب الكنائس على الانجيل والكهنة » فترجمها الفقيه (جانتيليس) : « ان اصمتوا ، ايها اللاهوتيون ، عن الامور التي لا تعنيكم : عن امور

الدولة واعمال الحكومة : ان أربابها هم الحكَم الاعلى والمرجع للخير والشر والعدل والظلم وهم اصحاب الحل والربط ! وقام ملك فرنسة، فيليب، الملقب بالجميل يطبق هذا المبدأ الفاحش في سياسته : فيعلن الحرب بدون ما سبب غير توسيع مملكته ويعذب الهيكليين ويحرقهم احياء ويختلس اموالهم ويستبيح ممتلكات الكنيسة ويفرض الضرائب الجائرة ويذيب العملة ويفسدها ويصكها مزيفة ويطلق امرأته ويأمر البابا بأن لا يتدخل بهاتيك الشؤون ويوجب عليه ان يسكت عن تلك الموبقات ؛ لكن بطرس وكان اسمه، يومذاك، بونيفاسيوس الثامن أبى ان يحني رأسه ويلوي ركبتيه امام الطاغية فكان جواب فيليب ان ارسل الى « اناجني » « سياررا كولونا » و « غليوم دي نوغاره » فشتما الشيخ المهيب، ابن التسعين وصفعاه وجراه من شعره وعرضاه لهزء الشعب المستأجر وسخريته. وقد تمادى الملك بالوقاحة فطرد بطرس من رومة وقاده الى أفينيون ليعيش تحت المراقبة الملكية ظاناً ان البابا في سجنه يخضع لاوامره الملوكية الفاجرة فخاب ظنه وطاش سهمه !

وفي زمان الاصلاح المزعوم كُتب بند في معاهدة « اوستفاليا » : « الناس على دين ملوكهم » وبه وُضع الانجيل تحت مراقبة القيصر وانطلق لوثاريوس يعلم الاسياد ان يستخدموا العصي لاجبار القرويين على اعتناق هذا المبدأ البغيض

اما هنري الثامن الدموي، ملك انكلترا، اما المنتخبون الالمان وقياصرة روسية فقد عمدوا الى طريقة اسهل فحذفوا بطرس من دولهم وتنكروا له ليجمعوا، من جديد، بين ايديهم، سلطة القيصر وسلطة الله. وما لبثت الثورة الفرنسية ان حذت حذوهم فاجتمع ممثلو الشعب، وبجدارة هي اولى بالحمقى منها بالعاقلين سنوا شرائع نقضوا بها كل ما هو كاثوليكي وخلقوا ديانة جديدة والهة جديدة اسموها الهة العقل وعبدوها وارسلوا بيوس السادس، وهو شيخ في العقد الثامن، ليموت موت الذل في فالانس».

وجاء جان جاك روسو يوجب علينا التخلي عن كل حقوقنا للدولة : لهذا القيصر الجديد الذي اطلقوا عليه اسماً جذاباً : « الديموقراطية » اعني تفوق العدد وأزم الافراد

بان يذيبوا اراداتهم في الارادة العامة ، اذا قضى نفع الدولة بذلك ، ولو شاءت هذه الدولة ان تفرض ديانة علمانية بحتة ؛ وعدّ كل مقاومة لها خيانة عظمى تستحق الموت عقاباً !

ولم يتورّع الجندي الكورسكي ، الصغير بالامس عن ان يصدر اوامره الامبراطورية لبطرس المسمى ، يوم ذاك ، بيوس السابع لا ليحارب الى جانبه ويشاركه في الحصار البري الذي اعلنه على انكلترا فحسب ؛ بل ليوافق على الطلاق الذي اراده وقرره ويترك جلالته تسمية الاساقفة وتعيينهم ! ولمّا اعرض بيوس السابع عن هذه المطاليب الجائرة وتشبث بحقه وأفهم الامبراطور ان يميز بين حقوق الله وبين حقوق القيصر امسكه نابليون كمجرم وسجنه في سافون ثم في فونتانبلو حاسباً انه يلين ويخنع ، فخاب ظنه !

ولِمَ الاطالة ؟ ففي عهود الكذب السياسي جميعها عامل واحد ، باعث واحد حمل الساسة على هذه التدابير القاسية والمظالم الفاجرة ، وقد عبّر عنه سجين جزيرة القديسة هيلانه نفسه قال : « كل فصل بين السلطتين الروحية والزمنية هو تصنع . فمن الضروري حصر كلتيهما في يد واحدة » ! تلك هي لهجة ديوكلسيانوس الامبراطور الوثني . فلا يهنأ للقيصر عيش ولا يغمض له جفن قبل ان يقضي على كل سلطة تستبد عن سلطته ! هذه كانت ولا تزال ارادة المساطين جميعاً . فكومب ، وجوراس ، وهتلر ، وكالس ، ولينين ، فكروا كما فكر الامبراطرة الرومانيون ؛ على ان هناك فرقاً واحداً : ان القياصرة اعتبروا انفسهم آلهة ! ومحاماة عن الوهيتهم ارسلوا الدفا الى السجن فالعذاب فالصليب ؛ اما اولئك فقد الهوا الدولة ، دولتهم ، وللدفاع عن هذه الالهة سنوا شرائع ترهق بطرس والكنيسة ، ولكن ! انهم لم يتسلحوا الا بحق القوة ولم يستوحوا الا « انانيتهم » دفنهم بطرس ! لانه تسلح بقوة الحق واسس مملكته على الكفر بالذات فترس به وجعله شريعة لخلفائه فحرر هؤلاء الانفسَ والشعوبَ وما فتأوا يذكّرون الشعوب المحررة بحقوق الولاة وينذرون الاسياد لكي يحكموا بالعدل والسلام والمساواة او يتنزلوا عن العروش ومنصة الاحكام ، ولم يخافوا ، في قول الحق ، الاستبدادَ المظفر ؛ بل نادوا باحترام

الضعفاء وضبطوا غضب الاقوياء وتطرف الاغنياء وشذوذ المقتدرين! وها هي مملكتهم، منذ الفي سنة، بالرغم من العثرات الداخلية الفتاكة، والعوامل الهدامة، والتراخي الذي اعتورها؛ بالرغم من البابوات الذين ما كانوا خليقين بمنصبهم: سواء أكان من حيث الاخلاق ام من حيث الادارة؛ بالرغم من تدخل السلطات المدنية في تعيين بعضهم، بالرغم من الارطقات والانشقاقات؛ بالرغم من هذا وغير هذا، ما برح بطرس، وارث المواعيد ينعش المملكة بمثل اعلى يناقض المبادئ التي غيبت بابل ونينوى وممفيس وقرطجنة وروما القياصرة. لقد هزئت امبراطورية بطرس بعوادي الزمان وتقلب الحدثان ومعاندات الانسان لانها تأسست على الروح ولانها تحمل قوتها فيها!

قال برودون الكاتب الاجتماعي: «كان على البابوية، بموجب شرائع التاريخ، ان تموت مئة مرة وتتلاشى». اما نحن فنعلم لماذا لم تمُت وتضمحل! فبقاؤها لا يعزى الى نبوغ البابوات وقداستهم: «إنّ بعضهم حُرِمَ النبوغ والبعض الاخر لم يتعرف الى القداسة»، لكنّا نعزو ذلك البقاء الى وعد المسيح – الاله لبطرس وخلفائه: «ها انا معكم الى منتهى الدهر»!

في السنة الواحدة بعد التسعماية والالف كان ارباب الحل والربط في الجمهورية الفرنسية الثالثة يتجادلون في قضية الرهبانيات والمؤسسات الدينية فأعلن فيفياني، زعيم الاشتراكيين، ان هذه الحملة على الاكليريكية سوف يعقبها حملة اخرى تكون القاضية على الكنيسة، فلا تمضي اثنتا عشرة سنة حتى تلفظ الكنيسة انفاسها. ثم أضاف: «من المهم ان نعرف لمن سيكون النصر! أللجماعة القائمة على ارادة الانسان ام المعتمدة على ارادة الله»؟ وفي سنة ١٩١٤ بعد اثنتي عشرة سنة كان فيفياني يحكم فرنسة وكانت ارادة الانسان قد اكثرت فيها الخراب والدمار. فمن الحرب الاهلية الى الحرب الكونية الى حريق كاتدرائية ريمس... لقد عمّ الخراب فرنسة ولم يبق فيها بيت الا لبس الاسود حداداً على موتاه، وما تمّ فيفياني ان اصابه مسٌ فزال عقله وغيبه القبر بعد سنوات؛ ولكن بعد ان رأى الكنيسة

تجتاز ، بدون ما عائق ، الوقت الذي حدده لموتها ، وبعد ان سنحت له الفرصة ، قبل ان ينطفئ مشعل ذكائه ، ان يتأمل في تلك الكلمات التي كان يرتلها في صلاة العصر وقت كان صبياً تقياً : « ان لم يبن الرب البيت فعبثاً يعمل البناؤون ! »

قد يُغلب بطرس على امره ، قد يسجن في كوخ صياد ، او في احد الدياميس او في افينيون او في سافون او في فونتانبلو فلا يأبه لهذه الدواهي وقد عرفها وخبرها وجاز بها ؛ بل يظل حتى في سجنه ، حتى على الصليب المنكس ، ذلك القائد ، الباسل ، وسيبقى معلم النفوس واباها ينادي بالمحبة والسلام ويدعو الى الحرية التي لا تعبأ بالوعد والوعيد ، الى حرية النفوس ، الحرية الحقة ، عبدة الواجب وحده !

وها انا نرى اليوم ، بالرغم من الاباحية العصرية واللامبالاة الدينية ، سيد الفاتيكان ، اعظم مما كان ، ولم يشعر الناس يوماً بضرورة وجوده شعورهم بها اليوم ، لانه يحمل مثلاً يمتنع على البشرية ان تتخلى عنه إلا اذا تخلت عن ذاتها !

كانت رومة القياصرة « قوة » فبادت ؛ اما رومة البابوات فهي «محبة» ؛ لذلك هي قائمة في وجه الزمن . فالضغائن تتلاشى والمصالح تذوب ؛ اما كلمة ذلك « الكلمة » : « انت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني — انا لا انت — كنيستي وقوات الجحيم ـ بالحري ـ القوات البشرية ـ لن تقوى عليها » فهي باقية حية ، عاملة ، الى منتهى الدهر !

الاذاعة اللبنانية في ٢ شباط سنة ١٩٤٧

الحديث السابع

انكسارات الكنيسة

امام الوثنية

قلنا، في احاديثنا السابقة، ان الرب يسوع وعد كنيسته بالخلود ورأينا الكنيسة، على ما اصابها من المضادات، واقفة، منذ الفي سنة، والامبراطوريات تتساقط من حولها والممالك تغيب والعروش تدك والتيجان تتدحرج والجمهوريات تتوارى. لقد حاول خصومها، الف مرة، ان يعدموها الحياة، ولكثرة ما سددوا الى قلبها من السهام، خيل اليهم انها قضت نحبها فدقوا اجراس جنازتها؛ لكنهم كانوا، في اعتقادهم، واهمين! فنهضت الكنيسة، من تحت ضرباتهم، القاتلة، شابة، ملء برديها الحياة توزعها على مئات الملايين؛ وعندها كل اليقين بسلامتها وفتوتها وخلودها!

قال المرشال «داڤو»: «ليس النصر للطوابير الكثيرة العَدد والعُدد؛ بل لاكثرها ثباتاً وعناداً»! فهل عرفت البشرية جماعة اكثر عناداً واوفر ثقة بقوتها واعظم صبراً على المحن من الكثلكة؟! فالتاريخ يشهد انها لم تجبن مرة في حياتها!

اجل، لقد وعد يسوع الكنيسة، عروسه، بالخلود؛ لكنه لم يعدها بالنجاة من البلايا ولم يضمن لها الوقاية من الجراح، ولم يعصمها من الالم ولم يكتب لها الظفر، دائماً، وفي كل مكان؛ بل انبأها بانها سوف تُبتلى وفي ساحات الجهاد والقتال! أليس هو القائل لرسله: «احذروا الناس فانهم سيسلمونكم الى المحافل وفي مجامعهم يجلدونكم

ويقودونكم الى الولاة والملوك وتكونون مبغضين من الكل لاجل اسمي ؟ » وفي الواقع، لقد غلبت الكنيسة احياناً وانتصر عليها الشر والضلال، فاجتاح البرابرة بعض اقسامها فكفرت بها ابرشيات، وكانت عوامل فجحدت ايمانها شعوب وامحت من مخططها كنائس زاهرة ! فاين كنائس اورشليم والاسكندرية وانطاكيـة وافريقيـة وسوريا وحوران والبلاد العربية وبلاد ما بين النهرين لقد اجتاحها الفاتح وضيق عليها فصارت اثراً بعد عين ، بالرغم من الدماء الطاهرة التي شربتها ارضها ومن روائح الفضائل التي عطرت اجواءها !

على ان انكسارات الكنيسة كانت مكانية : تسقط هنا فتنهض هناك ، تغلب هنا فتنتصر هناك ! لقد سقطت ، في الشرق ، تحت ضربات الهراطقة فنهضت ، في اوربة ، باهتداء البرابرة ؛ اضطهدت في سورية الشمالية فترك اتباع مارون السهول الخصبة واعتصموا بجبل لبنان يسكنون مغاوره ويفتتون صخوره ويعيشون عيشة الضنك والفقر حفاظاً على ايمانهم وحرياتهم فنموا وكثروا وصاروا امة ضاق بعبقريتها لبنان ، فتفرق ابناؤها تحت كل كوكب! وها ، هم ، اليوم ، يحتفلون في مشارق الارض ومغاربها ، بعيد انتصارهم على الظلم والعدوان ، بعيد حفاظهم على وديعة الايمان ، بعيد استقلالهم بحرياتهم الدينية والمدنية ، ممجدين قائدهم المغوار واباهم القديس مارون ورهبانه ، شهداء الغيرة الرسولية وأبطال الايمان . انشقت عن الكنيسة الام الكنيسة اليونانية ، فاستعاضت الكثلكة من هذه الخسارة بأمجاد الاجيال الوسطى الدينية ! هاجمها لوثاريوس وكالفينوس وهنري الثامن واثخنوها جراحاً : فانفصلت عنها شعوب في الغرب فاستعانت بابناء عبد الاحد وفرنسيس واغناطيوس ومعهم ركبت البحار تمخر اليم حتى حطت الرحال في العالم الجديد ، وفي ارضه نصبت الصليب وعلى ابنائه ملكت عريسها يسوع ؛ لقد طردتها الثورة الفرنسية فقطع كهنتها بحر المانش واحدثوا في الجزيرة البريطانية ، حركة قوية هدفها الرجوع الى الكثلكة .

ومما هو جدير بالذكر ان انكساراتها المكانية كانت غالباً وقتية فبعد هزيمتها النكراء ، في عهد الاصلاح المزعوم ، ما لبثت ان استجمعت قواها وجمعت

اساقفتها وفلاسفتها ومعلميها فقوّمت ما اعوجّ وأصلحت ما ساء. فقال فيها الكاتب البروتستانتي «ماكولي» : «انها في المجمع التريدنتيني جددت في سنين، لا تتجاوز عمر الانسان، كل شيء: من قمة الفاتيكان الى آخر محبسة في «أليانان» كأن في داخل الكنيسة «رفاص» إلهي يرفعها ويعليها بدون ما انقطاع ويوقفها على رجليها، سليمة من العطب، شابة يطفح من قلبها الرجاء. ويشددها الامل بالخلود! تضرب وتجرح في خدمتها ومنظماتها، لكنها لا تموت، لأن يسوع المنتصر على الموت هو رأسها وقلبها ونفسها وحياتها!!

وهذه الانكسارات التي منيت بها الكنيسة لم يكن لها مفر منها نظراً للصعاب التي اعترضتها، فبوصفها كنيسة جامعة، كان عليها ان تقصد جميع البلدان وتسكن في كل المناخات وتخاطب جميع امم الارض؛ وفي طريقها اليها خنادق عميقة واسوار عالية وسهول مقفرة وصحارى مذيبة وغابات كثيفة وبحار واسعة وجبال شاهقة. هناك مناخ بارد وهنا مناخ معتدل! هناك ارض حارة وهنا بقاع مجمدة؛ فاقتحمت كل هذه المخاطر المفزعة والتقلبات المزعجة؛ على انها اضطرت الى ان تغالب عوائق اكثر هولاً من غضب البحار وتشامخ الجبال وجفاف الصحارى: لقد جابهت الامم المختلفة الاهواء والجنسيات المتباينة الاراء والاوطان المتناقضة المصالح فسكنت بين البيض والسود وبين الحمر والصفر، المتمدنين والبرابرة والمتوحشين! ولو كانت مرّت بهذه الجماعات، متغافلة عما يعملون، غير مكترثة بمعتقداتهم وادابهم وعاداتهم لا تمسّ شيئاً ولا تزعج احداً، لسارت آمنة؛ لكنها انما جاءت لتتدخل في كل أمر من امورهم، فاذا بالعقبات الطبيعية «كنقطة الدلو وكرجحان الميزان» تجاه ما صادفته من صعاب في البشرية!

وبوصفها جماعة جديدة قبحت العادات القديمة وناقضت الشرائع والانظمة والعادات المستحكمة فارضة عاداتها وانظمتها وشرائعها. انظروها تمثل امام الامبراطورية الرومانية لتغير افكارها واخلاقها وشرائعها وتنصب الصليب على قمة الكبيتول وتطرد منه الالهة المساميح. انظروها امام الملوك الضعفاء.

من سلالة شارلمان وامام الجبابرة القساة والاقطاعيين الانانيين ، انظروها تلين الاخلاق وتملي على الاسياد والغزاة ايام الهدنة ونزع السلاح ، وتعلمهم ان يحترموا ايام الرب واعياده فيقفوا القتال، وان لا يخرقوا حرمة الكنائس ولا يعتدوا على حقوق الضعفاء ، انظروها تنزل عقاب الحرم بالامراء والملوك الطغاة وبالاسياد الفساق الزناة وتفرض الانجيل : إما على اناس يجهلونه وإما على اناس جحدوه ؛ إما على اناس يخافونه وإما على اناس قد مزقوا اقدس صفحاته واجملها !

انظروها جماعة روحية تستهدف في جهادها النفوس ، كما قال نابليون عن بيوس السابع : « انه يأخذ النفوس ولا يترك لي الا الاجساد » فيحسدها السلاطين ويضطهدها سوادهم الاعظم بالسيف او بشر منه: بالتشريع؛ حتى ان الملوك الذين حموها قد استخدموا حسناتهم اليها مثل سلاسل ليكبلوها بها ويمنعوها عما تريد !

وبوصفها جماعة مهذبة اصطدمت الكنيسة بعقبات كأداء هي الشهوات ، ربات قلب الانسان : لقد علمت ديانة تفوق طور العقول ، ديانة سامية ترفع الانسان فوق بطنه وغرائزه ، ديانة جعلت سعادة الانسان غير سعادة الحيوان ، ديانة تنافي سائر الديانات ، علمها صليبٌ مات عليه يهودي رذله رؤساء شعبه وحكموا عليه بالموت ؛ فمات كما عاش فقيراً ، مات عرياناً ، مصلوباً بين لصين : عاراً لأمته وسخرية لعظمائها ولعنة عند الامم !

اجل ذلك هو الرجل الذي فرضت الكنيسة على العالم عبادته ! وذلك هو العلم الذي رفعته ودعت النفوس والشعوب الى الالتفاف حوله ! وعلى هذا العلم كتبت احكاماً كأنها اعلانات حرب : « فلتسقط الاصنام ولتعرف الامم الاله الحقيقي في هذا اليهودي المصلوب ! ولتمت الشهوات ، سيدات القلب البشري . فالمصلوب يأمرهن بأن يتنازلن عن عروشهن، عن القلوب ويفرغنها له : انه هو ربها وسلطانها الاصيل . انه يطلب من الطمع ان يعدل عن عطشه المذيب الى الشرف والمجد والمقامات ، ويطلب من الحرص ان يكفر بجوعه الفتاك الى الذهب ؛ ومن اللذة ان تسخر بالغرائز اللحمية والاميال الفاسدة ، ومن الانانية ان تنسى ذاتها ومن حب الثأر ان ينكب عن اللذة الخشنة التي يطمع بها

حين يستطيع ان يدوس جسد عدوه ويحط من كرامته ؛ ويأمره ان يغفر لمن اساء اليه ويبارك من لعنه ! على الصليب، علمها، نقشت من جديد وصايا الرب : لا تقتل ، ولا تزن ولا تسرق ولا تشته ؛ وفسرتها : لا تخنق الطفل ولا تسقطه جنيناً ولا تحول بينه وبين الوجود ؛ لا تطلق امرأتك ولا تعدد الزوجات . اغمض عينك عن الشر ، لا تنظر اليه ؛ والجم قلبك عنه فلا تمل اليه؛ واكبح عقلك، لا تفكر فيه!

اجل الى هنا وصلت الكنيسة ، مدعية بانها الساهرة على حركات النفس الباطنة وعلى العناية بقدس العيلة ، الحامية وحدة الزواج وديمومته ، القائمة على حماية الانسان من نزوات قلب الانسان وهجرات امياله وغرائزه !

لقد طلبوا منها ان تتساهل في مطاليبها وتتخلى عن بعض ما ادعت ، فرفضت ولم تواطئ على شرائع الله احداً حتى الاقوياء والملوك ! لقد اسمعوها انه حيث مر انسان حق للاخرين ان يمروا ، فانكرت ولم تفتح الباب الذي امرت بان يبقى موصداً ! لقد رفعت علمها امام الملاذ المحرمة وامام الشرائع الجائرة وامام المسلطين الزناة وامام الفلاسفة المغالطين وصاحت : « لن تمروا » !

فعلت كل هذا وهي عزلاء . بما اسموه سلاحاً ! « لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم » : « ها انا مرسلكم مثل خرفان بين ذئاب ؛ كونوا ودعاء كالحمام وحكماء كالحيات » ! فقام الذهب والفضة ، السياسة والعلم ، القلم والسيف، غضب السوقة وحسد الامراء، فؤوس القياصرة وصوالجة الملوك وتآمروا على الانجيل وتنادوا ليهدموا الكنيسة ويلاشوها . ابتاع خصومها بالذهب اقلاماً لتنهشها فنهشتها ، وزينوا للسياسة فجرتها الى المحاكم وساعدوا العلم فاحتقرها واستهزأ بها وحرضوا السلطات العامة فأوقعت بخدمتها وكمت افواههم وخنقت اصواتهم فوقفت الكنيسة عزلاء امام العالم الثائر عليها ، لا سلاح تدفع به الهجمات عنها سوى دموعها وصلواتها وايمانها وصبرها وتثبتها من حقيقة تعليمها !

هذه هي حياتها ، منذ ألفي سنة : انها تمشي بين امم الارض قاطبة لا

تالى ولا توارب ولا تماحك ولا تحابي ، حاملة الصليب علماً والايمان عضداً والكلام وسيلة للدفاع عن نفسها وعن تعليمها ؛ تطرد من مدينة فتنفض غبار ارجلها على ظالميها وتذهب الى اخرى ؛ بهذا اوصاها ربها يسوع المسيح !

أفنعجب اذا رأيناها ، في مثل هذه الظروف والاحوال ، مغلوبة على امرها ؟ كلا ! ليس في انكساراتها وهزائمها ما يثير عجبنا ! فأعداؤها كثر والحانقون عليها اقوياء وضعفها شديد ووسائل دفاعها المادية لا تعَدّ شيئاً !

على ان انكساراتها دليل على قداستها وبرهان على ألوهيتها . تغلب لأنها مقدسة تبشر بالخير وتحرض عليه وترذل الشر وتأمر بتجنبه . فلو كانت تغض الاعين عن الدعارة والاباحية ، لو كانت تقف امام الظلم والرذائل صامتة لا تنبح ! لو كانت لا تهزهز ، في سماء العالم ، مشعل الانجيل الطاهر ، لو كانت لا تكلم الناس عن إله ديان يرى ما نعمل ويسمع ما نقول ويعرف اعماق افكارنا ورغباتنا ، لو كانت لا تحدثهم عن الخطيئة ووجوب تجنبها ، مهما كلف الامر ، وعن محاكم تبعد من يتقدمون اليها بالشكوى على انفسهم ، وبكلمة ، لو لم تكن رسول ديانة مقدسة لأسرع العالم الى اكرامها لكثرة ما تقدم من الخدم لاخوتنا في البشرية !

تغلب الكنيسة لانها مقدسة ! ودليلنا ان انخفاضاً في الحياة الادبية وانحطاطاً في الاخلاق يعقبان ، دائماً وفي الحال ، انكسار الكنيسة وهزيمتها . لقد غلبت الكنيسة في افريقيا فحلّ البرابرة الفندال بوحشيتهم محل اسقفية اغسطينس المجيدة ، الخصبة بالاعمال الانسانية ؛ وغلبتها الثورة في فرنسة فأخذت مكانها إلهة العقل وانتهت ابتسامة فولتير الساخرة الى الوحل والدم

راجعوا التاريخ واسألوه : هل صارت اوربة التي ادارت ظهرها للكنيسة الى حالة احسن ؟ هل صعد زئبق الاداب ام هبط ؟

ليتني استطيع ان اقول : ان الاخلاق تحسنت ، والقتل والانتحار قد ندرا ! هل صار الفتيان اكثر طهارة والفتيات اكثر احتشاماً والنساء اكثر حياء ؟ ليتني استطيع ان أحقق ذلك وان اقول : ان السرقات والاختلاسات قلت والنفاق مال

الى الاضمحلال والعيال صارت اكثر اتحاداً ؛ فقلّ الطلاق وكثر الاولاد في البيوت وصار النظام الاجتماعي كله اكثر استقراراً من امس ، واكثر طمأنينة للغد ! تمنيت ان يمكنني واقع الحال من القول ان الامم التي ابعدت الله عن مؤتمراتها ومحاكمها ومدارسها وبيوتها ومشاريعها راحت تتقدم في دنيا العدل والاخوة والمساواة وحب العامل والشفقة على الضعفاء ، وفي دنيا الاخلاق والاداب تقدمها في دنيا الصناعات والاختراعات ! ولكن ماذا يجدي التمني !

الحظ ويلحظ الكثيرون ان الفكرة الأدبية تتوارى بنسبة غياب الفكرة المسيحية ؛ وان اللادينية تجرّ حتماً الى الانانية ؛ وهذه الى الاخلال بالاداب والتهتك وقلة النسل والتعدي على حقوق الناس وامتهان الانسانية في الانسان وهزال القيم الروحية ، مجد البشرية وفخرها ، فيعود الانسان الى تمثيل دور الذئب تجاه اخيه الانسان ؛ فبمقدار انحطاط الكنيسة في بلاد ينخفض كل شيء جميل فيها حتى روح الوطنية ؛ لان الكنيسة ليست هي قوام الحق فحسب ؛ بل هي قوام الخير ايضاً : يعلو الخير ويهبط بعلوها وهبوطها ! فانكساراتها لا يجوز ان تشككنا اذن : لانها دليل على قداستها وبرهان ايضاً على الوهيتها. فلو لم تكن إلهية لكانت سُحقت وتلاشت كما رأينا في حديثنا السابق واذا كانوا يطاردونها اليوم ، في كل مكان، فلان يسوع وصليبه هما في كل مكان !

اما اذا نظرنا الى مَن غلبها وبأية وسائل غلبها حق لنا ان نباهي ونفاخر بهزيمتها وانكسارها ! ان العلماء المتفوقين والرجال المستقيمين والمفكرين والنزهاء وخدمة العدل والحرية الصادقين قد احترموا الكنيسة ورأوا فيها منظمة ، عظيمة ، شريفة ونافعة ! فان كان بعضهم تمنّع عن ان يحبها ، مؤمناً ؛ فانه لم يشتمها ، مبغضاً ! فاعداؤها هم اعداء كل خير ! ادخلوا معي رواق التاريخ اريكم مضطهديها : وجوهاً مقززة ونفوساً خسيسة : فمن الامبراطرة الرومانيين الوثنيين ، الى الملحدين منهم والجاحدين ، الى الهراطقة ، الى المغالطين، الى الجبابرة، الى الغزاة والفاتحين، الى قياصرة الاجيال الوسطى السفاحين والفاحشين، الى مؤسسي

الاصلاح ومن شد ازرهم من الامراء والملوك ، الى كتبة الجيل الثامن عشر الملحدين ، الخالعين العذار : فكل هؤلاء قد افلتوا عليها امواج الشهوات : شهوة الكبرياء والحسد والطمع والشراهة والفسق والفساد ، امواجاً موحلة كانت دائماً في مد وجزر ترغي وتزبد وتطفو على الكنيسة ؛ لكنها قصرت عن ان تغمرها وتبتلعها !

اعداؤها هم اعداء الشعب امثال : فولتير ورنان ونيتشه وزولا ! اعداؤها هم اعداء الحرية من نيرون ، الى القياصرة الالمان ، الى لوتاريوس ! اعداؤها هم رجال الثورة من روباسبيار ، الى مارات ، الى دانتون ! اعداؤها ، في عصرنا ، هم الماديون ؛ اعداؤها هم ، اسمحوا لي بالكلمة ، انذال الاجيال وسفلة البلدان !

ولمَ نعجب اذا حنق هؤلاء الجبابرة عليها وكالوا لها الشتائم وكبلوها بتشريعهم الجائر وقت يكونون قابضين على ناصية الحكم ؟ ان تعاليمها تذكرهم بانحطاطهم فيعمدون الى المرآة التي يرون فيها شناعتهم ، وقد مسخهم كفرهم ، ليكسروها ويحطموها ويزيلوا كل اثر لها من الوجود !

اما وسائلهم فلم تكن البراهين المقنعة ولا المجادلات المنطقية النزيهة ؛ بل البطش والخبث والشرائع الجائرة والمثالب واثارة الشهوات الشعبية واستثمارها ؛ فكانت الكنيسة ، في هذا العراك ، كحمامة وديعة ، تفقد في مطاردتهم اياها ، بعض الشيء من ريشها وتطير متملصة من الخبث والدهاء تملصها من القوة الوحشية الغاشمة !

تلك هي حال امنا الكنيسة ! فما هو واجبنا ؟ هل نكتفي بالتفجع على ما اصابها ويصيبها من الضربات ويحيق بها من البلايا والنكبات ؟

سأل سيادة المطران ميشال دربيني كاهناً روسياً قال : « ما تنوي ان تعمل انت وزملاؤك لتحبطوا الدعاوة القائمة في بلادكم ضد الله ؟ فاجاب ذلك الخوري : « ما ننوي ان نعمل ؟ ولكن لا شيء . أليس على الله ان يدافع عن كنيسته ؟ »

اجل ، ايها الاخوة ، ان الله هو الذي يحامي عن كنيسته ! ولقد دافع عنها ، في سالف الازمان ، وعرف ان يستخلص من الشر الذي اصابها خيراً ولن يتلكأ عن المدافعة عنها في الحاضر وفي المستقبل .

على انه في سبيل البلوغ الى غاياته ، كان ، دائماً وابداً ، يستخدم العلل الثانوية . لقد كلف ربنا يسوع تلاميذه بنشر الانجيل . . . وهو اليوم يلقي اتكاله علينا لنوقف تيار الشر وندفع عن الكنيسة الهجوم الشنيع الذي يشنه الماديون والملاحدة عليها. ولنا، من امثلتهم، خير حافز لنا على العمل فانهم ينشرون افكارهم باسلوب وحنكة وجرأة وغيرة تذكرنا بكلمة الانجيل : « ان ابناء الدهر هم احكم من ابناء النور !» فانهم يملكون مجلات ومكاتب ومتاحف «وافلام» ومدارس يدربون فيها مرسليهم ، مرسلي الالحاد! انهم يكثرون من القاء المحاضرات وعقد المؤتمرات والاجتماعات ، وفي احاديثهم الخاصة يهتمون بجذب السامعين الى موالاتهم ، يعملون كأن سعادتهم الشخصية ومستقبل البشرية لا يتحققان الا بنجاح عملهم الشاذ! ولم يتورع احدهم عن القول : « بان لا راحة على الارض ولا هناء لبني الانسان ما دام على الغبراء مؤمن !» فهل تكون حميتنا في الدفاع عن ايماننا ، أقل من حمية الاشرار والفجار والماديين في محاربة ذلك الايمان ؟ فعلينا نحن ان لا نقفع الجبناء الذين ينزعون لبدةَ الاسد اعتقاداً منهم بانه مات ؛ بل يجب ان نتألم لآلام الكنيسة ونضمد جراحاتها لانها امنا ، المحترمة ، المقدسة ! وان نهيئ لها انتصارات جديدة ونثأر لها ثأراً سلمياً بفضائلنا واعمال غيرتنا وتفانينا وتضحياتنا متكلين على الذي قال لنا : « انكم في العالم ستكونون في ضيق ؛ ولكن ثقوا ، فاني غلبت العالم !»

(الاذاعة اللبنانية في ٩ شباط سنة ١٩٤٧)

الحديث الثامن

الكذب

بين الوثنية القديمة والوثنية الحديثة

قال فولتير : « زار الله الارض ولم يغيّرها ! » اما الذين درسوا تاريخ البشرية فيدحضون هذه الفرية ويكذبون هذا الملحد الذي استساغ التجديف واستسهل الكذب حتى صار فيه خلقاً فقال النقادة اميل فاجه فيه : « يكذبُ فولتير بمثل سهولة جريان المياه ! »

كلنا يعلم ان وجه العالم تغير ومجرى التاريخ انقلب بظهور رجل قال عن نفسه انه إله ! واثبت باقواله وافعاله وعجائبه انه اله ! علّم باسلوب يفهمه الاطفال تعاليم سامية تترك وراءها نظريات افلاطون وتحمل اجوبة سديدة لمشاكل الحياة الدائمة ؛ وتجول ثلاث سنوات في اليهودية ناشراً عجائب الجودة والحنان والمحبة ففرح به شعبه واحبه ؛ اما عظماؤه فأبغضوه وطاردوه لانه خيب امالهم : كانوا يتوقعون ملكاً زمنياً، لا مخلّصاً روحياً ؛ محرراً للوطن، لا محرراً للنفوس؛ فاتحاً يلبس الطيلسان ويتقلد السيف يعتقهم من عبودية الرومانيين ، لا مبشراً بقهر الذات والكفر بالنفس ليقطع سلاسل الخطيئة والهلاك ؛ أماتوه مصلوباً فقام ممجداً ، واسس مملكة تفوق مملكة اغسطس اتساعاً ، وأقام على ادارتها اثني عشر قائداً دربهم وثقفهم وأرسلهم الى افتتاح العالم ، فقراء ، لا يملكون سلاحاً ولا جنوداً ، لا علماً ولا فصاحة . سفنهم خالية من المقاذيف وصواريها من الأشرعة . اثنتا عشرة خشبة عارية دفعوها

فشقت عُبابَ اوقيانس البشرية الهائج ، يجابهون عواصفه بعقائد دينية تذهل حكمة الحكماء ، وشرائع ادبية تجرح حتى اعماق النفس الوثنية ؛ جابهوها ببطل الاوثان وبإله روح ، بإله واحد : فيه ثلاثة اقانيم ، متميزة ذاتاً ؛ لكنّ لها جوهراً واحداً ، وطبيعة واحدة ، بإله صار انساناً ومات ميتة العبد حباً للانسان ! جابهوها بشرائع ادبية جعلت القيصر ، الاله بالامس ، مساوياً بالطبيعة لآخر عبدٍ من عبيده ! جابهوها بالكفر بالذات وبمحبة الاعداء والصفح عن الاهانات ! لقد استخف ايمانهم بما يعتمد عليه معلمو الحكمة من وسائل ، وبما اتكل عليه مارك اورال الامبراطور الرواقي المذهب ! فلهذا ولاولئك كان فقراء الجليل يؤكدون قائلين : « لكم كل وسائل النجاح وستفشلون ؛ وليس لنا واحدة منها ، ونحن مع ذلك ، في طريق الفلاح ، سائرون ! ستدور سفينتنا العارية حول الارض ومركبكم لن يغادر المرفأ !

وفي الواقع ، يا سادة ، انه عندما أحنى قسطنطين نسوره امام الصليب ، كان الصليب قد رُكز ، بدون قسطنطين وبالرغم منه ، في كل انحاء الامبراطورية الرومانية. والى هذا الحدث ألمع « بوسويت » ، امام الملك العظيم ، لويس الرابع عشر ، قال : « اعلموا ، يا ملوك الارض ، ان انتشار الانجيل قد تم بدونكم حتى وبالرغم منكم ! »

فلم تمض ثلاثمائة سنة على نشأة الكنيسة حتى تم لها ان تغير الافكار وتلطف الاخلاق وتكيف الشرائع : فساوت المرأة بالرجل حقوقاً وواجبات وارجعت الزواج الى وحدته وسابق مقامه الشريف وأعادت للولد اعتباره القديم وحقه في الوجود وللعبد انسانيته السليبة وردت السلطة والمال الى واجبها الاول : الى الخدمة ، وحررت النفوس والضمائر بالفصل بين السلطتين : الدينية والمدنية ووضعت الضمير ، في النفس ، مكان الغريزة وملكت الواجب ، على القلب ، مكان الملاذ والانانية وأسست مملكة الطهارة في النفس وفي العيلة وفي الاديار فخاف الانسان الشر واصبح يخجل منه ، وان فكراً او رغبة لا يعرفها سواه ، وادخلت ، في التشريع ، روح العدل والمحبة والحياء بحيث ان الجرائم التي كانت ، في الناس خلقاً ، صار الرأي العام يقبحها والشريعة ترذلها . واذا ما زعم احد ان هذا

التغيير نتج عن تقدم العقل والفلسفة فنجيب : ان الفلسفة في اليونان وروما قد ازدهرت من قبل والعقل شق له في التقدم طريقاً فسيحاً ؛ ومع ذلك وقف الفلاسفة والمفكرون من الرذائل موقف اللامبالي ؛ ولم تكن مبادؤهم ومعارفهم لتؤثر على اخلاق الناس فقال « فولتير » فيهم : « لم يكن للفلاسفة تأثير في الاخلاق حتى في الشوارع التي كانوا يسكنونها . فاذا كانت افكار بعض الفلاسفة أعلى من افكار العامة ، فاخلاقهم لم تكن أرفع !

ان كل ما على الارض من نبل وشهامة وعفاف ؛ ان كل مساواة تجاه الشريعة وشعور بقيمة الانسان وشفقة على المتألمين وميل لتحسين حظّ الضعفاء والفقراء ، ان كل ما هو جيد وخير ، نعم ، ان كل هذه الفتوحات الادبية وسواها إن هي الا « ماسات » او لآلئ سقطت من اسفاط الكنيسة ؛ ان هي الا اشعاع من المسيحية ومبادىء الانجيل الاجتماعية ! فنور يسوع في داخلنا ، ونعمته تسيل ، من اقلامنا ومن شفاهنا ، على غير علم منا . فنحنُ عمله وبحسناته ننعم ! اجل لقد كان ، في العالم القديم ، فضائل ، ولكنها كانت شذوذاً . ان عالم قبل المسيح ، من حيث الآداب والاخلاق ، ليل تلمع في ظلماته بعض النجوم ؛ اما العالم المسيحي فهو نهار تمر في سمائه بعض سحب من الغيوم .

كتب « تان » سنة ١٨٩١ مقالاً في « مجلة العالمين » جاء فيه : « ان في مقدور المسيحية وحدها ان تمدن الشعوب البربر وتمنع الشعوب المتمدنة من العودة الى البربرية ! لان المسيحية لا تزال تعمل ، اليوم ، ما عملته ، منذ تسعة عشر جيلاً ، فتضع مكان محبة الذات محبة الآخرين . فجوهرها لم يتغير وتصرفها لم يتبدل فهي ، اليوم ، الجهاز الروحي لاربعمائة مليون من الخلائق البشرية . وهي الجناحان القويان اللذان يرفعان الانسان فوق ذاته وفوق حياته الزحافة ويحملانه الى ابعد من آفاقه المحدودة ، الى النجاء الصبر والخضوع والرجاء ؛ بل الى صفاء البال والسلام الباطني ، في وسط الدواهي والنكبات ؛ يحملانه الى ابعد من القناعة والحلم والعفاف . . . الى التفاني والتضحية . والتاريخ شاهد انه عندما كان يضعف هذان الجناحان او عندما كانا يكسران ، كانت الاخلاق الفردية والاجتماعية

تنحط ، في كل مكان ، الى ما كانت عليه ، قبل الف وثمانمائة سنة . »

« ففي ايطاليا ، على عهد النهضة ؛ وفي انكلترا والمانيا ، على عهد الاصلاح ؛ وفي فرنسة ، على عهد الثورة ، عاد الانسان وثنياً ، كما كان في الجيل الاول ، وارتد بلحظة الى عهد اغسطس وطيباريوس : فصار شهوانياً وانانياً وظالماً يسيء الى نفسه والى الآخرين . ففي هذه العهود عادت الانانية الوحشية الى نفوذها وسيطرتها وانتشر الجور والفحش وسادت القساوة والشهوات البدنية وامسى المجتمع مزلقة ومكاناً خطراً ! فمن مشاهدة هذه الموبقات عن كثب ندرك ما عملته المسيحية في مدنيتنا ونلمس ما ادخلت فيها من الرقة والحياء والانسانية والنبل والشرف والثقة والعدل ! فلا الفلسفة ولا الثقافة ولا الفن ، لا الشرف العسكري ولا الفروسية ، لا التشريع ولا السياسة ، لا الحنكة ولا شيء يقوم بهذه الخدمة مقام المسيحية » ! ان هذه الشهادة في المسيحية يؤديها « تان » الفيلسوف الوضعي ، غير المؤمن ، لهي شهادة ثمينة !

ولكن يا ليت العالم فهم واتعظ ! لقد عاد الى الاخذ بالتجربة الوثنية كأن التاريخ لم يعلمه شيئاً ! فكل ما هو جار يحدثنا عن ان عمل الاجيال يتفكك وصرح المدنيــة المسيحية يتفسخ ويتداعى . ان اغلب حكومات الارض وثنية وتتباهى بوثنيتها ؛ والتربية في اكثر البلدان وثنية ، والعديد من القصص والمسارح والجرائد تنفث في العقول والقلوب سم الوثنية رغبة منها في الاستفادة والنفع من تملقها لغرائز الحيوان — الانسان . لقد نشط في بعض البلدان فلاسفة ومؤرخون وادباء وعلماء وحكام ومشترعون الى محاصرة الكنيسة آخذين ، من التاريخ الحديث ، قائداً لهم المجدف ، الكذوب ، فولتير ، متبنين كلمة سره : « لنسحق ذاك الشنيع » وما كان ذاك « الشنيع » ، في نظر فولتير وجماعته ، إلا يسوع المسيح لاسمه السجود ! فعليه يشنون حرباً عواناً لا هوادة فيها ؛ وفي نيتهم ان يتزلوه عن تلك الصخرة الثابتة ، غير المتقلقلة : عن الصليب ، حيث امسكته الكنيسة فعبدته وأبقته واقفاً ، كأنه على عرشه ! وتوصلاً الى غايتهم قد اتبعوا خطة فولتير : اكذبوا !

اكذبوا! فلا بد من ان يعلق شيء من كذبكم! » فهدم الكثلكة وملاشاتها غايتهم، والكذب سلاحهم.

يكذبون على الطبيعة مفتشين فيها عن براهين ضد خالقها وضد كتبه المقدسة! يكذبون على التاريخ بما يحرفون فيه ويزورون ويتسلحون بما يزيفونه على الكنيسة! يكذبون على الفصاحة والادب والشعر اذ يسخرونها لخدمة الريب والملاذ! يبشرون بالحرية ليوطدوا سلطتهم المستبدة؛ وينادون بالمساواة ليصفعوا الحق، وبالعلم ليطفئوا مشعل الحقائق الذي تسير على ضوئه امم الارض! يمدحون الاخوة ويرمون اخوتهم في لجة من الوحل والدم! يسلبون الكنيسة املاكها ويقفلون مدارسها ويحتلون مستشفياتها ويحولون كنائسها الى مسارح واديرتها الى دور للهو والطرب ليحدوا من قوتها وشكيمتها.

اجل! بأمر لينين وخلفائه قد تحولت الكنائس والجوامع في روسية الى مسارح او الى متاحف لادينية فأمست بيوت الصلاة والعبادة بيوتاً للتجديف والخلاعة ففي الجامعات العلمية اساتيذ يعلمون الالحاد! وفي موسكو تأسست جمعية غايتها القضاء على آخر تأثير للاعتقادات القديمة. ولم يتورعوا عن ان يزجوا الاطفال انفسهم في هذا الجهاد الجهنمي، فعلى علم فرقة لينين منهم كتبوا هذه العبارة: « فلتحيا الفرقة العالمية اللاإلهية ».

على ان العاطفة الدينية هي حية في القلوب متمكنة منها. فعبثاً يحصدونها، فانها لا تلبث ان تنبت من جديد. وهذا ما عرفه المضطهدون لذلك رأيناهم يعمدون، لكي يشبعوا جوع الانسان الى الايمان والعبادة، فيقيمون مكانَ الايمان بالله وبالخلود، عقيدة جديدة: العرقية في المانيا والماركسية في روسية والمكسيك، فهذه العقيدة، على زعمهم، تسدّ جميع حاجاتنا الروحية. لانها تتضمن فلسفة التاريخ، وقاعدة السلوك، وعلة الحياة.

ذلك هو النور الذي شاؤوا ان يسيروا على ضوئه القافلة البشرية!

الى اين؟

ألى عالم افضل؟ ألى السعادة الابدية؟.. كلا! بل الى غاية، كلها

بشرية ، كلها ارضية ! الى وحدة امة ، الى سيادة طبقة ! هذا هو المحرك الذي ينبغي ان يدفع حيوية الانسان ويلهب حماسته ويحمله على التضحيات التي تتطلب البطولة ، في غالب الاحيان ! فكل ما في الحياة يتعلق بهذه الغاية الارضية ! خيرٌ كل ما يساعد على انتصار الطبقة او العنصرية وشر كل ما يقف سداً بوجه هذا الانتصار .

في سبيل هذه الغاية مسموح بان نسلب الملاكين املاكهم ونفني اليهود على بكرة ابيهم . في سبيلها ينبغي ان نقضي على معارفنا التقليدية في الخير والواجب والعدالة ، في سبيلها نقلب سلم القيم رأساً على عقب . فالطاعة للوالدين واحترام الاشخاص والامانة للعهود و . و . . . كل هذا صار قديماً وسخيفاً .

نحن في فجر نظام جديد ! فمن اللازم ان يتغير كل شيء ويتجدد كل شيء : الافكار والاخلاق والشرائع و و . . . : فالماركسيون والنازيون اعداء الديانة اللدودون يكره بعضهم بعضاً ويتحاربون ؛ لكنهم على مهاجمة الكنيسة اتفقوا لانهم حسبوها عدوهم المشترك .

فعلى ترهات ماركس وأضاليل روزنبرغ اجاب البابا : « ان الله خلقنا لنعرفه ونمتلكه . فغايتنا اذن روحية سامية والعاطفة التي يجب ان تهيمن علينا هي المحبة : الناس جميعهم اخوة الى ايّة امة واية طبقة انتموا . فبغضهم وسوء معاملتهم والاثراء من وراء استغلالهم جريمة ضد الانسانية وضد الله »!

فهذا التعليم ، المتناسق ، الموحّد ، المكين ، الجميل ملَّ المجددين الماديين وأغضبهم وشعروا في عمق اعماقهم بأن الافكار التي ينشرون والشهوات التي يثيرون تسفّلهم الى دركاتٍ هي احطّ من تلك التي هوى اليها الوثنيون . — فهؤلاء كانوا ، على الاقل ، يكرمون الالوهية ويؤمنون بالحياة الاخرى —

ففي المكسيك ، على عهد الرئيس كلاس ، صادروا جميع ممتلكات الكنيسة ، وحرموها حق الملكية وحلوا الجمعيات الرهبانية ومنعوها من اقامة الحفلات الدينية ، في غير الابنية المخصصة للعبادة ؛ وحرموا على خدمها ان يلبسوا الثوب الرهباني او الكهنوتي . وابعدوا الكهنة عن مزاولة مهنة التعليم وفتح

المدارس وجعلوا التعليم ، حتى في المدارس الخاصة « علمانياً » ؛ وكموا افواه الكهنة عن انتقاد الشرائع واعمال الحكومة ، يقسون عليهم ويضطهدونهم ؛ ويمنعونهم عن ان يتذمروا او يشكوا . وحددوا عدد الكهنة : فعينوا لكل مئة الف مؤمن ، كاهناً في ولاية فاراكريز .

ولم تكن تدابير النازية بأقل قحة واستبداداً من تدابير البلشفية ، فقبل ان يلحق هتلر النمسا بالريخ لفظ كلمة عويصة ، معقدة شاء بعضهم ان يعطيها معنى مسكناً ، قال : « ان اتفقت الكنيسة معنا فسوف لا تندم ، إن . . . لكن الشرط كان غير قابل التحقيق — فلم تمض اشهر حتى اقفلت جامعة سالسبورج وعدد من المدارس المسيحية ، وجردت الجمعيات الرهبانية من من ممتلكاتها وضيق على الطباعة الكاثوليكية وقد اقتحمت الشبيبة الهتارية الكرسي الاسقفي في فيانا ورمت من النافذة كاتم اسرار الكردينال ولم تكن هذه الاعمال الهمجية إلا مقدمة لاعمال اكثر بربرية .

وفي اسبانيا ، في ايام الثورة الحمراء ، ذبح اثنا عشر اسقفاً واكثر من ستة الاف كاهن . ولم يتورع القوم عن ان ينزلوا بهؤلاء الشهداء الاهانات والعذابات الفادحة : لقد حُرق احدهم حياً ، في الحديقة العامة ، في مدينة اوفيادو ؛ وعرّي آخر وعلق من رجله بكلاليب من حديد وكتب فوقه على رقعة : « لحم خنزير للبيع » .

ولقد أخبر واحد نجا من سجن سانتاندر بأن السجان ، وهو روسي قاس ، كان يستخدم حق القربان الاقدس وعاء للماء والصابون ، كل مرة ، كان يباشر بحلق شعره . وبينا كانوا مرة ينهبون كنيسة أطلق جندي رصاصة على بيت القربان الاقدس وهو يعوي : « سلّم نفسك للحمر ، يا مسيح ! »

اما الكنيسة فلم تمت واما رهبانها وكهنتها فلم يقنطوا فراحوا يهجرون بلدانهم لخدمة الناس في غير بلاد !

فاذا صح ان وراء الازمات السياسية ازمة ادبية ، فنحن محقون في قولنا : ان الوثنيين العصريين هم مصدرها وانهم هم الذين اغروا عليها . فليقرأوا تاريخهم !

في الثامن من كانون الاول سنة ١٨٦٩ عقد بيوس التاسع مجمعا عاما في الفاتيكان فقامت الماسونية الدولية تفتح مجمعاً في نابولي لتعارض مقررات مجمع الكنيسة . قرروا في ما قرروه اعتبار العلم ينبوعاً أوحد لكل معتقد وايمان ، نابذين كل عقيدة منشأها الوحي ، ايًا كان ، مدعين ان كل حقيقة لا تصدر عن الانسان هي كذب وبهتان . وطالبوا الحكومات بالتعليم الاجباري وارادوه علمانياً بحتاً ومادياً صرفاً ، معلنين ان فكرة الله هي منبت الظلم والطغيان ؛ ولما كانت هذه الفكرة — فكرة الله — تتجسم في الديانة الكاثوليكية عقدوا العزيمة على ملاشاتها واستئصالها من عقول الناس بكل الوسائل الفعالة .

اما قرارهم بشأن خليفتها فقد اذاعوه على العالم أجمع قالوا : انها « الانسانية » ! فالانسانية هي الاله الوحيد الحقيقي وهي ذات ثلاثة اقانيم هم : الوالد والولد والام . لها على الناس كل الحقوق وليس عليها واجبات تجاه احد . واني اربأ بلساني ان يلفظ وباذانكم ان تسمع سائر التجاديف الصفيقة التي اتخذوها قرارات في مجمعهم !

آه ! لقد هدموا صرح الديانة المسيحية الروحي ليقيموا مكانه هذه العبارات الباردة الجوفاء ! ولمثل هذه الترهات فكوا عقال الشهوات وهيجوا ما كمن في الانسان من اللذات البهيمية ، واثاروا زوبعة الغرائز فراحت تتحكم بالبشرية . لقد اثاروها حرباً هوجاء بين طبقات الشعب وارادوها عاصفة جهنمية تقلع من العقول الايمان بالله ومن القلوب الرجاء به والمحبة له وتمرغ الانسان في وحول الارض وادناسها !

لقد آمن العالم ردحاً من الزمن بمبادئهم ، وعمل بشرائعهم ولم يطلب منهم ان يموتوا على الصليب اثباتاً لها ولا ان يقدموا على صوابيتها اختبار عشرين قرناً من التاريخ ! فماذا كانت النتيجة ، يا سادة ؟ الفراغ ! العدم ! فامسى عصرنا عصراً فارغاً وعالمنا عالماً بدون روح !

نشر روزنبرغ كتابه : « خرافة جيل العشرين » فحرمته الكنيسة فلم يعبأوا بحكمها ؛ بل بقي الكتاب في المدارس يدرسه الجيل الطالع ويشرحه المعلمون ؛ ومما

جاء فيه : «ان المذود والصليب هما رمز الذل والجهل وبقايا مخجلة لشريعتين مُحقتا هما المحبة والتواضع . فعلى العلم ان يبدلها بالقوة القاهرة وبكبرياء العنصرية ! »

لقد رأى العالم نتائج هذه التعاليم الموبوءة . وانتقم الله لمذوده وصليبه ! فاذا بالصليب المعكوف يتمرغ في دم العنصرية ، ذليلاً ، وبكبرياء الدم ترفع الايدي ، مستغيثة ، وتسلم بدون قيد ولا شرط ؛ وظل الحق بجانب الكنيسة التي تجرأت وحدها على ان تقول للعنصرية الالمانية : « لا يجوز لك » ، كما قالت لقوات غيرها : ماضية وحاضرة ، فكانت في موقفها هذا ، كما تعودت ان تكون ، المدافعةَ الوحيدة عن العظمة البشريــة ، المنبهة الى واجب احترام الشخص البشري وحرياته ، الجاعلة للحرية الفردية حداً احترامَ حقوق الغير ، المناضلة عن الاداب والعقائد الايمانية ؛ وبهذا النضال وحدت ووطدت اركان التمدين والحضارة

لقد دثرت النازية ! والكنيسة التي لا تلوي ولا تلين ، ظلت قائمة تهزأ بالعواصف ترمجر ، وبالصواعق تنقض ، تأمر اللحم بان يخرس فتسمع لها البشرية وتطيع ! قال « ماكولي » المؤرخ البروتستانتي : « كانت الكنيسة عظيمة ، قبل ان يصل السكسون الى الجزر البريطانية ، وستتمكن من ان تظل عظيمة الى ان يقدر لمسافر من زيلندة الجديدة ان يقف مستنداً الى حنية من حنايا جسر لندرة ليصور خرائب كنيسة القديس بولس الكبرى واطلال المدينة ! »

وفي الواقع ،من ظن ، يا سادة ، بعد ما رأى ، في مطلع هذا الجيل ، الصرح الكاثوليكي متهدماً وبقاياه تغطي ارض فرنسة ، ان اربعين سنة لاتنقضي حتىيتجدد بناؤه ؛ واذا به يفوق الاول جمالاً واثاثاً وغنى ، لا بالمادة ؛ بل بالمحبة والاتحاد فيضم من عناصر الامة نخبة مختارة من المثقفين والفلاسفة والعملة والمزارعين ؟ ! من خطر له ببال انه يقدر للدعوات الاكليريكية ان تقفز من ٦٥٠٠ دعوة في سنة ١٩٢٥ الى عشرة آلاف دعوة في سنة ١٩٣٥ ؟ قال بول كلودل : « يمشي الناس بتعب ومشقة ولو فطنوا وعدلوا عن التفكير بذواتهم لامتنع عليهم ألاّ يطيروا » !

وفي المانية النازية رمز اجمل . ففي الساعة التي اعدمت الوثنية العنصرية الكنيسة حماية الشريعة وكبلتها بالف سلسلة ، ضاقت المدارس الاكليريكية

الالمانية بطالبي الانخراط في سلك الرهبانيات والكهنوت ، فاضطر اولياؤها الى ان يعدلوا عن تسجيل الاسماء الى زمن !

ذلك احتجاج شريف على اعمال القوة الغاشمة قامت به نفوس كبيرة لم يعرف الذعر والجبن مدخلاً اليها !

اجل ، ما اندلعت نار الاضطهاد ، يوماً، على الكنيسة حتى تألبت كتائب المرشحين تتدافع الى الشهادة فالاستشهاد . فمن كان من دينه متمسكاً بالقشور هوى خاضعاً وسجد صاغراً وصالح عدوها خانعاً ؛ لكن الكنيسة لم تحرم نخبة تجابه المظالم ، في كل مكان وزمان ، غير حافلة بضرباته المسددة الى قلبها .

ففي المانيا ، كما في فرنسة، كما في المكسيك، كما في سائر انحاء الارض قد اثار الصليب المضطهد من الهمم ما لم يفعله الصليب الظافر . ذلك لان قوة الكنيسة وبأس ابنائها الخلص هما في اللامنظور : في شركة القديسين ، في هذا الكنز العظيم ، كنز الاستحقاقات المجمدة التي اذخرتها ، منذ فجر النصرانية ، جحافل الشهود والشهداء ، المعروفين منا والمجهولين ، الذين تألموا وماتوا وهم تحت علم الحرية الحقة وفي ظل الصليب يناضلون !

ذلك هو كنز الشهامات الفائقة الطبيعة الذي لا ينفك تضاف اليه ، كل يوم ، تضحيات خفية هي اكثر ثقلاً في موازين الله من جميع اعمالنا الصاخبة وحركاتنا الضجاجة ، واشد فاعلية من البارود والديناميت الذي يستخدمه الوثنيون العصريون لنسف مباني الكنيسة ، واكثر حدة من النبال التي يصوبونها الى ايمان ابناء الكنيسة ورجائهم ومحبتهم .

اثنا عشر جليلي فتحوا العالم في ازمنة كانت اشد هولا، وليالي اشد ظلمة من ازمنتنا ولياليها ؛ فلا بد للكنيسة ، وهي اليوم ملايين ، من ان تزحزح هذا المساء المظلم فتنكمش غيومه وتطل شمس الصباح البهية فتضمحل من سماء القلوب ضباب البغض السائد ، في عالم اليوم، وتبدد غيوم الخوف المتلبدة، في سماء عالم اليوم ، فيظهر الانسان على جليته اخاً ، لا ذئباً ، بازاء اخيه الانسان ، فتتحقق كلمة ربنا يسوع : « اما انتم فكلكم اخوة » !   (الاذاعة اللبنانية في ١٦ شباط سنة ١٩٤٧)

الليلة الرابعة

أخلود بعد الموت ام عدم؟

الحديث الاول

لا تناقض بين العلم والايمان !

منذ كانت المسيحية ، ايها الاخوة ، ما فتئ الهراطقة والملاحدة يحاصرون ايمانها ويهاجمون عقائدها فما انقضى عصر الا وكان لها فيه خصوم . حارب بعضهم تاريخ عقائدها واصولها وتنظيمات الكنيسة وتفاسيرها للكتاب ! ونقل البعض ساحة النزال الى ما وراء الطبيعة فاصلى اعتقاد الكنيسة بحقائق سامية تفوق عقل الانسان ناراً حامية ! وقام آخرون ، في حقل الاجتماع ، يدعون ان الكنيسة تسعى الى السيادة على الارض وان اتفاقاً عقد بينها وبين الاغنياء والاقوياء على الفقراء والوضعاء ! ولم يتورع البعض الاخر ، في مسرح السياسة ، عن ان يعتدي على ما لها من حق في التعليم وتربية البنين وادارة النفوس وينكر لتعليمها القاضي بالتمييز بين السلطتين : الروحية والزمنية ، بغية ان يعاد القيصر الى ما كان عليه قبل الانجيل : رب الانفس والاجساد !

اما ، في عصرنا ، فقد تبدل الموقف ونقل اعداء الكنيسة ساحة الحرب من

---

١) انا مدين لحضرة الاب الحر سيار اليسوعي بكثير مما جاء في هذه السلسلة واني شاكر له .

تلك المعضلات التاريخية والعقائدية والاجتماعية والسياسية الى المعضلة الروحية، نقلوها الى روحانية المسيحية فصوبوا سهام بغضهم الى قاب الكنيسة، الى الغاية من وجودها، الى فكرتها في الحياة، الى تعليمها الذي يحصر غاية الانسان بالسعادة الابدية؛ وبلوغاً الى الفوز عمدوا الى حياة الانسان يفسدون عليه معناها والى الله ينكرون عليه وجوده والى النفس البشرية يعرونها من روحانيتها وخلودها، والى المسيحية يحاربون فيها هدف الانسان الاسمى، معلمين ان الارض هي موطن الانسان وفيها نعيمه وجحيمه. فبلبلوا الافكار وزعزعوا الايمان فامسى الله، خاتم عظمة الانسان، عدواً لهذه العظمة، وصارت فكرة المسيحية بالانسان نيراً ثقيلاً يهوى الانسان خلعه، وأيقن المسكين انه لا يتيسر له ان يحترم نفسه ويكون حراً، الا اذا تعجرف وقطع صلاته اولا بالكنيسة ثم بالله ليتسلم عظمته من ذاتـه، واهماً ان من الحطة له ان يأخذها منه تعالى. بلبلة في النظام هدفها رفع الانسان الى ما فوق، الى الالوهية؛ وخفض الله الى اسفل، الى اللاوجود! فكان من نتائجها قتل الانسانية في الانسان الذي قتلوا فيه الله، وكسر صولجان السلطة في المجتمع الذي طردوا منه الله. فبات الانسان عبداً ثائراً لا يحكم ولا يساس!

لا نكير ان الانسان، في عصرنا، بلغ درجة من العظمة المادية سميا؛ ولكنه، من حيث الروح، قد تدنى، في الحقارة، الى دركة سفلى، فامسى كائناً لا نستطيع ان نسميه شخصاً بشرياً. لقد صار كائناً اجوف، لا شيء في داخله، لقد صار خلية سابحة بروحها وجسدها في مجموع يتكوّن. فاذ سلبوا من الانسان نفسه الروحية وخنقوا فيه الضمير طوقوا عنقه بنير العبودية؛ واذ أبعدوه عن الله نزعوا من صدره الشفقة وفولذوا قلبه بالقساوة على اخيه الانسان فصار مادياً فجرته ماديته الى حروب اهلية ودفعته عنصريته الى حروب عالمية واوحت اليه محبة «الأنا» ان يستبيح في سبيل ارضائها من الحقوق والمحرمات ما عن له وطاب! فباتت جريمة قايين شعاراً للكثيرين. فالايدي التي نسفت الكنائس وحطمت الصلبان هي ذي التي عذبت الالاف من الابرار واحرقت الاسرى احياء واجهزت على الجرحى

وصوبت بنادقها الى النساء وسددت سهامها الى الشيوخ والاطفال الهاربين من بربريتها ، هي ذي التي نكلت بالعدو ، المستسلم ، الاعزل ؛ وانتهكت حرماته وقبوره انتقاماً . فهل جن الانسان ؟ كلا ! بل انه منطقي يعمل بمبادئ المادية التي تلقنها ! كل الشفاه تتكلم عن السلام ؛ لكن الايدي جميعها تهيئ الحرب ؛ ان جيل العشرين خائف يرتعد ، مع ان ملايين المدافع والرجال وآلاف الطيارات والدوارع ومليارات القنابل تحرسه . الامم تخاف الامم ، والحكام يخافون الشعوب ، والشعوب تخاف الحكام . المجتمع خائف من الحاضر والبشرية ترتعد فرقاً من المستقبل ! فمن اين الخلاص ؟

حقاً ان جورج واشنطون لم يكن حالماً حين قال لشعبه : « الدين والشريعة الادبية هما الركنان الضروريان لكل سعادة ونجاح . فخطل في الرأي ان يعتبر المواطن نفسه مواطناً ، إنْ سعى الى دك هذين الركنين للسعادة البشرية ! » وهذا ما عناه الكردينال مرسيه ، غداة الحرب الكونية الاولى ، حيث قال : « ان ينبوع بلايانا كلها هو كفر الحكومات او جحودها الايمان ! »

اجل ، لا خلاص للبشرية الا بالتوبة والرجوع الى الله ! انه حل صوفي لا تعتبره العلوم الاجتماعية ولا تعتمده السياسة ؛ لكنهم لو فطنوا ، لوجدوه حلًّا سياسياً ، حلًّا اجتماعياً ، بنوع ان سائر الوسائل التي استخدمت لتلافي الخلل كانت كالمراهم توضع على ساق من خشب ؛ فلم تكن ولن تكون الدواء الناجع لشفاء البشرية من دائها العضال .

الثورة العصرية ، ايها الاخوة ، هي فكرة – فكرة تأليه الانسان ! – والافكار لا نقتلها بطلقات المدافع وتفجر القنابل ؛ بل بالافكار . وهناك فكرة منها ، فكرة يتحتم على عصرنا ان يجابهها : هي فكرة التوبة . لقد اختار السيد المسيح ، لكي يمنح غفرانه السامي ، قمة المظالم ، فغفر للص وهو على الصليب ، لكيلا يترك ليأسنا عذراً . وعصرنا اعمى سلب الله وجودَه وحقوقَه واقتنص من الانسان نفسه الروحية وحوّله عن غايته السميا وجعله حيواناً كسائر الحيوانات . شريعته غرائزه وغايته الاهتمام بالارض والتنعم باطايبها وما كان

الانسان انساناً الا اذا كان ما يجب ان يكون : نفساً روحية ، خاضعة لاوامر الله ونواهيه . فقضية النفس البشرية اذن قضية هامة ، بل هي القضية البشرية ذات الرقم الاول بين المعضلات ؛ وايماننا المسيحي يفرض علينا الاعتقاد بوجودها ، وروحانيتها ، وخلودها ، ومسؤوليتها عن اعمالها بعد الممات . على ان ليس بين ايماننا وبين العلم من تناقض . فالتناقض ، ان وجد ، فانما يكون بين الايمان وبين الاعتبارات السطحية ، لا بين الايمان والعلم الصحيح !

نحن معشر المسيحيين نؤمن بشرائع العلم اكثر من كل من يدعي العلم ! نشرح نظام العالم المنظور ولا نحجم عن توضيح القضايا النظرية ايضاً كقضية الحرية والمسؤولية والنفس ووجود الله وكمالاته وما اليها . ولما كنا لا ننبذ شيئاً بداعي انه وهم ، كنا اكثر من العلماء الملاحدة تسلحاً بما به نستطيع أن نتلاقى ونتلاءم مع كل ما هو حقيقي وواقعي ! فالمؤمن ليس انساناً ناقصاً ؛ بل هو انسان مكمل ؛ والايمان ليس مطفئة ؛ بل هو نظارة مكبرة . فالايمان وحده يعطي الحياة والفضيلة معنىً ويقيم للالم وللموت وزناً . وفيه وحده نجد جواباً على كل ما تتقاضانا مهمتنا كبشر عاقلين !

نحن نقول : انه يستحيل ان يكون بين الحقائق تناقض ، وها ان علم باستور الذي يؤكد : « الحيّ من الحيّ يولد » يطابق فلسفة اميل بوطرو الجاحد الذي يقول : « لا يستطيع الادنى ان يولد الاعلى » . وهاتان الحقيقتان العلميتان تتلاءمان مع حقيقة اثبتها الكتاب : « ان الله خلق الحياة » وخلق النفس البشرية عاقلة ، على صورته ، حرة ، على مثاله ؛ فحقّ لنا ان نستخلص منها ان الانسان لا يحقق غايته الا ببلوغه الى الله خالقه واتحاده به ! ونخلص الى القول مع بول بورجه : « انا لا اعتقد ان نفساً صالحة تستطيع ان لا تدرك موافقة الديانة الكاثوليكية لكل حاجات الناس الحقيقية » وان نضيف الى قوله كلام هنري دي تورفيل : « اذا كان قوام العلم ان يشرح مشاكل الحياة شرحاً كافياً فكيف لا نقرّ بميزة الانجيل العلمية وهو الكتاب الوحيد الذي يحلّ المشكلة البشرية حلّاً كاملاً ! »

يعترض دعاة الديانة الطبيعية قائلين : لِمَ الرجوع الى ديانة موحاة لاقرار المبادئ الاولية . فالعقل يكفي لاثبات وجود إله مشترع وديان ولاثبات وجود نفس روحية، في الانسان ، خالدة ، مسؤولة عن اعمالها ، في الحياة وبعد الممات ! ؟

ان براهين الوحي التي نستشهد بها اثباتاً لهذه الحقائق تمتزج ببراهين العقل امتزاج النار في قطعة من حديد يراد تحويلها الى فولاذ ؛ فالنار تتغلغل فيها وتلينها وتصقلها وتصلبها ، والوحي ، كالنار ، يقوي استقراآت العقل ويدعم حججه ويوطدها . قال القديس توما : « الوحي ضروري لنا ضرورة ادبية لنقوى على اكتناه بعض الحقائق ، ولو كانت في النظام الطبيعي ، كحقيقة وجود الله ، وحقيقة الابدية ، والمجازاة بعد الموت ! اذ بدون الوحي قليل من الناس يبلغون ، فعلاً ، الى فهمها وان ادركوها فبعد عناء طويل يتعذر على الكثيرين احتماله حتى ولو جهدوا فأدركوها فلا يكون الا مع مزيج من الريب والضلال »

اجل ، بدون الوحي تختلط الحقائق بالاوهام ! ومن أمعن النظر في طبيعة الانسان الساقطة وطالع تاريخ الشعوب الغابرة بان له عجز الانسان عن الوصول الى الحقائق الدينية بدون وحي من الله . لأن بينها حقائق تسمو القوى البشرية وبينها حقائق يمكن عقلنا ان يقتبسها ولكن بعد كدّ وجدّ . وها هوافلاطون ، احد نوابغ البشرية ، يقرّ بأنه يئس من الوصول الى حقيقة ، ادبية ، ثابتة ، لا يشوبها ريب وبهتان ولا يعتريها ضلال وطغيان بدون غوث علوي . قال في كتابه « فادون » (صفحة ٣٥) : « ينبغي ان نأخذ من التعاليم البشرية افضلها وأقلها موضوعاً للجدال ، لنقطع على ضرئها نهر الحياة ، كما لو كنا على زورق ، سريع العطب . اللهم ان لم نوفق الى اجتياز ذلك النهر بأكثر طمأنينة وعلى مركب امتن اذ نستنير ببعض الحقائق والتعاليم الالهية . » والى هذا ألمع سقراط حيث قال : « لا تتوقعوا اصلاحاً في اخلاق الناس ان لم يرسل الله الينا واحداً من قبله يثقفنا » . فعبثاً يحاول الجنس البشري ، بدون عون علوي ، ان يكتشف حقائق الدين . لأن العقل ، بدون الوحي ،

يرقد غافلاً عن ذاته ويجهل ميزاته او على الاقل يرتاب بقوتها وقيمتها .

ان من طالع مقالة شيشرون « عن الشيخوخة » يذكر تلك الكلمة الجميلة التي نقلها كاتون عن افلاطون وهي : « ليست الحياة الحاضرة بالحياة الحقيقية . فان هي الا منفى النفس . فالنفس لا تبدأ تفكر حقيقة الا بعد تحررها من رباطات الجسد . فانا مشتاق اذاً الى ان اموت لكي احيا . ولست براض ان يمتد بي زمني فتتأخر ساعة انحلالي لأترك فندق الحياة الحقير وانضم في ارض الاحياء الى الجماعة الالهية ، جماعة النفوس ، حيث التقي بجميع من أحببتهم » !

بيد انه ، بعد هذا الاعتراف الجميل بخلود النفس ، اذا بالقلق الذي ساور افلاطون يعود الى الظهور على شفاه كاتون فيقول : « اذا كنت ضالاً باعتقادي بالخلود فذلك غرور احبه ولا اقبل ان ينتزعه مني احد » وبهذه الكلمة ختم شيشرون حواره

وهذا جيل سيمون الذي حاول ، طيلة حياته ، ان يضع على الدين الطبيعي دعائم الاداب قد عرف بعد اختبار ان الشعب لا يؤخذ بحبائل دين طبيعي لم يؤسس على صخرة الوحي وفهم انه بنى صرح تعاليمه على أوهى من نسيج العنكبوت وخلص الى القول: « ان هذه الاحكام والقواعد لأعجز عن ان ترضي الانسان وتعزيه . وتبنى ، ساعة نزاعه ، زفرة اريسطو فقال : « في الجهل ولدت وفي الريب عشت ، فيا علة العلل ارحميني » هذا مع العلم بأن جيل سيمون قد تمتع بأنوار لم ينعم بها فيلسوف الوثنية ، وانتحل حقائق عديدة من الاداب المسيحية فكان كالواضع رقعة جديدة في ثوب بال واحتفظ حتى نهاية ايامه بشعور جعله يعتقد انه كسنجاب يقضي ساعات النهار يدور في قفصه ، واهماً انه يعدو في الارض ، حراً ، فاذا به في المساء ، ضمن قضبان الحديد ، سجيناً . فما يكون اذن من انسان العامة الذي تحول بينه وبين التنقيب والدروس عوائق عديدة ؟

سؤال ما تلكأ جيل سيمون نفسه عن ان يطرحه على نفسه لذلك دفعته

الشجاعة يوم كان وزيراً للتربية الى ان يعتلي منبر الندوة ويصيح بزملائه نواب اليسار قائلاً : « تيقظوا ، فان انسحبت الكنيسة الى البرية ، حاملة انجيلها وتعليمها المسيحي ، كما تريدون ، فهل تعرفون ما تخلفه لكم ؟ انها تترك لكم وراءها شعباً من العبيد والبرابرة » وكان اكثر منه تشاؤماً « بنوا مالون » القائل في كتابه « الادب الاجتماعي » (صفحة ٢٠٧) : « اننا نحصي النفوس التي شرفتها الفلسفة وفي اربعة صفحات نستطيع ان نكتب تاريخ هؤلاء الاشراف القلائل : ... اما من بقي من الناس فقد جرفهم سيل ... شهواتهم فتدحرج بعضهم فوق بعض ، في اودية الغريزة ومهاوي الخرافة المملوءة مخاطر ، يتسكعون في مهامه البطل ويركبون متون الاباطيل الفاحشة » . وقال اميل فاجه : « ان من يعرف الفلسفة كمن لا يعرفها ، كلاهما قائمان في صعيد واحد ، لأن العلم لا يعلّم الانسان الا صغارة الانسان وينتهي به الى ذات النتائج التي يوصله اليها الدين ... ما عدا الرجاء ! »

ومما يجعل اضافة الوحي الى الفلسفة ضرورية ايضاً هي تلك اللجة العميقة ، القائمة بين المعرفة والعمل . فكل انسان صادق يعترف مع اوفيد ، الشاعر الوثني ، القائل قبل بولس الرسول : « اني ارى الخير واميز الشر ولكني اعمل الشر وارتكب الاسواء ، فانا كالجليد بازاء الحقيقة وكالنار تجاه الكذب . وكثيراً ما يتفق لي ان أبكم عقلي ان لم يضف اليه الوحي هزيمه ورعوده ! » وعن هذا عبر موريس بارس قال : « قلب الانسان كرق عتيق كتبت عليه كتابتان . فتحت الكتابة الثانية – كتابة العقل ، تظهر دائماً الكتابة الاولى – كتابة الحيوان فاذا نجحنا في إخفاء هذه ، فلاننا نعيش في مجتمع خلقته الكثلكة وصقلته تعاليم الانجيل ؛ ومن هذا الجو نكتسب نبلنا الادبي ! »

ولمَ الاكثار من تصريحات المفكرين والكتبة ؟ فلو شئنا ان نأتي عليها كلها لكتبنا مجلداً ! فالكنيسة المحامية عن الوحي هي هي التي تنتصر للعقل . والوحي الذي نقول بضرورته هو الذي يخلص العقل من الريب ويحثه على البحث والتنقيب ؟ اما الفلسفات العصرية فتهدف الى رميه في اليأس !

اسمعوا ببيار لوتي يخطب في محفل العلماء قائلاً: « ان العلم الحقيقي لم يعد يرتجي ان يؤكد ما كان يعرفه بالامس . فكل مرة يكشف دماغ بشري مسكين علة شيء ، يكون كأنه توفق الى فتح باب جديد ، من حديد ، ولكن ليطل منه على رواق اكثف ظلمة يقوده الى باب آخر ، محكم الاختام ، شديد الرهبة ! » وقال موريس مترلنك في آخر كتابه المعنون : « امام الله » « ستلوموني ، مرة اخرى ، على هذه النقاط الاستفهامية ! ولكن هل من الشرف ان نؤكد ما نجهله ؟ فاذا استطعنا ان نجيب جواباً قاطعاً على سؤال واحد من الاسئلة التي تطرحها علينا الحياة فلا نكون بعد قائمين على الارض او بالاحرى تبطل الارض ان تكون الارض ! » . وعلى هذا أجاب جونكور : « دعونا اذن مستريحين من اضاحيك فلسفاتكم ودياناتكم الطبيعية ، فديانة بدون الفائق الطبيعة تذكرني باعلان قرأته في بعض الصحف : « نبيذ من دون عنب » (الجورنال في ١٩ تشرين اول سنة ١٨٦٢) فمن شأن العلم ان ينظم الحوادث الحسية ويشرحها ؛ لكنه لا يقوى على ان يفهمنا اين تبدأ دائرة حياتنا ولا اين تنتهي ! العلم يقول ما قد يكون ويقترح ؛ لكنه لا يأمر ؛ وان عنّ له ان يخاطر ويعبر الى دنيا غير دنياه فيقودنا الى بابل من الافكار والاراء والمذاهب !

اجل ، ايها الاخوة ، خارجاً عن الكنيسة يوجد فلاسفة ، لا فلسفة ؛ وإلا فتفضلوا وقدموا لي فيلسوفاً شهيراً اتفق وفيلسوفاً مثله حتى على المبادئ الجوهرية . فهناك هباء من التعاليم والمذاهب : من العنادية الحمقى الى الابيقراطية الشهوانية الى المادية المائعة ، الى العنصرية البلهاء . . . وعن هذا نتج ذلك العياء الذي خبره بسكال في نفسه فقال : « من الجيد ان يتعبنا البحث الباطل عن الخير الحقيقي لكي نمدّ الى المحرّر ايدي الاستغاثة . ففي طاقته وحده ان يشدد عقلنا ويقول له : ان ما تبحث عنه انا احمله اليك ، وما تؤكده انت اؤكده انا لك . والخبز الذي يتطلبه جوعك ليس هو خيالاً بل حقيقة »

كل هذا لا يعني ان النفس تتطلب الوحي حتماً . فالوحي نعمة مجانية من لدن الرب ؛ كيانها كله يظهر كأنه استغاثة بالانجيل وسَوقٌ اليه.

قال ارنست بسيكاري ، حفيد رنان الجاحد : « من اللازم ان يهبط اللامحدود الينا ويجعل نفسه محدوداً ، لنرقى نحن اليه »

سامعي الكرام ، اننا ، بهذا الروح ، روح الثقة بالعقل ، وروح الثقة بالانجيل ، نعالج معكم ، هذه السنة ، اولى المشاكل البشرية ، بل المشكلة الوحيدة ، عنيت مشكلة الابدية !

(الاذاعة اللبنانية في ٢٦ ك ٢ سنة ١٩٤٨)

رأس الانسان علبة اسئلة : بعضها صغير وبعضها كبير ، بعضها مضحك وبعضها موءلم ! جاهل هو الانسان ، لكنه جدير بالفهم وميال الى المعرفة ، لذلك يقضي الحياة يسأل . قايه جلبة في رأسه الحقير والشريف معاً !

اذا كان السوءال ، عنده ، يتطلب الجواب ، فالجواب يثير السوءال وهكذا دواليك منذ انسان المغاور الى انسان عصر النور وسيظل هذا شأنه ما دام على الارض انسان !

يسأل الانسان القمر والشمس والنجوم ، يسأل الارض والذرة ، الحصاة والقلب ، الزهرة والضمير ، يسأل عالم الداخل وعالم الخارج ، يسأل كل شيء ويطلب الجواب على كل شيء ! عيناه مفتوحتان واذناه مصغيتان وفكره دائماً بالمرصاد ، يده تحفر الارض وعقله يسبح في الفضاء ويغوص في اعماق البحار ويسأل ليعرف ويرجو ، ليعمل ويعيش .

يتلقى اجوبة بعضها مريح وبعضها متعب ، بعضها يدله على الرجاء وبعضها على اليأس ، بعضها نور يضيء طريقه في الحياة وبعضها لا يزيد ليله إلا ظلاماً . هنا اجوبة صادقة ملوها الخير وهناك اجوبة غامضة تنضح كذباً وبهتاناً . فالبشرية الباحثة كانت غالباً بشرية مخدوعة ! إن وقفة الانسان امام المسيح وقفة سائل ووقفة المسيح امام الانسان وقفة مجيب !

نحن لا ندعي ان المسيح اعطى جواباً على كل الاسئلة وحلاً لجميع معضلات الانسان ، لكنه قد اجاب على الاسئلة الجوهرية . لقد اجاب عليها اجوبة تقنع عقل الانسان الظامىء الى الحقيقة وتريح قلبه المتعطش الى الراحة والخير . وبها خلص الانسان من مساوىء الجهالات المميتة ! ويظل الانجيل الكتاب الوحيد الذي تنبعث منه الانوار لعقل الانسان !

الحديث الثاني

من يجيب ؟

في خطاب ألقاه ألبر « دي مان » اتى على ذكر حادث طريف وقع في افريقيا لاحد رفقائه في الجندية ، قال : « كنا نياماً على حدود الصحراء ، قرب عربات الجرحى ، فعند هبوط العتمة سمعت بغتة صوتاً لا يزال صداه يرنّ في اذنيّ كأنني الان في وسط ذلك الصمت العميق ، صمت الصحراء الرهيب ، صوت جنديّ يصارع سكرات الموت يرتفع وحده من سيارة المستشفى ؛ أصغيت فاذا به يقول ، وفي نبراته غصة ومن كلماته يقطر الالم : « بحقك ، يا حكيم ، قل لي : أبعد الموت خلود ؟ »

ان زفرة ذلك الجندي هي زفرة البشرية التي تتعب وتتألم ثم تموت ، والمشكلة التي شغلت عقله ، امام الموت ، تشغل عقل الانسان من يوم فتح الانسان عينيه على تفحص اسرار الكون وستشغله الى ان يغمض آخر انسان جفنيه عن هذا الوجود . والسؤال الذي طرحه على الطبيب ينتظر الجواب عليه كل مَن يلج مقدس نفسه ويفكر بالمصير : هل وجدت لأحيا سحابة من الزمن في احضان المادة ثم انحل بانحلالها فيغمرني الفناء ، ام خلقت للبقاء ؟ واذا كنت ما خلقت إلاّ لأموت فلمَ اعطيت الحياة ؟

قال بسكال : « خلود النفس قضية تهمنا جداً ، قضية تلامس اعماق

قلبنا ، قضية توجب على كل عاقل أن يبحث عن حل لها . فان عاش احدنا في اللامبالاة بها عددته فاقد اللبّ عادم الشعور ! » ثم زاد : « لا يسعني الا ان اشفق على الذين يئنون مرتابين بالابدية ولا يألون جهداً لينجوا من ريبهم بها ... اما الذين يقضون الحياة لا يفكرون في غاية الحياة فاني اعتبرهم اعتباراً آخر ... فتلك اللامبالاة بأمر مداره عليهم ، وعليهم يعود نفعه او ضرّه ، خيره او شرّه ، تلك اللامبالاة بأبديتهم ، اي بكل ما يملكون ، تغضبني اكثر مما تحرك فيّ عواطف الشفقة . تلك اللامبالاة تدهشني وترعبني . ان انساناً يعيش فيها انما هو مسيخ انسان لا انسان ! »

ولماذا يا ترى؟ لان الانسان ، يُردف بسكال : « لا يحتاج الى ذكاء ثاقب وعقل راجح ونفس عالية ليفهم ان ملذاتنا هي تافهة وان خطايانا وشرورنا لا تعدّ وان الموت الذي يهددنا في كل لحظة سيطرحنا في الضرورة المرعبة : إما في العدم واما في العذاب ، ما دام الله ؛ تلك هي حقيقة ليس اوضح منها ولا ارهب ! »

بيد انه من دواعي الفخر ان النخب في عصرنا عادت فاكتشفت نظام القيم والعظمات . ان اميل فاجه ، في مرحه ، يهزأ بالباحثين المتأخرين الذين تقلقهم معضلات « سريوس » [sirius] فيهتمون بحلها ولكنهم يشفقون على المفكرين العاكفين على درس مشكلة الانسان وينعتونهم بالمجانين ، وقد فاتهم ان المجنون هو ذلك المسافر الذي يغفو في القطار واذا ما صحا غير عارف من اين أتى ولا الى اين يذهب يقعد يتطلع في اقسام مركبته ويفحص اجزاءها ويدرس تفاصيلها ويحلل الوانها ويدون في مفكرته ما يحلو له من ملاحظات لا يأبه لغاية سفره ولا يبالي بمصيره ولا يقلقه جهله ما لاجله يتكبد النفقات ويحتمل الاتعاب ، ما لاجله ركب القطار !

الى اين نحن ذاهبون؟ الى اين تنتهي بنا الحياة الدنيا؟ فالجواب على هذا السؤال منوط حتماً بالجواب على سؤال آخر : هل نحن كالحيوان الاعجم ام فينا نفس روحية؟ والحفرة التي نطمر فيها أهي لنا ، كما هي للحيوان ،

من منا وهو يشيع الى المقبرة عزيزاً لديه لا تملكه الرهبة ولا يأخذه هذا القياس الاقرن المخيف ؟ أنهاية هو ما نسميه الموت ام بداية ؟ ما هو الباقي من الولد والصديق والام والزوجة ؟ هل كان مرورهم بيننا مرور الحلم ؟ هل سقطوا في العدم والفنا. بسقوطهم في حفرة القبر الرهيبة ؟ ام انهم ولجوا حياة جديدة ولوج حبة الحنطة في التراب تموت لتحيا ؟

فمنذ كانت البشرية والناس عاكفون على هذه المعضلة يشبعونها درساً وتمحيصاً والموت ، رب الحياة الصامت ، يدفعهم الى الحفرة افراداً وافواجا ! كتب ضخمة وكتابات عديدة من حفريات المغاور الى آخر كتاب نشره آخر فيلسوف في عصرنا : كلها تسأل : امادة تنحل ام روح تبقى ؟

فاذا وقفنا عند ظواهر الوجود خلنا الانسان مادة تنحل ، خلناه نقطة مطر تصحب رفيقاتها الى نهر الموت الجارف الذي يصب في الاوقيانس العظيم ، اوقيانس الفناء ؛ اذا وقفنا ، عند بعض الظواهر ، لاح لنا ان المعضلة قد حلت بانتصار المادة على الروح ! ان مَن زار المعرض الدولي الذي اقيم في باريس سنة ١٩٣٧ ظهرت له بناية الاكتشافات كأنها هيكل المعرض ؛ وفي هذا الهيكل ، قامت العلوم تعظم اختراعاتها وتقدسها والزائرون يمرون بجبال القمر وفوهات براكينه وبالتلفون واللاسلكي والتلفزيون وما اليها ، مأخوذين ، تتملكهم الدهشة كأطفال يلقي عليهم معلمهم العجول مثالات تفوق فهمهم وتسمو ادراكهم !

لقد انتصرت المادة ! والاختراعات هي الدليل ! فأين الذين يذكرون الروح ؟ ومَن هم الذين يفكرون بالنفس ؟ مَنْ هُمْ ؟ هم اسياد الفكر وامراء الفنّ ! هم الذين درسوا المادة وسبروا غورها وآمنوا مع ذلك بالنفس وخلودها ! هم بسكال وديكارت ولوفورييه وكوبرنيك وأمبار وفولتا وباستور وبرنلي وغيرهم كثيرون من الروحانيين العظام ! مَنْ ؟ هي المسيحية التي تمثل الروح بأسمى اشكاله . لقد دخلت المعرض وتجلت في ساحاته وجنباته بأناجيلها وكتدرائياتها ، بتحفها الفنية وملحها العلمية ، بأكواخ مرسليها ، وكتبها

ومنحوتاتها ونقوشها ومؤلفاتها العلمية ، بصلبانها البراطونية والكورسيكية وما إليها من آيات ، يعلوها جميعها ويشرف عليها صليبُ الجناح البابوي وعذراؤه المذهبة !

أفبعد هذا يحدثوننا عن انتصارات المادة من دون سواها ؟

هدمت بنايات المعرض فظهر في واجهات المكاتب مؤلف قيم عنوانه : « مادة ونور » نشره لويس بروغلي ، العالم الاشهر في الطبيعات والعضو في محفل العلماء والاستاذ في كلية العلوم والنائل جائزة نوبل .

نصب العلامة في مؤلفه هذا ميزانَ الاكتشافات العصرية ورسم خطوط فلسفتها فقال ما معناه : اننا نعرف اليوم احسن من ديكارت او نيتون الخلية والذرة ، اصغر الخلائق الصغيرة ؛ على ان كثيراً من مبادىء علمنا يحتمل اعادة النظر . ومتى اعدنا النظر في تلك المبادىء قامت بوجهنا اسرار جديدة . فيقتضي اذن ان نتعلم ، من اكتشافات عصرنا ، امثولةً ، لا في العُجب والكبرياء ، بل في الدعة والتواضع . ولو تبصرنا قليلاً لرأينا ان مجموعة ما نجهل تفوق جداً مجموع ما نعرف ؛ فيتحتم علينا ان لا نعجّل باستنتاجاتنا ومتى عرفنا — ان كان في طاقتنا ان نعرف — الاسرار المخفية في قلب الذرة التي هي اصغر بألف مليار مرة من احقر الدويبات ، فهل نصبح اكيدين من ان معرفتنا تساعدنا على تقدم البشرية الحقيقي وتمدنها ؟

كلا ! لأن تمدن البشرية لا يقوم باستبدال العرادات بالمدافع ولا المدافع بأشعة الموت والقنابل الذرية ولا بأن يجهز كل مواطن بسيارة وكل بيت بآلةٍ لاقطة ولا ... ولا ... بل بأن نسلح الانسان بضميرٍ حيٍ وبأن نلقنه فيتيقن من ان العالم المادي لا يشبع الانسان ولا يرضيه ولا يكفيه فعبثاً يحاول ان يتناسى « ان كل بشر كالعشب وكل مجده كزهر الحقل » (رسالة بطرس الاولى : ٢٤) وباطلاً يسعى الى ان ينظم ذاته في مصاف المترفين والمطمئنين ، فحقيقة الزوال لا تلبث ان تظهر له بأجلى مظاهرها . ان تلك الكلمة : « باطل الاباطيل » التي لفظها عبقري عجم عود

المادة وسبر غور اللذات ؛ ان كلمة سليان الحكيم تؤاسينا وتغنينا عن اناشيد منتفخة شرع بتلحينها بعض الساسة والفلاسفة الماديين الدعيين .

ان تقدم البشرية الحقيقي يتوقف على رفعة الانسان الروحية والاخلاقية اكثر مما يتوقف على حالات الحياة المادية التي ستبقى ابداً، حتى من حيث طبعها ، زائلة تافهة !

ما نحن بمنكرين فضل العلوم وماوفرت للانسان من التقدم والفلاح والراحة والسعة. فكم من مشقات أزالتها وجراحات ضمدتها ومشتتات وصلتها وكنوز اتحفت بها البشرية . فحق للعلماء خالص الشكر . فمن المفيد اذن ، بل من الواجب ، ان ندرس الذرة والميكروبات وما في مسكننا الارضي من اسرار وخفيات ؛ إلا انه لا يجوز لنا ان نتناسى البحث عن تلك الملكة التي لأجلها وحدها كانت الارض ؛ ينبغي ان لا نسهى عن النفس الروحية في الانسان !

«بحقك ، يا حكيم ، قل لي : أبعد الموت خلود ؟»

فمن يجيب ذلك الجندي على سؤاله ؟ فاذا قيل العلم ! فلقد رأينا ، في حديثنا السابق ، ان العلم أبى ان يكون في هذه القضية حَكماً ! واذا قيل الفلسفة ، فسنطرح السؤال على الفلسفة في احاديثنا الآتية ؛ وانا واثق من ان جوابها لن يسمعه ويفهمه الا حفنة من الناس ونخبة من نبلاء الفكر ؛ مع انه ، اذا كانت البشرية ، هي ، غير ما قال احدهم عنها : «خشخشة ديدان تدلف الى الفناء ،» حق لها ان تعطى جواباً باستطاعة كل نفس ، ذات ارادة صالحة ، ان تفهمه والا وجب ان نخلص الى افلاس البشرية وعجزها والى ان الانسان هو اتعس سائر المخلوقات واشقاها . أشقى من الحشرة لان ميول هذه محدودة ولانها بجاراتها غرائزها تصل الى ملء حياتها ! اما الانسان فانه يقضي الحياة يحلم بالسعادة ويحن اليها ولا يصادف منها ، في هذه الحياة ، سوى السراب ؛ على انه وان تمتع بحلاوتها فبعد قليل يبكي سرعة زوالها وان امتص وثملاً من عذوبتها فقد يسأم مواعيدها الكاذبة ويصبو الى الخير الازلي ، محطّ امال ورغبات كل صب مستهام . وهذا اغوسطينوس

الذي « كل ما ابتغت عيناه لم يدعه يفوتها ولا منع قلبه من الفرح شيئاً فأكل وشرب وتنعم بطيبات الحياة » نسمعه يقول في احدى مناجاته :
« اللهم قد صنعتنا لك ولا يزال قلبنا قلقاً حتى يرتاح بك . »

« — « بحقك ، يا حكيم ، قل لي : أبعد الموت خلود » ؟ فالجواب على هذا السوآل قد سمعته البشرية ، منذ دقيقة خلقها ، واحتفظت به وحافظت عليه ، منذ القدم ، حفاظها على الكنز الثمين . كنز اختلط غالباً بالطين ، نعم ! ولكن فرز الذهب عن الصلصال هو في حيز الامكان .

ذلك الجواب قد وجده الانسان في ضميره وفي رغباته وميوله ! ذلك الجواب قد سمعه الانسان من الوحي ؛ ودليلنا جميع الاداب في اللغات القديمة باجمعها !

ذلك الجواب قد قرأه الانسان في كتب انبياء العهد القديم : تراث ثمين ورثه وذب عنه عوادي الاهواء ، بامانة وحشية ، شعبٌ امتنع على مضطهديه ، حتى الان ، أن يبيدوه او يضعفوه .

ذلك الجواب ، لقد حمله المسيح الى البشرية ، واياها اعطى ، بوضوح وجلاء ، الحل النهائي لمشكلة الحياة وخلف لنا كنيسة ، معصومة من الغلط ، في ما يخص الايمان والاداب ، وكلفها ان تشرح ، على الدوام ، جوابه بلهجة حية يفهمها جميع الناس حتى البسطاء .

ذلك الجواب حملته الكنيسة ، بالرغم من زوابع المضادات واعاصير الاضطهادات ، الى اصقاع المعمورة جمعاء . وذلك قبل ان تنقضي ثلاثة اجيال على تأسيسها . وعن هذا كتب بول بوربه الى زملائه في دار المعلمين قال : « اني لاشعر بغبطة لا يعادلها غبطة وبفخر لا يحاكيه فخر ، حين اعرف ان جوابنا على انة شكسبير القائل : «كل المعضلة هي في ان نعلم : أنحن خالدون ام الى العدم سائرون» ؟ هو نفس الجواب الذي نادى به موسى وبعده داود وبعده الانبياء . اي اننا بحاجة ملحاحة الى اللامحدود والى ما هو ابدي لنشبع جوعنا الى الحقيقة ونطفأ ظمأ قلوبنا الى الخير الاسمى !

لن انسى ، ايها الاخوة ، تطوافاً حضرته في لورد ، عاصمة الصلاة وملتقى

النفوس الدولي، بل العالمي . لقد كان الزائرون ، في ذلك الحين ، خمساً وعشرين الفاً من كل امة ولسان . فقبل الشروع بالتطواف ، عند هبوط العتمة ، بادر الاسقف ، ممثل الحبر الاعظم ، فاشعل شمعة ومنها اشعل الاساقفة ثم الكهنة ثم المؤمنون شموعهم وما هو الا قليل الزمن حتى رأيت ، بالرغم من الهواء ، نهراً من النور ، جارفاً ، غطى القمم ووادي الجاف ... وهكذا منذ منبت البشرية : منذ خلق آدم ؛ ومنذ نصب موسى قائداً لشعب الله ؛ ومنذ اقيم داود ملكاً ؛ ومنذ ولد يسوع ؛ ومنذ كان بطرس رأساً للكنيسة ، والسؤال العظيم : اريد ان اعرف هل بعد الموت خلود ؟ يلقى جوابه الايجابي وينتقل من جيل الى جيل ومن ذرية الى ذرية .

واذا اتفق ان انطفأ نور هنا وخبا نور هناك ؛ فنهر النور ما توقف جريه قط ؛ بل ظل يجري ويهدر في صحراء الحياة .

أما لماذا انطفأ نور هنا وخبا نور هناك ؛ اما كيف تسنى للانسان الذي حرس على سر الاختراعات الاولية التي ضاع منشأها في ليل الازمنة كسر اختراع النار والقمح والخبز والخمر وما اليها ، كيف تسنى لبعض الناس ان ينسوا سر الخبز الاخر ، قوت العقل وغذاء الروح ؟ كيف تسنى له ان ينسى الجواب على ذلك السؤال المخيف : الى اين انت ذاهب أإلى الموت ام الى الحياة ، أإلى اللامحدود ام الى العدم والفناء ؟

السبب ، سأقوله لكم ، في حديث الاحد الآتي ، فالى اللقاء ، وانتم على احسن حال ، ايها الاخوة الاعزاء !

(الاذاعة اللبنانية في ١١ ك ٢ سنة ١٩٦٨)

الحديث الثالث

الطريق الى الحقيقة!

لقد قيل : « وعد الحر دين » فبراً بالوعد الذي قطعته ، الاحد الماضي، ها انا اشرح لكم ، اليوم، السبب الذي لأجله نُسي الجواب على ذلك السؤال المخيف : أإلى الابدية انت ذاهب ، يا انسان ، ام الى الفنا. ؟

من الثابت ، ايها الاخوة ، ان لا بد للنظام الادبي من ان يرتكز على بيّنة علمية ، بيّنة تؤخذ من صميم تلك الفلسفة التي نعتها ليبنتز « بالابدية » ومن مبادئها مثلاً : « لا معلول بدون علة ، لا بناء بدون بنّاء ، لا شريعة ادبية بدون مشترع أسمى » . ويقيننا ان انكار هذه المبادئ العلمية اذا شئتم ، يجرّ حتماً الى اسكات العقل وتعقيم الفكر . فلمَ يستسهل بعضهم اذن التسليم بافتراضات واظانين يدعونها علمية : كشريعة الجاذبية مثلاً ويرفضون ان يعتبروا تأكيدات علمية : وجود الله ووجود النفس الروحية ؟ علة ذلك ان شريعة الجاذبية لا تلامس إلا عقل الانسان ، أمّا وجود الله ووجود النفس الروحية فيلامسان كيان الانسان جميعه : العقل منه والارادة . تلك تستلزم سداد العقل، وهذه تتطلب ، ما عدا سداد العقل ، استقامة الارادة وصلاح السيرة وقمع الشهوات الزائفة ؛ والانسان، في سبيل نفعه الحسي، المادي، ينكر حتى الحقائق الحسابية وصدق الارقام ؛ وقد فعل ذلك بعض وزراء المالية في العالم ولم يتورّعوا ! وعن هذا ينجم التباين بين الحجج الادبية والبينات المقول

عنها علمية .

الى هذه الحقيقة ألمع ارسطو وافلاطون وبسكال اذ اجمعوا على القول : « لكل نظام من المعارف براهينه : فالمعضلات الحسابية تحلّ ببينات حسابية . » والمشاكل العلمية باقيسة علمية والعقائد الدينية ببراهين دينية . اما القضايا الادبية والدينية معاً ، كخلود النفس مثلاً ، فلا يكفيها قياس منطقي يصدره العقل منفرداً ؛ بل تتطلب من الانسان اشغال حيوياته كلها .

حقيقة لا ريب فيها . لانه كلما سمت الحقيقة كلما اضطر الانسان الى ان يشغل جميع ما فيه من قوى ليدركها ويكتنهها . لقد روّض الانسان الخيل والقردة فعدت من الواحد الى المئة ! انما استحال عليه ان يروضها على الحكمة وعلى العمل بالشريعة الادبية . فللعمل بهذه يقتضي ما لا يملكه الحصان والقرد ، يقتضي لفهمها والعمل بها دقة في الفهم وصلاح في الارادة . شيئان لا يملكها الحيوان على الاطلاق !

قال افلاطون : « يجب على الانسان ، في حل المعضلات الادبية ، ان يسعى الى الحقيقة بكل قواه . وعليه ان يحب الحقيقة حباً يحمله على الرضى باتعاب البحث عنها وقبول المشقات التي تنشأ من معرفتها » .

فهل نحن بحاجة الى افلاطون ليكشف لنا عن هذا الامر الجلل ؟ حدثوا ، ان شئتم ، هذه او تلك الطبقة من السوقة عن المُثل العليا وعن واجباتها نحو البشرية ونحو وطنها واولادها ؛ ادعموا كلامكم بما عنّ لكم من الحجج الدامغة وامعنوا بسرد البراهين ما طاب لكم ؛ فانكم تتعبون عبثاً وتضيعون وقتكم سدى ، ويذهب جهدكم عليكم ، كما لو كنتم تصفون الالوان، لمئة من العميان ! فهناك خاصة سميا ، هناك قابلية لا تملكها الطغمة التي تكلمون ! فالانسان لا يتعلم ان يعرف الا ما يحب ؛ ولا يجد الا ما يفتش عنه ؛ ولا يفتش الا عما يهوى ؛ ولا يهوى الا ما هو خليق به !

وعن هذا عبر ربنا يسوع بجملة قصيرة تنوء كلماتها تحت معانيها اللامحدودة قال : « ان من يعمل السيئات يبغض النور ولا يقبل الى النور لئلا تفضح اعماله ؛ وأمّا الذي يعمل الحق فانه يقبل الى النور لكي تظهر اعماله لانها

مصنوعة في الله (يوحنا ٣ : ٢٠) وقال افلاطون : « اعين الدم تجعل الطفل يعرف امه من بين نساء كثيرات » كذلك ان للايمان اعينه ! استعداد اولي هام حتى ان ما يأتي بعده لا يعتبر الا شيئاً ثانوياً ؛ وفي هذا المعنى ، قالوا وقولهم ذهب مثلاً : « كل الدورب توصل الى رومة » وفي الواقع ، يا سادة ، ان عدداً وافراً من المهتدين الى ايمان رومة لم يسلكوا أقوَم الطرق اليها ؛ بل تعددت دروبهم بتعدد انفسهم وعقولهم ؛ والسواد الاعظم ممن كتبوا عن هدايتهم اضطروا الى ان يعلموا ، بعد الذي نشروا ، ان كتاباتهم كانت لغيرهم ، لا لهم ؛ اما هم فقد وصلوا الى ايمانهم عن غير طريق الهداية السلطانية التي عنها يكتبون! فحدثنا « مونتاني » عن شاب ردته الى الكثلكة خلاعات البلاط الروماني فقال : « لو لم تكن الكثلكة ديانة الهية لكانت تلك الخلاعات أبادتها ! » برهان سديد ؛ لكن المحامين عن الكنيسة ما اعتادوا ان يتخذوه حجة ليثبتوا ان الكنيسة هي من وضع الهي ! واخبرنا شاتوبريان عن هدايتـه قال : « ماتت امي فبكيت وآمنت » واما فرنسوا كوبه فقال : « تألمت فاهتديت » !

فهل تكون الدموع علماً او برهاناً يبين حقيقة الدين المسيحي ؟ كلا ! بل انها ، كما قال عنها افلاطون : « تطهر العيون » وقال ربنا « طوبى للباكين فانهم يعزون ، وطوبى للانقيـاء فانهم يعاينون الله » ! تطهرت اعينهم فرأوا انه من المحال ان ينتهي الخير والشر على باب القبر ؛ وانه من المحال ان تخيب وتخدع ميولنا العميقة الى العدل والسعادة ؛ وانه من المحال ان لا يكون لنا نفع من وراء الالام والتجارب ؛ وانه من المحال ان يجاز للجسد الاستبـداد بالنفس . ومتى بلغت النفس هذه الدرجة من التجرد والنقاوة امتنع عليها ان لا تطير وتحلق في الاجواء ؛ فيصبح ما كان لها حجة للانكار برهاناً وضعياً للايمان

اما اذا باتت مقيدة بشهوة لحمية او بما اسمته « مدام دي ستال » « شهوة سياسية » ! فكل شيء ، يمسي في نظرها ، اعتراضاً على الايمان الى حد انه يسبب في القلب هيجاناً يستولي على الانسان ويتحكم به ويكبل سلطان عقله ويخرسه ويخنق الروح ويكبت الشعور ويكبحه .

امر روبسبار ، تحقيقاً لسعادة الفرنسيين ، وطبقاً لما اوحته اليه حزبيته ، بان يطيروا من عن المقصلة رؤوس مليوني فرنسي ! وفي سبيل وحدة الشعب الالماني وتثبيت دعائم الديانة العرقية ، عمد هتلر الى تشريد اليهود والتنكيل بهم والى القضاء على كل منتصر لديانة الكاثوليك والبروتستانت ! وعلى طريق ذينك الطاغيتين سلك قادة الاحزاب في المكسيك واسبانيا وروسية. سعى هؤلاء جميعاً الى الحقيقة! ولكن بشهوة سبقت فتخيرت موضوعها ؛ لا حباً بالحقيقة ولا لانها حقيقة ولا بكل قوى نفوسهم !

لانه لا يسعى الى الحقيقة بكل قواه مَن لا يسلم باولوية القيم الروحية التي ترتكز عليها الانسانية الراقية ! لا يسعى الى الحقيقة بكل قوى نفسه من لا يعترف بالضرورة التي تقضي عليه باحترام الذين يحافظون على المثل الانسانية العليا ، المنسية ، في كل مكان ، نسياً يدعو الى الاسف الشديد ! لا يسعى الى الحقيقة بكل قواه من لا يُكبرُ ولا يساعد الذين يؤيدون اولوية الضمير ويعلونها على بهيمية الغرائز !

لا يسعى الى الحقيقة بكل قواه من يستخف بالقضايا الهامة ! ولمَ التلميح؟ لِمَ نحجم عن التذكير بتلك الخطيئة العظيمة ، الخطيئة التي يرتكبها ملاحدة عصرنا ضد الروح القدس ، خطيئة الخفة والطياشة في تآويلهم اللغوية والتاريخية لمتن الكتب المقدسة ! خطيئة الخفة والطياشة في مباحثهم العلمية وتنقيبهم عن اصل الانسان والحياة والطبيعة وخلود النفس ؛ خطيئة الخفة والطياشة في دروسهم عن امكانية العجائب وهلم جراً ؟.. خفة وطياشة يمجها الذوق ، خفة وطياشة فضحتها السرعة التي اضمحلت معها نظرياتهم الملتوية ومبادؤهم المائعة!

فبينا نرى العالِمَ الحقيقي لا يتقدم الا مرتجفاً في طريق ابحاثه ودروسه الفرعية ، كالبحث عن السلاحف المعدنية المطمورة في الارض مثلاً ، ومتأهباً الى ان يقر ، عند كل منعطف ، قائلاً : لقد خدعت او عجلت بحكمي ، او اسرعت في ابداء رأيي ، نرى اناساً يعالجون معضلة يسوع ومشكلة النفس وقضية الواجب برعونة لا يمكن تصورها وغطرسة مستنطق يتطلع الى ظنينه ؛ مع

ان امكانية الالهي وامكانية الخلود ، وان بانت لبعضهم ضئيلة ، تتطلب درساً ملؤه التواضع وبحثاً يجب ان تتقدمه وترافقه الصلاة . قلت الصلاة واني اعني ما اقول .

اجل ان الصلاة فريضة على المؤمن . ان ايمانه يأمره بالعمل العلمي لان الله لا يعملُ وحده ؛ بل على الانسان ان يعمل معه ايضاً . قال ربنا : « فتشوا الكتب . فانها تشهد لي» وبما ان الايمان يقتضي له نعمة النور ونعمة القوة ونعمة الاميال الصالحة تحتم على المؤمن ان ينال هذه النعم بالجهاد والصلاة .

اما غير المؤمن فليس معفياً من ذلك الجهاد ولا من تلك الصلاة . وعلى هذا الامر اتفق افلاطون والانجيل فقال فيلسوف الوثنية : « ان امكانية الالهي توجب علينا الاستعانة بالاله ، الممكن وجوده والاستغاثة المتواضعة بأيده العُلوي ، الضروري لنا . مع العلم بان هذا الايد لا يؤدي الى عمى العقل ولا الى تكبيله ؛ بل الى انارته وانعتاقه من شهواتٍ ، اشدها خطراً، شهوة الكبرياء . ليحصل على مرغوبه من التجرد في اصدار احكامه » وختم الفيلسوف كلامه قائلاً : « ذلك ما اسميه : اعين اللامنظور » .

لا يسعى الى الحقيقة بكل قواه من يخاف الحقيقة فيجمد عقله على الظلمات، المرافقة كل يقين واعتقاد ؛ ومثله مَثَل وارثٍ يجد صكوك ممتلكاته ،ولخوفه من ان تكون مزورة ، يتغاضى عن فحصها . أجل ، ليس على الارض علم الا ويتقاضى الانسان كثيراً من افعال الايمان بشريعة الفكر وبالشرائع الطبيعية ويوجب عليه فعلَ تواضعٍ عميق امام الكيف الاخير ، الممتنع الوصول اليه .

يفتش الولد العاق عن بواعث تبرر احتقـاره لامه ، ولو كانت من انبل الامهات ، فيجدها ؛ ويبحث الفاسق عن حجج تقنعه بانه بهيمة ، فيحظى بها ؛ وينقب الجبان عن علل تسوغ له خيانة الاوطان ، فيظفر بها ؛ لانه ، متى صارت الرذيلة طبيعة ثانية ، فرضت على الانسان دنيا من البراهين الكاذبة .

لا يسعى الى الحقيقة بكل قواه من يعارض حقيقة لا يرغب فيها ، زاعماً انها وهمٌ . قال رنان : « ليس على الارض حقيقةٍ على ان انكاره الحقيقة

لم يمنعه من ان يثبت ، بشدة ، حقيقته ، ويستنصر السلطات المدنية لتفرضها على معاصريه . وقال جوراس ولينين : « ليس على الارض وحي : فكل حقيقة لا يكون الانسان مصدرها ، وجب ان تعد كذباً ؛ » قالا هذا ولم يعنيا النفس باثبات مدعاهما ببراهين ، كأنهما تسلما وحياً شخصياً لا يبوحان به وعصمة ذاتية تغنيهما عن الجهد في اثبات زعمهما . وقال برتلو : « ليس على الارض ينبوعان المعرفة . فمعارف الانسان كلها بنات العلم ، لا دخل للوحي فيها »

ولماذا ، ايها الفيلسوف الاريب ؟ فان كان بحثي العلمي عن صفات المسيح يؤكد لي انه خليق بثقتي ، أفلا يجب علي ان اخلص الى الجهر : حري بي اذاً ان اسمع له ؟ أليس هذا ما تعمله انت ، كل يوم ، باعتبارك اكيدة تأكيدات سابقيك ؟ ولا اظنك محقاً ، ان انكرت المقابلة ، بحجة ان في تعاليم المسيح اسراراً ! ألم تقل عشرين مرة : ان اسراراً كثيرة هي في كل نواحي علمك الخاص ، علم الكيمياء ، وانه امتنع عليك تحديد طبيعة الحرارة مع انك تسلم بحقيقتها ؟ فما بالك تحكم بمحاباة وتزن الامور بميزانين ؟ أفلا يكون الهوى أملى عليك ان تتنكر للحقائق الدينية وان تسلم بالحقائق الكيماوية ؟ والا فبأي حق تجمع الصيف والشتاء على سطح واحد ؟

لا يسعى الى الحقيقة بكل قواه من يحب هذه او تلك الحقيقة ولا يحب الحقيقة لانها حقيقة ، ومن يشوشه انتظام الحقائق وتشابكها ! ان الخلود معناه الواجب والواجب معناه الثواب والعقاب . فخوف الانسان من هذا التشابك والانتظام يمنعه عن ان يسمع النغمات البشرية المتوافقة ، المتصاعدة من نواحي الارض جمعاء ؛ خوف الانسان من تشابك الحقائق يمنعه عن ان يدرك قول بولس الرسول : « ان ظاهر هذا العالم يزول ؛ وليس لنا ههنا مدنية ثابتة انما نرجو العتيدة » وقول برغسون : « لسنا مقيمين هنا ! بل نحن مسافرون ؛ وقول بسكال : « لقد خلقتَ للانهاية ؛ فلا تعجبن ان عذبك اللا محدود واقلقك ! » خوف الانسان من تشابك الحقائق يمنعه عن ان يفهم ما رمى اليه شاتوبريان بقوله : « قليل من العشب يكفي الحمل وشيء من الدم يشبع النمر ؛ اما الخليقة الوحيدة التي ليست غاية نفسها فهو الانسان ! »

قال ربنا : « من كان من الله يسمع كلام الله ! » كلمة ترعد الفرائص ! فهل نحن من ابناء الله ، ابناء الحقيقة ، ايها الاخوة ؟ هل نسعى الى الحقيقة بكل قوانا ؟ انحن جديرون بان نعرفها باعين الدم ؟ هل نسمع الصوت الذي سمعه باستور فقال : « انها لإهانة ترشق بها قلب الانسان » ، ان نقول مع المادية : « ليس الموت الا سقوطاً في حفرة العدم ؛ اما انا فلا اريد ان انتهي كما تنتهي الدودة ! »

اعجوبة المسيحية الكبرى ، ايها الاخوة ، انها اعلنت الانسانَ للانسان وردته الى ذاته وارجعت اليه عظمته من دون ان تكذب عليه . فاذ تدهن جبهته بالرماد تقول له : « اذكر ، يا انسان ، انك تراب والى التراب تعود » ؛ لكنها لا تلبث ان تزيد : « إنهض وتطلع الى السماء ، وطنك ، إرقَ ، فليس على الارض طعام ارضيّ يشبع جوعك وجميع ينابيعها لن تروي غليلك » ؛ ولا تلبث ان تذكره بان الموت قد مات ؛ وان « من آمن بربنا ، وان مات ، فسيحيا » وتردد على مسمعه كلمات ما فتئت القديسة تراز افيلا تقولها لنفسها ، كل يوم : « لا يقلقنك شيء ولا يخيفنك أمر . فكل شيء زائل . والله وحده يكفيك ! »

الاذاعة اللبنانية في ١٨ ك ٢ سنة ١٩٦٨

قلنا : ان المسيح لم يشبع رغبة الانسان لكونه لم يجبه على كل الاسئلة التي طرحها الانسان عليه ، مع انه انما جاء ليعلم الانسان ويرشده ويبشر « الجالسين في بقعة الموت وظلاله » . لكننا اذا تصفحنا الانجيل نراه قد علّم شرائع الحياة الاولية وتبعاتها الجسام واصلح ضلالات البشرية ولولاه لما عرف الانسان الاجوبة الجوهرية على الاسئلة الخطيرة . فان كان صمت امام بعض السائلين وامتنع عن ان يجيب على بعض اسئلتهم فليس لانه كان يجهلها ، بل لانه لم يشأ ان يجيب عليها ، اما نظراً لنيات السائلين الملتوية ، واما لان الاسئلة ما كانت لتستحق جواباً ، واما لان حكمته السامية قضت باخفائها ، واما لان محبته لنا نصحت له بان يكتمها عنا !

الحديث الرابع

هل في الانسان نفس روحية؟

موضوع حديثي، اليوم، الجواب على السؤالين التاليين: هل في الانسان خاصة تميزه جوهرياً عن الجماد وعن النبات وعن الحيوان؟ وهل فيه روح تتميز بجوهرها عن الجسد وان استخدمته وقامت بخدمته؟

لاربعين سنة خلت، نظمت في فرنسة رسالات شعبية كانت غايتها نشر مذهب المادية! فوقفت، في احداها آنسة اسمها «سافرين» تخطب في جمهرة من المفكرين الاحرار فقالت في ما قالت: «اسمعوا، ايها المواطنون الاحرار، لقد حان لنا ان نتحرر من الاعتقادات القديمة. لقد كذب الكهنة بتأكيدهم لنا ان النفس روحية خالدة، لقد خدعونا بوعدهم ايانا بحياة اجمل من هذه الحياة؛ بحياة يكفر فيها عن مظالم هذه الحياة؛ اما الحقيقة، يا رفاق، فهي ان الانسان من العدم خرج والى العدم يعود، فلا يترتب عليه اذن ان ينتظر شيئاً الا من ذاته وسوف لا ينعم بافراح الا بتلك التي يوفرها لذاته في هذه الحياة لان كل ما فيه هو مادة ولا أثر فيه لما شاؤوا فاسموه نفساً روحية!»

صفق الحاضرون لها شديداً وصفقوا طويلاً مع انهم، لو فكروا، لاستطاعوا ان يردوا على تلك الهارفة بما لا تعرف: انك تخاطين في خطابك عشرة من المشاكل ولا تكلفين نفسك عناء بحل واحدة منها. فالظاهر انك لا تعأين بالمناقضات. فان كان العالم والانسان من العدم خرجا كان

العدم هو الذي برأ الوجود واعطى الحياة وبهذا تحاكين مَنْ يؤكد انه وجد بغتة، في صندوق فارغ، لم يسبق ان فتحه احد ، مليارات من النقود ! أفاتك ان الحي لا يولد الا من حي مثله ؟ وان الادنى لا يولد الاعلى ، ام جهلت المبدأ الاخر: « لا يملك الا المالك ؟ » فمن اين للعدم ان يبرأ الوجود ؟ ومن اين للمادة ، غير المتنفسة ، ان تعطي الحياة ؟

وان كان كل ما في الانسان مادة فما تعنين اذن بكلمة : « المواطنون الاحرار » ؟ فهل الحصاة حرة ؟ وان لم يكن الانسان الا مادة فكيف استطاع ان يخرج من جموده وينتعش ويحسن حظه ؟ وما يعني لقبك : مفكرة حرة ؟ فكما انه من البلاهة ان تتكلم عن دائرة مربعة ، كذلك من الجنون المطبق ان تتحدث عن مادة مفكرة ؟ فالكذب والخداع ليسا اذن في من يضادك ؛ بل هما فيك ، ايتها الآنسة الدعيّة ! فما احراك ان تتأملي في الخطاب الذي ألقاه باستور على طلبة مدرسة « أربوا » حيث قال : « اتعلمون يا يطالب المفكرون الاحرار ؟ : فمنهم من يطالب بحرية التفكير حتى لا يفكر ابداً ؟ ومنهم من يطالب بها ليفكر في الشر والسوء ؛ والاخرون يطالبون بالحرية ليكونوا خاضعين لاغواآت الغريزة ووساوسها ؛ اما نحن فسبيلنا ان نفكر سوياً . فاذا كان الايمان بوجود نفس روحية خالدة هو عقيدة من عقائد الدين المسيحي ، فلانه كان اولاً عقيدةً آمنت بها البشرية واثبتها العقل السليم من مهد البشرية الى يومنا ! »

على انه لا بد لنا ، قبل الاقدام على اثبات وجود النفس الروحية ، من ان نردّ على ضلالٍ شائع وعلى اعتراض طالما تناقلته الالسن وهو : النفس الروحية مَنْ رآها ؟ قال الطبيب الفرنسي بروسه : « انني لم أرَها مرة على رأس مبضعي » وقال مولسكوت : « اذا حللت الانسان تحليلاً كياوياً وجدت فيه شيئاً من الكلس والحديد والماء ومن اشياء اخرى ، لكني لم اجد فيه شيئاً من الروح » اذن ليس في الانسان نفس روحية !

يا للبرهان القاطع ! ويا للحجة الدامغة ! فما يكون حكمكم عليّ ، لو

قلت لكم : انني ما استطعت يوماً ان امسك بلقطي شعاعا من اشعة الشمس اذن ليس في الشمس نور ؟ فان كانت النفس الروحية لم تقع تحت مبضعك ، ايها الطبيب الحاذق ، فما ذلك الا لانها روح ، لانها ، لو فعلت ووقعت تحت مبضعك ، كما تشتهي ، لما عادت نفساً ؛ بل لكانت جهازاً كسائر اجهزة الجسد : كالمعدة او القلب او الرئتين . ولكن تحت هذه الغلاظة تختبئ بلاهة اخرى ، اعظم منها وهي : كيف نؤمن بما لا نراه ؟ سؤال اجابت عليه الفلسفة قائلة : بل كيف نؤمن بما نراه ، قبل ان نؤمن بما لا نراه ! ؟

فلو جئنا نطبق ذلك المبدأ الكاذب : « اننا لا نؤمن إلاّ بما نراه » لافضى بنا الامر الى انكار العلم . لان الاسرار تكتنف درجات الخليقة جميعاً : من عالم الجماد ، الى عالم النبات ، الى عالم الحيوان ؛ فالاسرار في الاجسام السماوية وفي شريعة الجاذبية وفي عمل الوظائف الحيوية وفي اعمال الانسان العقلية كما هي في عالم الله وعالم النفس ! فاذا شئنا ان لا نؤمن الا بما يقع تحت حواسنا ، الا بما نفهمه ، فينبغي ان نحذف علم الحساب وعلم الفلسفة وعلم الفلك وعلم الطب وعلم المعادن وعلم طبقات الارض وهلم جراً .

اجل ، الى هذه النتيجة الوخيمة ينتهي بنا العمل بالمبدأ القائل : لا أؤمن الا بما اراه وافهمه ! فأفعال الايمان هي في اصل كل العلوم ، لا العلوم الفلسفية والتاريخية فحسب ؛ بل في العلوم الاختبارية ايضاً . فهل نعود بذاتنا الى امتحان جميع الاختبارات قبل ان نستخدم نتائجها ؟ فان فعلنا ، قضينا على العلم بالشلل والجمود ! ان معارفنا لا تتجاوز اختباراتنا فقط ، بل ان للعقل فيها دوراً هاماً يمثله ! فالعقل يعدّل ويقوّم ما تراه الحواس . ان الحواس تلقي في ذهني ان الارض والنجوم جامدة ، لا تتحرك ، كما يراها الانسان ويراها الحيوان ايضاً ، ولكن ما لا يعمله الحيوان يعمله الانسان . فالانسان يصلح ويقوم ثم يستخلص من الحدث الواقعي شريعة وبالشريعة يرتقي الى العلة .

يرى الحيوان كما ارى انا الآلة التي تدق الساعات ! لكني انا انفرد ، دونه ، واخلص الى ضرورة وجود صانعها ؛ واذا كان مدار الكلام على العالم ، تلك

الالة ، العجيبة بنظامها ، فاخلص الى ضرورة وجود الله ، خالق العالم!

لقد رأى « نيتون » تفاحة تسقط من شجرتها — حدث يراه الحيوان ، كل يوم ؛ لكن نيتون عمل ما لم يعمله الحيوان ، لقد فطن الى الحدث واستخلص منه شريعة الجاذبية الشاملة ! فقول المادية : لا اؤمن الا بما اراه وافهمه قول هراء : لان فيه جهلاً للواقع وفيه انكاراً للاصول العلمية .

لو كان الاختبار وحده يملي علينا تأكيداتنا ، لكان لزاماً علينا ان نغلي جميع ما على الارض من مياه لنضع الشريعة العلمية المؤكدة : ان الماء يغلي اذا ما بلغت درجة الحرارة مئة!

على ان هذه النفس التي لا اراها كيف اعرفها واتثبت من وجودها ؟ انني من اعمالها اعرفها والتحقق من وجودها . لان الاعمال هي من طبع عاملها ! وعن هذا عبر دانتي اذ قال : « تبرز النفس من المادة بروز السابح من المياه » !

كتب بسكال : « ليس الانسان الا قصبة واهية ، بل اكثر ما في الطبيعة ضعفاً ؛ لكنه قصبة مفكرة . نقطة من المياه تكفي لتعدمه الحياة . بيد انه ، ولو سحقه العالم المادي ، فسيبقى دائماً اشرف من قاتله ؛ لانه يعرف انه يموت ويعلم ان للعالم غلبة عليه ؛ اما العالم فلا يدرك من ذلك شيئاً !»

فمن اين للانسان هذه السيادة ، ايها الاخوة ؟ من النفس الروحية !

اما كيف نصل الى هذه المعرفة ؟ انا نصل اليها من مبدأ العلة الكافية ، مسيّر العلوم باسرها ومدبّرها ! واليكم البيان باكثر صراحة وجلاء !

الانسان وحده ، دون سائر الحيوانات ، يفكر ويعقل ويدعم تصرفه بالحجج والبراهين ! الانسان وحده يصدر الافكار المطلقة الشاملة ، تلك الافكار التي نجدها في اصل العلوم كافة ؛ الانسان وحده يكتنه المادة والحق ، والجمال والخير ، والعدل والحرية . فبأية خاصة يدرك كل هذه الامور ؟

بواسطة الدماغ ! تجيبنا المادية ؟ لان الانسان ليس بنظرها الا قرداً اكسبته مصادفات التبديل والتحول المستمر دماغاً كبيراً ، دماغاً اكثر نمواً من ادمغة سائر الحيوانات ! وفي هذه الحال يتحلّب الفكر من الدماغ ، كما يتحلب

الصفار من الكبد ، والبول من الكليتين كما ادعى كارل فوجت ، العالم الالماني .

اما اذا طلبنا منه برهاناً يثبت به زعمه اجاب : « في الرؤوس الكبيرة عقول راجحة وذكاء ثقب » ؛ لكن سوء الطالع ابى الا ان يرينا بلهاء برؤوس كبيرة كما يرينا اذكياء برؤوس صغيرة ! جوريل الذي هو اكبر القردة واطول قامة من الانسان ، والحوت ، وفرس البحر وغيرها من الحيوانات تحمل رؤوساً كبيرة الحجم ؛ لكنها ليست ، لهذا ، اكثر نباهة من سائر الحيوانات !

نقول هذا مع تسليمنا بالعلاقات الوثقى ، القائمة بين عالم الطبيعة وعالم الفكر . فالدماغ اذا ضعف او اصيب بشلل يفضي الامر بصاحبه ، غالب الاحيان ، الى ضعف في التفكير او الى البلاهة او الى الجنون ؛ ولكن ما يعني كل هذا ؟ يعني اننا لسنا بارواح مجردة عن المادة ، يعني ان الجسد ، ان الدماغ هو الاداة الرسمية للنفس تبرز بواسطته افعالها ؛ اكسروا ريشة رافايل فلا يعود بوسعه ان يصوّر ! فهل يمسي عجز رافايل عن التصوير برهاناً على ان ليس رافايل الا ريشة ؟

قالوا : في الدماغ اقسامٌ وكل قسم مختص بقوة من القوى ! تلك نظرية لم يثبتها العلم ؛ بل هناك اطباء وجراحون ومنهم Guépin و Surbled ينكرون ان يكون في الدماغ اقسام خاصة حتى بالقوى الحسية كالذاكرة والمخيلة والكلام والحركة — قلت على فرض ان سلمنا بتلك النظرية ، فعلى اي شيء تدلّ ؟ انها تدل على ان هذا او ذاك الجزء من الدماغ هو شرط لهذا او ذاك العمل النفساني . والشرط كما لا يخفى عليكم ، ايها الاخوة ، لايعني العلة .

من اللازم ان يكون ليتهوفن مجموعة دساتين ليوقع عليها انغامه ! فهل تبلغ بنا السذاجة الى التأكيد : ان مجموعة دساتين بتوفن هي التي ألفت ولحنت قطعه الموسيقية الخالدة .

الانسان يفكر ويجرّد . فلا يكتفي بان يتصور ، كالحيوان ، انساناً ونقطةَ ماء ؛ بل يجردهما من اشكالها وحجمها ليدرك كيانها المجرد : الانسان ، المياه ؛ ويضع لهذا التجريد قواعد ويسنّ له شرائع فلو لم يكن في الانسان

خاصة روحية، قادرة على ان تحمل هذه الاثمار الروحية، فمن اين نأتي بالعلة الكافية لهذه الاثمار ؟

وتلك الافكار القوية التي تسير العالم، افكار الحرية والعدل والتضحية والبطولة والكرامة والشرف، أليست روحية بحتة ؟ فلو كان الفكر من الدماغ يتحلب، فما الذي يعيق، «كارل فوجت»، عن ان يرينا في مختبره ثقل العدل ولون الحرية وطول التضحية وعرض البطولة ؟ ولو لم يكن في الانسان نفس روحية، فكيف نشرح تقدم الانسان ورقيه ؟ كيف نفهم اختراعاته ونزول سيطرته على عناصر الطبيعة ؟ فالقرد والفرس والفيل والكلب وسائر الحيوانات لا تزال، حيث كانت، منذ ما كانت المدنية المصرية والاشورية، ومنذ ما كان هوميروس وهيرودوس، ومنذ ما كان الانسان في المغاور. فعبثاً رأى الحيوان رفيقه الانسان يشعل النار ويبني البيوت ويقيم المدن ويكتب ويقرأ ويسخر الاثير ينقل صوته بسرعة البرق الى اطراف العالم ويسابق النسر في اجوائه ويسبر غور البحار فلم يأخذ الحيوان عن الانسان من تلك الامور شيئاً. قال جوزف دي مستر: « لو استطاع الحيوان ان يعدّ النار لأمسى العالم غير صالح لسكنى الانسان »

شاء دروين ان يثبت نظريته القائلة بان القرد هو جدّ الانسان فجلب من افريقيا الى انكلترا القرد الاكثر نباهة والانسان الاكثر همجية ؛ فكان ان القرد ظلّ بهيمة ؛ اما الهمجي فتمدن واصبح يحاكي سائر الملاحين مهارة وادباً !

فما الذي نقص القرد ؟ هل الدماغ ؟ لقد حُلّل دماغ القرد تحليلاً كياوياً فوجد مثل دماغ الانسان بمواده واقسامه ! هل الاعين ام العضلات ؟ لا هذه ولا تلك ؛ بل لانه لا يسعه ان يتعلم الا المثالة التي تعلمها من الذي اعطاه الغريزة.

يشعر الانسان بانه حرّ مسؤول عن اعماله. وكم مرة حملته عزة النفس على ان يجرّ الى القضاء من يعامله كأنه غير مسؤول عن اعماله. هذا ولم نرَ قطّ انساناً اقام الدعوى على فرس رفسته! فما ذلك إلاّ لان شيئاً صغيراً ينقص الفرس، شيئاً يملكه خيّالهاوان حقيراً، شيئاً نسميه المسؤولية ! فمن اين هذا التفوق يتمتع به الانسان لو

لم يكن في الانسان نفس، روحية، حرة لا يملكها الحيوان؟ لو لم يكن، بين الانسان والحيوان، فرق جوهري؟

على انه لو شاءت البشرية ان تأخذ بأقوال بعضهم فتعتبر الانسان غير مسؤول عن اعماله، لكنا لبسنا الحداد على مدنيتنا من زمن مديد. لقد عاش «ساني»، صاحب تلك الفكرة، الى ان رأى بأم عينه بعض ثمار تعاليمه فأخذ ينتحب على افلاس الاداب والضمائر حتى عند الذين راحوا يبررون، بعدم مسؤوليتهم، اختلاساتهم وعلاقاتهم الستافيسكية!

قال «دي كاترفاج»: الانسان حيوان ديني. لانه حيثما وجد اعتقد بوجود عالم آخر وبحياة جديدة فيه. واعترف «رنان» بان الدين والايمان بالخلود هما من مميزات الانسان العادي اي السليم العقل والاداب. فلو كان الحيوان اخاً لنا، فلمَ لا يقتدي بنا ويقيم الهيا كل للاحياء، ويبني القبور للاموات؟ الانسان يكرم موتاه، فلمَ ينسى الحيوان ذوي قرباه؟ لمَ ينساهم، لا بعد موتهم، بل يومَ لا يعود بحاجة اليهم؟ بينا نرى الانسان يهتم بهم امواتاً، كما لو كانوا بعدُ احياء؟ لقد قيل: «ان اروع الاناشيد وابلغها في المدنيات القديمة كانت اناشيد المآتم!»

فالمادية التي تقيم نفسها محامية عن الرقي والتقدم تعيش يحدوها الرجاء الى ان تجد في ادغال افريقيا او في مغاور ما قبل التاريخ اجداداً يكونون، مثل القردة، اغراباً عن كل شاعرة دينية، والى الان لم تظفر بضالتها، ولكن على فرض ان وجدتها، فلا يكون اجدادها الا مسوخاً بشرية، كما وجد بين الحيوانات من ذوات الاربع، حيوانات على ثلاث قوائم!

اذن بين الانسان والحيوان فرق جوهري! اذن في الانسان نفس روحية تتميز جوهرياً عن الجسد الذي تستخدمه وتقوم بخدمته واعمالها وافكارها الروحية تشهد على وجودها، لان العمل من طبع عامله! والا اضطررنا الى ان نعدل عن الاخذ بمبدأ العلة الكافية. فشكراً لله الذي خلقنا عاقلين احراراً وهنيئاً للانسان بهذه الهبة!

(الاذاعة اللبنانية في ٢٥ ك ٢ سنة ١٩٦٨)

الحديث الخامس

التائبون هم شهود الروح !

قال برغسون : « التائبون هم ابطـال البشرية وهداتها . انهم ليسوا بحاجة الى الكلام لكي يحضونا على الاقتداء بهم ، بل يكفي ان يوجدوا ، فان وجودهم نداء. وحياتهم تدل على وجود الروح كما تـدل الثمرة على المائية اللامنظورة الجارية في الشجرة !

اجل ، ايها الاخوة ، قضية التائبين قضية حرية بتفكيرنا . فـاما ان نعدل عن الاخذ بمبدأ العلة الكافية ، واما يجب ان نجد شرحاً مقنعاً لتلك الجاذبية الروحية التي اوقفت اناساً كانوا مستسلمين الى شهواتهم ثم غيروا وجهتهم وساروا على طريق التوبة والتجرد والتكفير ؟

فما تكون تلك العلة الكافية التي بدلت حياتهم وحولت ينابيع الانانية فيهم الى مجاري تضحية وكفر بالذات ، فانقلبوا من دنسين الى اطهار ومن ارضيين ، عبدة المادة ، الى روحانيين يحطمون اصنام الاثرة والمادة ؟

فما تكون تلك العلة الكافية التي صرفت المجدلية عن حياتها السابقة المشهورة : « كان في المدينة خاطئة » وغيرت اغسطينس ، اكمل نوابغ البشرية ، من شاب طائش ، متهتك ، الى رجل رصين ، يعيش اربعين سنة ، في التقشف والامساك ، وردت «تاسيا» الزانية عن حياة التنعم والفجور الى الخلوة الخشنة في صحراء مصر القاحلة ، المذيبة ؟

ما تكون تلك العلة الكافية التي أهابت بفرنسيس الاسيزي ، قائد الشبيبة الطائشة في مدينته ، الى ان يتوب ويتجرد من كل خليقة ، ويعقد خطبته على « سيدتنا فضيلة الفقر » ويبشر العالم بغنى ذلك التجرد وبافراح ذلك الحب الالهي الذي ، لولاه ، لما احب انسان انساناً على الارض !

وكونده ، منقذ فرنسة ، وبطل « روكروا » الذي حملته رغائبه الكاملة في الحياة على ان يفتش ، في الجندية ، عن خلاعة العقل وفجور الاخلاق ، ويستسلم الى شهواته التي طوحت به الى حد ما، فعبد اصنام اللحم والطموح والحسد والبغض والحقد والكبرياء ، وانتهى به الامر الى خيانة وطنه! ؛ فما تكون العلة الكافية التي طرحته اخيراً على اقدام المخلص وجعلته يعتنق حياة القناعة والتنسك ويوزع ساعات يومه بين درس اللاهوت والصلاة واعمال التوبة والمحبة ويموت وهو يردد : « يوم يصرف في بيت الرب افضل من آلاف السنين نصرفها في الخطيئة »!؟

تعلمون ان الجيل الثامن عشر ، المتبجح بالعلم ، قد اعتبر ضرورةً ملحة درسَ التقلبات التي تطرأ على الدودة حتى تصير فراشة ! فهل تعلمون لِمَ أغضى كتبته عن درس تقلبات اخرى نفسانية وروحية ؟

كتب « فولتير » الشيء الكثير عن غزوات اللص « مانداران » وصنائعه ؛ ولكنه لم يتعرض بكلمة لانقلاب ماندران من لص الى قديس ! فانه ، قبل ان تُرَضّ عظامه ، وهو حي ، طلب المسامحة من الله ومن الناس وبارك العذابات التي سهلت له ان يكفّر عن خطاياه واساآته وفارق هذه الحياة بطمأنينة المنتخبين ! بل كيف تسنى لكتبة ذلك الجيل الملحد ان يعرضوا عن توبة لويزا دي لافاليير ، مجدلية الاعصر المتأخرة !؟

قال « بوسويت » في حفلة ابرازها النذور الرهبانية : « ماذا شاهدنا بالامس وماذا نشاهد اليوم ؟ بالامس شاهدنا عشيقة لويس الرابع عشر تنعم مع اولادها ، ثمار خطاياها ، بوفرة النعم الملكية ، اما اليوم ، فانا نرى تلك التي كانت قبلة الانظار في فرنسة ، تتلألأ بزينتها وتبرجها والناس من

حولها يتملقونها ويطرونها ، ممددة هنا ، تحت هذا الكفن الاسود ، راهبة فقيرة ! بالامس ، كانت ، وهي مغمورة بعطف الملك وحبه ، تجد في نفسها فراغاً لا حدّ لعمقه ، يتأكلها الضجر ويقتلها الحزن حتى صارت عذاباً لذاتها و « الأنا » ، « الأنا » المسكين الذي كانت تعبده لم يكن في طاقته ان يريحها ويغذيها ، فراحت تستعير ما وهمت انه يسليها وينسيها عذابها وتخس ضميرها ، فتعب الفنانون ، وعرق الخياطون ، وتهالك اصحاب الصناعات ليوفروا لها الحلى والثياب فلم يفلحوا ، وخاب ظنها ؛ لان الانسان اعظم من طعامه وثيابه وثروته ؛ فكانت كلما اخذت وأثرت وتبرجت ، كلما شعرت بانها فقيرة عارية ، يكويها الجوع اللاذع ويذيبها العطش كأنها في صحراء محرقة . واليوم ، بعد ان صارت فقيرة ، مجردة ، لا تملك شيئاً ، شبعت وسعدت واحست كأن لها اجنحة . — لا شك في ان الخطيب قد عرف كل هذا منها لانه كان نجيّها وامين سرها ! —

ثم زاد : « متى عاش الانسان بين حمحمة الشهوات وصهيل الملذات في بلاط جائع الى اللهو والطيبات يلتهمها نهماً ، متى كان باستطاعة الانسان ان يعيش اميراً بفضل المكارم الملكية ، فلكي يترك ويبتعد يقتضي له جمّ من عجائب النعمة والارادة » !

تلك الاعجوبة تحققت ؛ فهجرت لويزا البلاط وذهبت فحبست ذاتها ، بمل‌ء ارادتها ، ستاً وثلاثين سنة ، وراء القضبان الحديدية ، المشبكة ، في دير الكرمليات ، تلبس اثواب الفقراء وتترك ، كل ليلة ، فراشها الخشن وغرفتها الباردة الى معبد الدير تصلي وتتأمل في بطل الاباطيل ، وتقوم ، في النهار ، بخدمة اخواتها الراهبات في المطبخ وفي قاعة الاكل ؛ وبخدمة المرضى ومؤاساتهم ، في بيت الكلام . وكأن تقشفات الدير لم تكفها ، فراحت تزيد عليها تقشفات مرعبة : تلبس المسح وتجلد جسدها وتخفي امراضها عن اخواتها لئلا يرثين لحالها ، وامعنت في التواضع ونسيان الذات حتى الى رفض الوظائف التي كانت تتيح لها ان تأمر ، هي التي حكمت فرنسا ، بتسلطها على الملك ، ردحاً من الزمن !

حياة بدأت بالانانية والفحش ، ثم غيرت وجهتها ، وهي في السادسة والعشرين من عمرها ، وسارت صعداً تشدها قوة اكثر من بشرية نحو الاعالي حيث أقامت ستاً وثلاثين سنة احتملت في خلالها من التقشفات الخفية ما يعجز عن وصفه اللسان وكان كل يوم يعود وهو حامل اثقال الايام السالفة ، اثقالا كان بامكانها ان ترميها ، بعيداً ، باشارة لطيفة ، بل كان يستحيل عليها وهي الثاقبة العقل ، الوافرة الذكاء ، ان تسمر ذاتها ، حية ، في ناووس التوبة مدة الحياة ، إن لم تكن هناك علة كافية ، علة موازية . فما تكون تلك العلة ، يا سادة ؟ أفيكون ذلك غروراً منها ام تغريراً بنفسها ؟ كلا ! لا يكذب الانسان على الناس ولا يخدع نفسه ستاً وثلاثين سنة !

ان لتلك العلة اسماً واسماً واحداً هو ان في الانسان نفساً روحية لا تشبعها خيرات الارض وان كثرت ، ولا تسعدها لذات العالم ، وان وفرت . لقد اضاعت لويزا سعادتها حين نسيت نفسها واعرضت عن الله ، ووجدت سعادتها حين وجدت نفسها وتمسكت بالله !

على اثارها سارت حنة دي جونزاج ، اميرة البالاتين ، وقد كانت هي ايضاً نجمة متألقة ، في قصر لويس الرابع عشر ، وكانت فيه حجر عثرة بكفرها ومظالمها ودهائها السياسي الذي مكنها في عهد « الفروند » من ان تكون ربة الاحزاب ومرجعهم ، ولقد عاشت في ظلال الحب بسعة وغنج ، لكنها كانت حزينة ، مغمومة ، ضجرة ، فما الذي كان ينقصها ؟

الله ، يا سادة ، ومع الله كل شيء . لان طعم الخطيئة المر وفراغ الافراح العالمية المقزز كانا يدفعانها الى اليأس ، واتفق ان التقت بالاب « دي رنسه » فهداها الى طريق الحياة الحقة ، فأشغلت عقلها الثاقب في مبادىء تلك الديانة التي كانت بالامس تحتقرها لجهلها اياها ، وانصرفت الى الصلاة والتأمل ، وكان انها قضت اثنتي عشرة سنة توبة في العالم وعاشت عيشة شاقة وزعت ساعاتها بين القيام بواجبات حالها والصلاة والصدقة فنعمت بسلام إلهي في وسط آلام مبرحة ، واخيراً ماتت موتاً هنيئاً كموت الابرار الصديقين !

ذلك ما يفهمنا مأساة اخرى تمثلت ادوارها في ايامنا . تلك هي مأساة آفا لافاليير ، نجمة المسارح ، ذات الأثواب المتألقة والادوار المضحكة والاجوبة البديهية ؛ لقد كانت ، لأيام خلت ، ملكة المسرح وسلطانة القلوب ؛ لكنها ، كانت تعيسة في حبها ، فصارت كالمجدلية « سلطانة في المدنية » لم تشبعها المادة ولم يسعدها مجد العالم ، فعافت حياة المسرح في شهر تموز سنة ١٩٢٩ ، وعلى قدر ما كانت تواقة الى الظهور والملاهي والمشتهيات المحرمة ، صارت تتوق الى اعمال التكفير والصلاة والخلوة

رفضت راهبات الكرمل قبولها فترهبت في العالم وحبست ذاتها في بيتها فوزعت غناها الوافر على الفقرا. وراحت تخدم البدوان في بلاد تونس الجنوبية ، تعيش عيشة الفقر والتقشف اكثر منهم . اضناها المرض فرزحت ؛ وفي عذابها كتبت هذه الجملة الغريبة : « لقد طمأنني الطبيب الى ان مرضي غير قابل الشفا. » لقد صُلبت وتألمت ، لكن الفرح كان يغمرها ، ذلك الفرح الذي لم تذقه ، يوم كانت في نعيمها واوج مجدها ؛ فأعدت ، وهي على فراش آلامها ، كفنها ، ثوباً فقيراً يلبسه الثالثيون الفرنسيسكان ، وعلى بلاطة ضريحها امرت بان تنقش هذه الكلمات : « لقد تركت كل شي. لأجل الله ، فهو وحده يكفيني ! »

تلك هي العلة الكافية التي بدلت شارل دي فوكو ، العقيد في الخيالة الفرنسية ، ذلك الذي كان في « سومر » لا ينام الا وزجاجة الشمبانيا وفطائر الكما. المحشوة باللحم على متناول يده ، ذلك الذي رشف كأس الملذات واحزانها حتى الثمالة ولما يبلغ الثامنة والعشرين من عمره ، ذلك الذي طرد من سلكه لكثرة فحشه وخلاعاته وركوبه رأسه ، قد صار عنده الخبز اليابس والما. الزلال ، في الناصرة ، بذخاً في العيش لا يطيقه ، فهجر الناصرة الى قلب الصحرا. القاحلة وهناك انصرف الى خدمة القبائل وتعليمهم والعمل على رقيهم بكل تفان واخلاص ، يرقد على خشبة في غرفة ضيقة لا تمكنه من ان يتمدد ، ويعيش عيش الصحرا. ويشرب الما. الآسن ، وفي هذه كلها لم

تفارق الابتسامة شفتيه .

ان الفرح والسلام اللذين كانا يهربان منه ، يوم كان رفقاؤه يسمونه « خنزيراً » لكثرة ما كان نهماً ومنغمساً في اوحال الفجور والدنس ، لازماه في خلوته تلك ، فطفح قلبه بهجة وبات يردد ذكرها في كتاباته جميعها . اسمعوا ما كتبه الى الكونت دي كاستري : « يا للسعادة ! ها اني اقضي الحياة في شكر وجذل لا ينقطعان . انا ما فتشت عن السعادة ؛ بل كنت اعتقد اني لست بواجد إلاّ الصليب ؛ على انني بوصولي اليه ، واعتناقي اياه ، ذقت عذوبات جمة وبتّ استلذ الاوجاع . وها هي دموعي تسيل على خديّ من فرحي بالامي ، فأنا ناعم بسلام يحاكي البحر سعة وعمقاً »

فذاك الذي كان بالامس شاباً ابيقراطياً واديباً انيقاً ، يسكن اليوم وحيداً على صخرة ، في بطن الصحراء ، لا خبز عنده للقوت ولا ثياب للبس إلا ثياب بدوية ، لقد سمر ذاته على صليبه طوعاً مدة ثلاثين سنة قضاها في الجهاد لا يلتفت لفتة الى الوراء . وقد اكد لنا انه عاش في ذلك العوز لا ينقصه شيء !

ذلك لانه كان يملك الله . ومن يملك الله ، كلّ شيء يملك . لقد وضع الله في ذخيرة ... وامامها كان يصلي ، وامامها كان يشتغل ، وامامها ... قد مات . وعن هذا كتب : « لم تكن المجدلية، وهي جالسة عند قدميك ، يا مخلصي ، اقرب اليك مني . فكم انا سعيد بقربك يا إلهي ؟ »

الى هذه الاسماء يمكننا ان نضيف آلاف الاسماء : من كل الطبقات الاجتماعية وفي كل الازمنة : من طبقة العمال الى طبقة المفكرين الى التجار والامراء والساسة والحاكمين .

فما الذي جعل التائبين يعيشون عيشتهم السامية ويرتفعون الى ذلك العلو الشاهق ؟ ان الخميرة التي رفعت عجينهم الارضي كان اكتشافهم ان الخليقة عدم وان الله هو الوجود ، ان المادة لا تشبع الانسان ولا تسعده وانهم لم يخلقوا للارض ؛ بل للسماء !

فهل تكون حقائقهم هذه اوهاماً يلهون بها لانهم فقدوا توازنهم العقلي كما يزعم بعض المعاصرين الماديين ؟ وعندئذ من نكون نحن المساكين ؟ حقاً ان التائبين هم جبابرة بشرية تمثل نحن فيها دويبات صغيرة !

وعلى فرض المستحيل وكان سموهم بدون ما علة كافية ، وكانت حياتهم سيارة لا يجذبها كوكب آخر ، كان مع ذلك من الواجب ان نتتلمذ لهم باسم رغبتنا في الحياة . لانهم هم الدواء الواقي من سم ضعفنا والخطايا وهم المصل الذي يظفر وحده بسموم انانيتنا وهم الثقل المعدل لتلك المادية المنغمس فيها عالم اليوم !

قال ماركس : « ان كل ما في الحيـاة يعود الى قضية واحدة هي قضية البطن ؛ وما الانسان ، في الواقع ، إلاّ ما يأكل ، وان المنفعة المادية هي التي تسيّر الانسان كما تسيّر الحيوان ! » فهيجت مبادؤه هذه بركان الشهوات فراح يقذف البشرية بحممه ، فمن حروب اهلية بين الطبقـات، الى حروب عالمية ، الى استبداد المادة بالعقول ، الى تمكن البغض في القلوب، الى تهديـد العالم بالدمار والفناء .

اما التائبون فانهم يقدمون لنا على وجود الروح شهادات كتبت بدمائهم ويقولون : « العالم احقر من الانسان والانسان اعظم من طعـامه وثيابه » ويرددون مع اغسطينس : « اللهم لقد خلقتنا لأجلك ولا يزال قلبنا قلقاً حتى يرتاح بك » ونحن من نصدق ؟ انصدق الشهوة ؛ عقيدة المادية ؟ لقد آمن بها التائبون ردحاً من الزمن فلم يجدوا إلا الضجر واليأس ، ولما تابوا ، جعلت عقيدة الروح من حياتهم انشودة جميلة وملحمة رائعة خلابة . ويقيننا ان العالم ينازع في النار والدم لانه اعرض عن معتقدهم بالروح وآمن بالمادة وعبد اصنامها !

(الاذاعة اللبنانية في ٢٦ شباط سنة ١٩٦٨)

الحديث السادس

الانسان - القرد

او

مذهب التطور

بين الحسنين العظام الى البشرية ، روّادة انكليزي شهير هو دافيد (ليفنكستون) الذي عاش في القرن الماضي وقضى الحياة يضرب في انحاء افريقية الوسطى والجنوبية يدرس اخلاق قبائلها ويحارب النخاسة ويهتم بتمدين العبيد . فبعد اختبار طويل أوجز اختباراته قال: « ايا كانت درجة الانحطاط عند بعض القبائل العريقة ، المغرقة في الهمجية فهناك شيئان لا يحتاج الى ان يتعلمها احد : هما وجود الله وخلود النفس ! » واثبت دروين نفسه انه يسهل على احط انسان ان يصل بالتفكير او التعليم الى فكرة الله وفكرة الخلود ، بينا يستحيل على اكمل القردة ان يفقه شيئاً من هاتين الفكرتين .

على انه قد وُجد من قال بفقدان الشعائر الدينية بين قبائل الـ « فيجيان » والـ « بوشيان » و الاسكيمو ، ولكن بقي عليهم ان يثبتوا لنا ما اذا كانت مادية تلك القبائل طبيعية لم يلقنها اياها احد ولم تحطها الى تلك الدركات قوة خارجية !!

لقد اطلعنا مرسل يشتغل في ألسكا على اجوبة بعض الاسكيمو في سيبريا ممن نشأوا في المدرسة السوفياتية قال : سألتهم : «من خلق المسكونة» ؟ قالوا : ستالين ! قلت : «ومن خلق الحيتان الكبيرة» ؟ قالوا : ستالين ! قلت : «لكن ستالين لم يبلغ من عمره الثمانين ، وهناك حيتان وكواكب منذ اكثر من ثمانين سنة ؛ فكيف تشرحون هذا» ؟ قالوا : لا نعلم ! فهل نستخلص من هذا الحدث ان جاهلية اولئك الاسكيمو خلقت معهم وجهلهم الاله الحقيقي طبيعة فيهم وماديتهم فطرية ؟

في سنة ١٩٣٧ كلفت وزارة التربية الفرنسية الاب «تستفان» ليدرس الخصائص الدينية عند شعوب افريقيا الوسطى والغربية فتوجه الى القبائل العريقة : قبيلة «بنتوس» و «بوشيان» و «نجري» و «نياوتيك» وبعد درس دقيق وفحص عميق ، رأى ان جميع تلك القبائل تعرف الله وتعتقد بانه واحد وتؤمن بالعناية وتصلي وتكرم موتها ؛ ولكنه لحظ ان ال «نياوتيك» وحدهم يجهلون ما اذا كان بعد الموت حياة ؛ ولهذا كانت سائر القبائل تنظر اليهم نظرها الى مسوخ ، لا الى بشر كسائر شعوب تلك القارة .

وهناك من يقول : ان الحفريات الاثرية التي بدأت قبيل الحرب الكونية الاولى ، في نواحي «بكين» ، أثبتت انه ، منذ خمسة الاف سنة تقريباً ، وجد انسان وحشي تشابه سحنته كثيراً سحنة القرد ولا اثر عنده للطقوس التي تدل على اهتمامه بالامور الدينية . فلو صحّ ما قالوا ، فهل يُثبت مدعاهم ان الاهتمام بالامور الدينية هو غريب عن البشرية العادية ؟

على ان تلك الحفريات التي توقفت بداعي الحرب عاد القوم فأستأنفوها بعدها وما ان فرغوا منها حتى رأوا ان السينانتروب ـ ذلك الانسان الذي ظهر لهم اولا وحشياً لا اثر عنده للامور الدينية هو انسان مثلنا قد استخدم النار والادوات ومارس بعض الطقوس الدالة على ايمانه بحياة بعد الموت ، بدليل انه كان يكرم موتاه ويصلي لاجل ارواحهم .

نحن لا نحارب ولا نشجب مذهب التحول والتطور الذي يحترم الواقع . والكنيسة نفسها تترك لنا ملء الحرية باعتناقه ؛ على شرط ان نقر بكون الله قد خلق نفساً روحية ، وأودعها المادة . ولا تشجب الكنيسة من يعتقد بان الله عند خلقه الانسان الاول قد استخدم حيواناً اومادة مركبة باعضاء ؛ لانها حتى الان لم تحدد لا بطريقة مباشرة ولا بطريقة غير مباشرة حال المادة التي استخدمها تعالى لتركيب جسد الانسان الاول . انما نحن نشجب ونحارب مذهب التطور القائل : ان الانسان يتحدر من القرد والقرد من ديب والديب من عصفور والعصفور من سمكة والسمكة من اسفنجة والاسفنجة من حصاة ويعلم كما ان الحصاة ترقت رويداً رويداً الى الحياة فالانسان — القرد توصل تدريجياً الى الفكر والايمان . . . هذا هو المبدأ الذي نعلن عليه الحرب واليه نصوب سهام الشجب ونفند مزاعم القائلين به !

ولكن لماذا كل هذا الدوران ؟ ولماذا كل هذه القصص ؟ كل هذا لان القصصي قرر نهائياً ان يطرد الله من المجتمع ويقضي على وجوده كخالق ومشترع ومن ثم كديان يعاقب ! واذا ما عاندته وقائع الحال وأبت ان تماشيه في مسلكه ، مسلمة بزعمه ، عمد الى اخضاعها بالقوة وتسييرها على هواه ! ودليلنا ما قاله ارنست هيجل ، العالم الالماني : « غاية العلم الوصول الى القضاء على البابوية وعلى المسيحية لنقيم مكانها عبادة الحق والجمال والخير . اما الجمال فقوامه ان ليس الانسان الا حيواناً ؛ ان هو الا طرح قرد ! اما الحق والخير فيقدم لهما العالم الالماني الاكرام بسلسلة من الكذب والبهتان . فبعد ان أكد تحدّر الانسان من القرد ، وهذا من حيوان يتوسط عالم النبات وعالم الحيوان زاعماً ان ذلك حدث تاريخي يثبته العلم والاختبار راح يعمل لاثبات مدعاه ، قاسماً تطور الانسان الى اثنتين وعشرين مرحلة معززاً اياها بالصور . فهب العلماء يدرسون مراحله وصوره واذا بهم يتبينون ان تلك الصور وثلاثة ارباع المراحل هي من خلائق مخيلة صانعها ولما امسكوا المزور في تلفيقاته وبينوا له مثلاً انه صوّر رأس انسان على هيكل قرد ؛ فما كان من « هيجل » الا

ان اطاق عليهم اولا قنابل الشتائم ومدافع الانكار ثم اضطره واقع الحال الى ان يقر اخيراً بفعلته الشنعاء ويعتذر مؤكداً ان زملاءه يستخدمون ، عادةً ، ذات الوسائل التي استخدم!

مسكين انت ، ايها العلم ، كم من الجرائم ترتكب باسمك!

لا لست بمكلمكم عما فعلوا بأربع بقايا التقطوها في حيفا في اوقات وامكنة مختلفة ؛ تلك البقايا التي لفقوها بالشمع وغطوها بالشعر وعرضوها امام الشعب السريع التصديق ، في معرض سنة ١٩٠٠ ، ليدللوا على ان الانسان متحدر من القرد!

يعملون هذا ولا يشعرون بان النظرية المادية ، القائمة على قياسات فرضية بحتة ، تسوقهم حتماً الى بلاهات وغباوات وضعية وتجرهم الى انكار العلة الكافية! اننا لا نستطيع ان نصف بغير هذه الكلمات ولادة الحياة والفكر بدون ما علة ، حية ، عاقلة !

«يا له من تعصب ذميم ، قاتل ! قاتل ؟ لانه انزل شدائد لا توصف بباستور ، منقذ البشرية ، الذي قضى باختباراته على نظرية الولادة بدون ما علة ، اذ اثبت بالاختبار : « ان الحي لا يولد الا من حي » وان السائل ، حتى القابل الفساد ، اذا ما عزل عن الهواء وعن الميكروبات التي يحملها الهواء لا ينتعش ولا تتولد فيه الحياة ؛ بل يبقى عقيماً . لذلك اشار على الاطباء والجراحين ان ينظفوا ايديهم وادواتهم من الميكروبات الحية ، قبل ان يباشروا عملياتهم الجراحية ؛ وان لم يفعلوا كان الفساد وكانت الالتهابات في الجراح! فهل اقنعهم اختباره فعدلوا عن نظريتهم بالولادة بدون ما علة حية ؟ كلا! لقد فضلوا ان يموتوا وان . . . يقتلوا الناس على ان ينثنوا عن معتقدهم . فقام « ميشله » و « اوغيست كونت » وكلود برنارد نفسه يحاربون نظرية باستور وراح بعض الاطباء من امثال « بوشه » و« تركيل » يستهزأون باحلام ذلك الكيماوي العابد ويعيبونها ودفعت القحة ببعض الجراحين الى ان يلوثوا ايديهم وادواتهم قبل ان يباشروا عملياتهم الجراحية في المرضى والنساء الواضعات . . . فكان هؤلاء يموتون

كالذباب من التهابات جراحهم ... ولكن ما همّ الاطباء ؟ .. لقد حصروا همهم في ان يخلصوا الالحاد المادي باثباتهم الولادة بدون ما علة حية .

عبثاً أنَّ باستور وشكا قائلاً : « انهم جاهلون طرق الاختبار . اقدّم لهم وقائع وبراهين وحوادث فيجيبونني بالنظريات والشتائم »

اما اسباب تلك الغضبات القاتلة فهي ذات الاسباب التي حرمت فرنسة من عالم عالمي هو الطبيب الكسيس كاررل . كان هذا النابغة في ليون يهييءْ مباريات الجراحة في المستشفيات الحكومية . فقصدت الى عيادته شابة مصابة بدماميل باردة ، ذات بثور ، فعالجها ردحاً من الزمن ثم قنط من شفائها فنصح لاهلها ان : « جربوا لورد » . ففعلوا وعادت الصبية صحيحة الجسم ، سالمة . فاخبر كاررل زملاءه بالحدث وهم يتناولون الطعام معاً ! فضحك الطبيب « ث » قائلاً : « كفى ، يا حكيم ، كفى ! » فاجاب كاررل : « لست في معرض التفسير والتأويل ؛ ما انا الا ناقلاً حدثاً واقعياً تحققته » فقال ذاك غاضباً : « ولِمَ الاحالة ؟ وما الفائدة ؟ انك ، مع مثل هذه الافكار ، لا تستطيع ان تجد لنفسك عملاً بيننا ؛ وبوسعي ان اؤكد لك : ان ابواب طبية ليون لا تنفتح بوجهك ابداً » فانتصب كاررل وقال : « وانا مسافر ، في هذه الساعة ! » ثم ودعهم وسافر ! فكان للولايات المتحدة عالم عظيم زيادةً على علمائها ولفرنسة عالم أقل ! !

فعلامَ دار الخلاف بين اولئك الجهابذة ؟ على التأكيد بان على الارض معلولات تفوق فاعلية الوسائل الطبيعية . لقد تأكد كاررل من وجودها ؛ لكنَّ التعصب الذميم يستغني عن هذه التأكيدات ، وهمه الاوحد ان يقصي من حقل خيالاته ، امكانيةَ الفائق الطبيعة ذاتها !

« خلق الانسان في كرامة لم يُردْ ان يفهمها فساوى نفسه بالبهائم التي لا عقل لها وصار شبيهاً بها »

حكم قاس على بعض طلاب الحقيقة من ذوي الضمائر الحية الذين تعوزهم المبادئ الفلسفية ؛ لكنه حليم وحليم جداً على اصحاب مذهب المادية السياسية

الذين يتعمدون انكار وجود النفس ووجود الله .

ان الاكتشافات الحديثة التي تدور على معرفة انسان ما قبل التاريخ نفت كل شك وريب بالميزة القديمة والعامة التي تخلق بها الانسان دون سائر الحيوانات ؛ تلك الميزة هي اكرام الموتى والاعتقاد بالبقاء بعد الممات فالاشكال المختلفة التي تزيأ بها ذلك الاعتقاد تدل بجلاء على ان كلامنا لا يدور هنا على ترديد عقيم لبعض عبارات وطقوس اصطناعية ؛ بل على فطرة بديهية ، جوهرية في الانسان !

لقد اثبت العلم ان انسان « كرومانيون » وانسان « لا شبال او سان » ، وانسان مغاور « كابره » وانسان « كولياس » وانسان « انطلياس » اثبت العلم ، قلت ، انهم كلهم هم من العائلة البشرية الكبيرة، لان الدروس العصرية قد اثبتت اعتقاداتهم الدينية .

وهل من حاجة الى تذكيركم ، ايها الاخوة ، بان الكنيسة الكاثوليكية بعلمائها كالاب « برويل » والاب « بوسونوي » والاب « تيلهارد دي شاردين » اليسوعي هي في الصف الامامي من حيث التنقيب والبحث عن انسان ما قبل التاريخ ؟ اما لاهوتيو المادية فهم فوق كل هذه المناقضات

لقد زعم بعض معاصرينا : ان الدين لم يكن له اثر عند الانسان القديم ؛ لكنه انبثق من ضعف الوسائل الفنية التي كان الانسان يستخدمها . انه في جهله استخدام الحديدة المغنطسة - الحربة - وقياً له من الصاعقة وفي عجزه عن ان يصطنع مدافع مضادة للجليد، قد استغاث بقوة، تخيلها موجودة - واسماها الله - على الصاعقة والجليد ؛ وما زال في جهله حتى جاء العلم فحرره من اوهامه !

ان العلم ، يا سادة ، لم يجعل باستور ولا بسكال ولا توما الاكويني ولا راسين ولا كارل ولا ماركوني ولا ... ماديين ؛ بل كان انه كلما اثبت الانسان سلطانه على المسكونة كلما تمحص فيه شعوره الديني وتنقى وتجوهر ! فالايمان بالله وبالابدية قد تمكن بوضوح وجلاء تامين عند المصريين مخترعي الحديدة المغنطسة (الحربة) لاتقاء الصواعق وتمكن عند اليونانيين ، معاصري افلاطون ،

اكثر مما كان متمسكاً من انسان المغاور . وموجز القول : ان الانسان هو كائن ديني ؛ اما الحيوان فلا ! فمنذ آلاف السنين والانسان يدفن الانسان حتى صارت الارض مقبرة واسعة ؛ كل هذا لم يحمل الانسان على قطع رجائه في الخلود ؛ بل عظّم رجاءه وقواه ، فانتصب على غبار الاموات ليؤكد ان فيه نفساً روحية لا يلاشيها الموت ، نفساً لا يملكها رفيقه الحيوان – وذلك ما يثبت بطريقة منحرفة حقيقة هذه النفس ـ ان الانسان هو كائن عاقل ؛ وامياله العميقة تعبر عن حقيقة كونه عاقلاً ؛ والا لوجب ان يحجر عليه . ان بين البهيمة والانسان للجة . فالوضعية الحقيقية هي في ايماننا ؛ لا عند اولئك الذين يريدون ان يعروننا من انسانيتنا ويدهدهوننا الى دركات الحيوانية ، غير عابئين بما في عملهم ونظرياتهم من متناقضات وغباوات !

قال ديكارت : « بعد ضلال الذين ينكرون وجود الله ، ليس من ضلال آخر يبعد العقول الضعيفة عن طريق الفضيلة السوي مثل ضلال مَنْ يخيل اليه ان نفس الحيوان هي من طبيعة نفسنا ، وانه بالنتيجة لا ينبغي ان نخاف ولا ان نرجو شيئاً ، بعد هذه الحياة ، كما ان الذباب والكلاب لاتخاف ولا ترجو شيئاً ؛ على انه متى ادركنا المسافة التي تفصل نفس الانسان عن الحيوان يسهل علينا ان نفهم الحجج التي تثبت ان نفسنا هي من طبيعة مستقلة عن الجسد استقلالاً تاماً وبالنتيجة ليست هي مثله عرضة للموت ؛ بل اننا لا نرى اسباباً من شأنها ان تميتها وتلاشيها ! »

ان الدروس التي دارت على الحيوان والحياة والخلية لم تفض الا الى اظهار المتناقضات في تعاليم المادية .

قال باستور : « اذا لم يكن الانسان الا مادة تطورت ، فكيف نشرح وحدة الانسان واستمراره ؟ اشعر ، وانا في الخمسين من عمري ، باني ذات الكائن الذي كنته وانا في الاربعين ؛ وباني مسؤول ، وانا في الخمسين ، عن جرائم ارتكبتها ، وانا في الثلاثين . والدائنون كالمشترعين لا يرتابون البتة في هذا الامر ! بيد ان كياني الطبيعي ؛ في مدة عشرة ، او عشرين سنة ، قد تغير مراراً : مرة في كل شهر تقريباً ، كما يؤكد ذلك السواد الاعظم من علماء الطبيعة . فباي حق

يقوم ضميري ويهبّ الحكام فيحاسبونني عن خطيئات او جرائم ارتكبتها منذ اشهر وسنين ، ان لم يكن فيّ الا مادة متنفسة ! ؟ وقدماً قال الحمل لذئب الحكاية : « كيف اكون عكرت المياه ولم اكن بعدُ ولدت ؟ »

تلك حجة لم يستطع ان يتنكر لها حتى « مترلنك » فقال : « اذا كانت الذكريات تبقى ، فهناك اذن شيء وراء الخلايا ، لان الخلايا لا يمكنها ان تكون كلمة الفصل في حلّ الاحجية !

اننا لا ننكر ان لبعضهم من وراء موقفهم هذا منافع ؛ ولكن لو قدّر لماديتهم ان تكتسب قوة الشريعة لامسى العيش ، منذ ذلك الحين ، بين ذئاب الغاب ، آمن من العيش بين الناس في المدن !

انهم يلقنون شبان الجيل الطالع : ان ليس في الانسان شيء اكثر مما في القرد ؛ وليس على الارض خير ولا شرّ ؛ لان ليس الانسان إلاّ مادةً تطورت ؛ والمادة ليست حرة ؛ وان ليس الانسان إلاّ قرداً والقرد غير مسؤول عن اعماله . ثم يسرعون فيرسلون الى العاملين بمبادئهم شرطتهم فيمسكونهم ويرمونهم في السجون او يعدمونهم الحياة !

يا للخداع ! ويا للمتناقضات !

قال ربنا : « من ثمارهم تعرفونهم ! »

(الاذاعة اللبنانية في ١١ ك ٢ سنة ١٩٦٨)

الحديث السابع

الربان

قادتنا احاديثنا السابقة الى ان في الانسان خاصة تتميز بجوهرها عن المادة وعن الحيوانية وتسموهما ، ان فيه نفساً روحية ، وقد عرفنا تلك النفس من افعالها .

على ان هناك معرفة تفضل كثيراً معارفنا الاستدلالية التي اوردناها ، ألا وهي ادراك الحقائق ادراكاً مباشراً بدون ما حاجة الى البراهين . بها يفهم الملائكة الحقائقَ ؛ وبها ، الى حد ، يفهمها نوابغ البشرية وهي الطريق المثلى ، الطريق الشرعية ، الطريقة السلطانية الى الحق ! وبهذه المعرفة المباشرة نقوى نحن على ان نفطن لوجود النفس التي تسيّر السفينة البشرية ، النفس التي هي ربة الجسد الذي تحييه !

ألم يتفق لكم ان رأيتم ، في الليل ، سفينة دهمتها العاصفة فراحت تحاول دخول المرفأ ، كيف تسير على مهل ، متجنبة الاصطدام بالصخور ، باحثة عن المعابر ؟ فلو تركتم الحكم لاعينكم لقلتم : انها بقايا سفينة محطمة ، عائمة فوق الماء ؛ لكنه لم يخطر لكم قط ببال ولم تبلغ بكم البساطة الى ان تفهموا رفاقكم انها سفينة ، لا حطام سفينة ؛ لانكم كلكم ترون ، في مشيتها ، ان فيها عقلاً لا تنظرونه ، ان فيها ربّاناً يمسك بقودها ويسيّرها على هواه .

ذلك هو المشهد الذي تحضرونه ، كل يوم ، ايها الاخوة ! نظرة الى حياتكم : ان فيكم مركباً هو الجسد ، هو الانسان — الحيواني الذي يسير حتماً على

هوى الامواج يترنح ذات اليمين وذات الشمال تدفعه الغريزة ، لو لم يكن الربان فيه ممسكاً المقود بيديه يديره ويدفعه الى حيث شاء واراد ! وان كنتم تقصدون من وراء تربية اولادكم غاية ، فهي تدريب ذلك الربان على اتقان مهنته ؛ لانكم تعرفون معرفة ثابتة انه يتميز عن سفينته بطبعه وجوهره . فعبثاً تصر الاجهزة ، عبثاً تطالب الغرائز ، عبثاً تداعي الاهواء وتتغضب الشهوات ، فالمركب يجب ان يمر من حيث يريد ربانه !

ففي الحرب مثلاً تصر الاجهزة قائلة : كلٌ لنفسه ! ليس للانسان الا حياة واحدة ! وتنادي الغريزة : انه لابله من يضحي بحياته ! وتأمر الاهواء : استسلم للعدو فتسلم وتربح حياتك ونقوداً ! فما عساه يكون جوابك للحيوان الآمر فيك ؟ اصمت ! فالامر ليس لك ! الموتَ ولا خسارة اسباب الحياة في سبيل الحياة ! واذا ما كان ذاك جوابك ، افلا يكون الربان اذن مميزاً عن سفينته ؟ وهو القادر على ان يأمرها بالوثوب وبالتضحية حتى بالحياة ؟

في السادس والعشرين من شباط ١٩١٦ كانت السفينة « ابروفنس » تنقل الى تسالونيك الفين من جنود المستعمرات . وفيما كانت تمخر عباب بحرنا الابيض ، سمع ، بغتة ، دوي هائل ، واذا بالسفينة تصاب برعاد كهربائي فجّرها فجراً فراحت تغرق بسرعة . هرول الجنود الى قوارب النجاة ؛ ولكنها لم تكن كافية للجميع فارتد الاخرون الى زنانير الفلين يتمنطقون بها وحدث ان جندياً قد نسي زناره فاخذ يجهش بالبكاء . فما رآه الاب « بطرس دي داران » ، المرسل في مدغسكر ، حتى خلع منطقته وسلمها رفيقه الباكي ثم وقف مكشوف الرأس ، على جسر الباخرة ، ورفع يده بحل الغارقين ويباركهم ؛ وما هي الا هنيهة ، حتى وقف المركب على مؤخره وغاص في اليمّ على شكل عامودي ! فشوهدت ، لآخر مرة ، يدٌ فوق المياه تبارك ثم تغيب بين الامواج ! الا ترون في هذا التفاني ، في هذه التضحية ، النفس ، سيدة الجسد الذي تحييه ؟ أما عرفتموها من تصرفها ؟ : انه لتصرّف ملكة حقاً !

لقد اسمى « برغسون » امثال هذا البطل هداةَ البشرية ؛ اما نحن فقلنا : ان

القديسين ، وهم ابطال المسيحية ، قد شدهوا بما هو اعظم منهم ، فصاروا براهين حية ، صاروا شهوداً على وجود الله ، شهوداً على وجود النفس في الانسان ، ان مدرسة «برغسون» تعتبر اعمال البطولة واسطة لاختبار اللامنظور ؛ اما نحن فنقول : ان البطولة المسيحية هي اختبار صاعق يحقق لنا وجود الروح ، وجود اللامنظور ثم يأتي العقل فيكمل ادراكنا لهذا الوجود . فآتي البطل ، كالدماء المنجمة ، تحملنا على ان نخلص الى اللامنظور ، علة تلك الجلالات والعظمات !

نحن عالمون ان في طاقة الماديين امثال السيد « سياي » ان يدلونا بين غرقى « ابروفنس » وبين غرقى « التيتانيك » من قبلها على اعمال بطولة بهيمية قام بها الاقوياء والانانيون . ولكن قدفات السيد « سياي » على انه ، ان حق لغيره ان يتعض من تصرفاتهم ، فلا يحق له هو ان يشكو : أليس هو القائل في كتابه المعنون : « تأكيدات الضمير العصري » « عبثاً يجتمع الكاثوليك ، كل احد ، ليثبتوا لنا عظمة الانسان . فليس الانسان ، في اعماق الحقيقة ، الا حيواناً شرساً ؟ » تعليم ما فتأ يكرره من على منبر الفلسفة وفي كلية الاداب العليا ومن على منابر السياسة ، طيلة حياته ! فلماذا أجهدَ نفسه واجتهد ألا يربي لنفسه تلاميذ يؤمنون بتعاليمه ويتمرّسون على مبادئه ؟ فلمَ يعجب اذن من اناس اعتقدوا بانهم ليسوا الا حيوانات شرسة ، شريرة وراحوا يتصرفون تصرفها ؟ ولمَ يغتم وقد اختصر فلسفته صديقه م . ف . بويسون قائلاً : « قوام شريعتنا الادبية ان يجاري الانسان غرائزه ! »

قال هذا وقد سهى عن باله ان ليس عند القردة دستور للفروسية ! فلمَ يضطرب اذا وَجَدَ على ظهر الدارعة « التيتانيك » او على ظهر غيرها اناساً يدفعون النساء والاطفال والشيوخ الى اللجة ليحتلوا هم امكنتهم في قوارب النجاة ؟

واذا ما صدق ان بعضاً ممن يعتبرون انفسهم حيوانات شريرة ليس إلا ، يتصرفون تصرف اناس عاقلين ، فلا يكون الدافع لهم على اعمالهم الشريفة الا كونهم يسبحون في المدنية المسيحية وان جاهروا بوثنيتهم وفاخروا بها ! وإذا كان قد صار من الصعب على المسيحيين ان يحترموا شريعة العدل والانسانية بالرغم

من تأكيدات ذاتهم وتعاليم انجيلهم القائل : «ليس الجسد «بشيء. فلا تخافوا اذن ممن يقتلونه ولا يستطيعون ان يقتلوا النفس . فما يكون من تلاميذ المادية وقد لقنوا بان المادة هي الف الحياة وياؤها ؟

اجل ، ايها الاخوة ، نحن نؤكد خصب الحقيقة وهم بافعالهم يبينون لنا عقم الضلال ! فيا لهم من شجرات يابسة ، نخرة ! فضلاً عن انها لا تحمل ثمراً فانها تسمم الارض وتقتلها ! انهم لا يقوون على فهم اعمال البطولة الانجيلية وتفسيرها فحسب ، بل يسعون الى تجفيف ينبوع تلك البطولة !

فواقع الحال يدعونا اذن الى الجهر والى المناداة بان خلاص البشرية يتوقف اليوم اكثر منه في الامس وما قبل الامس على اقرارها بوجود النفس الروحية ! وحجتنا ، ايها الاخوة ، ان الحياة ، بدون النفس ، ترمي الانسان في عزلة مرعبة ! لماذا ؟ لان الانسان وهو الذي يريد ان يحيا ، ينسى ما هي الحياة ! ليست الحياة ، في الحقيقة ، إلا طريقاً الى غاية ، والطريق ليست غاية . فالغاية هي وراء الطريق. ان الطريق التي لا تؤدي الى مكان ما ، هي قفص محكم التشبك والحلقات .

ان الادوية التي وصفها الماديون للبشرية المريضة لا يتمنع عليها ان تشفيها فحسب ، بل من شأنها ان تقضي عليها ، لانهم في جميع الدروس التي قاموا بها لاجل سعادة الانسان لم ينسوا الا الانسان ولم يسهوا عن شيء الا عن جوهر الانسان الروحي. فباتوا لا يعظمون الا قيمه المادية ، تلك التي عظمتها المدنيات القديمة فجرتها الى الفشل واليأس فالموت! والى الموت ستجر بسرعة مدنيتنا ، اذا بلغ بنا الجنون الى ان نعظّم المادة وحدها مغضين عن الروح في الانسان. فمنذ ما رفعوا من الانسان نفسه وابعدوه عن غايته الابدية بات دائماً ، وفي كل مكان ، عذاباً لذاته وجلاداً قاسياً وانانياً فاجراً بازاء اخيه الانسان ! قال ربنا : « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ! » تلك هي حقيقة اجتماعية ثابتة لا يجد المجتمع البشري لها مثيلاً لاصلاح حاله!

يا للربح الجميل ! اذا حملتنا مساواتنا النسور بالطيران على ان نتخلق باخلاقها ! يا للربح الجميل ! اذا افضى بنا التقاطنا تموجات الاثير الكهربائية ،

بالاسلكي، الى ان نصل، كما يقولون، الى اكتشاف اشعة توقف الطيارة في الهوا، لتصعقها الى الارض محطمة! اجل، يا للربح الجميل اذا توصلنا الى اكتشاف تلك الاشعة التي شاؤوا فاسموها اشعة الموت وميزتها انها تصعق البواخر من مسافات بعيدة! يا للربح الجميل اذا توصلنا الى اختراع القنبلة الذرية واستخدمناها لغايات حربية فانها ستقضي على الارض بالدمار والفناء! أفي هذه الاكتشافات وحدها تزيد عظمة الانسان ام تنقص؟ أفليس من شأنها ان تجعل الارض زريبة ضيقة، من البلاهة ان يسكنها قطيع بشري جرّدوه من نفسه وعرّوه من روحانيته؟

قال «ارنست لافيس» للكاهن الذي كان يؤهبه لساعة الموت الرهيبة: «اذا كانت ديانة فلاسفة الجيل الثامن عشر تصلح بعض الشيء للحياة؛ فليس فيها اية فائدة للموت. ونحن نقول: انها لا تصلح للموت ولا للحياة! ان «روبسبيار»، ذلك الثائر الدموي، رغبة منه في ان يطلي الثورة الفرنسية بشيء من النظافة، جدّ في حمل زملائه فصوتوا على هذا القرار: «ان الشعب الفرنسي يعترف بوجود الكائن الاعظم وبخلود النفس» وبعمله هذا كان ارفع من علماء الاجتماع الماديين، في عصرنا، وأبعد نظراً منهم!

قال العلامة «لويس بروغلي» في كتابه: «مادة ونور» (صفحة ٣٢٧) اذا اقتصرت مدنيتنا على درس المادة وحدها فلا تلبث ان تصير نوعاً معقداً من البربرية. لانه يعوزها تلك الانوار السماوية التي لا خوف عليها من التهويل بتقدم العلوم، تلك الانوار التي لا تنطفىء قبل ان تنقرض البشرية، تلك الانوار التي هي وحدها رأس مال البشرية الادبي!

اسمعوا ما كتبه «ديكارت» قال: «تجهل المادية من الانسان ماهية الانسان. فيتحتم على الانسان اذن ان يجعل ذاته سيد ذاته وسيد الطبيعة ليوطد في هذين العالمين: عالم ذاته وعالم الطبيعة، ملكَ النفس. وفي هذه السيادة يجد الانسان السعادة، وبهذه الوسيلة وحدها يصل الى ما وصلت اليه انا: الى ان لا اخاف الموت والى ان ابارك الالم، رسول الابدية!» حقاً

لقد سما مبدع الهندسة التحليلية بهذه الافكار وحلّق فوق المادة ليمسّ كيان الانسان ويكتنه جوهره بالذات !

نظرة الى هذا العالم الخلّاق يضمّ شهادتـه الى شهادة اولئك المسيحيين الوضعاء وقد رافقهم الى زيارة « لوردت » ، نظرة اليه يضمّ شهادته الى شهادة الوف الشهداء وقد راح الى رومة يكرّم تراب قبورهم ! قبور اولئك الابطال الذين ضحّوا فرحين باجسادهم الفانية في سبيل نفوسهم الخالدة ، اولئك الذين باحتمالهم النار تشوي لحومهم على مهل ورؤيتهم الحجارة يرجمون بها ورضاهم بالمناشير تخرط عظامهم وقبولهم العذابات المبرحة تنزل باجسادهم قد اثبتوا للعالم الذي لا يستحقهم مـا تستطيعه نفس ، هي في الواقع ، سيدة الجسد الذي تحييه وربانة السفينة التي تديرها وتسيرها ! ومن العذابات التي تحملوها ، بصبر عجيب ، محاماةً عن حقوق الضمير ، يرتفع صراخ ، كانه احتجاج على استعباد النفوس وملخّصه : الموت لنا يقظة وانبعاث !

حقيقة تجسدت في الكاهن فبذلت المادية كل ما في طاقتها للقضاء عليه. فمنذ خمسين سنة الى يومنا ، والمادية في فرنسة وفي روسية وفي المكسيك وفي اسبانيا وفي الدول البلقانية اليوم ، تصرع الكهنة بالالوف ، لا لانهم رجال علم وعمل ؛ بل لانهم كهنة . لان الكاهن ، وان لم يتكلم فانه يذكّر البشرية بـا تعلمه من الفلسفة وعلمه باسم السيد المسيح : لا يحق لكم ان تتعرّوا من انسانيتكم ! والنفسَ لا تقتلوهـا – في وسعكم ان تجهزوا عليّ ؛ لكني لا اموت بكل ما فيّ ، ولا انتم ايضاً ؛ فعبثاً اذن تنظرون الى العالم – لا كما هو – بل كما ارادته اهواؤكم ؛ فالعـالم والانسان سيبقيان كما خلقهما الله : العالم خـادم والانسان سيده . وانتم يومَ تعدلون عن عدائكم للاكليريكية الذي اكثر من الخراب هنا وهناك ستفتحون قلوبكم وترددون مع « ريمون بوانكاره » : « بكم انتم ، ايها الكهنة ، ايها الكاثوليك ، ستعود فرنسة فتجد ما اضاعته ، ستعود فتجد نفسها ! »

بيد ان هناك امماً اخرى قد اضاعت نفسها ايضاً . مشهد مؤلم اوحى الى

الفيلسوف « شفاليه » هذه الكلمات النارية قال : يا لتعس الانسان ! اذا حالوا بينه وبين تفتيشه عما وراء القبر ، عن حقيقة تتعطش اليها البشرية ، عن حقيقة بها ولاجلها يعيش الانسان ، عن حقيقة تخوله ان يتسلط على الحيوانية فيه ، عن حقيقة هي وحدها تتيح له ان يتأكد ويؤكد ان، فوق القوة، العدل، وان، فوق ما يعملون ، الحق .

اجل ، ايها الاخوة ، ان الانسان لا يكون انساناً الا اذا كان ما يجب ان يكون : نفساً روحية خاضعة لله خالقها. شراب طعمه مرّ ؛ ولكن هناك ساعات تقضي علينا بأخذ الدواء وان افسدتنا . فسبيل البشرية ان تكرع ذلك الدواء المر اذا شاءت ان لا تموت . لانه ليس من شيء اكثر خطراً على الانسان من ان يضع ذاته فوق العدل وينظم البشرية والعالم على هواه .

محطة الاذاعة اللبنانية في ١١ نيسان سنة ١٩٤٨

ليس الانسان روحاً بحتاً ، لكنه كائن مجبول من مادّة وروح . وبهذا الجزء الاعلى ، بهذه اللهبة التي تتقد على قمة قامته يفكر ويلوي على ذاته ويؤمن ، يؤمن لانه يفكر . وفكّر معناه فرض على نفسه المعضلات وحلّها. انما جميع المعضلات تؤدي الى معضلتنا الشخصية ، الى علامة الاستفهام ، الى الاحجية التي هي نحن ، الى معضلة غايتنا ، معضلة حياتنا . يولد الانسان ويكبر ويلهو . . . قليلاً ويتألم كثيراً ثم يموت ! وبما ان المعضلات جميعاً متشبكة بعضها ببعض فالمشكلة الدينية ، بدورها ، تقوم حتماً بتشابك الافكار امام ضمير كل انسان صادق لا يخاف من التفكير والرجوع الى النفس . وبما اننا خلائق دينية - ونحن خلائق دينية لاننا خلائق مفكرة تضع امامها المعضلات وفي مقدمتها معضلة الوجود : ما نحن ؟ ومن اين نحن ؟ والى اين نحن - ؟ فنحن منقادون الى ان نؤمن والى ان ندخل في مجرى افكارنا الاعتقاد بالله .

الحديث الثامن

وجود النفس برهان على خلودها

كان زمان كانت الفلسفة فيه كتاباً يضمّ ، بين دفتيه ، تاريخ المذاهب الفلسفية ومجموعة من المقالات في علم الطبيعة وتركيب الحيوان وخصائص النبات ؛ اما اليوم فقد صار موضوعها الاول الانسان ، سيد العالم ؛ فعكفت عليه تدرس بنيته وفطرته وتاريخه ؛ لكن دروسها هذه لم تحلّ المشكلة البشرية ؛ بل زادتها حدّة وأحكمت عقدتها لان التقدم في درس طبيعة الانسان لا يقوى على ان ينتج علماً مدنياً بكل ما فيه تقريباً لدرس النفس والتأمل كما قال «ديكارت» لذلك ما كانت البشرية ، في زمن أشد فاقة الى الروح منها اليه في عصرنا ؛ فكدنا نقول مع من قال : « امسى عالمنا عالماً بدون روح »

ولما لم يكن بين القضايا التي تلامس كيان الانسان جميعه قضية تعادل قضية الابدية اهمية ، كان من الحسن ، قال «بسكال» ، ان لا يتعمق الانسان في درس اراء « كوبرنيك » . اما هذه ! فمن المفيد جداً ان يقتلها درساً وتمحيصاً ليعرف ما اذا كانت النفس مائتة ام خالدة » . لذلك آلينا على نفسنا ان نبحث معكم ، في احاديثنا الاتية ، عما اذا كانت النفس باقية بعد القبر ام زائلة .

لقد سبقنا فاثبتنا ان في الانسان نفساً روحية وانها جوهر قائم بذاته

لا يتغير ؛ وانها هي مبدأ الادراك والفهم وسائر الجريات الروحية فينا ؛ وانها حرة ، مسؤولة عن اعمالها ؛ فحق لنا ان نقول اذن : با ان النفس جوهر مميز عن الجسد لا يتعلق به تعلقاً ذاتياً كان في طاقتها ان تبقى بعد انحلاله كما يمكن ان يبقى نبوغ الكسي بطرس مثلاً ان حطم حادث مجموعة دساتينه .

فهل انها ، في الواقع ، تبقى ام تتلاشى ؟ هل ، بعد انفصالها عن الجسد ، تستمر تحيا حياتها الذاتية ، محتفظة ، مع عملها بذاتيتها ، بمسؤولياتها وقواها العليا : بالعقل والارادة ، بالحب او البغض ؟ وبكلمة هل النفس الروحية خالدة ؟

الجواب بسيط جداً في نظر « ديكارت » القائل : « ما انا الا شيء يفكر . . . ما انا الا روح . فما هم النفس اذن من ذلك الحدث الخارجي ، من هدم سجنها ؟ »

اما في الواقع فالمشكلة هي أعقد مما ذهب اليه «ديكارت» لان الاختبار يرينا اتحاداً وثيقاً ، اتحاداً جوهرياً بين النفس والجسد . لقد شطّ «ديكارت» في اعتقاده بانه ما هو الا روح ؛ لكنه اصاب اذ أبانَ عن حيوية الروح الخاصة وعن السعادة الخاصة التي تنعم بها النفس الامينة لدعوتها : وهي التأمل في الحق والخير والجمال والحقائق الابدية ؛ ووافقه على رأيه « برغسون » بقوله : « إن حقل الفكر لاوسع جداً من حقل الدماغ » ومن ثم جاز لنا ان نخلص معه الى القول : « ان ليس على المؤمنين بالروح ان يقيموا الحجة على خلود النفس ؛ بل على خصومهم ان يبرهنوا لماذا ؟ وكيف يستطيع انحلال الجسد ان يجرّ معه انحلال كائن مجهّز بكل ما يلزم ليكفي نفسه بنفسه ؟ »

اجل كيف ولماذا تموت النفس ؟ كيف يستطيع انحلال الجسد الذي يتمّ بتفكك اجزائه ان ينال من كيان النفس ؟ ألم نثبت انها بسيطة وروحية ؟ كتب افلاطون يسأل في كتابه « الفدون » : « مَن الذي يموت ؟ ثم أجاب : المركب يموت لا البسيط » فاذا كانت النفس بسيطة فانها لا تنحلّ ؛ بل انها باقية ، خالدة !

الى هذا اليقين يحمل العلم تأكيداً يوطده . العلم لا يسلّم بان قوة مخلوقة

تقدر على ملاشاة شيء ايا كان ؛ وموت الجسد عينه ، في نظره ، ليس ملاشاةً ؛ بل هناك مجموعة مواد مختلفة ، ملتصقة بعضها ببعضها تتفكك ؛ اما العناصر فتبقى . قال «لافوازيه» : « لا شيء يخلق ذاته ولا شيء يتلاشى » فلو كانت النفس ، لعلّة نجهلها ، تنعتق وحدها من هذه الشريعة وتتلاشى ، لاستطاع الجسد ، ساعة الموت ، ان يُسمعها هذه الكلمات المرّة : « لقد دقت ساعة ثاري . لقد توهمتِ انك تسودين عليّ بأهميته سمو طبيعتك ورحت تقفين بيني وبين غرائزي . لقد دفعت بي الى النار فالاستشهاد ؛ فانت الان ، وانت وحدك ، ماضية الى العدم ؛ اما رمادي فسيبقى وسيبعث غداً في دورة الكائنات الحية . ان الذرارة من العشب وجميع الحشرات تبقى ، وانت ايتها الملكة المزعومة ، انت وحدك تسيرين الى الفناء بكل ما فيك ! »

كلا ، يا سادة ، النفس خالدة لان الله عينه لا يستطيع ان يلاشيها ! صبراً لا تحكموا علي بالتجديف . فها انا اشرح كلامي !

من هو الكائن الذي يقوى على ملاشاة النفس ؟ ليس هناك الا واحدٌ ، هو الذي خلقها ! قال بوسويت : « ليس على نفسنا ، سيدة العالم ، ان تخاف شيئاً الا من مبدعها » على انه اذا كان مبدعها كلي القدرة فهو كلي الحكمة . ونحن ، من دون مساعدة الوحي ، نعرف شيم الله وطبائعه كما نعرف « الساعاتي » وحكمته من « ميقاتيته » — الساعة — . فهذا الاله الذي تُظهره خلائقه عادلًا وحكيماً يستطيع ان لا يخلقني ؛ ولكنه ، اذ خلقني ، صار عليه ان يعاملني معاملة تناسب طبيعتي !

فلو كان الذي لفظ كلمته الخالقة « لتكن » فكانت نفسي ؛ يطلّ على فراشي ، ساعة نزاعي ، ليقول لي : « موتاً تموت ! اغرب الى العدم وتلاش فيه ! » فانا ، انا الذي لا افقه من العدل الا ظل العدل استطيع مع ذلك ان — اسمحوا لي بهذا التجديف — ان اقاضي الله ، امام منبر عدله ، صارخاً به : « انت الذي ، اذ خلقت نفسي ، خلقتها على صورتك عاقلة ، حرة ، بسيطة ، انت الذي وضعت فيّ ما لم تضعه في البهيمة ، وضعت فيّ ما جعلني انساناً ،

وضعت فيَّ رغبة في الخلود وتوقاناً الى سعادةٍ لا محدودة ، وضعت فيَّ ميلاً الى العدل ورغبةً فيه . أفتكون هذه الرغبات نداآت باطلة لا موضوع لها ؟ آه لقــد خدعتني وجنيت عليَّ ! وانا بذنبك كنت تلك الخليقة الوحيدة ، الناقصة ، بين سائر خلائقك ! فاين هو عدلك وصدقك ؟ واين هي استقامتك وقداستك ؟ !

اجل ، ايها الاخوة ، ان لاميال سائر الخلائق مواضيعَ تصل اليهـا فترتوي منها وتكتفي وبشبعها تسعد . ونحن على هذا اليقين نقيم صروح علمنا . لقد استطاع « كيفيه » ان يركب ، من عظام مبعثرة ، هياكل حيوانات عاشت قبل التاريخ . فلماذا ؟ لانه ابا ان العالم هو عمل « ساعاتي » حكيم ، عرف العلماء ان مجموعة هذه الدواليب تفترض هذا العمل وذلك العمل يستدعي تلك المجموعة وهكذا دواليك حتى تمّ لهم اعادة تركيب هاتيك الهياكل العظمية ! وكلما تعمقنا بدرس العالم كلما بانت لنا حكمة الخالق واضحة ، جلية !

مشهد اركع « لفورير » عـلى ركبتيه ، في مرصده ، بازاء عجائب الدنيا وغرائبها ! مشهد أدهش « مالبرانش » وحمل « فابر » ، الاستاذ في علم الحشرات ، على ان يعترف امام قرية نمل وخلية نحل : « الله ! اني لا اؤمن به ؛ بل اراه ! »

لقد سن الله للمجرة وللخنفساء شرائع ملؤها الحكمة ، افيكون الانسان وحده ، وهو كمال الخلائق واكليلها ، الخليقة الوحيدة التي لم يصبها رشاش من حكمة باريهـا ؟ أفيكون الانسان الخليقة الوحيدة التي اخطأت هدفهـا واصطدمت بالعدم فخابت رغباتها واخفقت ميولها ؟ واول تلك الميول الخوف من الموت والرغبة في الخلود وهما ميزة الانسان على الحيوان .

يذهب الثور وتسير النعجة الى الموت بدون ما تفكير فيه ! يساقان اليه فيسيران وهما يقضمان العشب حتى باب المسلخ ؛ اما الانسان وحده فيشمئز من الموت وينفر .

لقد كتب « جوت » : « الموت ! يا لها من كلمة بلهاء ! » وخط « رنان » ساعة موته ، بقلم من رصاص : « الموت يضاد عقلي ! اننـا نحتج على الموت ! وافضل

ان يكون الجحيم نصيبي على ان يكون العدم!» وأكد «الفونس دوده» ان فكرة الموت ما برحت تراوده وتنغص عليه عيشه وتسمم افراحه فكان كلما دخل بيتاً جديداً ، دارت عيناه فيه تفتش عن المكان الذي توضع فيه جثته وعن الباب يُخرج منه تابوته! وقال (زولا) : «هو الموت، الذي يربض في اعماق تفكيري وتفكير زوجي فكنا نضيء دائماً قنديلاً في غرفة نومنا آه! انها لمخيفة تلك الفكرة! ولقد عرض لي مرات ان اقفز عن فراشي مذعوراً لاقف هنيهة في حال من الخوف لا يسعني وصفه!» واسر «اناتول فرانس» وهو في اوج مجده الادبي ، في أذن صديق له انه يقضي لياليه بالبكاء وهو يفكر في نهاية المهزلة البشرية!» وفي كتاب هو اكثر مؤلفاته ابيقراطية توقف عن تمثيل مهزلته ليكتب هذه الكلمات الفاجعة: «من اللازم حقاً ان لا نفكر بشيء اذا شئنا ان لا نشعر متألمين من بلادة الحياة الموجعة! ودون «تن» في احدى رسائله قال: «يلوح لي ان في آتي الادبية شيئاً مكسوراً وان المكسور انما هو الرجاء!» وتنهد «بيار لوتي» وهو من الذين حاصرتهم فكرة الموت حصاراً قال: «من يفسر لي لماذا تغيب عن الارض شمس الربيع، ملق الحياة اللذيذ، اذا كان كل شيء يفضي بنا الى... الموت؟»

اما رغبة الانسان في البقاء والخلود فقد عبر عنها «لامرتين» في بيتين من الشعر قال: «الانسان محدود في طبيعته، غير محدود في رغباته؛ انه لاله صريع تعاوده ذكريات السماء!» وقال «موسه»: اللامحدود يقلقني ويقطع اوصال قلبي بالرغم مني» وفي هذا كان الشاعران على اتفاق مع شيشرون القائل: «لا يسعنا ان نتكلم عن حياة سعيدة اذا كان لهذه الحياة نهاية!..»

تلك الرغبة في البقاء هي رغبة العلماء كما هي رغبة الادباء. قال باستور: «انها لاهانة نرشق بها قلب الانسان اذا قلنا: ان الموت هو السقوط في العدم والفناء!» اهانة لقلب الانسان الذي يبكي والده واولاده؛ اهانة لقلب الانسان الذي لا يرضى ان يكون مصيره ومصير ذويه كمصير دودة

من ديدان الارض . وقال بعد ان فَقَدَ امه : « اذا ما فقد الانسان امه يشعر بان ثلاثة ارباع نفسه قد صارت ، هناك ، في الاعالي » وبعد موت ابنته البكر قال : « هي سعيدة هناك » ولما جرو، صديقه شوبان Chopin على ان يسأله عن معتقده اجاب ببساطة : « ايكون الذي وضع فينا ، وفينا جميعاً ، بذور الايمان والرجاء قد هزىء اذن بخليقته ! انه لحدس مستحيل » وبهذا يؤيد باستور تأكيد شيشرون القائل : « كل امر اجمعت عليه البشرية وجب ان يعد شريعة طبيعية » ويثبت ما قاله القديس توما الاكويني : « الطبيعة لا تكذب »

من البين ان كلامنا لا يدور على الرغبات المصطنعة فان على الارض حمقى يبتغون القمر ؛ بل على توقان البشرية العام واشواقها الملحة الشاملة ، ولا يسهى عن بالنا ان اكل حقيقة تحريفها . فاذا ادعى مجنون انه الامير بشير الكبير فادعاؤه لا يمحو حقيقة وجود الامير ؛ بل شأنه ان يثبتها . ان افلاطون قد وجد احسن ضمانة للحقيقة في موافقة تأكيدات نبوغه مع التقليد البشري قال : « ان كل امر اجمعت عليه البشرية فهو حقيقة » وهناك حقيقة لم يختلف عليها اثنان وهي ان البرهان الذي يؤثر في العالم الذي يظل متواضعاً ، يؤثر في القروي الذي يبقى مستقيم الارادة ! فما هي اصطلاحتنا بازاء القلب البشري ، ذلك الكتاب الابدي الكبير ؟

فَقَدَ اسكاف ولداً له ، وحيداً ، فراحت الام تولول قائلة : « آه ! لو كنت متيقنة من اني اعود فأراه » فأجابها الوالد : « اجل انك سترينه . ما انا إلا اسكافاً ومع ذلك، لو كان في مقدوري ان اجمع ، هناك ، في الاعالي ، الام الى ابنها لفعلت . وما افعله انا الا يفعله الله ؟ »

انا عالم بان الفلاسفة واللاهوتيين سيهزّون ويتجادلون وينحتون الاقيسة المنطقية عن ادراك الاسكاف المبهم ! مبهم ؟ نعم ! ولكنه راسخ مكين . قال افلاطون : « ان الفيلسوف هو مَن عرف كيف يموت وكيف يجابه الموت بدون ما رجاء ، تلك البلاهة الفاحشة » لقد كان ذلك الاسكاف

فيلسوفاً من حيث لا يدري . وهذا ما يجعل ليقين النـاس قيمته الادبية العالية : فمنذ مئة الف سنة وللنفس البشرية ، انى عاش الانسان ، فطرة جعلتها ترجو البقاء بعد الموت ؛ فمن انسان المغاور ، الى ساكن الصين والهند والعجم ومصر ، الى الغاليين الذين وجدهم يوليوس قيصر على ارض فرنسا ، الى اصحاب الجلود الحمراء ، الى « انكريس » العالم الجديد ، ومن اليونانيين المعاصرين افلاطون ، الى رومانيي الجمهورية الذين كانوا يتركون لموتاهم مقـام الشرف في مآدبهم ويحييونهم باجـلال قائلين : سلام ايها القريب المحترم ! ويستجدون بركتهم ويقدمون الذبائح لاجـل راحتهم ! ففي كل مكان وجدنا بشرية عادية رأينا دائماً ، وبأنواع جد بسيطة ، وغالباً ، حية ، ذلك التأكيد الذي عبر عنه « سيلي برودوم » في شعرين اذ قال: « ان يوم الموت هو يوم الولادة الحقيقية ! »

واذا ما اضفنا الى يقين هؤلاء القدماء تأكيـدات امراء الفكر ، وهم كثرة في العالم ، من جهابذة الفلسفة، الى علماء الطبيعيات ، والحساب، الى الاطباء والشعراء ، الى المخترعين والفنانين الذين حفروا في الحجر اناشيد ناطقة بالخلود ، الى شهادة النساك والمتوحدين والتائبين والمهتدين الى الايمان ، بعد حياة قضوها بالتهتك والفجور ، الى شهـادة القديسين والراهبـات والرهبان الذين اخذوا ويأخذون من فكرة الخلود خميرة تفان فائق الطبيعة اعانتهم وتعينهم عـلى احتمال الشدائد وضروب العذاب والاضطهاد نتيقن عندئذ من التأكيد: « انني اذ اموت ، لا اموت بكل ما فيّ » الذي خرج من يقين انسان ما قبل التـاريخ وقطع المدنيات العديدة حتى اتى فتفتح نقياً ، رائعاً في وحي الانجيل الكريم !

محطة الاذاعة اللبنانية في ١٨ نيسان سنة ١٩٤٨

الحديث التاسع

الخلود

هو المناخ الذي يلائم طبيعة الانسان

قلنا ان الله لا يستطيع ان يلاشي النفس الروحية، لانه خالق حكيم وعادل وضع في الانسان ميولًا لا تصل الى موضوعاتها الا اذا كانت نفس الانسان خالدة؛ ودرسنا من تلك الاميال ميلين هما نفور الانسان من الموت ورغبته في الخلود؛ وفي حديثي هذا، احلل معكم ميل الانسان الى الحب والى السعادة والى الحق والى العدل. فلو اقدم الله على ملاشاة النفس، لخالف حكمته وعدله واعطى الانسان حقًا في ان يحتج عليه قائلًا: لماذا وضعت فيَّ ميلًا الى حب الحياة ان كنت خلقتني لاموت؛ لِمَ خلقت فيَّ قلباً ظامئاً الى الحب مع علمك ان الحب الذي ينتهي هو حب باطل. قالت «آن دي نواي» «ما هو ذلك الذي ليس بابدي؟ افلا اكون فراشة مسكينة بائسة اذا كنت لا ارعى الا زهرات فانية»؟

لماذا خلقتَ فيَّ انا الجمال، انا الشاعر، انا العالم، انا المفكر رغبة في سعادة لا تبرد غليلها مياهُ الارض جميعها ولا تشبعها ملذات العالم على كثرتها وتنوعها؟

اجل ليس الجاهل وحده، وليس ابن الفقر والبؤس وحده، يشعر بالجوع

الى السعادة ويتألم؛ بل رجل النبوغ؛ بل ربيب الغنى والبحبوحة يحسه ويتألم اكثر؛ لانه يرى سعادة الارض محدودة وتخومها ضيقة ويعرف اكثر من سواه باي رماد من تجبل افراح الحياة!

يلتهم الذئب فريسته وينام شبعان ويفترس القيصر المقاطعات والبلدان ويظل جوعانَ! حقًا ان الانسان لتواقٌ الى اللامحدود. لمّا كتب الملحد «لودانتك»: مَن منا لم يشته سعادة بقرةٍ تجترّ مستريحةً في الظل (الالحاد صفحة ١١٠) ولما نظم احد شعرائنا العصريين قصيدته: بين البقر والبشر وقال يحسد البقرة: «طوباكِ سارحة في القفر طوباكِ ان كنت احسد مخلوقاً فاياك» فانهما كانا يعلمان علم اليقين ان تلك السعادة السهلة التحقيق، مادياً، سوف لا تمكنهما من السلام الذي ابتغياه فقال الاول: «ان الانسان الذي لا يرجو شيئاً بعد الموت لا يمكنه ان يهتم بالحياة لان مستقبله معجون باليأس! وكل جماعة بشرية ملحدة الحاداً حقيقياً واقعياً تفتك بها جائحة الانتحار؛ ولكن من حسن حظ البشرية، يقول «لودانتك»: «ان ليس على الارض ملحدون منطقيون!» فالملحد يخلق لنفسه ما يقوم مقام الهه فيؤله اصنامه كالعنصرية والعرقية والطبقة والبشرية والشهرة وما اليها. والمادي لا يتورع عن ان يبتدع لنفسه ما يقوم مقام الخلود: كالمجد وعرفان الناس لجميله والذكر على الارض بعد مماته.

في الانسان جوع لاهب وعطش مذيب الى الحق والى الجمال والى الخير مع ان حياته تسيل في نهر من الضلال والسماجة والرذيلة. قال موريس بلنوديل: «من نواحي كياننا الانساني جميعها، يسيل الالم الى حدٍّ ان سيلانه الدائم قد خلق فلاسفة متشآمين، بل فلاسفة ملحدين يتنكرون لكل معتقد ديني؛ الى حدّ انه أوقد في قلب «شوبانهور» رغبة قانطة، فتمنى على ساسة العالم: «ان عجلوا فغيبوا الارض ولاشوها!»؛ الى حد انه حمل «متزلنك»، وهو الذي عاش في البذخ، على ان يقذف زفرة يائسة ان دلت على شيء فعلى عذاب قلبه وتبرمه من الحياة. قال: «لو شاء الله ان يكون لنفسه فكرة

في عقاب يتوله بالانسان، لما كان عليه الا ان يجعله خالداً على الارض؛ اذن اقنط الانسان وراح يضرب رأسه بحواجزها حتى ينفلق ويموت!

في الانسان جوع الى الرقي؛ أفمن المعقول ان ينتهي به هـذا الجوع الى قهقرة القبر المرعبة؟ قال جاك شفالير: «هنـاك رقي بشري، رقي روحي وجهته اللامحدود؛ ولا يمكن ان يتم الا فيه. فهل يكون محكوماً اذن على هذه الحركة التقدمية ان تنتهي بنهاية البشرية وان تضيع معها في العـدم والفناء؟ فانا ارفض رفضاً باتاً ان اعتقد بتلك النهايـة ولا يسلم بها عقلي؛ بل اعتقد بان، وراء الموت، ابدية واليها تنتهي، كما قال افلاطون، تلك النفوس التي هي مبدأ كل رقي وغايته، والا فما معنى ذلك العطش المذيب الى اللامحدود الذي يتأكل حتى قلوب الذين ينكرونه؟» انـه ولا شك طابع الله اللامحدود الذي ختم به خليقته. فهل تبلغ بنا الوقاحة الى حدّ ان نجدف على صدق الله بتصورنا ان في طاقته تعالى ان ينكر توقيعه؟! انها، وايم الحق، لاهانة نكراء نقذف الله بها! فحاشا الله ان لا يكون عادلاً!

وفي الواقع بماذا يوحي اليّ ضميري، لغة الله في «كل انسانٍ آتٍ الى هذا العالم؟ انه يلقي في ذهني: «ان ليس على الارض عدالة». اعمل كل ما بوسعك لتحقق العدل على الارض؛ فذلك واجب عليك» ولكن لا يفوتنّ علمك ان العدل كان، وسيظل، هنا، ابداً، ناقصاً، ابتر! فالارض لا تعدو ان تظل الارض وجور الناس عليها سيحول دوماً دون العمل باوامر الله ونواهيه وسوف تصطبغ الارض كما اصطبغت بدماء الشهداء؛ لانـه سيعيش دائماً على سطحها اناس يتخلقون باخلاق هيرودوس وهيرودياً وقيافا ويهوذا وبيلاطس ونيرون.

لقد رُجم ديونسيوس «بابن» وكان راجميه العملة الذين شاء ان يخدمهم! قتلوه لانه اخترع آلة يحركها البخار! وجُرِّد كريستوف كولومب من مجده واعطي أميريك فاسبيز فحمل العالم الجديد اسمه مع ان كولومب هو الـذي اكتشفه فكان اجر هذا، من وراء عمله الشاق، السجن والبؤس. وكوفئت «ايزابل» رومه على حياة، ملؤها الصدق والاستقامة، بمشاهدة ابنتهـا جان دارك، منقذة

فرنسة محكوماً عليها بالموت ، حريقاً ؛ ونُظر الى المرشال فوش نظرة حذر ونحّي عن تسيير دفة النصر والصلح لا لشيء سوى لانه كاثوليكي صميم ؛ ولو كان الذين خلصهم عملوا بارائه سنة ١٩١٨ لكانو وفروا على بلادهم نكبتها الاخيرة ، وخلصوا العالم من كارثة هدامة كادت تلاشيه .

ولكن على مَ الاسباب وامثال تلك المآسي كثيرة وفصولها تمثل على مسرح الحياة في كل اين وآن . ففي نواحي الارض جميعها ، اولاد يتناسون وصية الله : ان اكرم اباك وامك ؛ واناس واهمون انهم اتقياء ، عابدون ، ينادون بالويل والثبور ان اعتلى مَن لا يريدون كرسياً او احتل مركزاً مرموقاً فيسودون صفحاته البيضاء ويقلبون الى مخازي مآتيه الغراء ولا يستريحون، قبل ان يمزقوا ثوب كرامته ، شر ممزق ؛ واغنياء اشرار يعبثون بشرائع ، العدل الاجتماعي والمحبة الانجيلية فينعمون بالطيبات وعلى ابوابهم يتركون الفقراء يتضورون جوعاً ليذهبوا فيرقصوا على ... القبور طرباً وحبوراً .

كل هذا ولا ينفك الضمير يصيح بضحايا الظلم : ان اصبروا ... طالبوا بحقوقكم ولكن لا تخرقوا حرمة العدل بدوركم . ثقوا بالله ! ان للظلم، كما للالم ، وقتاً وينقضي . وعما قليل ، في حياةٍ افضل ، في حياة ابدية ، سيُنصب قسطاس الاحكام فتأخذ العدالة مجراها ويستقيم النظام .

قال الكاتب الهدام « جبرايل سياي » في صحوة من صحواته : « ملحمة الشريعة الادبية في المسيحية انها تعطي الالم معنى ؛ بل ثمناً غير محدود ! »

اجل ، يا سادة ، ليس على الارض الا موضوع خليق بحبنا . انما هو الالم التكفيري ، بذار المجد الابدي فينا . واذا ما علمنا هذا ، كيف نعود فنسلم بان الله خداع وحفار قبور ينحني فوق فراش نزاعنا ليقهقه ضاحكاً ويقول : كلا ! لستم بخالدين ؛ كلا ! لا يوجد عالم آخر يسود فيه العدل لاني سالاشيكم ! فمن لا يرى انها فكرة خاطئة ، فكرة غريبة عن فكرة الله بالانسان وعن فكرة الانسان بالله ، فكرة يأبى ان يسلم بها عقلنا ! لانه لو قدر العقل البشري ان ينخدع ، ليس عند امراء الفكر فحسب ، بل عند

السوقة وعامة الشعوب بتأكيده : « ان اميال الانسان تصل الى مواضيعها » فالله وضيرنا لا يكذبان . ولو استطاع العقل ان ينخدع بهذا الامر الجلل فبأي شيء نصدقه ! فان اتفق للعقل ان ينخدع بـه ، يمسي كل ما في الحياة غشاً وخداعاً . غش هو العلم لانه يثق بشرائع لا اساس لها ؛ خـداع هو الضمير ! خـداع هو الواجب ! خداع هو صبر الوضعاء . وخداع ايضا عدل الاقوياء !

كتب فولتير في معجم الفلسفة : « ان المادية هي اعظم البلاهات وافظع انواع الجنون التي بلي بها العقل البشري » لماذا ؟ لانها ، بانكارها خلود النفس، تحتقر الوقائع ، هي التي تدعي ، انها وضعية . اما نحن المؤمنين بالابدية ، فاننا نستنصر الوقائع ، لنقول مع كاود برنارد « ان بداية الحياة انما هو الموت » لان لحياتنا علة غائية تسيرها الى غاية عاقلة ، والا لامسى القبر الذي يبلى الجسد فيه وتتلاشى النفس ، غاية لا تفهم ؛ بل اصار مكافأة لشذاذ الاخلاق واللصوص

لقد خسئ الذين قالوا : « الايمان بالابدية هو مخدر للشعوب » والحقيقة ان التأكيد بان لا عقاب في الاخرة هو المخدر المنوّم للانذال ، بل هو المشجع للشذاذ واللصوص على التمادي بغيهم والمعلل نفوس المستثمرين ليسترسلوا وراء جورهم ! ولو كان العدم هو الحقيقة لكان الافضل ان نكون كلاباً وذئاباً وديوكاً ونتصرف تصرفها . . .

قال « كاود برنارد » فكرة الخلود فكرةٌ مصدرها الاختبار ؛ فكرة لم يخترعها العقل البشري ، بل هي حقيقة واقعية قد رآها ؛ فكرة فرضها الاختبار النفساني والادبي معاً ! فجدير بنا ان نثق بهذا الاختبار ثقتنا باختبار الكمّ والكيف والحس .

اننا نستنصر الوقائـع لنقول مع سبينوزا : « نحن نشعر باننا خالدون ؛ » نستنصر تلك الوقائع التي استصرخها باستور في خطاب القاه في محفل العلماء . قال : « ان مذهب الوضعيين لا يحفل بمعرفة اللامحدود مع انها هي اهم المعارف الوضعية . فمـاذا وراء الجلد المنجم الذي نراه ؟ سماوات جديدة تسرح في

اجوائها كواكب وتتقد نجوم لا نراها ! أجل ؛ ولكن أفي وسعنا ان نقف في الزمن او في الفضاء ؟ ففكرة اللامحدود ماثلة امام عقلنا ولا مناص لنا من التكلم عنها ، لانها في كل مكان !

في كل مكان ؟ نعم ! لاسيما في النفس البشرية . وعلى هذا شدَّد مكمل باستور ، شارل نيكلول قال : «ان جميع الوقائع الخاصة بالحياة ، اذا تبصرنا فيها ، ترينا اتجاه الحياة الى الخلود طبقاً لشرائع ازلية سنتها حكمة ازلية . وان جميع حوادث الضمير توحي الينا بالاتجاه عينه ، شاهدةً على رغبة الانسان في الخلود وعلى نفوره من العدم ؛ وعلى توقعه المجازاة العادلة بعد الممات ! »

اننا نستنصر الوقائع اذ نستعين بذلك المبدأ الاختباري القائل : « يجب ان تنتهي الاميال الى موضوعاتها . فالاجنحة خلقت لا للحية ؛ بل للفراشة ، والعصفور المسجون داخل البيضة مع جناحيه وعينيه ، يكون شيئاً يضاد العقل ، ان لم يكن وجد ليخرج من سجنه ويفتح جناحيه للهواء وعينيه للنور . والحكمة الازلية التي ابدعت تلك الملحمة ، ذلك الجنين المخلوق للنور وللطيران الطلق ، تكون قد خدعت ذاتها لو بقي العصفور دائماً داخل قبره الضيق ، ضمن البيضة ، او كان ليس للهواء وجود .

قال الطبيب الكسيس كارل في كتابه : « الانسان ـ ذلك المجهول » : « ان الالياف تسير وتتصرف كما لو كانت تعرف المستقبل : انها لا تعرفه لكن الخالق يعرفه عنها ولاجلها »

ان العالم بطبقات الارض اذا ما وجد في الصحراء القاحلة اسماكاً محجرة، مطمورة في التراب ، يخلص ، بدون ما تردد ، الى انه كان زمان وكانت المياه تغمر تلك البقعة ، لعلمه ان زعانف الاسماك مخلوقة للمياه . واذا ما وجد في مكان ما عظامَ دبٍ ابيض من دببة القطب حكم ان غارة من الجليد اجتاحت ذلك الموضع ! واذا ما اكتشف في غابة قطعاً من الصخور التي تتكوّن على شواطئ البحار المجمدة ، يقطع ان في تلك الغابة بقايا حيوانات او نباتات قطبية ، وفي بحثه عنها يجدها لا محالة ؛ لان كل خليقة حية تتطلب

مناخاً وقطراً وهوا، يناسب طبعها وكل قطر وهوا، ومناخ يستدعي نوعاً من الخلائق الحية .

فهل نحن بحاجة الى التطبيق ؟ ان القطر الذي يناسب الانسان والهواء الذي يلائم الانسان وبكلمة المناخ الذي يعيش فيه الانسان انما هو الابدية . فالعصفور ، ان لم يكن للهواء والنور وجود، لا يعود يضاد العقل اكثر مما يضاده الانسان، إن لم يكن، بعد الموت، خلود ! وإلا فما هو هذا الشعور بالابدية الذي يحسه الانسان ويغمر طبيعته كلها ؟ أيكون عقلي الذي يوشح بالخلود كل ما يلمسه من سن شرائع ووضع مبادىء وتأليف كتب وحفر تماثيل وما إليها موقوفاً على العدم ومحكوماً عليه بالفنا. ؟

كلا ! ليس الله خداعاً ليخدع الانسان . فانه تعالى لا يخدع الطيور المهاجرة في سيرها نحو شمس بعيدة . فلو لم تكن الشمس الالهية موجودة لما اشتاقتها مليارات ومليارات من النفوس البشرية وتطاولت اليها اعناقها منذ مهد البشرية ! قال بسكال : « خُلقَ الانسان للامحدود . فاللامحدود اذن موجود وسيصل الانسان اليه » وبهذا الايمان نحن وضعيون اكثر من كل من يدعي انه وضعي !

(الاذاعة اللبنانية في ٢٥ نيسان سنة ١٩٤٨)

الحديث العاشر

يوم العدل

قلنا ان البشرية، على اختلاف شعوبها وهمجيتها وحضاراتها، آمنت بحياة اخرى تأخذ فيها العدالة مجراها . وامعنا في درس البراهين الاختبارية والعقلية المثبتة ان الانسان يملك ، دون الحيوان ، نفساً روحية لا يسد جوعها الى السعادة الا الخلود وان الله لا يستطيع ان يلاشي تلك النفس، ان لم ينكر صدقه وحكمته وعدله! وحاشاه عن ان يفعل.

قال « كانت » الفيلسوف الالماني الجاحد: «شيئان يثيران دهشتي : السماء المزروعة نجوماً فوق رأسي والشريعة الادبية المحفورة في قلبي ! » فان كان ثم شريعة ادبية، فهناك اذن مشترع سنها، وثواب أو عقاب بعد الموت لمن يحفظها اويتجاوزها !

ان الانسان الذي انكرت فلسفاته المائعة ، المتقلبة كل شيء، حتى وجود العالم المنظور، لم يتورع عن ان ينكر ضرورة العقاب والثواب بعد الممات. لكن الفيلسوف الذي ينكر الحركة يمشي ، والذي ينكر المادة يأكل والذي ينكر وجود العالم المنظور يأوي الى مسكن يقيه من الشتاء ، والذي ينكر ميل الانسان الى العدل، يقيم المحاكم ويقعدها صيانةً لحقوقه ويثير الهمم وينظم الثورات ويعلنها حرباً شعواء قمعاً للظلم وبغية ارجاع العدل الى نصابه . فحب العدل خاصة تفرد بها الانسان، دون سائر الحيوان. ادخلوا مسرحاً يُرونكم فيه انساناً سرق

وخان وقتل؛ فاذا ما اسدل الستار ، في اخر الفصل الرابع، ولم ينزل به عقاب جزاء شره وخيانته ، علت ضجتكم وبتّم تتشوقون الى ان يرفع الستار ، على فصل خامس ، يُعاقب فيه المجرم ويُنصف المظلوم لان عقولكم وقلوبكم تأبى ان يتساوى الظالم والمظلوم ، المجرم وضحيته؛ هذا مع معرفتكم انكم تحضرون رواية؛ وان السفاح قد فتك بضحيته بخنجر من ورق اخذ من محلات قيصر عامر! ولكن ما همكم ؟ انكم ، حتى في تمثيل المآسي والمهازل ، تتطلبون عدلًا وانصافا . فكيف تريدون ان يرضى الضمير الانساني بالمظالم التاريخية ولا يعتقد بوجود حاكم عادل يثيب الابرار ويعاقب الاشرار ؟ .

لقد اسرف نيرون بالظلم والمعاصي فذبح الوف الابرار واضرم النار في مدينة رومة وجلس على قمة من قممها ينقر اوتار عوده ويمتع ناظريه، جذلًا، بمشاهدة اللهيب يلتهم بناياتها ؛ وحين انهكت الشهوات قواه واراد ان يوقظ حواسه الكليلة امر فدهن رجاله بالزفت والقطران جمعًا من النساء والاطفال واشعلوهم وجلس هو في حدائق الفاتيكان ينظر اليهم يحترقون ويتململون ويسمعهم يولولون ويستنجدون! فهل يكون ، بعد دقيقة نزاع ، حظ نيرون ، بقوة الحق ، حظ الوف الشهداء الذين تذوّق عذاباتهم المبرحة ؟ هل يكون العدم حظه وحظهم سواسية ؟ أروني رجلًا تنبض في قلبه عاطفة الشرف لا يصيح بكم : كلا ! فما يكون ذنبنا نحن اذا اغتاظ فيلسوف وأبى ان يضم صوته الى اصوات البشر اجمعين ؟

في سنة ١٩٠٢ مات معلم «علماني» ، في فرنسة ، ضحية وشاية فظيعة ، ثم بُرِىء منها بعد الوفاة ، فاعادت اليه الحكومة حقوقه المدنية . فوقف زميل له على قبره وطرح على السيد بايو، رئيس كلية باريس ، وصاحب المؤلفات الادبية ، الضخمة هذا السؤال قال: « ان صح ما جاء في مؤلفاتك من انه لا وجود للحياة الاخرى؛ فاين ؟ ومتى ينصف زميلنا ؟ ومن ينصفه ؟ ولم تمضِ ايام حتى كتب ذلك الرئيس مقالة جاء فيها : « ان معارفنا ، في حالتها الحاضرة ، لا ترى حلًا لمعضلة الحياة الاخرى. لذلك نقر بجهلنا المطبق لكل شأن من شؤون حياة النفس بعد الموت !»

ليس لمعضلة الحياة بعد الموت حل عند ذلك المربي، ومع ذلك يقدم، بكل وقاحة، على نشر الدروس الادبية هو الذي يتباهى بجهله أبسط مبادئ الشريعة الادبية! فهل يكون ميلنا الى العدل مداعبة ام هو تأكيد لحقيقة!؟ فما هو رأي الماديين امثاله؟

اننا نحمد الله! لقد مرّ في العالم اناسٌ قبله وقبلهم واناسٌ يفكرون، لو تجمعت اصواتهم لتذيع الجواب الذي نطلب لزعزعت الارض!

اجل! لقد امتنع على الماديين ان يقتلعوا من عقل الانسان فكرة الخلود، ومن قلبه الميل الى عدالة سامية تثيب اوتعاقب، فاخذوا ينقبون مفتشين عن دواء للام البشرية، غير الرجاء بالسماء؛ محاولين ان يقيموا، مكان عدل الله، عدل القضاة والعدالة الاجتماعية وحكم الضمير والرأي العام، لكنهم باءوا بالفشل وباتت عقاقيرهم هذه، كما قلنا، كمراهم توضع على ساق من خشب.

نحن لا ننكر ان في هذه الامور نتفاً من الانصاف، لكننا ننكر عليها كفاءتها لارضاء ما فينا من ميل الى العدل! لقد تطال الشريعة المدنيـة المجرم وتحاكمه وتنزل به عقاباً استحقه، ولكن يتفق ايضاً ان لا تطالـه وان تعجز عن معرفته او عن القاء القبض عليه، وكم مرة يهيج الشعب وتحرك الصحافة فيخلقان رأياً عاماً يطالب باطلاق بارابا وبصلب يسوع، بالعفو عن المجرم وبالحكم على البري. : ان امثال قيافا وهيرودوس وبيلاطوس كانوا ولا يزالون، في كل زمان ومكان، يحكمون! وكم يعرض للقضاة ولمن وراءهم ان يتركوا المجرم وشأنه، مغمضين عنه اعين العدل. ورحم الله « لافونتان » القائل: « تبعاً لما تكون عليـه من قوة او شأن تجعلك احكام القضاة ابيض او اسود؟ » واذا ما تتبعنا ما يجري تحت الشمس نرانا مضطرين الى ان نصوّب قول من قال: « ان الشرائع المدنية شباك لا تصطاد الا صغار المجرمين! » فعدل الناس نار للوضعاء وجليد للعظماء؛ ولا يندر ان يكون نار الابرياء ايضاً! فالمال والجاه والسياسة والاهواء والضغط والجهل هذا وغير هذا يؤثر على ضمير القضاة فتتأرجح الاحكام ويتبخر العقاب.

وعلاوة على هـذا الا يظل القضاة عرضةً الغلط، حتى ولو كانوا متشحين

بسمورهم وجالسين على منصة الاحكام ؟ أفلا يعرض لهم ان يلفظوا احكامهم بناء على افتراضات وهمية، وعلى اقوال شهود كذبة ، وعلى ظواهر خداعة، وعلى تأثيراتهم من مقابلات ووساطات، وعلى اغراض واميال طبيعية ؟ واي قاض ، وان عادلا، يستطيع ان يزن على الضبط مسؤولية المجرم ؟ فهناك تأثير البيئة والمناخ والتربية و هناك ظروف سابقة أهبت المجرم الى ارتكاب الجريمة ، ولربما كنا على حق في ان نشكو الهيئة الاجتماعية التي ، بقتلها الرجاء في القلوب ، قد اكثرت عدد المجرمين ! وكم مرة نرى ان العقاب الذي أنزل بيد شهرت سلاحاً قاتلاً ، كان حقه ان يستنزل بيد حركت قلماً فخط ما لا يجوز ان يكتب . ولا يندر ان نرى المسؤولين عن الروح الاجرامية يحملون الاوسمة ويفاخر قضاة الضحايا بصداقاتهم المريبة والنفعية !

ان الشريعة المدنية تجهل داخل الظنين ونياته الحقيقية ودرجة التعمد ونصيب الحرية الشخصية وان العدل البشري الذي لا يحكم الا على الوقائع يمتنع عليه ان ينفذ الى عالم الروح. مع ان الروح هو الذي يُكسب الاعمال أدبيتها . فالحكم على ادبية الاعمال هو من خصائص المشترع الاعظم ، واضع الشريعة الادبية ، وفاحص الكلى والقلوب بوصفه خالقاً يعرف ما يجري في عمق اعماق الانسان !

عدل القضاة ! ؟ نعم ولكن من يحاكم المشترعين والساسة المستبدين الذين يحولون القضاء افستيناً ويهملون العدل ويجعلون الحكم سماً ويحرفون حق المسكين؟ فعدل الله الذي لا يشرى ! عدل الله الذي لا يستهويه جمال ! عدل الله الذي يهزأ بالاقوياء ويضحك من جبروتهم! هو ضروري اذن ليحاكم الاقوياء والظالمين وينصف الضعفاء المظلومين !

فضلا عن ان هناك عدداً عظيماً من الاخطاء حتى الخارجية لا تطالها الشريعة المدنية، وعدداً من القباحات والرجاسات التي تسكت عنها العدالة البشرية بحجة ان الانسان البالغ حرّ؛ هذا ان لم يحسبها عدل الناس شرعية، لا يعرّض مرتكبها لملاحقة الشرطة ؛ ذلك ما حمل الملاحدة على ان يلجأوا الى حكم الضمير، جاعلين فيه « نعيم الابرار وجحيم الاشرار على الارض » ، مدعين ان نعيم اولئك في افراح ضميرهم ، إن

فعلوا خيراً ؛ وجحيم هولاء في لذعات ضميرهم ان أتوا منكراً ! وقد فاتهم ان الضمير لا يملك ان يفرض نفسه، لو لم يكن ترجمان الله في كل «انسان آتٍ الى هذا العالم» . واذ ادرك بعضهم هذا اعتصموا بعدالة لا منظورة ، آلية، معصومة عن الغلط ، وجعلوا مركزها في الانسان فقالوا : « لما كان نظام العالم مازماً كان الالم مرافقاً لكل بلبلة تلحق به. فكل عمل يأتيه الانسان، طبقاً للنظام، يرافقه فرح، والانسان يعاقب بذنبه ويثاب باحسانه؛ ومن ثم كان العقاب والثواب ملتصقين بالعمل ؛ لا خارجين عنه .

انما يصح قولهم هذا، اذا عرفوا اولا ان النظام يفترض وجود منظم ؛ فمن أقدم على انكار وجود المنظم انكر النظام . ولما كان المنظم ابدياً ومتميزاً عن هذا العالم فلم يعد ، في طاقتهم ، ان يحصروا النظام في الزمان او في العالم بدون ان ينقضوه او يحرفوه . والنظام ليس آلياً بحتاً ؛ فان الله يستطيع ، بجودته ، ان يكيف شرائعه ؛ والانسان ، بخبثه ، ان يخل بها . وقولنا هذا لا ينفي ان عمل الخير يولد الفرح وعمل الشر يورث الحزن؛ الا ان الفرح والحزن لا يتساويان مع الاستحقاق والعقاب . واذا زدنا ان تلك العدالة، الالية، الموهومة، العزيزة على المفكرين الاحرار ، كثيراً ما تبقى ساكنة، لا تتحرك ، تاركة البار في بلاياه وتجاريبه والشرير في لذاته وانتصاراته نخلص الى ان العدالة الحقيقية والعقوبات والمكافآت الحقيقية هي في غير هذه الحياة ، هي في الابدية ! يفرضها ويمنحها سيد الازمان وخالق الانسان وواضع الشريعة !

اما العدالة الاجتماعية التي يدعون ، واهمين ، انها تجعلنا بشراً وتغنينا عن عدل الله، لانها تقضي علينا ان « لا نعمل بالناس ما لا نريد ان يعمله الناس بنا » فقد علم الاختبار انها نظرية واهية . فقبل ان نأخذ بها وجب ، من باب الضرورة، ان نتشرب العدالة الفردية ؛ والا كنا من المحاولين ان نخلق مجتمعاً عادلاً من افراد ظالمين وكانت محاولتنا ، لا محالة ، فاشلة ! أما عرض لنا ان رأينا حكاماً يسمحون بالظلم بل يأمرون به؟ ان فكرة العدالة تذوب، اذا قضت بذلك ضرورات اجتماعية ومنافع شخصية !

فما الذي يبقى ليقوم مقام العدل الالهي ؟ يقولون الرأي العام !

سأل « شامفور » كم يلزم من الحمقى ليخلقوا رأياً عاماً؟ ثم اجاب: «ان الوسيلة

التي اراهم يستخدمونها ليكونوا رأياً عاماً تولد فيّ رغبة شديدة في ان أهجى ويشنع عليّ وأعاب . فالوسيلة الوحيدة التي تمكن الحكيم من ان يسير على طرق العدالة هي ان يحتقر الرأي العام ولا يبالي ! « قال بولس الرسول : «لو كنت ارضي الناس لما استطعت ان اكون خادماً المسيح ! » . . . للمسيح الذي كان اشهر واقدس ضحية نكل بها الرأي العام .

اجل ! نظرة الى الجلجلة تروا ان قاتل الاحيا. ومحيي الاموات مصلوبان جنباً الى جنب؛ والشعب الذي استقبل المسيح البارحة بالاهازيج الشعبية الحارة « هوشعنا لابن داود » هو الذي يطالب اليوم بصلبه : « ارفعه ! ارفعه ؟ اصلبه ! اصلبه . دمه علينا وعلى اولادنا ! » ما ذلك الا لان الشعب مطرقة يستخدمها البار والظالم . هو صديق حيناً وزنديق آخر ، يذبّ عن حمى الدين مرة ويشعل الثورة عليه اخرى . يوماً يبني الكنائس ويزينها ويوماً يحرقها وينسفها ؛هو عجينة تصير : اما خبزاً يفرح او سماً زعافاً يميت، تبعاً للخميرة التي توضع فيها . فالرأي العام ديك من ورق على قبة؛ ذيله الهوا. ووجهته الخوافق الاربع!

ناهيكم عن عدد الامم التي فقدت رأيها العام لان حكوماتها آخذة بالسعي الى ان تجعل من الصحافة شيئاً حكومياً؛ وجادة في ان تصير الفكر شيئاً مساوياً للتبغ والملح وخيوط الكبريت تحصره لئلا يكونّ اصحاب الرأي رأياً يخالف رأي قيدرها . فلكي نتمكن من ان نخلق رأياً عاماً وجب ان نحترم الشخص البشري ونعترف بقيمه الروحية والانسانية السامية ؛ وهذا ما لا يتسنى عمله في المجتمع المادي الذي ينكر وجود النفس والروح والخلود!

اخيراً ان وجود العدل الالهي ضروري ايضاً ليثيب الفضائل الخفية ويكافىء ابطال القداسة الذين مروا في الحياة ولم يعرفهم احد ولم يأبه لفضائلهم وتضحياتهم احد . فهل يرضى عقلكم وضميركم بان لا تثاب فضائلهم الخفية وتضحياتهم المستترة ؟ كلا ! بل انكم ، كما تطالبون بعقاب الاشرار ، تطالبون بمكافأة الابرار !

وقف فكتور هوجو في المجلس النيابي ولفظ هذا الاعتراف الرائع بايمانه

قال :« لنقل ولنقل عالياً ان لا احد يتألم ظلماً ويكون ألمه بدون جدوى ! ان العدل هو شريعة العالم الادبي وان الله موجود في نهاية كل امر . فبعد القبر حياة تتجلى فيها العدالة بأجلى مظاهرها وانا مؤمن ايماناً وطيداً بتلك الحياة الفضلى؛ واني لسعيد بان اجهر باعتقادي من عن هذا المنبر . فايماني هو تأكيد سام لعقلي وفرح عظيم لقلبي ! » وقال السيد بايو وقد لمس، لمس اليد، اثار تعاليمه الكفرية المتهرأة :« ان لم تجد الديموقراطية علاجاً للشؤون الحاضرة التي تسير من سيء الى اسوأ ، يوماً بعد يوم ، فلا مندوحة لها الا ان ترجع الى السلطة الادبية المنظمة ، الباقية لنا ، الى الكنيسة الكاثوليكية ! » وقال جاك شفالير :« ان علة الازمات الاجتماعية التي نعانيها هي كون الشريعة الادبية تنقص اناس عصرنا . انهم في حاجة ملحة الى ان يذكروا غايتهم الاخيرة . فانحطاط مدنيتنا يسير جنباً الى جنب انحطاط الايمان بالابدية . فكل الذين عرفوا ان يسوسوا شعوبهم ، كل الذين عرفوا ان يحققوا النظام مع العدالة كانوا ينتظرون مكافأتهم من عدالة سامية ؛ فلا سبيل الى خنق البغض ، الناشب اظفاره بقلوب الشعوب ، لا سبيل الى الحياة الهادئة والى السلام الاجتماعي والى الاستقرار الدولي الا بالرجوع الى الايمان بالابدية ، اس الشريعة الادبية ، الا باتقان علم ما وراء الطبيعة ! اجل ايها الاخوة الاعزاء ، ان شرح الحياة الكامل وتعزيتها الكبرى انما هي مسؤولية الانسان عن اعماله بعد الموت وانتظاره يوم الرب، يوم القضاء العادل.

محطة الاذاعة اللبنانية ٢ ايار سنة ١٩٤٨

الحديث الحادي عشر

التقمص القديم والبهائية العصرية

لقد رأينا عدل القضاة والعدالة الاجتماعية وحكم الضمير والرأي العام في عجز عن إرواء ظمأنا الى الانصاف، اما اليوم فاكلمكم عن مذهب التقمص القديم وعن مذهب البهائية العصرية، وقد تذرع بهما بعض الناس كوسيلتين اخيرتين ليتهربوا من مسؤولية الاعمال بعد الممات.

قال بسكال: «ان الملاحدة هم اسرع الى الايمان من المؤمنين الاقحاح» لانه يستحيل على الانسان ان ينزع من عقله حاجته الى النور وان يحرر قلبه من فاقته الى الايمان؛ فانكار الايمان لا يلاشي الايمان؛ بل يفسده؛ فان لم نؤمن بالفائق الطبيعة آمنا بالغرائب، وإن عدلنا عن الانبياء، لجأنا الى العرافين وإن اقفلنا هياكل الرب، فتحنا مغاور السحرة والمشعوذين. فالاستخفاف بالتعاليم المسيحية لم يُجدِ الفلسفة نفعاً؛ بل افاد العرافة والتدجيل فانتشرت في عصرنا، عصر النور، الاعتقادات الباطلة بما اهاب بالصحافة العالمية الى التنديد بكثرة العرافين والعرافات، في عصر العلوم والاكتشافات، وأسفت ان ترى الحكومات واقفة مكتوفة الايدي، لا تبدي ولا تعيد، ولا تلاحق المشعوذين يبتذون اموال الناس ويفسدون الاخلاق بما يدعون من علوم سحرية ومناجاة للارواح مزعومة. وعهدنا نحن ببعض هؤلاء المخرقين الذين أدهشوا بعض العقول، ليس ببعيد — فاذا أسفنا فعلى عقول نيرة اعماها الغرض فلم تذكر

حوادث التاريخ ولم تتفهم عقائد دينها واذا عتبنا فعلى الحكومة لانها تأخرت عن رفع يدها وإحكام ضربتها حتى نتج عن تأخرها ما نتج وعرفتموه .

ان جيش الملحدين، في ايامنا ، يزحف الى البهائية . والبهائية بدعة مصدرها مذهب التقمص القديم الذي كان شائعاً في الهند ومصر ، قبل المسيح ، فنقله فيثاغور الى اليونان ودان به افلاطون ؛ ومن مبادئه ان النفس لا تدان بعد الموت دينونة نهائية ؛ بل وقتية . وبعدها تأخذ النفس تنتقل من جسد الى جسد لكي تكفر عن نقائصها وخطاياها ، لذلك حُرم على اتباع مذهب التقمص اكل اللحوم لئلا يتعرض المؤمن ، ان فعل ، الى اكل لحم ابيه او جده او وُلده . واعتبرت بعض القبائل البوذية والبراهيمية قتلَ الحيوان جريمة، مخافة ان يقتل الانسان احد ذويه ؟ سواء أكان الحيوان ذئباً ام حية ؛ هواماً ام دبياً .

واوريجانوس المصري ، ذلك العقل الثاقب ، قد يكون اعتقد في شبابه بتنقل النفوس من جسد الى جسد وقد يكون علّم بالنتيجة ، ان الشياطين والهالكين سيعادون في النهاية ، الى سابق حالاتهم ، الى السعادة . اما في شيخوخته فقد انكر تلك الضلالات واتهم الاراطقة بانهم تجنوا عليه وحرّفوا تعاليمه، ولكن تلك التعاليم المنسوبة اليه لم تعبأ بتكذيبه، بل اجتاحت البلدان، القائمة حول البحر المتوسط، مما اضطر الكنيسة الى ان تعقد مجمعاً مسكونياً، وهو الخامس عداً ، وتحرم فيه « الاوريجانية » ؛ على ان حرم الكنيسة لم يُبدها فقام «أريجان سكوت»، في الجيل التاسع، و « فوررير » و « بللتان » والمدّعون مناجاة الارواح، في الجيل التاسع عشر ، يُحيون كثيراً من التعاليم المنسوبة الى «اوريجانوس» ؛ ويضيفون اليها اشياء من عندياتهم ؛ ولم تحرم اوربا من علماء معاصرين شاؤوا ان يوطنوا مذهب التقمص في بلدانهم فحاول « جان رينو » و « لويس فيجيه » و « كميل فلامريون » ان يعودوه على مناخ فرنسة . فاخبرنا «فيجيه» ان « فيثاغور » قد تذكر انه حارب ، قبل ولادته ، - ببضعة اجيال - الى جنب « أشيل » تحت اسوار طرواده، وان « امبادوكل » كان على التتابع صبية ثم شجرة ثم عصفوراً ثم سمكة خرساء ، وان «بتوفن» قد تحدر من بلبل ، وان مونسارد المهندس قد نسل

من كاب ما .

اما البهائية فتدعي انها اخذت مبادئها عن البوذية والبراهمية وقد تفشت، في اول عهدها، في كثير من الكنائس الاميركية والمحافل الماسونية؛ لكنها ظلت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمذهب المدعين مناجاة الارواح ؛ ولكن لا ارواح الموتى بل بالمهاتما ، تلك الارواح المبهمة التي تتجسد ثم تترك الاجساد ثم تعود اليها كل مرة خطر لها ان تجيء الارض بقصد النزهة. فالبهائية هي ديانة لمن يريد ان يكون له ديانة ، لا دقيقة ولا مزعجة . ديانة فيها من المتناقضات ما لا حد له . يزعم اتباعها انهم روحانيون ولكنهم لا يؤمنون الا بالارواح التي تنقلب الى ارواح مادية . وبهذا يبتعدون عن مذهب التقمص القديم . كيف لا وهو الذي يعلّم ان الروح تبقى روحاً وان تنقلت من جسد الى جسد ؛ ويبتعدون عن البوذية والبراهمية ، اقدم الديانات الهندية اللتين اعتقدتا ، لالف ومئتي سنة قبل المسيح ، بالنعيم نصيباً للابرار وبالجحيم عذاباً للاشرار وبان النفس لا تموت ، بل تتجسد مثنى وثلاثاً ورباعاً ولا تزال حتى تكفر عن خطيآتها قبل ان تذهب فتغور وتتلاشى في الكائن الاعظم اي في النيرفانا البوذية ، في ما يشبه النوم الابدي .

ففي غمرة هذه المتناقضات يمكننا ان نتبين روح الحقيقة ، الا وهي غريزة العدل والتكفير ، المتأصلة في قلب الانسان ؛ على ان مذهب التقمص ومذهب البهائية بعد ان يقرا بضرورة الدينونة أساساً لتعليمها ، يرتدان الى الوراء ، امام النتيجة الفعلية ، امام ميزة الدينونة فيمحوان من الاذهان فكرة العدالة ، غايتها .

حماقةٌ فضحها بولس الرسول اذ قال ما معناه : بما ان كل شيء ينتهي بعفو عام وبالتلاشي في الجوهر الشامل فلمَ نحمّل انفسنا الاثقال في هذه الحياة؟ لمَ نقمع الحواس ونكبح الشهوات ؟ فحري بنا ان نأكل الطيبات ونتضمخ بالطيوب ونقطف الورود دانية ! ثم يردف : « ايها الغلاطيون ، لا تضلوا فان الله لا يُستهزأ به . والانسان انما يحصد ما زرع فالذي يزرع في

جسده فمن الجسد يحصد الفساد والذي يزرع في الروح ، فمن الروح يحصد الحياة الابدية . . . لانا جميعاً لا بد لنا من ان نظهر امام منبر المسيح لينال كل واحد على حسب ما صنع بالجسد ، خيراً كان او شراً »

اجل ، ما همّ الانسان من تكفير ينذرونه به في تنقّل نفسه من جسده الى جسد منبوذ او الى جسد حيوان إن كان يجهل انه يكفر ؟ فلكي اكفر ادبياً عن زلة ارتكبتها وجب ان اعرف زلتي واشعر باني اكفر عنها ! ومن منا يعتقد ، اليوم ، انه ارتكب خطيئة ، منذ اجيال ، وانه في حياته الحاضرة ، يكفر عن تلك الزلة ؟

ان الجبانة البشرية ، مكان ان ترضى بما ترجوه من عدالة ، نزيهة ، سامية قد فضلت ان تتنكر لاكثر اميالنا عمقاً ، لميلنا الى الابدية الشخصية . ولقد جرّنا تفضيلنا هذا ، كما فعل بالرومانيين والاسيويين القدماء ، الى انانية فاحشة !

اجل ، انها لجبانة وانانية ! لان رفض العقيدة القائلة بالابدية الشخصية هو رفض تأباه كل غرائزنا وتحاربه اميالنا الى العدالة .

فلمَ لا ينثلج صدر الانسان اذ يسمع جواب المسيحية : انك خالد ! وان رغبتك في السعادة اللامحدودة ستبلغ الى هدفها ؛ لان عين الانسان لم ترَ واذنه لم تسمع وعلى قلبه لم يخطر ما أعده الله لمختاريه ؟ لمَ لا يرقص قلبه طرباً وحبوراً اذ يسمع الكتاب يقول : «سيمسح الله كل دمعة من عيونهم ولا يكون بعد موت ولا نوح ولا صراخ ولا وجع وسيسكن الله معهم ويكونون له شعباً ؛ ويثملون من كثرة الخيور ويروون عطشهم من سيول الفرح؟»

لماذا ؟ لضعف في العقل ونقص في تفهم الفلسفة ! فالى جنب التقاط حقيقة علمية ، كم من تأكيدات تخجل صبيان المدارس الابتدائية ، يسخر بعضهم من الفلسفة التي يجهلها ويقضي حياته يتفلسف زوَراً واعوجاجاً ؛ ينكر وجود الحقيقة ويصرف العمر في اثبات عقائده ، يؤكد وجود الشريعة الغائية وينكر وجود واضعها . وقد فاته ان من تكلم عن شريعة اثبت ضمناً وجود مشترع سنها

ضعف في العقل ونقص في الفلسفة يضاف اليها غالباً انحطاط في الاخلاق! انحطاط يحسب النفس ذاتها مادية هيولية؛ انحطاط يجعل الانسان العاقل في مصاف الخلائق التي تنقاد بالغريزة دون العقل. فيصير كل ما في الانسان جسداً وحساً فيسي، وقد خُلق ليكون روحياً بجسده، مادياً حتى بروحه.

ان الحيوان لا ينكر، بل يجهل. اما الانسان «المتحيون» فانه ينكر؛ لكنّ انكاره المغرض يعادل اليقين. ولا غرو فانكاره لا يقع الا على حقيقة تزعجه. فهل رأيتم احداً يلاكم الاحلام ويناطح الخيالات والاوهام!؟ فاذا انكرنا، فانا ننكر حقائق بينة يزعجنا الايمان بها. فلو تحققنا ان القضاء سيكون بجانبنا» لما وجدنا انساناً الا اعتنق بحماسة منقطعة النظير، الحقيقة المؤكدة لنا: انك لن تموت، بل انت حي الى الابد! فاذا كنا نحارب الابدية وننكر الدينونة فلانهما حقيقتان يجعلنا الايمان بهما مسؤولين عن الحياة ولما اردنا انفسنا غير مسؤولين، فضلنا ان نتلاشى في اية نيرفانا كانت، على شريطة ان يتساوى حظ اللصوص والمضطهدين مع حظ القديسين والمضطهدَين.

جاء في اخبار الثورة الفرنسية ان ارملة سيقت الى المحكمة بداعي انها احتفظت في بيتها ببعض صور تقوية مما شكل، في نظرهم، مؤامرة على سلامة الدولة. قال المؤرخ لونوتر: «فراح القضاة السكارى، منذ الصباح الباكر، يطارحونها الاسئلة؛ لكن المسكينة كانت صماً. فلم تسمع شيئاً ولم تجبهم بشيء»؛ فتنبه احدهم لامرها وقال لزملائه: «انها طرشاء لا تسمع رنيناً ولا طنيناً!» فأجاب الرئيس بخبث: «وقد تآمرت على سلامة الدولة بلا رنين ولا طنين!» وحكم عليها بقطع الرأس وقدّم لها نص الحكم مكتوباً على قصاصة من ورق. فقرأته المظلومة وعندئذ اغترفت من قرارة نفسها المسيحية قوة ما كان جلادوها ينتظرون مثلها من مثيلاتها وحدجتهم ببصرها وصاحت بهم: «ارتعدوا، ايها القساة، لانكم خالدون»!

ففي كلمات تلك المسكينة التفسير الكامل لجميع المناقضات البشرية الظاهرة؛ حقاً ان العدم، ليس الضالة التي ينشدها الماديون، انما التخلّص من مسؤولية

الاعمال بعد الممات هو كل ما يصبون إليه وما فيه يرغبون . على ان رغبتهم سوف لا تغير شيئاً ؛ بل انها تثبت وحي الضمير وتوطد مبادئ الانجيل .

قال بولس الرسول : « حُتم على الناس ان يموتوا مرة واحدة وبعد ذلك الدينونة » وإذا شئتم على ذلك تأكيدات قاطعة ؛ افتحوا الانجيل فأمثاله عن المسؤولية بعد الموت كثيرة ؛ وهي من السهولة بحيث يفهمها الناس اجمعون ! منها مثل الغني الذي غلّت له ارضه وحار في امرهـا اين يخزنها ، ثم قر رأيه على توسيع اهرائه ، ففعل ؛ ومنّى نفسه براحة مديدة كان يبتغيها ولما لم يفكر بالابدية ، كان جواب الرب إليه : « يا جـاهل ، في هذه الليلة ؛ تؤخذ منك نفسك وهذا الذي اعددته لمن يكون ؟ » ومنها مثـل الغني الشرير الذي كان ينعم بالحرير والارجوان ولا يكترث لفقير كان مطروحاً ، على باب داره ، تلحس الكلاب قروحه . إقرأوا هذا المثل ، ففهم الاولاد يتناوله وبوسعهم ان يروا فيه تأكيداً للعقيدة القائلة : « ان النفس تثاب او تعاقب حالًا بعد الموت ثواباً او عقاباً لا يتغير ما دام الله إلهاً » فلا نفس لعازار المسكين ولا نفس الغني الشرير انتظرتا نهاية العالم ، متنقلتين من جسد الى جسد حتى يعين لكل منهما حظها ؛ بل لفظ القضاء العادل حكمه فكانت بينهما هوة عظيمة لا يمكن لاحداها ان تجتازها .

وكلمات المسيح : « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، تمسي لا معنى لها ان لم يكن بعد الموت قضاء مبرم » فالنفس ، غب انفصالها عن الجسد ، ترى ذاتها وترى ذاتها كما هي وتلفظ على ذاتها حكماً عادلًا ولا يبقى على الله الا ان يؤيده . هو الله الذي يوحي الى النفس بواقع حالها ؛ وفي هذا المعنى يحاكمها وتكون هي شاهداً وحاكماً وتكون هي التي تنفذ الحكم الذي تصدره على ذاتها . فيهوذا لم يقده احد ، بل ذهب ، من تلقاء نفسه ، الى مكانه . وحيثما تسقط الشجرة ، فهناك تثبت .

لقد ضاعت الفرصة اذن على اللاعبين ولن تعود ، كما يزعم مذهبـا التقمص والبهائية . ولو عادت لكانت عودتهـا مكافأة للخلاعة وبذاءة

الاخلاق . ولكان كثير من اللاعبين يضحون بالجولة الاولى فرحين يهزهم الطمع ويحدوهم الرجاء الى الربح في الجولة الثانية .

كذلك كلمة الرب يسوع لاص المصلوب الى جنبه اليمين : « اليوم تكون معي في الفردوس » تقطع بان ابدية الانسان تتبع موته حالاً !

يا المشهد الفاجع والمعزي معاً . لص يتوب ويدرجه يسوع نفسه في عداد القديسين ! لقد دينَ وخلص ، ساعة دين يهوذا الرسول وهلك !

مسكينة احكامنا البشرية ! لقد حكمت عدالة قيافا وبيلاطس على الظواهر فقالت : « ان على يدي ذلك اللص دماً » لقد جهلت ان قليلاً من الوقت وتنحط النفس ، وبرهة منه فتسمو . وكثيراً ما يتفق للناس ان لا يعرفوا من انقلابها شيئاً . ولكن اي نفع من وراء معرفتهم او جهلهم ؟ فهناك واحد يزن كل شيء طبقاً للعدالة : هناك واحد يعيد النظام الى نصابه ! هناك الديّان الاوحد ، هناك الله ، يا سادة ! فعليه وعلى حكمه فقط توكل الابرار الذين سبقونا الى القبر ، لذلك رأيناهم يتركون الحياة وعلى ثغورهم ابتسامة الرجاء !

ان صراخ الضمير : « ارتعدوا ، ايها الظالمون ، وتعزوا ، ايها الابرار ، لانكم خالدون » يفقد اذن معناه ان لم يذع حكم مبرم من على عتبة الابدية .

(الاذاعة اللبنانية في ٩ ايار سنة ١٩٦٨)

الحديث الثاني عشر

قيامة الاجساد

بين

ما يقوله العلم ويعلمه الايمان

لقد استعنا بالوقائع وبالتقليد البشري وبدرس اميال النفس فاثبتنا ان الله وضع في الانسان نفساً روحية ميالة الى سعادة لا محدودة، راغبة في العدل تنتظر حياة اخرى يصل فيها كلّ الى حقه فيعاقب الظالم وينصف المظلوم وتثاب الفضائل الخفية وتجازى الخطيآت المجهولة. فبعد الموت اذن يرفع الستار عن المخبآت، وبعد عشية العالم ينبلج صبح ابدي!

فما رأي العلم بنهاية كرتنا؟ لقد اثبت انها ولدت وكبرت وشاخت؛ وانها سوف تموت حتماً. فالاب «مورو»، مدير مرصد بورج، اختصر في سلسلة مؤلفاته الشهيرة: اين نحن؟ من نحن؟ والى اين نحن؟ تاريخ كرتنا: فكلمنا عن ولادتها وحياتها وموتها. فتاريخ ماضيها نقرأه في السيارة «زحل» – ذلك الكوكب الفتى نسبياً. فان جوه الجائش وكتله البخارية يذكرانا بما كانت عليه ارضنا في بدء حياتها وقت لم يكن عليها حياة نباتية ولا حيوانية. أمّا مستقبلها فنقرأه في المريخ والقمر. فالمريخ ارض في طور النزاع والقمر ارض ماتت.

هذا ان لم يعرض للارض ان تمــوت موتاً فاجعاً كأن تصطدم بجرم من تلك الاجسام العظيمة، التائهة في الفضاء، المفصولة عن عوالم مفككة كالذي سقط مؤخراً في سيبريا فخسفت تحته واختفت غابات واسعة بكاملها . أو كأن تسقط عليها قذيفة من القذائف النارية التي يمكن ان تسبب فيهـا انقلابات وحالات لا عهد لنا بها ؛ لانه كثيرة هي النجوم المذنبة التي تتيه في الفضاء كأنها خلية من الفراش يجتذبهـا النور فتتهافت عليه . فحياة الارض، كحياة الانسان ، اذن ، سيرٌ في طريق الموت !

الى جنب الاهرام المصرية العظيمة، نصب المصريون القدماء، اسياد علم الفلك ، تمثال ابي الهول الجسيم ، فعيناه الصوانيتان المتجهتان منذ اجيال واجيال الى الصحراء، تظهران لي كأنهما العقل البشري يسائل الفضاء الواسع ، الصامت : « الى اين نحن سائرون ؟ » الى الموت ، الى العدم والفناء ، تجيب المادّية ! كلا ! بل الى الحياة ، الى الابدية تصحّح الفلسفة ويؤكد الانجيل .

ان الصورة التي يرسمونها لنا عن عشية العالم : كواكب تتساقط من الرقيع وزوابع دخان تتلبد فتحجب الفلك ومياه البحار تخرج عن شطآنها . . . قد استوحوها ، عـلى ما يظهر ، من الانقلاب الاخير الذي وصفته لنـا الكتب المقدسة في سفر الرؤيا ورسالة القديس بطرس الاولى وانجيـل القديس متى ومما جاء فيها : انه ، بعد سلسلة من البلايا والنكبات يتطهر فيهـا الابرار من حروب كونية واوبئة ومجاعات وزلازل واشتية متراكمة وسيطرة الانبياء الكذبة وانقلابات اجتماعية هامة يكون من نتائجهـا الوخيمة فقدان الايمان وقلة الثقة وجفاف القلوب من الحبّ والشفقة ، يدخل العالم الحسي في طور النزاع « وعلى اثر تلك الايام ، يقول الانجيل : « تظلم الشمس والقمر لا يعطي ضوءه وقوات السماء تتزعزع » وكواكب الرقيع تظهر كأنها تتساقط كورق التين في الخريف وعندئذ يظهر من وراء الغيوم « ابن الانسان كالبرق يلمع من الشرق الى الغرب ويرسل ملائكته فيجمعون مختـاريه من الرياح الاربع من اقاصي السماوات الى اقاصيها فتجتمع امم الارض كلها امام ديانها فيميز ، كما

يفعل الراعي، الخرفان من الجداء. فيقف اولئك من عن يمينه وهؤلاء من عن شماله» ليلفظ حكمه لهم او عليهم ولا يكون لحكمه مردّ!

تلك هي الصفحة الاخيرة من تاريخنا وبعدها «تأتي السماوات الجديدة والارض الجديدة!»

اما متى يتم هذا الحدث الرهيب؟ لقد شاؤوا، في ايامنا، ان يستخلصوا من كتابات مصر القديمة ومن ارقام كهنتها وخطوطهم المرتكزة على التقاليد الاسرائيلية تواريخ تقريبيّة فقالوا: «لقد قربت نهاية العالم!» ان هي الا حدسيات واوهاماً. فلا تأهبوا لها!»

ان الكتاب المقدس عينه قد سبق فأنبأنا بان في الامر لسراً عويصاً، لا يُنفذ اليه. فابن الانسان يأتي كاللص ولسوف يباغت البشرية، كما فاجأها الطوفان، والناس في لهوهم: يأكلون ويشربون، يزوجون ويتزوجون، لان ساعة النهاية لا يعرفها احد الا الآب! فما علينا الا ان نكون مستعدين في كل لحظة لمجيء ربنا، ديّاناً، وان نعتبر الزمان قصيراً وكل ما هو زائل شيئاً حقيراً!

ولكن على أية معطياتٍ وضعية نستطيع ان نستند لندعم ايماننا بقيامة الاجساد البشرية التي يكلمنا عنها الانجيل؟

على اعتقاد البشرية اولاً. ان الاقدمين، بالرغم من اضاليل وثنيتهم الغليظة، كانوا يملكون فلسفة عميقة حول هذا الامر. كانت لمصر واليونان وروما طقوس عديدة تدل دلالة واضحة على ايمان القوم باتحاد النفس والجسد اتحاداً لا ينفصم. بهذه العقيدة آمن اليونانيون في عصرهم الذهبي، قبل ان تستولي عليهم المادية؛ فلقد عظموا، في اجل مآسيهم، اعمال البطولة يقوم بها الافراد لئلا يحرموا من المآتم بقايا موتاهم ولئلا ترفض عليهم الفروض الدينية التي كانت في معتقدهم ضرورية لاعادة الجسد الى النفس، ولازمةً لئلا تبقى الانفس حزينة تائهة الى الابد — وبالعقيدة نفسها آمن المصريون يومَ راحوا يحنطون اجساد موتاهم لاعتقادهم بان النفس باقية ما بقيت اجسادها!

ثم على احكام الفلسفة ثانياً، ان افلاطون، بعد ان اكد خلود النفس

قال : « اذا كانت النفس خالدة ، وجب ان تبعث الاجساد ؛ لان الانسان ليس هو روحاً فقط ، بل هو روح وجسد ؛ ولان الله ، اول ما خلق للنفس ، خلق لها جسدها ! »

أجل ان النفس تستطيع ، وهي مفصولة عن جسدها ، ان تكمل حياتها واعمالها بدونه . لكن فصلها عنه ، حال عسوف ، حال أليمة . وسعادتها وحدها ، وان كانت خالية من الالم ، فانها تبقى ناقصة حتى يوم القيامة . لان شوقنا الى السعادة اللامحدودة ، المخلوق فينا ، يفترض بل يستلزم قيامة الاجساد ، كما يستلزمها ميلنا الى العدل . لقد تعبت النفس ولكن في جسدها ؛ فمن العدل ان تُمجد وتسعد ؛ ولكن في جسدها (لقد كان الجسد في التعب والجهاد . فالعدل يقضي بان ينعم بالمكافأة والثواب)

ذلك ما يحمل الكنيسة على ان تجمع البقايا من اجساد الشهداء بغية إكرامها . وعلى هذا جرت امم الارض . والا فما معنى تلك الشعلة ، شعلة الجندي المجهول ، المدفون تحت قبة قوس النصر في باريس مثلاً ؟ اهي نور مزيدٌ على ملايين الانوار التي تغمر المدينة باعلاناتها ؟

كلا ! انما هي اللهبة الوحيدة التي تبعث في رائيها شعوراً دينياً لانها ترمز الى وجودين معاً : وجود جسد ووجود نفس تألما كلاهما لاجل مواطنيهما فاستحقا معاً إكرام هؤلاء المواطنين !

واخيراً على ايمان المسيحية . ان المسيحية تقدس هذه الحقيقة الوضوح . قال رسول الامم : « فإنَّا ، في هذا المسكن نحنُ مثقلين لانا لا نحب ان نخلعه ؛ بل ان نلبس فوقه ، حتى يُبتلع المائت بالحياة » وقال في موضع اخر : « ولا نحب ان تجهلوا ما يختص بالراقدين لئلا تحزنوا كغيركم ممن لا رجاء لهم . فانَّا إن كنا نؤمن بان يسوع قد مات ثم قام فكذلك سيُحضِر الله الراقدين بيسوع معه . فنقول لكم بكلمة الرب : « إنا نحن الاحياء ، الباقين الى مجيء ربنا ، لا نسبق الراقدين ، لان الرب نفسه عند الهتاف ، عند صوت رئيس الملائكة وبوق الله سينزل من السماء ويقوم الاموات بالمسيح اولاً ثم نحن الاحياء الباقين

نختطف جميعاً معهم – بجسدنا ونفسنا – في السحب لنلاقي المسيح في الجوّ وهكذا نكون مع ربنا دائماً. اما اذا خاب رجاؤنا ولم نبقَ أحياء حتى مجيء المخلص، فاجسادنا التي تتفكك كما تتفكك حبة الحنطة في قلب الاثلام فاننا نؤمن بانها ستقوم، كما تقوم حبة الحنطة عينها»

لماذا؟ لان المسيح، بكر الراقدين، المسيح الذي نؤلف معه جسداً سرياً واحداً قد قام، فيتحتم اذن ان نقوم معه ومثله بجسد ممجد روحاني، عادم الفساد! بجسد يشع عند الابرار بجمال النفس التي خدمها وعند الهالكين بانحطاط النفس التي استبد بها، بجسد يضاهر عند البعض نور الشمس وعند الاخرين ظلمات الليل المدلهم، فكونوا اذن، راسخين بايمانكم، مستزيدين في عمل الرب، كل حين، اذ تعلمون ان تعبكم في هذه الحياة ليس بباطل في الرب!

اما ما هي سعادة الجسد الممجد؟ فليست هي، على ما نعلم، سعادة مادية، سعادة حسية، لحمية كما ادّعى أو تخيلها بعضهم، قال ربنا: «ان ملكوت الله ليس اكلاً وشرباً، بل براً وسلاماً» انها افراح طاهرة كالتي نحسها في اجمل ساعات حياتنا وأسعدها. فما علينا الا ان نثق بالذي خلق قلب الانسان وعرف احتياجاته وما يصبو اليه. قال بولس الرسول: «انه لم ترَ عين ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر ما أعدّه الله لمختاريه.»

أو نحن بحاجة الى ان نقف بكم، امام اعتراض طالما سمعناه وهو: اية وسيلة يستخدم الله ليبعث اجساداً ذرّت رمادها الرياح؟ وكيف يعمل ليقيم اجساداً ابتلعتها البحار وصارت فريسة لاسماكها؟ اجساداً صارت طعاماً للنبات والطير والحيوان؟ كيف استطاع ايوب ان يقول، واثقاً: «بعد ذلك تُلْبَس هذه الاعضاء بجلدي ومن جسدي اعاين الله الذي انا اعاينه بنفسي وعيناي هذه تريانه لا غيري؟»

الكيف؟ لا نعلمه، ايها الاخوة، لكن هناك حدثاً يفرضه علينا العقل؛ وهو، في البدء، خلق الله العالم ومن العدم اخرجه بكلمة فيه، بفعل ارادته القدوسة! فهل يكون اصعب عليه تعالى ان يعيد خلقَ جسدي من مادة لا

تزال موجودة .

قال بسكال : « ما حجة اولئك القائلين : ان قيامة الاجساد مستحيلة ؟ أفيكون المجيء الى الوجود اصعب من الرجوع اليه ؟ » ونحن نقول : هل من الضروري ان يستخدم الله ما منه كان يتركب جسدي . ان مادة جسدي هي في تغير مستمر وليست هي ، اليوم ، ما كانت ، منذ ايام وشهور ؛ ومع ذلك لا أفتأ اقول « جسدي » وانا محق جداً بقولي لانه ، كما يقول توما الاكويني : « هي ذي النفس الروحية التي تعطي جسد الطفل والرجل والشيخ وحدته وفرديته وشخصيته » فلو جمع الله إذن الى نفسي مادة ، اية كانت ، فستكون تلك المادة دائماً جسدي .

بيد انه لا يحق للماديين ان يتنكروا لقولنا قبل ان يتفقوا على تحديد المادة ؛ فلقد قال عنها زعيمهم « ماركس » : « انها الهية » بعد ان اعترف بانه يجهل ماهيتها . وقال فوييه : « كل ما فينا مادة ؛ لكننا لا نعرف ما هي المادة ! » ولربما صرنا اليوم نجهل ماهيتها أكثر من أمس فما قبل ! أجل ، ان كمال النظارات المعظمة قد أتاح لعلماء عصرنا ان يروا ببعض الوضوح ما في ذرات عالم الجماد وذرات عالم النبات والحيوان ؛ إلا انهم لم يكتنهوا حتى الآن حقيقة الذرة وحقيقة المادة ؛ لذلك رأينا كثيرين من اساتيذ العلوم الطبيعية يعودون فيتبنون فكرة « ليبنيتز » بل فكرة (ليكريس) في المادة ويقولون : « بروحانية المادة » الى حد !

اما الكتاب المقدس فليس عليه ان يعطي دروساً في الطبيعيات ؛ بل يكفيه ان يكلم الناس باللغة الدارجة ، باللغة التي يفهمونها ، فيقول بولس الرسول : « ان ما تزرعه انت ، لا يُحيا إلا إذا مات . وما تزرعه ليس هو ذلك الجسم الذي سوف يكون ، بل مجرد حبة من الحنطة مثلاً او غيرها من البذور ؛ إلا ان الله يجعل لها جسماً كيف شاء ، ولكل من الزروع جسمه المختص به ... هكذا قيامة الاموات . الزرع بفساد والقيامة بغير فساد ؛ الزرع بهوان والقيامة بمجد ؛ الزرع بضعف والقيامة

بقوة . يزرع جسد حيواني ويقوم جسد روحاني . وكما لبسنا صورة آدم الارضي ، كذلك سنلبس صورة آدم السماوي ؛ لانه لا بد لهذا الفاسد من ان يلبس عدم الفساد ولهذا المائت من ان يلبس عدم الموت ! »

والانجيل اذ اراد ان يكلمنا عن القيامة أرانا إسمها في وادي يوشافاط الرمزي ، وادي الاموات ، الممتد بين الجبانية واورشليم ، في تلك البقعة التي تحمت من الاجساد البشرية ، المدفونة فيها ، منذ آلاف السنين .

بتلك اللغة تكلمنا الكنيسة ايضاً . فانها ، لكي نعدنا لقيامة المسيح التي تثبت لنا قيامتنا ، تأمرنا بان نقرأ صفحة ، هي رمزية ايضاً ، من نبوءة حزقيال ، قال : « كانت عليَّ يد الرب فأخرجني الرب بالروح ووضعني في وسط البقعة وهي ممتلئة عظاماً وأمرّني عليها من حولها فاذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة واذا بها يابسة جداً فقال لي : يا ابن البشر ، أترى تحيا هذه العظام ؟ فقلت : ايها السيد ، انت تعلم ! فقال لي : تنبأ على هذه العظام وقل لها : ايتها العظام اليابسة ، اسمعي كلمة الرب : هاءنذا أدخل فيكِ روحاً فتحيين وتعلمين اني انا الرب . فتنبأت كما امرت فكان صوت عند تنبوءي واذا بزلزال ، فتقاربت العظام : كل عظمٍ الى عظمه . ورأيت فاذا بالعصب واللحم قد نشأا عليها وبُسط الجلد عليها من فوق ولم يكن بها روح . فقال لي تنبأ نحو الروح وقل للروح هكذا قال السيد الرب : هلم ، ايها الروح ، من الرياح الاربع وهبّ في هؤلاء المقتولين فيحيوا . فتنبأت كما امرني فدخل فيهم الروح فحَيُوا وقاموا على ارجلهم جيشاً عظيماً جداً جداً »

مشهد فيه من العظمة والرعبة ما لا يستطيع القلم وصفها ، وهو موجز لما جاء في يوحنا : « الحق الحق اقول لكم : انها ستأتي ساعة يسمع فيها جميع من في القبور صوت ابن الله فيخرج الذين عملوا الصالحات الى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات الى قيامة الدينونة !» (٥ : ٢٦) فلا تتعجبوا من هذا ، ايها الاخوة ، لان يسوع ، قبل ان يقيم ألعازار من الموت وكان

قد انتن ، كان يقول : « انا هو القيامة والحياة » وسبق وقال لليهود ايضاً : « من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الابدية وانا اقيمه في اليوم الاخير ! »

فلا شيء اذن في العلم يناقض الايمان بقيامة الاجساد ؛ ولا شيء في الفلسفة إلا ويؤكدها . لان القيامة لا تهمل شيئاً مما يهم الانسان ولا يفوتها شيء مما يكمل رغبته في العدالة ...

اجل ، ان ميلنا الى العدل يتطلب القيامة ، ورغبتنا في العدل ، بوصفنا خلائق اجتماعية ، تتطلب ، حتى ونحن على الارض ، اذاعة الاحكام مع بواعثها !

فكيف يبدو لنا غريباً ان يريد الله انتصار الحق الذي كان هو نفسه وصياً عليه ؟ لقد ديس حق الله احياناً ، وديس الى حد ان افضل الناس واقربهم اليه تعالى قد شعروا بانهم محمولون على ان يصرخوا ، كما فعل الرسل ، وقتَ العاصفة : « يا رب ! لِمَ انت نائم ؟ فقيامة الناس للدينونة هي يقظة الله ، يقظة عدله الصابر ، لانه ابدي . فواجبنا اذن ان نعلّم الجيل الطالع انجيلنا هذا لنسل اولاداً يهزون العالم هزاً ليصحو من غفلته . فالعالم قانط من الحياة الحاضرة ، ساعٍ وراء الانتحار لانه نسي الحياة الاخرى ، نسي الابدية . وها هي الجماعات البشرية ، تحت كل شمس ، واقفة على جبالٍ من بارود ، وبازائها يقف ساداتها يرقبون مجيء الشرارة . فعلينا ان نضع بازاء المادة النفس وبازاء الارض الابدية . ففي طاقة الانجيل وحده ان يجعل الارض خليقة بان تُسكن ، وفي وسعه وحده ان يرينا الارض ، كما هي ، لا غاية للانسان ، بل طريقاً له الى الابدية ، وان نثبت للعالم ان المسيح سيأتي ثانيةً ليلفظ حكمه المبرم على الاحياء والاموات : « فيذهب هؤلاء الى العذاب الابدي واولئك الى الحياة الابدية » !

الاذاعة اللبنانية في ١٦ ايار سنة ١٩٤٨

الحديث الثالث عشر

هل يكون المسيح كذاباً والّا مجنوناً ؟

قال بولس الرسول : « إن لم تكن قيامة الاموات فالمسيح اذن لم يقم وإن كان المسيح لم يقم فكرازتنا اذن باطلة وايمانكم باطل وانتم بعدُ في خطاياكم ؛ ونحن اصبحنا شهودَ زورٍ لله لانا شهدنا عليه انه قد اقام المسيح وهو لم يقمه . وان كان رجاؤنا في المسيح في هذه الحياة فقط ، فنحن اشقى الناس اجمعين »

اجل ، ايها الاخوة ، ان كان المسيح لم يقم كنّا نحن شهود زور وكان هو أفّاكاً ، مخادعاً ، قد بشرنا بالحياة الابدية ووعدنا بالقيامة . ولكن كيف يكون كذاباً مخادعاً ونفس العالم ما عاشت حقيقةً وما عرفت رقياً حقيقياً الا من انجيله . فقبل مجيئه ، اياه انتظرت ، واذ تجسد ، اليه اصغت ؛ وبعد صعوده الى ابيه ، لا تزال حية بذكرياته تشددها تلك القوة التي كانت تخرج منه وتشفي الجميع ، حتى ان الذين ينكرون عليه ألوهيته ينظرون إليه نظرهم الى اجمل واطهر واحكم انسان عرفه التاريخ !

عبثاً تعب الملحدون « بعلمنة » مبادئه وتعاليمه . فانهم ، بالرغم منهم ، يتغذون منها حتى في إفسادهم اياها . ازيلوا من مدنيتنا خميرة مبادئه فتمسي الارض مزلقة والناس عليها قطيع ذئاب ؛ اطفئوا شعاعها فتجنون على البشرية جناية دونها جريمة إطفائكم نور الشمس !

فان كان المسيح لم يقم ليقيمنا ويفتح لنا ابواب ملكوته كان انجيله الذي لا غنى للبشرية عنه ، مخاتلة مجبولة بالسخرية لم يشهد التاريخ لها مثيلاً وكان الذي بشّر به رجلاً مغامراً، مؤذياً ، أوبق الاجساد والنفوس ودهده ابناء جلدته في مهاوي من الضلال سحيقة ! نتـائج مرعبة ترتعد فرائصنا من مجرد تصورها !

لقد طاش سهم من صور لنا المسيح رجـلا ملهماً او مغروراً صادقاً جذاباً . طاش سهمهم لان المسيح متزن في حياته ولان تعاليمه متناسقة لا إبهام فيها ولا غموض ، لا عُجب فيها ولا ادعاء ، وافكاره متـلاحمة لا تصنع فيها ولا فخفخة ، لا مبالغة فيها ولا يبوسة ، لا توق فيهـا ولا ابتذال . كلم الجليليين واليهود باللغة الارامية ولم تبرح عباراته عصرية الكثرة ما هي عامة ، فكأنه وهو يحدّث سامعيه ، منذ عشرين قرناً ، يوجه الكلام الى طبقات الشعوب ويعلم الناس من كلا الجنسين ، في مختلف العصور والبلدان .

لقد وجد حلًا لمشاكل الحياة البشرية جمعاء ، ومع مفاتيح ملكوت السماوات سلّم كنيسته مفتاحاً لكل المعضلات ولكل ما في الحياة والموت من اسرار . زيدوا على ذلك ان بين شخصه واعماله مطابقةً مثاليـة . ففي كل اثر من من آثاره ، وفي كل ظرف من ظروف حياته ، رسمٌ لالوهيته الكاملة وبشريته الكاملة . فوداعته وتواضعه ، شفقاته ورحماته ، دموعـه ومحباته ، ابتساماتـه وغضباته ، اسئلته واجوبته ، في العزّ ام في المذلة ، في الراحة ام في الالم ، هي كلها أشعة متناسقة ، متوافقة تتدفق من دائرة واحدة ، كأنها من « شعاع » .

فان كان لم يقم ، وقد جعل من القيامة قطب عقائده ونقطة الارتكاز لشريعته الادبية يكون ، وهو الشخص الكامل الذي وصفنا ، قد خدع العالم وأعماه ، لا عن جهل ، بل عن قصد ، لا عن غباوة بل عن علم منه ! وعندئذ حُقّ لنا ان نقول لا كاليهود : « لم يتكلم انسان قط مثله » ، بل لم يكذب انسان قط مثله » ! ويكون قد ولد اتفاقاً ومن مذوده أخذنا لا الاضواء ،

بل العفونات! ومنه تعلمنا لا الحقيقة، بل الضلال.

واذا كانت ملحمة يسوع لا تحتمل الفائق الطبيعة، كما يدعون، كاذبين، ولم يكن في حياته ظرف يخولنا بان نرى في بطلها مساً، فما تكون اذن الا سلسلة مقززة من الخداع والمكر والخيانة تجرنا الى نتائج رهيبة، ومنها ان غدر يهوذا كان فعلَ صدق وشهامة، وبغض قيافا للمسيح واجباً أملته عليه تقواه، وتردّد بيلاطس بالحكم عليه، جبانة، واطلاق برأبا حكماً عادلاً لفظه شعب ذو سيادة، وصلب يسوع، تكفيراً ضعيفاً عن تجاديفه وخدائعه، وامثاله قصصاً وعظاته خطبَ ممخرق وعجائبه حيلاً وشعوذةً، وأشفيته التي اجترحها سحراً وتمويهاً على عقول ساذجة.

واذا كانت قيامته وقيامتنا هما حديث خرافة كانت المسيحية بلاهة فظيعة جرّت انفساً لا عدّلها الى بيع كل ما تملك لتبتاعَ معادنَ فرح لا وجود لها. وكان ايمانها باطلاً ورجاؤها جوراً ومحبتها شناعةً وكان الرسل بدورهم مخاتلين قد اكّدوا قيامة مضلّ مات وصار الى العدم والفنا.

لقد جبنوا حين أمسك معلّمهم وعُذب وصُلب، فكيف تشجعوا اذ أبصروا قبره موصداً وتيقّنوا من خديعته؟ فهم اذن شهودُ كذبة راق لهم ان يضطهدوا ويعذبوا ويموتوا اشنع ما يموت انسان إحقاقاً لشهادتهم الكاذبة وكان بسكال ضالاً اذ قال: «اني اصدق الشهود الذين يموتون ليزكوا شهاداتهم!» ويكون الشهداء، برضاهم ان يموتوا لاجل كذب، قد صوّبوا عمل جلّاديهم، ويكون العلماء المؤمنون والمعترفون، وبينهم نوابغ، ذوي عقول ضعيفة واحكام جوفاء. قد نبغوا، ولكن في الاضاليل والترّهات! والعذارى واخوات المحبة يكنّ عدوات الجنس البشري لانهن كفرن بالجسد وبالغنَ بقمع الهوى والشهوات وأطلن حياة الاجساد المريضة بعنايتهن المثلى بها، ويكون القديسون جميعهم خسروا حياتهم وصاروا في التاريخ آفات، ولعبوا لعبة خطرة، وراهنوا على ما ليس له وجود وكان مثلهم وباء سارياً جرف الكثيرين من ابناء جلدتهم الى حفائر القبور.

وبما ان المسيح قد خدعنا فلنمزق اذن التوراة ولنحرق الكتب والمكاتب ونهدم خزائن التحف والفنون ؛ لننسف الكنائس والاديار ونعدل عن الصوم والصلاة والتضحيات ولنعش عيش البهائم ونتصرف تصرفها ؛ فالمسيح لم يفتدها ، ونموت كما تموت هي بدون ما رجاء بحياة جديدة.

على انه ان كان المسيح خداعاً قد غشنا بوعده ايانا بالقيامة وبالحياة الابدية كان الله مجنوناً . مجنون لانه سمح بنشر الانجيل وعاون على ديمومته؛ مجنون لانه ترك افضل الناس واجملهم نفساً يخدعون فيعتقدون بانه كتاب من كتبه ؛ مجنون لانه سمح لا بان يخدعوا فحسب ، بل بان يجدوا في ابتداعات تخرق سر المحبة اللامحدودة ، وبان تخرج من تلك الترهات الملفقة بشرية جديدة ، بشرية راقية لم تنعم الارض بمدنية تحاكيها انسانيةً .

مجنون لانه سمح لخرافة بان تغيّر وجه الارض وتوحي الى الانسان باشواق واعمال ومآتي لم تخطر على قلب مدنية من المدنيات السابقة لها واللاحقة ؛ مجنون لانه سمح ليسوع وحده بان يضع الحجر الاول في صرح المحبة الالهية وبان يكون هو الاول الذي بشّر بالاخوة البشرية وبتحقيقها على يد كنيسته ؛ مجنون لانه سمح لديانة يسوع الخيالية بان تمتد وتنمو في الاوساط المتباينة والاقطار المختلفة وبان تصمد امام الاضطهادات الاكثر شراسة وخبثاً .

كل هذا لا يتم الا باعجوبة ؛ والاعجوبة لا تجترح الا برضى الله وارادته ومشاركته . واذا كان الله حكيماً فكيف أذن للشجرة الرديئة في ان تعطي ثماراً صالحة ؟ بل كيف تبنى اكاذيب من ادعى انه ابنه وكيف عاونه على الاستخفاف بالحقيقة وعلى خداع الناس ؟ قال اغسطينس امام براهين المسيحية: « ان كان في المسيحية ضلال ، فتكون انت ، يا الله ، الذي خدعتنا ونكون نحن قد اخذنا عنك الضلال ! » وقال بولس الرسول : « على فرض ان يسوع لم يقم وكان الموت هو نهاية الانسان ، « فاننا نضحي شهود زور لله ! » أليس الله هو الذي اثبت ، بالعجائب وهداية الارض ، صدق هؤلاء الشهود حتى انه لم يرسل نبياً صادقاً من قبله ليكذبهم ويفضح غشهم ؟ ألم يتكل عليهم

ليكشف للايمان وللعقل سره ومعرفتــه المجهولين او المحتقرين او المشوهين ؟ ألم يعضدهم روحه القدوس بعونه ولا يزال يعضدهم الى انتهاء العالم ؟ فلو صح ما قلنا ، لكان الكذب هو الذي ولد الحقيقة وجعلها ابدية خالدة ولباتت الحياة الابدية التي بشر بها يسوع ، من قبل الله ، خديعةً وغدت النفس البشرية التي خلقها الله ، من طبعها خالدة ، سخرية عاقبتها العدم وامسى الكون الذي براه الله في ستة ايام ، ان لم ينفتح على احد ابدي ، عالماً بدون غاية ، عالماً لا يفهم ، عالماً لا نعلم لماذا وُجد .

اجل ! ان الانسان فيه سيد الارض ؛ لكن الارض لا تعدو ان تكون له قبراً . لقد امتلكها وتسلط على عناصرها ، برهة من الزمن ، ولكنها ستمتلكه الى دهر الداهرين ؛ ويكون ميل الانسان الى الكمال صبابة لا موضوع لها وميله الى الخلود عذاباً ، لا فائدة له من ورائـه ؛ ورغبته في البقاء « شكاً » ليس له مال يغطيه ؛ وشوقه الى العـدل ثورة على المجتمع . ويكون الانسان مضحكاً اذ يكلف نفسه القيام بحركات ومشية وتصرف ومطامح كلها الهيـة مع انه ليس الا اضبيةً دوارة ، لاملجأ لها تأوي اليه سوى القبر . وبقـدر مـا يفكر ويعيش ويحب تفكيراً وعيشةً وحباً عالياً بقدر ما يبدو سقوطه في العدم منغصاً ؛ وكلما زاد صداقة لله وتعلقاً به وتشبهاً كلما وجب ان يقلل من مراعاته والشفقة عليه والرفق بـه . يطلب الالم فيكال له بدل الكيل أكيال ؛ وكأني بالالم لم يخلق الا له ! يضع آلامه في المصرف السماوي ؛ لكن ثروتـه الفائقة الطبيعة ستنزل معه الى الموت ، العاجز عن الوفاء !

ففي القبر ، ان لم يكن دينونة وقيامـة ، يتساوى يسوع ويهوذا ، نيرون وبطرس ، منصور دي بول والاغنياء ، القساة القلوب ، الراقصون على القبور ، تراز الطفل يسوع والسيدة المغناجة ، الاب دي فوكول وستافيسكي المختلس الاكبر في عصرنا .

ماذا اقول ؟ ان كانت الحياة تنتهي بالقبر كما يزعم الماديون كانت هذه الحياة سجناً عميقاً وزريبة ضيقة لا تسكن وكان الموت مزلاجاً خطراً وكان يسوع قد

مثـل مهزلة وكان الحق الصواب بجانب الغرائز البهيمية . وكانت هذه الغرائز علةَ الحياة وكنا نحن العابدين اشقى الناس اجمعين ، بل اشقى سائر الحيوانات ! وإنّ صح مـا يقوله المـاديون كان اللصوص وشذاذ الاخلاق وحدهم يفقهون معنى الحياة لانهم ينصرفون الى التنعم بملذات الارض ، ووحدهم يحيون حياتهم بيد ان القديسين يُفلتون الطريدة ليمسكوا الظل وفي هذه الحال يكون الله اله الشذاذ وجلاد القديسين .

لا ننكر ان الفجار يدفعون على الارض احيانا حصة الاسد التي حكمت بها الثعالب لنفسها؛ لكننا نراهم غالب الاحيان يتسلطون على الحكام ويحاولون الاوسمة ويكون لهم من الاحترام والتقدير ما يحسدهم عليه الاشراف والنبلاء ! اما اصدقاء الله ، فهم ، على الخلاف ، مضطهدون ، مذمومون يثلبهم حتى اولئك الذين كان عليهم ان يحترموهم ويقتفوا آثارهم ؛ هم على الارض عرضة لضربات الله ؛ وحين يلفظون آخر انفاسهم يخونهم الله الى الابد اذ يدحرجهم الى لجة العدم ! فمثل هذا الاله ، ان وجد ، يكون الهاً قاسي القلب ، مجنوناً !

على اننا نحمد الله ، ايها الاخوة ، ان الهنا هو اله حكيم ، عادل ، صادق شفيق ، محب ، تنزه عن ان يخدعنا . فلقد خلقنا على صورته عاقلين وعلى مثاله خالدين ننفر من الموت لانه يضاد ما فينا من ميل الى الخلود ، الى اللامتناهي ، الى العدل ؛ ومن شوق الى السعادة ؛ وحب للكمال ؛ ولقد سنّ لنا شريعة ادبية يوصلنا العمل بها الى سعادتنا وما كانت سعادتنا الا بالوصول اليه وما كانت لتتم الا فيه . لذلك اقتضى ان لا نصدق الا الانجيـل الذي اذاعه مخلصنا من على الجبل وفيه وعدنـا بملكوت السماوات لا بنعيم الارض . فـلا تصدقوا الماديين حين يغبطون انسان الاعمال والقنص واللذات والظلم والثأر والفجور والدم . ولا تغرنكم هذه الترهات « فان اصحابها يدخرون لانفسهم غضباً ليوم الغضب واعتلان دينونة الله العـادلة الذي سيكافئ كل انسان حسب اعماله : فـالذين بالصبر على العمل الصالح يطلبون المجد والكرامـة والعصمة من الفساد ، فلهم الحياة الابدية ، والذين هم من اهل المخاصمة الذين

يعاصون الحق وينقادون للاثم فعليهم الغضب والسخط لان ليس عند الله محاباة للوجوه » ولا يخدعن احد نفسه. لان حكمة هذا العالم عند الله جهالة ؛ فاسلكوا اذن بحسب الروح ولا تقضوا شهوة الجسد فان الجسد يشتهي ما هو ضد الروح والروح يشتهي ما هو ضد الجسد. والذين يصنعون اعمال الجسد لا يرثون ملكوت الله. فملكوت الله هو للذين صلبوا اجسادهم مع الالام والشهوات حباً بالمسيح » وهولاء هم الفقراء بالروح والودعاء والباكون والاطهار وفاعلو السلام والمضطهدون لاجل البر.

اجل، ايها الاخوة، ان كان الموت هو نهاية الانسان فالانسان ليس شيئاً، اما اذا كان الموت بداية الحياة فالموت اذن ليس شيئاً. ثقوا بان باب القبر يفتح على الحياة الحقيقية وامواتنا هم الاحياء الحقيقيون. فشرح الحياة الوحيد، كما قلنا؛ وتعزية الحياة الكبرى انما هي الابدية، انما هي القيامة! « فالمسيح قد قام من بين الاموات وهو باكورة الراقدين. لانه اذ ان الموت بانسان فبانسان ايضاً قيامة الاموات. » (كورنتس اولى ١٥ : ٢٠).

محطة الاذاعة اللبنانية في ٢٣ ايار سنة ١٩٦٨

قال بوسويت في مديح القديس اندراوس :

في اي زمان رأينا مسيحيين، خليقين بهذا الاسم؟ رأيناهم يوم كانت تثقل على الكنيسة يد الاضطهاد، يوم كانت تقرأ الكنيسة على رؤوس الموائد والخوازيق والمشانق الاحكام المرعبة التي كانت السلطات المدنية تصدرها على المؤمنين الاقحاح، يوم كانت ترى اولادها في منقع العذاب يولمون ويذبحون ويصلبون، اثباتاً لايمانهم بالمسيح يسوع وبانجيله الكريم.

اجل! في ذلك الزمن، كان على الارض مسيحيون! كان على الارض رجال اشداء يتغذون بالعذاب والدموع ويتألمون حباً بالله! أما الآن، فان السلام الطويل الامد قد أفسد تلك الشجاعات والبطولات فتأنث المسيحيون من يوم لم يعودوا الى التمرس بها. وبما ان هذا هو واقع الحال، ايها المسيحيون، بما ان الالام هي ضرورية لاجل توطيد الروح المسيحية، ردّ الينا، يا رب، الحكام المستبدين! نعم فليعد الينا نيرون ودوميسيانوس وامثالهما.

الحديث الرابع عشر

الانسانية

بين المادية والمسيحية

لقد اثبتنا لكم بالبراهين العقلية والوقائع والبراهين الايمانية ان في الانسان نفساً روحية ، عاقلة ، حرة ، خالدة ، مسؤولة عن اعمالها في هذه الحياة وبعد الممات ؛ لكن الماديين يجهلون ، او يتجاهلون ، تلك الحقائق والوقائع التي كلمتكم عنها ؛ إلا ان جهلهم هذا وانكارهم لهذه الحقائق الناصعة يجرهم الى ركوب الهوى ويعريهم من كل ما هو انساني حتى يحق لنا ان نطبق عليهم حكم « موروا » القائل : « تسلط ناس عصرنا على الاشياء ، لكنهم باتوا لا يفقهون شيئاً من الانسان » ! فان شاء الماديون مثلاً ان يعزّوا أرملة ثكلى تشيع وحيدها الى القبر فأي التعازي يحملون اليها ؟ أيتقدمون اليها بتلك التعزية التي ارسلها « سينكا » الفيلسوف الى امرأة اسمها مارسيا كانت تبكي سند حياتها ، ويقولون لها معه : « ان الالم هو نصيب الناس اجمعين ؛ فتفكيرنا في ان الطبيعة تساوي الناس بمعاملتها ؛ يعزينا . فكفى اذن عن النحيب ، مارسيا ، فالطبيعة تأبى ان يكون الالم طويل الامد . ودليلنا البقرة ، فانها ، ان فقدت فلوها لا تخور ؛ إلا يوماً او يومين !؟ »

فيا لهم من معزين بلهاء ! كان الافضل لهم وللثكلى ان يعدلوا عن مثل هذه التعزية . ان ما تريده تلك الام الحزينة ، ان ما تفتش عنه هو ان يُؤكد لها ان ابنها حيّ وانها ستراه وان الله وضميرها صادقان لا يخدعانها !

قابلوا ، اذا شئتم ، بين تعزية سينكا الحكيم لمارسيا وبين كتاب تعزية ارسله جوزف دي مستر الى والدين حزينين على فقد ولدهما الشاب ، قال : « لا يظهر الانسان حقيراً الا ساعة ينحدب فوق مسكنه الارضي ... لنسبق ونطل على الدقيقة الرهيبة التي نفرغ فيها من ان نموت ، ارفعا الحجاب فتريا ولدكما وراءه . تعوّد سقراط ، قبل أنْ يجرع السم ، ان يقول لاصدقائه : غداً حين يتصرفون بجسدي ، لا تقولوا انهم احرقوا سقراط او واروه في التراب ؛ لا تخلطوا بيني وبين جثتي . انه لقول لم ينطق العقل ، منفرداً ، بأجمل منه وابلغ . على ان سقراط كان بحاجة الى ان يُقنع اصدقاءه ليعزيهم على فقده اذا دقت ساعة موته ؛ اما انا فاني اسعد منه حظاً ، لانه ليس عليّ إلا ان ارجوكما تعملا بمبادئ ايمانكما . انكما ولا شك تميزان بين ولدكما وبين جثته . لقد سقطت الدودة الخشناء ، اما الفراشة الخالدة ، اما نفسه فلقد فرشت جناحيها لتطير الى وطنها . ان كل ما ادهشنا في ولدكما لا يزال حياً ولن يذوق الموت ابداً ! »

نحن عالمون ان المادية جادة في ان تبدل هذه الانسانية المسيحية بانسانيتها الوثنية ، بانسانية العرق او الطبقة . فلا قيمة في نظرها للافراح ولا للاوجاع ولا للميول الشخصية ولا تبالي الا بما يصيب العنصرية او الطبقة منها ! وعلى هذا نسأل : « ممن تتألف الطبقة والعرقية ؟ أليس من الاشخاص ؟ فهل يدور في خلد الماديين ان يؤلفوا من افراد تعساء ، يائسين ، منحطي الاخلاق ، جماعة سعيدة ذات اخلاق . حقاً انه لا ينقص هؤلاء البشريين الا ان يكونوا بشراً !

قال جاك شفاليه : « لقد انستنا البشرية الانسان . فانسانها الجامع ان هو الا مسيخ انسان عبد لأحط الغرائز دناءة ، تلك التي لا يعرف الناس

ان يجعلوا غيرها مشاعاً . فانسانها الجامع ان هو الا مسيخ انسان ارادوا ان يقيموه مقام الشخص مع ان الشخص البشري هو الذي لأجله سنت الشريعة الادبية وهو المسؤول وحده عن تصرفاته وهو الوحيد الذي له غاية ابدية !

رافق بيار هربار صديقه اندره جيد الى زيارة امة انكرت ثورتها النفس وغايتها الابدية ، فلما عاد الى وطنه كتب يسأل : « ما وراء ذلك الكذب ؟ ما وراء ذلك الشقاء ؟ ما وراء ذلك اليأس ؟ ما وراء تلك المظالم والملاحم ؟ » وعلى اسئلته هذه نضيف نحن عند اطلاعنا على فظائع المادية في البلدان التي جعلت او تجعل ارضها مختبراً للمبادئ الماركسية : ما الغاية من احراق الكنائس او نسفها ؟ ما الغاية من وراء تعذيب آلاف الاساقفة والكهنة والراهبات وذبح المؤمنين بالله والابدية او اضطهادهم ؟ ما وراء ذلك البغض البغيض للروح وشهوده ؟ ان وراء الاكمة ما وراءها . ان من وراء تلك الجرائم الوحشية ، وثنية مادية سيطرت على رومة في عهد نيرون ثم عادت الينا اليوم تحمل آثارها الدائمة !

قال بيار Leroux المادي : « بما انكم نزعتم مني الرجاء في السماء ولم يبقَ امامي الا شيئان فقط : الزبلُ والذهب فانا اريد ، الساعة ، وبكل الوسائل ، ان احصل على نصيبي من الزبل والذهب كليهما ! »

تلك هي شريعة الغابات بعينها وذلك هو الرجوع الى اسواط الرواضين ومقارع الساسة والاسياد . وفي هذه الحال حقّ لنا ان نوجه الى الماديين الذين يتواقحون ويخفون مظالمهم وراء كلمة « الحرية » ذلك التوبيخ المر الذي قذف به « مونتالمبر » ثوار ايطاليا وشركاءهم الفرنسيين قال : « اتعرفون ما هي اعظم جرائمكم ، في نظر العالم ؟ انها ليست فقط ذلك الدم الذي ارقتموه ، وان كان يطالب السماء بالانتقام منكم ؛ انها ليست فقط ذلك الخراب الذي غطيتم به ارض اوربا جمعاء ؛ انما هي تغريركم العالم بالحرية وافسادكم عليه معناها !

وهنا تخطر على بالي مراهنة بسكال التي ، وان لم تك برهاناً على الابدية ، فاني اعدها تهيئة للعقل ليسلم بوجودها : « انت مسافر الى القبر ولا بد لك من ان تصل اما الى الخلود ، واما الى العدم . فاذا راهنت على الابدية وربحت ، فانك تربح كل شيء ، وان راهنت عليها وخسرت فلا تخسر شيئاً » وفي هذا المعنى قال الشاعر الفيلسوف ابو العلاء المعري :

« زعم المنجم والطبيب كلاهما ان لا قيامة فقلت ذاك اليكما
ان صح قولكما فلست بنادم او ان صح قولي فالوبال عليكما »

اجل ! اية خسارة نخاف ان راهنا على الابدية . فبها سوف لا نتعرض ، حتى في هذه الحياة ، الى ان نكون تعسا ، بل نكون معها في حال اسعد وافضل معاً . اما المجتمع فاليَمَ يتعرض ان راهن على الابدية ؟ الى ان يصبح بشرياً جديراً بان يسكنه الانسان ؛ اما اذا راهن على العدم فيتجرد من كل ما هو انساني ويغرق في بحر الخرافات كما رأينا .

وفي الواقع اننا بانكارنا وجود الروح ، نطلق العنان للحيوان فينا ونبعث السحر من قبره . لانه عبثاً ينادون بالانسان : ان اغمض عينيك واكتف من الحياة بان تأكل وتشرب وتلتذ وبان تعرف ان امتك وطبقتك سائرتان الى افتتاح العالم وتدويخ الارض . فالانسان لا يغير طبعه كما تغير الحية جلدها ؛ بل يظل انساناً ، اياً كان واني وجد . فسيبقى شديد الرغبة في ان يعرف ما وراء الحجاب ويستطلع طلع احبائه واصدقائه بعد الموت ! والجواب الذي اكرِهَ على ان لا يطلبه بعدُ من العقل والدين سيطلبه ويلحف من السحرة والوسطاء والعرافين ؛ سوف يطيع زعماءه ولا يعتقد بعدُ بالمسيح القائم من الموت ؛ لكنه سيستدعي ارواح الموتى ويسأل الطاولات الدائرة والمنجمين والرقاة عما هناك ، عما وراء القبر . فالسحر والتنجيم والعرافة ومناجاة الارواح وما اليها من خزعبلات هي ديانة الماديين ، في عصرنا ، كما كانت ديانة زملائهم ، في العصور الخوالي .

تذكرون ، ولا شك ، زفرة ذلك الجندي : « بحقك ، يا حكيم ، قل لي أبعد الموت خلود ؟ » فللحصول على جواب لسؤاله تسيل ، كل سنة ، ملايين الليرات من جيوب الناس الى صناديق جيش لجب من الوسطاء والعرافين والعرافات !

كلا ! ليس في جو الهزل والمرح تعالج مشكلة الابدية . ان لامواتنا عند الله حرمة فلا يسمح لهم بان يأتوا الارض ليثرثروا ويقبض الاحياء ثمن ثرثرتهم مالا . وقدماً اخبرنا ربنا ان الغني الشرير اذ نظر لعازار في حضن ابراهيم توسل اليه ان يبعث به الى بيته الوالدي ليقنع اخوته ان لا يأتوا الى مكان العذاب . فاجابه ابراهيم : « وما الفائدة ؟ عندهم موسى والانبياء. فان لم يصدقوهم لا يصدقون ايضاً من يقوم من القبر »

طالعوا الانجيل ، ايها الاخوة ، ها ان العازار بيت عنيا الذي بُعث بعد ان انتن ، وابن ارملة ، نائيم وابنة جائير اللذين اقامها ربنا من الموت هل اناروا عقول الفريسيين ؟ الم يجمع هؤلاء على قتل محيي الاموات ! ونفذوا قرارهم المجرم به فصلبوه ثم قام وقضى اربعين يوماً يتردد بين الناس وراه اكثر من واحد وظهر لخمسمائة اخ معاً فهل آمن الصدوقيون بالقيامة ؟ وبالشهادة الناصعة عليها ؟ كلا ! بل انهم ، لمآ اقعدهم العجز عن ان يفتكوا ثانيةً بالمنتصر على الموت ، صبوا جام غضبهم على رسله وعلى شهود قيامته فسجنوا بعضاً ورجموا بعضاً وقتلوا بعضاً !

نحن لا ننكر ان في طاقة الانفس بعد الموت ان تتراءى للناس وان لها رسالات تؤديها بعض الاحايين ؛ بل ننكر ان تكون رسالاتها وظهوراتها بضاعةً للتصدير يطلبها تجار المال والاخلاق فتأتيهم عند الطلب . فظهور الانفس المتألمة التي تسرد اخبارها مجلاتنا التقوية ينبغي ان نتلقاها بكثير من التحفظ والاحتراس ونعتبر انها ليست الا حجة ثانوية لدعم ايماننا بالابدية. وقولنا هذا لا يقعدنا عن ان نشجب كلمة «ليتره» القائل : لم يقوَ العلم على ان يتثبت من اي حادث حياة بعد الموت . الا بحقك ، ايها العلامة ، من اي علم

غرفت هذا التأكيد . فلست انت ممن لم يسمعوا بقيامة يسوع . فكم من الايام كرست لدرس ذلك الموضوع وكم من الساعات صرفت في مطالعة المؤرخين الذين عالجوه بجدارة المتخصصين ؟ فانك لم تدرسه ولم تصرف ساعة واحدة في البحث عنه ؛ لكننا نعرف انك اضطررت يوماً الى ان تعترف به وان تطلب باتضاع الانجيل والتعليم المسيحي لتتعلم فيهما ما كنت تجهله !

قال بوسويت : « ان البراهين التي لها ردة فعل في السلوك يجب ان تدرسها النفس بارادة صالحة مستقيمة والا فانها لا تصلح الا لتغرقنا في بحر الضلال !

الى هذا المع ربنا اذ قال : « ان من يعمل الحق يقبل الى النور » . فمن يعمل الحق يحني رأسه امام الوقائع ويراها ، ويصبح كل شيء ، امام عينيه ، نوراً. فكل كلمة من كلمات ربنا وان بسيطة تبان « لابن الحقيقة » حاملة رسماً الهياً . أليس هو القائل : « ماذا ينفع الانسان ان ربح العالم وخسر نفسه ؟ ألم يقل : لا تخافوا ممن يقتلون الجسد ولا يستطيعون ان يقتلوا النفس ؛ ألم يكرز على سامعيه من اراد ان يخلص نفسه فليُمت اهواءها ، لان من أماتها في في سبيل الواجب يحييها ...

ولمَ الاطالة ففي كل سطر من سطور الانجيل امثولة في الخلود . لان الخلود هو اليقين الذي ترتكز عليه تعاليم الانجيل فمن نصدق ان لم نصدق هذا الشاهد ؟

ان الشاعر ، سيلي برودوم ، بعد ان وثق بالانجيل وصدقه في عهد الصبا ، انقلب في سن الشهوات يفتش عن معلم اقل صرامة منه ؛ لكنه عاد في شيخوخته الى صديقه الاول . وعنه أخبر فردريك ماسون قال في خطاب القاه في محفل العلماء يستقبل هنري بوانكاره : « ذهبنا الى زيارة سيلي برودوم فوجدناه خائر القوى ، فحاولنا جهدنا تحويل الحديث معه الى مواضيع كانت قديماً تلذه فكان يعود فيحدثنا عن الموت وعما وراء القبر ؛ ثم شرع يشيد براحته في الايمان المسيحي ويأسف لانه اغمض عينيه عن ذلك النور حتى تاه في طرق الريب ولم يهتد في حياته كلها الى حقيقة ، راهنة . ولما اكد له صديقه

فرنسوا كوبّه قائلاً: «اما انا فاني مؤمن» التفت اليه شاعرنا بعينيه الجميلتين وقد مرّ فيهما يقين حاسد وقال: آه! يا كوبّه، انك لا تعلم كم انت سعيد!»

تلك السعادة هي سعادتنا، ايها الاخوة، على اننا نحملها في آنية من خزف. فللحفاظ على ايماننا بالنفس وبالخلود يجب الا نرى في هذه الحياة، في هذا «الوميض بين ليلتين دامستين» كما قال برانكاره... وقتاً طويلاً للملذات واللهو! بل يتحتم علينا ان نرى فيها ما لاجله اعطينا الوقت: لقد اعطيناه للامتحان والخدمة.

فمدنيتنا هي من صنع اناس آمنوا بالخلود ولانهم آمنوا بالابدية احترموا الحياة الارضية. ونحن نحترمها على قياس ما نعرف ان نهجر بقاع الاشياء الزائلة لندخل بقاع الاشياء الخالدة. نحن نحترمها على قياس ما نعرف ان نهجر ارض الانانية لنلج بقعة المحبة الالهية. فالمحبة هي حاجة الساعة حتى انه ليخيل الينا اليوم ان الناس لا يعرفون ان يتحابوا لاننا لا نسمع في آذاننا دوياً الا الكلمات البغض والحرب والاضطهاد والمذابح والغدر والقتل والخيانة.

ان قادة المادية يمدون الينا الايدي ويدعوننا الى التعاون معهم على تخفيف آلام البشرية فنحن لا نرفض. فيد الكنيسة كانت ولا تزال، اقتداء بالسامري الصالح، ممدودة لكل متألم وجريح على ان اشارة مدّ اليد لا لا تقوى على ان تزحزحنا قيد شعرة عن الحقيقة التي هي اساس كل محبة حقة؛ سبيلنا ان نفهمهم اننا نحن مثلهم نحب ان نخلص البشرية من بلاياها لكننا لا نفتأ ننبههم الى ان الوسيلة لخلاصها من الانحطاط كانت ولا تزال واحدة فقط. هي ان نعود فنصعد الى ينابيع ايماننا الحية، هي ان نردّ الى مدنيتنا علمَ الله وعلمَ ما وراء القبر، ان نردّ اليها علمَ المبادئ والغايات.

قال جاك شفالير: لا يستطيع الانسان ان يكتفي بهدف ارضيّ بحت مهما تشدّق انبياء ديانة المادية. فحرمان الانسان من الايمان بالخلود هو تنكر ليس فقط لعقله وهدمٌ لطبيعته المخلوقة للامحدود بل هو خراب للارض وقلبها الى جحيم!»

محطة الاذاعة اللبنانية في ٣٠ ايار سنة ١٩٤٨

الحديث الخامس عشر

انا هو القيامة والحياة

لو كان ايماننا بالمسيح يقف عند نهاية حياته، لو كان محصوراً بهذه الكلمات: « تألم في عهد بيلاطس البنطي وصلب ومات وقبر »، لكانت حياة يسوع وموته افجع مأساة شهدت فصولها البشرية ولم تنتفع منها؛ ولكان تبشير الرسل بقيامة يسوع خديعة وايماننا به باطلاً ورجاؤنا وهماً وغفران خطايانا وتبريرنا غروراً.

ولو كان المسيح انساناً امتهنه اعداؤه وداسوه وقتلوه وانتهت حياته بموته ولم يبعث من الموت حياً، لما قوي بشر على ان يتمسك بالايمان به ولما طاق احد ان يعمل بتعاليمه مع ما كان عليه يسوع من التفوق بالفضيلة والحكمة والقداسة ومع ما تنطوي عليه تعاليمه من المبادئ السامية والمشورات الرشيدة

اجل! ما يهم ابن قرن العشرين ان يكون عاش على الارض، منذ تسعة عشر جيلاً، رجل صالح حكيم؛ رجل محب ومحبوب، رجل علّم مبادئ دينية واجتماعية لم يعرفها العالم قبله! ما يهمني انا منه، لو كان مات وقبر، وامسى في قبره رميماً، كسائر الناس؟ قد يثير اعجابي، كأحد العظماء، ويستحق اكرامي، كرجل صلاح، ولكن إقدامي على محبته وعبادته وخدمته والاذعان لاوامره ونواهيه والعمل بمشوراته، طول الحياة، ذلك ما يتجاوز الافهام. فاي انسان عاقل يضحي بلذاته وحياته في سبيل جثة امست

هباء منثوراً ، منذ مئات السنين ؟ ان بولس الرسول مُحقٌّ في قوله : « ان كان رجاؤنا في المسيح ، في هذه الحياة فقط ، فنحن اشقى الناس اجمعين ! » على ان الانجيل يخبرنا ان المسيح قد قام من بين الاموات وهو باكورة الراقدين وقيامته دليل على الوهيته .

في يافا اعاد بطرس الحياة الى الارملة المحسنة طابيطا ولكنه جثا على ركبتيه أولاً وصلى الى الله . وبولس الرسول ، حين كان في تراواس ، دعا باسم الله ، وبعث من الموت شاباً غفا وسقط من النافذة . بينا كان الرسول يعلّم المؤمنين ؛ وايليا النبي لم يشف ابن الاملة في صارفت صيدا الا بعد ان صلى قائلاً : « ايها الرب الهي ، لتعد روح الغلام الى جوفه ؛ » ومثله فعل اليشاع في شونام فانه اقام ميتاً بعد ان توسل الى رب الحياة ؛ اما يسوع فقد امر الموت امراً كذي سلطان فقال لابن الارملة وهو محمول الى رمسه : قم وامش ؛ فقام ومشى ؛ وللعازار بعد ان انتن : هلم خارجاً ، فخرج . لقد تحكم المسيح بالموت خارجاً عنه وتحكم به في شخصه عينه ، فظفر به وقام من القبر بقوته الذاتية فحقق بالفعل قوله لمرتا : « انا القيامة والحياة ! »

ان قيامة الرب يسوع حدث تاريخي أثبته شهود عيان وشهود سماع . حدث تاريخي ان يسوع مات ، يوم الجمعة ، قبل عيد الفصح ، وحدث تاريخي انه قبر في قبر جديد . وحدث تاريخي ان اصحابه واعداءه جاؤوا صباح الاحد الى قبره فوجدوه فارغاً والاكفان موضوعة والمنديل الذي كان على رأسه غير موضوع مع الاكفان ؛ بل كان ملفوفاً وموضوعاً الى جانب الاكفان

حدث تاريخي ايضاً انه ، بعد عيد الفصح ، ظهر يسوع مرات كثيرة لاشخاص عديدين فرأوه وكلموه ولمسوه وآكلوه خبزاً وسمكاً .

تمر السنون وتنصرم الاجيال على هذا الحدث التاريخي وتظل شهادات الكتب المقدسة وتغيير نفسية الرسل وتجديد العالم الادبي براهين قاطعة على وقوع ذلك الحدث الهام ، تحملنا على تصديقه ، كما تحملنا الشهادات التاريخية على تصديق غيره من الحوادث ان لم نقل اكثر !

ففي الفصل الثامن والعشرين من انجيل متى ، والسادس عشر من انجيل مرقس ، والرابع والعشرين من انجيل لوقا ، والعشرين من انجيل يوحنا ، تأكيدات صريحة بان المسيح مات على الصليب ثم قبر ودحرج حجر ثقيل على قبره ، وختم القبر واقيم حراس عليه . وهؤلاء الذين يؤكدون موته هم هم يؤكدون ان الذي مات وقبر في قبر جديد ودحرج على قبره حجر ثقيل قد قام في صباح الفصح وانتصر على الموت !

ليس الانجيليون وحدهم يعلنون مؤكدين قيامة المسيح ، بل سائر الرسل والتلاميذ ، فبعد ان مضى خمسون يوماً على موته قام بطرس يحدث الشعب عن قيامة يسوع معلمه ، كما لو كان يحدثهم عن شيء عادي ، يعرفه كل الناس ولا يرتاب براقعيته احد قال : « يا رجال اسرائيل اسمعوا هذا الكلام : ان يسوع الناصري الرجل الذي صلبتموه وقتلتموه بايدي الاثمة ، أقامه الله ناقضاً آلام الموت فلم يرَ جسده فساداً اذ لم يكن ممكناً ان يمسكه الموت . ونحن كلنا شهود بذلك وقد رأيناه حيًّا بعد موته ! » وفي معرض شفاء الرجل الاعرج من بطن امه ، على باب الهيكل ، قال بطرس للشعب المتعجب : « لماذا تتفرسون فينا كاننا بقوتنا وتقوانا جعلنا هذا يمشي . ان اله ابائنا قد مجد فتاه يسوع الذي اسلمتموه انتم وانكرتموه وقتلتموه وهو مبدئ الحياة الذي اقامه الله من بين الاموات ونحن شهود بذلك . »

وهذا كلام بولس ليهود انطاكية : « ومع انهم لم يجدوا عليه علة للموت طلبوا من بيلاطس ان يقتله ولما اتموا كل ما كتب عنه انزلوه عن الخشبة وجعلوه في قبر ؛ لكن الله اقامه من بين الاموات وترآى اياماً كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل الى اورشليم وهم شهوده الان عند الشعب »

وكتب الى اهل كورنثس : « اني سلمت اليكم اولا ما تسلمته ان المسيح مات من اجل خطايانا على ما في الكتب وانه قبر وانه قام في اليوم الثالث على ما في الكتب وانه ترآى لكيفا ثم للاحد عشر ثم ترآى لاكثر من خمسمائة اخ معاً ، اكثرهم باق الى الان ؛ وبعضهم قد رقد ثم ترآى ليعقوب ثم لجميع

الرسل وآخر الكل تراءى لي انا ايضاً، كأنه للسقط، لانني انا احقر الرسل ولست اهلاً لان اسمى رسولا لانني اضطهدت كنيسة الله . »

واذا انتقلنا من هذه المستندات التاريخية، المتعددة، الواضحة، الى درس نفسانية الرسل قبل قيامة معلمهم وبعدها، وجدنا فيها انقلاباً، ان هو الا دليل صريح على حقيقة قيامة يسوع . فاننا نراهم، بعد موت المسيح وقبل قيامته، حيارى مشككين، قانطين، سحقت نهاية المسيح المفجعة نفوسهم سحقاً وبددتهم كخراف لا راعي لها . اختبأ بعضهم في البيوت واغلقوا عليهم الابواب خوفاً من اليهود وعادَ بعضهم الى قراهم حزانى مكتئبين . اليكم تلميذي عمّاوس فلقد سطا اليأس على قلبيهما وشككا بشهادة النساء. ولم ينتظرا في اورشليم نهاية اليوم الثالث، الموعد المضروب للقيامة؛ بل باراحاها يائسين يتحدثان عن كل ما جرى؛ فتراءى لهما المسيح بشكل رفيق مسافر وقال لهما : « ما هذا الكلام الذي تتحاوران فيه وانتما سائران مكتئبين ؟ فاجاب واحد منهما اسمه كلاوبا : أفأنت وحدك غريب في اورشليم ولم تعلم ما حدث فيها هذه الايام؛ وسرد له كل ما يخص يسوع وكيف اسلمه رؤساء الكهنة وحكام الشعب لقضاء الموت وصلبوه؛ واضاف في خيبة امله : « ونحن كنا نرجو انه هو المزمع ان يفدي اسرائيل ! »

هذا ما كانت عليه نفسية الرسل والتلاميذ قبل قيامة معلمهم؛ اما بعدها فنراهم يجمعون شملهم ويفتحون ابوابهم ويبشرون الشعب في الاسواق بقيامة معلمهم ويجابهون بها رؤساء الكهنة وزعماء الشعب في الهيكل .

بالامس جبُن بطرس امام جارية وانكر يسوع ثلاث مرات؛ واليوم يقف جريئاً، امام المحفل، وقد هدده رؤساؤه بالسجن فالموت فاجاب : « ما العدل امام الله؛ ان نسمع لكم ام نسمع لله . فانا لا نقدر ان لا نتكلم بما عاينا وسمعنا !

فكيف نفهم هذا الانقلاب المباغت،هذا الانقلاب من الاختفاء الى الظهور ؟ ومن القنوط الى الرجاء، ومن الجبن الى الشجاعة ؟ فهل باستطاعة رجل مات على خشبة العار ان يبعث هذا الرجاء، وهذه الجرأة لو لم يكن قد قام حقاً من قبره وتأكدت عند الرسل قيامته ؟!

تمكن الرسل الصيادون ، البسطاء ، العزل ، تمكنوا من ان يحدثوا في العالم تغييراً بل ثورة : ثورة دينية وادبية ، ثورة اجتماعية وفكرية واخلاقيـة ، ليس في التاريخ ، منذ خلق العالم ، نظير لها ! فما علة هذا المعلول ؟ فالى مَن او الى ما نعزو ذلك التجديد الروحي الذي شمل الدولة الرومانية بعد صعود المخلص ؟ لم تمض خمسون سنة على موت المسيح حتى تحقق على الارض حدث هـام هو قيام المسيحية ومعها نشأت منظمة اثارت العقول واخضعتها للايمان بحقائق سامية قد سخر بها العالم اليوناني ولم يعاق سماعها . نعم استهزأت اثينا ببولس اذ راح يكلمها عن قيامة الاموات : «سنسمع منك هـذا مرة اخرى !» واذ كان مرة يفاوض فستس الوالي في البر والعفاف والدينونة ارتاع فستس وصاح بصوت عظيم : «لقد جُننت يا بولس ، ان كثرة الدروس تسير بك الى الجنون! فأجابه بولس : كلا ، ايها العزيز فستس ؛ بل انا انطق باقوال الحق والحكمة !»

بهذه الحقيقة والحكمة غلبت الكنيسة العالم الوثني واقبلت به الى فضائل شريفة سامية لم يعرفها العالم من قبل . فالانجيل مرّس المؤمنـين بفضائـل المحبة والتضحية والعفاف والتواضع والصفح عن الاعداء واحـترام الفقراء والضعفاء والاخوة والمساواة ! «انكم كلكم اخوة بالمسيح: لا عبد فيكم ولا حر ؛ لا يهودي ولا يوناني» ولقد استشهد الكثيرون تمسكاً بتلك التعاليم وحفاظاً على هذه الفضائل .

فهذه التعاليم التي آمن بها العالم والفضائل التي مارستها البشرية ، المؤمنـة بقيامة يسوع ، تشجب الذين يدعون ان قيامة المسيح هي نتيجة غرور وافراط بالعبادة اتفقت عليها زمرة من الرجال الخائفين وحفنة من النساء العابدات . فان تملصنا من معجزة قيامة يسوع ، ترانا امام اعجوبة اعظم وحدث تاريخي لا يمكن ان يكون وليد الكذب والغرور ! فلم تعد القضية اذن قضية قـبر وجدناه فارغاً ، ولا قضية جثة الفيناها مفقودة ؛ بل قضيـة تعليم اجتاح العالم المتكبر فواضعه ، والعالم الاناني المادي فاذكى فيه نار المحبة المضحية والقداسة الروحية الباهرة ؛ تعليم خلاصته ان المسيحي يموت للخطيئة في حوض المعمودية

تركاً ، في هذا القبر ، كما في كفن ، الانسانَ الحسي القديم ويقوم الى حياة جديدة اجمل واكمل ؛ بل هي من الان ، بالقوة والحق ، ممجدة كحياة يسوع ، القائم من بين الاموات بقوته الذاتية !

وثق محفل اليهود من موت يسوع ودفنه في قبر ، وحتم عليه ان يبقى فيه ، تحت الاختام ، مائتاً الى الابد ، كسائر الناس ، وفي الازمنة الحوالي قام بعد رؤساء اليهود ، من اصدر الحكم ذاته على يسوع واراده انساناً ميتاً فهزأ يسوع بحكم المتقدمين والمتأخرين ، وقام ولا يزال حياً ، كما كان ، بجسده ونفسه جالساً من عن يمين ابيه الذي خلصه من ايدي اعدائه وجعلهم موطئاً لقدميه . انهم رذلوه ؛ لكنه صار حجر الزاوية ، في صرح البشرية . فمن سقط على هذا الحجر ارتض ومن وقع عليه هذا الحجر سحقه . قال رنان الجاحد مخاطباً يسوع : « انك صرت بعد موتك ، محبوباً ، الف مرة ، اكثر مما كنت ، في حياتك ، على الارض ، بنوع انه لو سحب اسمك من العالم لتزعزت اركانه ! » فقيامة يسوع اذن هي عقيدة ايمانية علمها الرسل وامنت بها الاجيال وهي حدث تاريخي والشهود عليه هم كثرة . وقد تحمل معظمهم افدح الالام وماتوا اشنع الميتات اثباتاً لشهادتهم . قال بسكال : « اني اصدق الشهود الذين يموتون تزكية لشهادتهم ... »

ان قيامة يسوع هي اكليل حياته والدليل الساطع على الوهيته . جدف اليهود على يسوع وهو معلق على الصليب وقالوا : « خلص اخرين . فليخلص نفسه . ان كان هو مسيحَ الله المختار ، فلينزل عن الصليب لنؤمن به ! » اما يسوع فقد صنع ما هو اعظم ولم يؤمنوا به ، انه لم ينزل عن الصليب ، بل من القبر خرج حياً وظل اليهود ورؤساؤهم على ما كانوا عليه من الكفر !

ان قيامة يسوع هي عربون قيامتنا وباكورة مجدنا فاذا ما اتحدنا بيسوع ، رأسنا ، وباكورة الراقدين ، فنحن ، منذ الان ، بررة ننتظر ان نقاسم المسيح في السماء حياته الممجدة المنتصرة .

فاعلموا ، ايها الاخوة الاعزاء ، ان جوهر الديانة المسيحية هو موتُ

فحياة ، ولا تنسوا قول الرسول ان ما تزرعه انت لا يحيا الا اذا مات واذا كان الزرع بفساد فالقيامة بغير فساد ، واذا كان الزرع بهوان وضعف ؛ فالقيامة بجد وقوة .

فاحسبوا اذن ان آلام هذا الدهر لا تقاس بالمجد المزمع ان يتجلى فينا ؛ ثقوا بان المسيح قد قام وباننا نحن سنقوم بدورنا . اما كيف نقوم ؟ أبالذلّ ام بالمجد؟ هل الجحيم ام للنعيم؟ – ان حظنا بين ايدينا ؛ فاذا عشنا ومتنا مع المسيح ومثل المسيح فسنقوم معه ومثله الى سعادة لا محدودة . «فاذا كنا تألمنا مع يسوع فمعه سنتمجد» . فرجائي اليكم ان تحيوا حياة الذين يتألمون للحياة وتعيشوا عيش الذين يؤمنون بالبعث والقيامة؛ وانتم شديدو الايمان بان المسيح قام وهو عن يمين الآب ليشفع فينا .

(محطة الاذاعة اللبنانية نهار عيد الفصح ١٩٦٥)

الالم يسحق القلب وينغرس فيه ويعجنه عجناً حتى يجعله اعجوبة رقة وحنان ! فمن لم يتألم لا يعرف شيئاً من قيمة الحكمة ولا من رصانة الحياة ولا من النبل ولا من الجودة ولا من لذة التضحية وبكلمة لا يفقه شيئاً من كل ما يخرج من القلب ! لذلك لا توكل الا الشيء الحرّ من اسرارك الى مَن لم يقبله الالم ، بل اختر اصدقاءك من بين الذين دغدغتهم الالام فانك لواجد فيهم الشفقة ورقة الشعور والوفاء . وبوسعك ان تصدقني ، يا قارئي العزيز ، ان الصدور التي نحب ان نلقي رأسنا وقلبنا الثمين عليها انما هي صدور اولئك الذين بكوا في الحياة كثيراً !

ماذا يعرف اولئك الذين لم يتألموا ؟ وفي تاريخ الشعوب لا قيمة لهم ! فالالم هو الذي يخلق الابطال والقديسين .

فكمل شوطك ، يا كاهن الله ، انت الذي في ظل المذبح تكرع كأس الافراح الروحية ، فلتسك قوة المحبة المسيحية ، السم الذي يدوفه لك اخوتك التائهون في خمرة حبك لله وللقريب . كمل شوطك فانك بقوة الالم الذي تحتمل فانك تعلو فوق اترابك لان الالم يعلمك ان تكون عذب المعشر ، صبوراً ومحباً حتى للذين ينكلون بك . الالم يعدك للخلود .

حديث وحيد

يا ابت اغفر لهم لانهم لا يدرون ماذا يعملون

ايها الاخوة الاعزاء ،

ثلاثة ، في يوم واحد ، سُمّروا على صلبان ثلاثة نصبت على قمة الجلجلة متجاورة ، متوازية . فعلى الصليب الايمن لص ، وعلى الصليب الايسر لص ثانٍ ، اما الصليب المتوسط بينهما ، فيا ليتكم لا تدرون من صلب عليه . لقد صلب عليه رجل لم يسرق ، بل وهب الناس الفرح والمسرة ؛ رجل لم يقتل ، بل اقام بعضاً من الموت ، رجل ما اساء الى احد ، بل عمل الخير واحسن الى الجميع : صلب عليه البارّ القدوس !

فمن بيت الناصرة حيث ترّبى ومن التبشير بالحقائق الخالدة في قرى فلسطين ودساكرها ومدنها ومن اجتراح العجائب والمعجزات ، اقتيد الى الصليب واسمه مكتوب على لوح فوقَ رأسه : « يسوع الناصري ملك اليهود » .

سمع اليهود تعاليمه فقالوا : « لم يتكلم انسان قط مثله ! »

رأوا معجزاته وعجائبه فصرخوا : « قام نبي عظيم منا وافتقد الله شعبه » ومن فرحهم به واعجابهم ارادوا ان يملكوه عليهم فادخلوه اورشليم هاتفين : « مبارك الآتي باسم الرب ! هوشعنا لابن داود ! »

على ان كلمات التهليل هذه تحولت في افواههم سريعاً الى صراخ :

« اصلبه ! اصلبه ! ليس لنا ملك غير قيصر ! » « لا نريد ان يملك هذا علينا »

عاملهم يسوع بالصبر والدعة فقابلوه بالقساوة والاستهزاء والشماتة ؛ بذل في سبيلهم اهتماماً وحباً ، فكالوا له الجلد وضفروا على رأسه اكليلاً من شوك ، حمل عنهم اوجاعهم وشفى مرضاهم فحملوه الصليب ؛ رفع يديه بالصلاة لاجلهم ، فبسطوهما على الصليب وأغرزوا فيهما المسامير . فهو من قمة الرأس الى اخمص القدم جرح واحد !

آلمه الجلد وآلمه اكليل الشوك وآلمته المسامير ؛ تألم في حلقه الملتهب وشفاهه الجافة فصاح : « انا عطشان ! » ؛ تألم في عينيه فامتلأتا دمعاً ودماً ؛ تألم في قلبه ايضاً لان اخصاءه تركوه ؛ وابناء ملته انكروا جميله ؛ خانه احد تلاميذه وباعه بثمن عبد ؛ جحده الاخر وأقسم بانه لم يعرفه ؛ شمت بـه الرؤساء وهزئوا به وأسمعه السوقة من الشتائم اشكالاً ومن الاهانات الواناً فضاق صدره وتنهّد : « إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ » فما كان من الآب الا الصمت ، وصمت الاله ، يا اخوتي ، رهيب ؛ وما كان من يسوع ، امام تلك الالام ، الا الصلاة : « يا ابت اغفر لهم لانهم لا يدرون ماذا يعملون ! »

سبق يسوعَ الى الارض مشترعون ، فسن موسى الشرائع للعبرانيين ؛ وسولون للاثينيين ؛ وليكيرج للسبرتيين ؛ ومينوس للكنديو ؛ ونيا للرومانيين ولكنهم فرضوا الاعذبة على متجاوزي شرائعهم فبنوا لهم السجون ونصبوا المشانق وشحذوا السيوف وأقاموا الخوازيق واخترعوا من آلات العذاب ما يشيب الطفل الرضيع .

اعتبر الناس ، على ممر الاجيال ، ان الاخذ بالثار حق من حقوقهم ؛ بل واجب لازب ، وأبت الكبرياء على الانسان ان يتجاوز عن اهانةٍ لحقت به ، وعُدّ ، ان لم ينتقم لشرفه ، جباناً ؛ فكان الانسان ، قبل المسيح ، يتصرف تصرف ذئب مع اخيه الانسان !

اقاق موسى وراعه ما بين الناس من شراسة فعمد الى اقامة حدٍ لذلك الميل الى الانتقام وحاول ان يخضع نزوات الانسان لاحكام العقل فألزم

المهان ان لا يطالب اكثر مما لحق بـه من مضرة فقال بشريعة : «عينٌ بعين ، وسن بسن !»

اما يسوع ، يسوع الوديع المتواضع ، يسوع المشترع الذي جاء لا ليحل الناموس ، بل ليكمله ، فقد حصر شريعته الآمرة والناهية في المحبة . ولما رأى في الانسان طموحاً الى الانتقام ، لما رأى في الانسان العاقل تسلط الجزء الحيواني على الجزء الروحاني ، وصف لهذا الداء العضال دواء روحياً ، بل دواء إلهياً ، وما كان هذا الدواء ، الا الصفح والمغفرة ! لذلك رأينا انجيله طافحاً بمبادىء المحبة وواجب الصفح عن الاساءة .

« لقد سمعتم انه قيل : العين بالعين والسن بالسن ، اما انا فاقول لكم : لا تقاوموا الشرير ، بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ! »

لقد سمعتم انه قيل: « احبب قريبك وابغض عدوك ، اما انا فاقول لكم: « أحبوا اعداءكم واحسنوا الى من يبغضكم وصلوا لاجل من يعنتكم ويضطهدكم . وبهذا تعرفون انكم تلاميذي ، لانه ، إن احببتم من يحبكم فاي اجر لكم ، أليس العشارون يفعلون ذلك ؟ وان سلمتم على اخوانكم فقط فاي فضل عملتم ، أليس الوثنيون يفعلون ذلك ؟

« اذا قدمت قربانك الى المذبح وذكرت هناك ان لاخيك عليك شيئاً . فدع قربانك هناك ، امام المذبح ، وامض فصالح اولا اخاك وحينئذ عُد فقدم قربانك . . . لاني اريد رحمة لا ذبيحة »

وحين طلب اليه تلاميذه ان يمطر على السامريين ناراً لانهم منعوهم من دخول سوكار مدينتهم ، قال لهم يسوع : « لا تعرفون من اي روح انتم ! » واذ سأله بطرس : « الى كم مرة اغفر في اليوم لاخي ؟ ألى سبع مرات ؟ » قال يسوع : « لا اقول لك الى سبع مرات ، بل الى سبعين مرة سبع مرات! » وبهذا أبى ان يجعل لشريعة المحبة حدوداً . فهي ممتدة ، واسعة ، شاملة على مثال محبة الآب السماوي الذي يطلع شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر غيثه على الابرار والظالمين .

محبة الاعداء والصفح عن الاساءة، تلك هي ذروة المحبة وقمتها السميا! على ان غيوم الشهوات الطبيعية قد تلبّدت حول هذه القمة وتكاثفت فحجبتها عن نظر الفلاسفة الوثنيين، ووارتها ايضاً عن انظار الاباء، في العهد القديم، فلم يتبينوها ولم يجهدوا النفس بالصعود اليها.

أجل هي شريعة تناقض اميال الانسان الطبيعية وتفوق قواه. فاكثر الانفس سخاء، وأغزرها شهامة تشمئز بغليان الثورة اذا ما فكرت في وجوب حبها لمن ابتذلها وتعدى على حقوقها او انكر معروفها ونال من قدرها ولا سيا اذا ما اصرّ على ما أتى رافضاً الندم على فعلته الشنعاء!

عراك هائل ينشب حتى في الانفس التقية وقد سمعنا صداه في المزمور الرابع والخمسين القائل: «اللهم، اصغِ اليّ فاني اتقلّب في شكواي متحيراً من صوت العدوّ، من اغتصاب المنافق لانهم يجلبون علي الاثم وبغضب يضطهدونني. توجع قلبي في داخلي واهوال الموت وقعت عليّ؛ فقلت: من لي بجناح كالحمامة فاطير واستريح!»

حرم داود من يعلمه السلوك مع اعدائه ولم يرَ امامه من وثب من الارض الى السماء منتصراً على الاميال الطبيعية، وتمنى ان يطير عن الارض كالحمامة او ان ينفر هارباً الى البرية لينجو «من الريح العاصف، من الزوبعة. ولما ضاق ذرعاً بخصومه طلب الى الله قال: «دمّر، ايها السيد وفرّق السنتهم. بددهم كما يبدّد الدخان!»

اما نحن، معشر المسيحيين، فاننا اسعد حظاً من النبي الملك الذي «اشتهى ان يرى يوماً من ايام ابن البشر فلم يرَ» لاننا ابصرنا يسوع فعلمنا بكلامه ان حبنا لمن يحبنا ليس مأثرة تذكر، وعلمنا بمثله من على الصليب كيف نغفر لاعدائنا.

اجل! نظرة الى الصليب ونحن، في مهبّ العاصفة، يثيرها علينا خصومنا فمن النظر اليه تعود الينا الشجاعة التي نقصت داود، وفي تدرعنا بالشجاعة نكف عن الطلب الى الله ليدمّر اعداءنا ويفرّق السنتهم ويحدرهم الى جب

الفساد كما، فعل الملك النبي، بل نتعلم ان نردد كلمات يسوع الالهية: «يا ابت اغفر لهم لانهم لا يدرون ماذا يعملون!»

فمن على الصليب علمنا يسوع التضحية باحقاد تكوي منا الضلوع وزين لنا خنق عاطفة الحقد والانتقام في القلوب، ليغفر لنا الاب السماوي ويصفح عنا! «فان غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم ابوكم السماوي زلاتكم؛ وان لم تغفروا للناس، فابوكم ايضاً لا يغفر لكم زلاتكم!» فبهذه التعاليم وبالصلاة التي علمناها: «اغفر لنا ذنوبنا. كما نغفر لمن اساء الينا» وضع يسوع حظنا بين ايدينا ورفع برقع الجهل عن باصرتنا؛ لقد اشترط علينا، نحن الخطأة، المديونين لله، ان لا يغفر لنا الله ان لم نغفر نحن لمن اساء الينا؛ ان لا يترك لنا الله دينه علينا، ما لم نترك نحن لقريبنا ديننا عليه. فان لم نفعل، حل بنا ما حل بمديون الانجيل، ذاك الذي ترك له مليكه ما كان له عليه؛ ولكنه، لدى خروجه، من حضرة سيده، التقى عبداً، له عليه خمسمائة دينار، فألح عليه ان يفيه اياها فسأله العبد مهلة فأبى ومضى فزجه في السجن. عرف الملك فاستدعاه وقال له: «ايها العبد الشرير. كل ما كان لي عليك، تركته لك لانك سألتني؛ افما كان ينبغي لك ان ترحم رفيقك كما رحمتك انا؟» وغضب سيده ودفعه الى المعذبين حتى يوفي جميع ما له عليه. فهكذا ابي السماوي يصنع بكم ان لم تغفروا من قلوبكم كل واحد لاخيه!»

انكم ترون، ايها الاخوة، ان الله لا يغفر لنا، ان لم نغفر نحن لقريبنا؛ وانه يدعونا الى الشفقة على اخوتنا والرأفة بهم ليوطد دعائم السلام بيننا ويملأ قلوبنا بالمحبة، رباط الكمال! ان كره الاعداء، والحقد والضغينة لا يقصيها عن القلوب الا الصلاة! والصلاة لاجل الاعداء تكلف الطبيعة مشقة. لذلك علمتنا امنا الكنيسة ان نقيم حدودها إكراماً ليسوع ربنا وتشبهاً به، فنحب اعداءنا ونصلي لاجلهم لان يسوع احبهم ولا يزال يحبهم وقبل لاجلهم أفدح الالام واشنع الميتات؛ فاعداؤنا، وان خطاة، لا يبرحون اعضاء في جسد يسوع السري. فان أبغضنا هذه الاعضاء وأسأنا اليها وهي مريضة، مثخنة بجراح الاثام، انما نبغض يسوع ونسيء الى اعضاء

جسده الجريحة المتألمة ؛ اما اذا طلبنا اليه تعالى ان يشفق عليهم ولا يعاملهم حسب اعمالهم ، فاننا ندهن جراحه باطيب المراهم ونضمدها بلفائف الحرير الغالية ؛ وبعملنا نرتفع من حضيض البشرية المنحطة ونلامس عرش الالوهيـة ونتشبه بيسوع الانسان – الاله اذ صلى لاجل قاتليه قائلاً : يا أبت اغفر لهم لانهم لا يدرون ماذا يعملون ! »

نعم ! ليس افصح من هذه الصلاة ولا ابلغ منهـا للاعراب عن قوة المحبة السامية التي يجب ان تكنها قلوبنا لله وللقريب .

صلّى يسوع لاجل من أبغضه وعذبه واضطهده وجلده وخانه ، صلى لاجل من جحده وحرّش السوقة عليه ، صلى لاجل من رموا بثمن دمه وقالوا : « انـه ثمن دم لا يحل لنا أخذه ! »

صلى لاجلهم في اشد ساعات الامة واقساها ؛ وفي وسط الالام الفادحة تخنق كل عاطفة !

صلى لاجل اعدائه ، قبل ان يفكّر باعزّ خليقة لديه ، قبل ان يلتفت الى امه ويعزّيها . فكأنّ واجب الصفح عن الاعداء وحده كان يشغل قلبه وعقله في تلك الساعة الرهيبة .

صلى قائلاً : « يا أبت » لعلمه ان هذه الكلمة عذبة عـلى قلب ابيه فلا يمكنه ان يردها بدون ما ثمرة !

في البستان صلى لاجل ذاته معلقاً استجابة طلبه على رضى ابيه : « يا أبتاه، ان شئت ، فلتعبر عني هذه الكاس ! » اما على الصليب فقد ارسل صلاتـه طليقة من كل قيد وشرط . وكأني به قد اراد ان يحمل اباه الازلي عـلى ان يستجيب طلبه ، ايا كانت الاحوال ! فحقق الآب رغبة ابنه فكان لصلاته نتائج لا تحصى وثمار شهية لا تعد !

من يدرك ما خنقت من احقـاد ، وأخمدت من غضب ، وأوقفت من انتقامات ، وأتمت من مصالحات ، ونجّت من نفوس !

سمعها لصّ ، سفاك دماء ، كان يلعن يسوع ويشتمه ، لدقيقة خلت ، فاعتبر

ان الذي تلاها لاجل صالبيه لا يمكن ان يكون انساناً فحسب ، لذلك آمن بالوهية يسوع والتفت اليه وقال : « اذكرني ، يا رب ، اذا جئت في ملكوتك ! »

سمعها الوثني ، قائد المئة ، الواقف قبالة الصليب فجهر : « بالحقيقة ان هذا الرجل هو ابن الله ! » رددها اسطفانوس ، اول الشهداء ، تحت وقع الحجارة يرشقه بها الراجمون ، ففتحت له ، وهو على الارض ، ابواب السماء فشاهد مجد الآب !

أهابت بالدوق « دي جيز » ، رئيس عصبة الكاثوليك في فرنسة الى ان يجاوب من قصد قتله لانه من غير مذهبه : « اذا كانت ديانتك تسمح لك بقتلي ، فديانتي تأمرني بالصفح عنك . غفر الله لك ! »

واذا ما تتبعنا الاجيال نرى ان قوة هذه الصلاة قد رافقتها وهي تجترح عجائب المحبة والصبر والصفح عن الاساآت، حيثما رُكز الصليب وشعشع نور الانجيل !

مَن منا ، في الحياة ، ينعم بالراحة كاملة ؟ ويتفيأ الصفا والمسرة تامة ؟ من يفترش الهناء ليلاً ويسير على الرياش نهاراً ؟ ويشرب الماء زلالاً لا تُنغصه المضادات والمخاصمات والبلايا والنكبات .

ان الدنيا غرور اذا اضحكت ساعة أبكت اياماً ؛ والحرب ناشبة في الداخل ، والبلايا رابضة في الخارج ، اسداً يفترس وذئباً ينهش . اننا ، في وادي الدموع ، اغراب وعابرو سبيل ، وكلاب الغيرة والحسد تنبح علينا وتهاجمنا ! فما تكون حالنا ، نحن ابناء الانجيل ، حملة الصليب ، احباء يسوع واتباعه ؟ وما كان ويكون تأثير صلاة يسوع فينا ؟ الجُبن امام المصاعب وتخور منا القوى ؟ أفتضي السيف بوجه العدو ، كما فعل بطرس ، في بستان الزيتون ؟ ام نتذرع بالصبر والدعة على مثال يسوع ؟ أنرد الضربة لضاربنا مضاعفةً ونكيل الشتيمة لشاتمنا بكيلٍ طافحٍ مهزوز ، ام نحوّل الوجه الايسر لصافعنا على الايمن ، ونردد مع يسوع : « يا أبت ، اغفر لهم لانهم لا يدرون ماذا يعملون ! »

ان في كأس الاهانة وفي اناء المصيبة وفي لفظة المغفرة والصفح خمرة نعمةٍ مشعشعة ونكهة روحية لا يتذوقها الا الحافظون دروس المحبة والعاملون بامثولة المغفرة !

فالى من نعهد بحفظ هذه المثالات العالية والعمل بتلك الدروس الالهية الخالدة؟ من يجمل به ان يتبناها ويبشر بها قولاً وفعلاً؟

اننا نعهد بها الى نفوسكم الجميلة، ايها الاخوة، ونتركها بين ايديكم السخية. فسيروا وراء يسوع الى جنب مريم امه، واصعدوا الى الجلجلة غير وجلين. واذا ما رفعتم على الصليب ظلماً وعدواناً؟ اذا ما نهشت اعراضكم ونيلَ من كرامتكم وانطلقت الالسن بالطعن بكم؛ اذا ما فُوِّقت اليكم اسهم النقد حادة وحملت القصبة الى افواهكم الخل والعلقم فلا تلعنوا ولا تيأسوا ولا تتذمروا ولا تحملوا ضغينة او موجدة ولا تسمحوا لقلوبكم ان يجيش فيها غير عاطفة الشفقة والمحبة والمعذرة؛ ولا لافواهكم ان تنطق بغير كلمة الصفح والمغفرة «يا ابت، اغفر لهم لانهم لا يدرون ماذا يعلمون» فيسوع كذا فعل وشرب الكاس حتى الثمالة ومريم كذا فعلت فاشربوا كأس آلامكم مع يسوع جرعة جرعة. اصفحوا عن الاعداء، صلوا لاجل المبغضين والمعنتين، باركوا على الشاتمين والشامتين فتحملوهم على ان ينظروا اليكم بغير منظار وان يضمروا لكم ما لم يكونوا يضمرون من حبٍّ واحترام واكرام وبهذا، لا بغيره، تعربون عن نفوس شهمة ابية، وعواطف نبيلة سخية وتعلنون للملا انكم شبيهون بالناصري، الانسان - الاله حقاً - عاملون بتعليمه، حاملون صليبه وعاره، يبشرون بالقول والعمل بانجيله وشعاركم في المحنة والنعمة، تجاه الاحباء والاعداء صلاة يسوع على الصليب.

محطة الاذاعة اللبنانية في ٧ نيسان سنة ١٩٦٦

فهرست الكتاب

	صفحة
مقدمة الكتاب	١
مقدمة المولف	د
رقيم نيافة الكردينال	ط
إهداء الكتاب	م
السلسلة الاولى	
الالهة الكذبة	
وصايا الله	١
تأليه المادة	٦
تأليه الشهوة	١٣
تأليه السلطة	٢١
تأليه الحرية	٢٩
الله في الفرد وفي الجماعة	٣٦
اما الله واما الخرافات	٤٥
اما الله واما لا شيء	٥٤
الانسان بين الاله الروح والالهة الكذبة	٦٢

	صفحة
السلسلة الثانية	٦٩
المرأة اليونانية قبل المسيح	٧٠
المرأة الرومانية قبل المسيح	٧٧
المرأة الاسرائيلية «	٨٤
المرأة في الانجيل	٩١
كان في المدنية خاطئة	١٠٠
ها منذ الان تطوبني جميع الاجيال	١٠٧
المرأة في الكنيسة الكاثوليكية	١١٥
المرأة اللبنانية بين المسيحية والوثنية العصرية	١٢٣
السلسلة الثالثة	١٣١
الاخلاق بين الوثنية والمسيحية	١٣٢
الولد بين الوثنية والمسيحية	١٣٨
العبد بين الوثنية والمسيحية	١٤٥

صفحة

العمل والعمال بين الوثنية
والمسيحية ١٥١
السلطة بين الوثنية والمسيحية ١٥٧
الخلاف الدائم بين القيصر
والبابا وبين الوثنية والمسيحية ١٦٤
انكسارات الكنيسة
امام الوثنية ١٧٢
الكنيسة بين الوثنية
القديمة والوثنية الحديثة ١٨١
السلسلة الرابعة ١٩١
لا تناقض بين العلم والايمان ١٩٢
من يجيب ؟ ٢٠١
الطريق الى الحقيقة ٢٠٨
هل في الانسان نفس روحية؟ ٢١٥
التائبون هم شهود الروح ٢٢٢
الانسان – القرد او مذهب
التطور ٢٢٩
الربان ٢٣٧
وجود النفس برهان على خلودها ٢٤٤
الخلود هو المناخ الذي يلائم
طبيعة الانسان ٢٥١
يوم العدل ٢٥٨
التقمص القديم والبهائية العصرية ٢٦٥
قيامة الاجساد بين ما يقوله
العلم ويعلمه الوحي ٢٧٢
هل يكون المسيح كذابا
والله مجنوناً ؟ ٢٨٠
البشرية بين المادية والمسيحية ٢٨٧
« انا هو القيامة والحياة ! » ٢٩٤
موضوع وحيد :
يا ابت اغفر لهم لانهم
لا يدرون ماذا يعملون ! ٣٠١

252:G41bA:c.1
غانم ،باسيل
بين المادة والروح
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01000852

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT